إنعام رعد

حرب وجود لا حرب حدود

مكتبة الإسكندرية
Bibliotheca Alexandrina
01944412

الأعمال الكاملة

حرب وجود لا حرب حدود

إنعام رعد

حرب وجود لا حرب حدود

* **حرب وجود لا حرب حدود**

* **إنعام رعد**

* جميع الحقوق محفوظة

* طبعة ثالثة **1999**

* التوزيع: شركة بيسان للنشر والتوزيع والإعلام

- ص.ب. 5261 - 13 بيروت - لبنان
- هاتف. 351291 / فاكس: 747089

الاهداء

الى الأمينة الأولى
جوليت المير سعادة
والى شهداء الثاني
حرب الوجود ضد
يهود الخارج ويهود الداخل

قبل حرب الايام الستة عام ١٩٦٧ ، لم يكن هناك اساس حقيقي لمفاوضات السلام . فالعرب رفضوا القبول بوجود اسرائيل ، ورفضوا بالتالي التفكير باقامة سلام معها ، وبما ان اساس المفاوضات لم يكن قائما ، كان على سياسة الولايات المتحدة ان تركز على احتواء تناقضات المنطقة اكثر من تركيزها على حلها اما حرب ١٩٦٧ فقد بدأت تغير ذلك الوضع .

الفريد اثرتون

مساعد وزير الخارجية الاميركي

اتلانتا ـ نيسان ١٩٦٨

مدخل

في محاضرة القاها الفرد اثرتون في اتلانتا بولاية جورجيا في اواسط نيسان ١٩٧٨ حدد مساعد وزير الخارجية الاميركي والسفير المتجول فوق العادة للولايات المتحدة الى الشرق الاوسط معالم السياسة الاميركية ازاء الحلول السلمية وبعنوان « السلام او تاريخ الفرص الضائعة في الشرق الاوسط . »(١)

وقال اثرتون ما استشهدنا به من قول يربط كل فصول هذا الكتاب من ان حرب ١٩٦٧ بدأت تغير الوضع وانه قبلها لم ير هناك اساس حقيقي لمفاوضات السلام . فالعرب رفضوا القبول بوجود اسرائيل ورفضوا بالتالي التفكير في اقامة سلام معها . وفي ضوء هذا نفهم ترابط المرحلة من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٨ حيث انعقدت قمة كامب دافيد في ظل ورعاية البيت الابيض الاميركي – يسميه الليبيون بالبيت الاسود – تحقيقا لما وصفه ايضا اثرتون في محاضرته هذه « جهودنا موجهة اولا نحو تأكيد الحصول على تقدم ملموس ومبكر في عملية المفاوضات التي بدأت بين مصر واسرائيل في القدس في تشرين الثاني وهي موجهة ، ثانيا ، نحو التأكيد على الخروج من هذه العملية باساس وحافز لتوسيع المفاوضات بحيث تشمل أطرافا عربية اخرى . »

المرحلة الممتدة من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٨ اذن تقع في حيز واسع من المعاني السياسية ، فهي المرحلة التي تغير فيها الوضع العربي الرسمي من « رفض القبول بوجود اسرائيل » الى التعاطي مع مشاريع التسوية ، وهذا الكتاب يضم متابعة لكل منعطفات هذه المرحلة بدءا بنكبة ١٩٦٧ وصولا الى زيارة السادات الى القدس المحتلة حتى قمة كامب دافيد . قسم كبير مما ورد فيه هو دراسات ومحاضرات ومقالات سبق نشره في حينه بحيث تشكل متابعة للحدث وتحليلا له ، لمقدماته ونتائجه بأفق مستقبلي . ولقد اختير من هذه ما له طابع الدراسة التحليلية وجمعت في فصول . وقيمة هذه الدراسات انها تشكل وحدة موضوع وان بعضها استشرف احداثا لاحقة .

الا ان القسم الوافي في الكتاب الذي يعالج مبادرة السادات الاستسلامية ونتائجها يظهر لاول مرة ولم يسبق نشره ويشكل عرضا شاملا لا للمبادرة الساداتية الاستسلامية بحد ذاتها بل لكل الوضع العربي والدولي المصاحب .

والحقيقة ان كتاب « حرب وجود لا حرب حدود » يحتاج الى وقفة تدقيق في عدة معالم يؤكدها فهو ، اولا ، كما اشرنا ، كتاب يعالج مرحلة لها عنوان ممتدة منذ ١٩٦٧ ، مرحلة التعاطي مع مشاريع التسوية بعد نكبة ١٩٦٧ وفي هذا المجال يقول الفرد اثرتون في محاضرته

---

(١) « المستقبل » ٢٢ نيسان ١٩٧٨

المشار اليها مكملا ماذا يعني بفرص السلام التي تمخضت عنها حرب ١٩٦٧ .

« ففي ستة ايام لم تقتصر اسرائيل على اعطاء شاهد راسخ على انها وجدت لتبقى بل خرجت ايضا باحتلال اراض عربية » ويوضح ان هذا ادى الى جهود ديبلوماسية قامت بها الولايات المتحدة « بقصد تحويل الوضع الجديد الى اساس طال انتظاره لمفاوضات سلام صادقة ، وكانت نتيجة تلك الجهود القرار رقم ٢٤٢ ، الصادر عن مجلس الامن ... وهكذا للمرة الاولى في عشرين سنة ، وضع اطار لحل الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، فهذا القرار كان ، وما يزال ، اساس كل الجهود الرامية الى تحقيق السلام ابتداء من السنوات العشر الماضية ، ويتألف لب القرار من معادلة بسيطة هي التالية : مقابل انسحاب اسرائيل من الاراضي العربية التي احتلتها في حرب ١٩٦٧ ، على العرب ان يعترفوا باسرائيل ضمن اطار من السلام والامن يتفق عليه الطرفان . »

ويشير اثرتون الى الغموض في القرار ٢٤٢ كما تفسره اميركا فيقول « بعد شرح ما يقوله القرار **٢٤٢** أبين ما لا يقوله : انه لا يعين الحدود الامنة والمعترف بها ، لا يدعو الى الانسحاب من « جميع » الاراضي المحتلة او من « الاراضي » (الـ) المحتلة ، ولا يقتضي من اسرائيل اعادة كل شبر من الاراضي المحتلة . لكن ايضا لا يحول دون انسحاب اسرائيل الى خطوط ١٩٦٧ . »

وهكذا توضع المصيدة . فاولا الصفقة هي الارض المحتلة في حزيران ١٩٦٧ مقابل امن اسرائيل وانهاء حالة الحرب معها . ثم ثانيا تمتد الصفقة الى ابعد ، القرار ٢٤٢ غامض ولا يفرض انسحاب اسرائيل من كل الاراضي المحتلة ١٩٦٧ اذن ... يتابع اثرتون « في التحليل الاخير ، لا يمكن حل هذه المسألة الا عن طريق المفاوضات والاتفاقات بين الاطراف المعنية . » وهنا في دهليز المفاوضات وسراب الاتفاقات يبدأ تفسير اخر لمعنى السلام فيقول اثرتون معبرا عن وجهة النظر الاميركية الرسمية « اولا ، تعريف السلام الحقيقي . السلام لا يعني فقط انهاء حالة العداء او الاشتراك الفعلي في الحرب ، بل يعني ايضا حدوداً مفتوحة وتجارة وسياسة طبيعيتين ، وعلاقات ديبلوماسية مع ما تتبع من اتصالات رسمية وغير رسمية ، وملاحة حرة عبر جميع الطرق المائية ، وانهاء كل قطيعة . »

وهكذا تطبق المصيدة فمن صفقة الارض مقابل الاعتراف وانهاء الحرب الى السلام المفتوح التعاقدي ، اي ان المطروح يتدرج من القبول بالتعايش مع الاغتصاب والتخلي عن مطلب التحرير الى القبول بالانفتاح على الاغتصاب لتحقيق مزيد من التوسع سلماً ، الاقتصادي والسياسي الاسر لحياتنا والملاشي لها كبديل وحيد عن التوسع حرباً لنفس الغاية . هذه هي الكماشة بفكيها .

وهنا نصل الى المعلم الثاني من معالم معالجة هذا الكتاب لماذا نقول بانها حرب وجود . ووجود من تعني ؟ الدعاية الصهيونية تصور للعالم ان اليهود في خطر وتربط بين مذابح هتلر في اوروبا وبين تصدينا القومي لغزوتهم الاستيطانية الاستعمارية لارضنا ، بين الاضطهاد العنصري النازي وبين حربنا التحريرية ربطاً مشوهاً للحقائق ماسخاً لها ، اليهود كجماعة دينية عاشوا في المجتمعات العربية قروناً دون اضطهاد او تمييز ولكن الصراع بدأ مع مجيء الهجرة الاستيطانية الاستعمارية الى فلسطين لاغتصاب ارضنا وطرد شعبنا . وسعادة يدعو في مبادئ الحزب السوري القومي الاجتماعي الى التصدي « للهجرة اليهودية » الى ارضنا باهدافها الاستيطانية الاستعمارية واليهود في العالم يصبحون مصدر خطر علينا ليس

بعبادتهم يهوه بل بدعمهم لهذه الهجرة الاستيطانية الاستعمارية لارضنا . فحربنا هي دفاع عن وجودنا المغتصب او المهدد بالاغتصاب . ووجودنا نحن هو في خطر الانمحاق الكلي . والعدوان بدأ على فلسطين جزءاً جزءاً ، وامن فلسطين كان الذي هدر ، وحياة شعبنا فيها التي تبددت واندثرت وهجرت او وقع ما تبقى منها تحت الاحتلال والاغتصاب ثم ان الخطر الصهيوني لم يقتصر على فلسطين بل امتد في البيئة القومية كلها التهاما وافناء واغتصابا وهو ان يطرح السلم يقرنه باكمال عملية استعبادنا .

واخطر ما في الامر ، وهو ما تنبه له انطون سعادة وحده في العالم العربي ، وكتب محذراً منه منذ الثلاثينات والاربعينات ، هذا المخطط الصهيوني الذي لا يكتفي باغتصاب الارض بل يرمي الى اغتصاب الانسان بصهينته ، اي بسلخه عن مجتمعه القومي وشده عبر التناقضات الطائفية — العنصرية الوهمية والخرافية الى الكيان الصهيوني ليقيم مجتمع السبايا الطائفية الخاضعة للسلم الاسرائيلي في المنطقة .

فبعد تصديع كياننا السياسي وتبديد حياتنا على ارضنا بالتشريد ينقض المخطط اليهودي الاستيطاني الاستعماري الصهيوني على انساننا ليعيده الى عصر القبائل الطائفية المتناحرة فيعمل على تفكيك مجتمعنا وملاشاة وجوده من الاساس . فلا يكتفي بتشريده عن ارضه اذ يمكن ان يعود اليها بل يعمل على تشريده عن مجتمعه وهويته القومية لانه عندها يضمن عدم العودة الى الارض .

ولقد تنبه سعادة الى الخطر الصهيوني بكل استهدافاته . فدعا في التعاليم السورية القوميه الاجتماعية الى التصدي للهجرة اليهودية(١) وحذر من اهداف الاستيطان الصهيوني قبل ان يتحول الى دولة وكيان ، منذ مطلع الثلاثينات .

والصهيونية هي هذا التحويل لليهود في العصر الحديث انطلاقا من تراثهم التلمودي العنصري المتحجر والحاقد على الشعوب تاريخيا ، والذي يشكل الاساس الايديولوجي للصهيونية الى حركة متحالفة مع عصر الامبريالية في الصهيونية العالمية ، متوجهة الى ارضنا بالهجرة الاستيطانية الاستعمارية . فهي شأن مركب ايديولوجي — اقتصادي — حربي . فالصهيونية دون عصر الامبريالية لم تكن لتحقق اهدافها بدءاً بوعد بلفور الى قمة كامب دافيد . ولكن الصهيونية دون التراث العنصري الديني المغلق لم تكن لتجد ايديولوجيتها العنصرية التي اخترقت حتى حدود المجتمعات الاشتراكية بتهجيرها اليهود السوفيات ويهود اوروبا الشرقية .

وتنبه سعادة الى ان خطر الاستيطان الصهيوني لا يقتصر على فلسطين . ومنذ العشرينات وهو يدعو الى المواجهة القومية الشاملة وعدم ترك الفلسطينيين وحدهم في حرب الوجود ويدين قيام الجنسيات المختلفة في الامة الواحدة وينعى حدود التجزئة التي تعرقل الجهد القومي الموحد ، حتى نستطيع التأكيد ان من اولى واهم حوافز تأسيس حزبه القومي الوحدوي ، كما يتبين من كتاباته الاولى في مرحلة التأسيس ، هو تنظيم التصدي للخطر الماحق لوجودنا « بالخطة النظامية القومية المعاكسة » على مدى الهلال الخصيب — سورية الطبيعية .

وعلى هذا كان تأكيد سعادة المستمر على مقولة وحدة محيط فلسطين الطبيعي القومي اساسا للتصدي للخطر الصهيوني والانتصار عليه . والكتاب يحمل في كل فصوله دعوة الحزب

---

(١) ١٩٣٢

الى وحدة الجبهة الشمالية الشرقية ـ سورية الطبيعية . فهو يبدأ منذ الدراسة الاولى في اعقاب هزيمة حزيران ١٩٦٧ بطرح هذا التصور للرد على الهزيمة وينتهي في الفصول الاخيرة الى مناقشات واسعة حول ضرورتها المصيرية وعدم تناقضها مع الطموحات الوحدوية الاوسع ، لا سيما بعد الخطر الماحق الناتج عن اتفاقات كامب دافيد والكتاب يهلل في اخر فصوله للتقارب بين بغداد ودمشق في اعقاب البادرة العراقية في تشرين اول ١٩٧٨ معتبراً انها تحقق املا رفعه الحزب في كل الظروف . ويخوض الكتاب في فصوله الاخيرة تحليلات ومقارنات ومناقشات بين الفكر القومي الاجتماعي والفكر القومي العربي الوحدويين ووجوب تلاقيهما على هذه الحلقة المركزية في العمل الوحدوي انطلاقا من موجبات التصدي للخطر الصهيوني : وحدة الهلال الخصيب .

وكما دعا سعادة الى المواجهة القومية على اوسع نطاق ، نطاق البيئة الطبيعية كلها مدعمة بالجبهة العربية ، فانه بالمقابل وجد ان قيام الكيان الصهيوني ولو في اضيق رقعة من الارض يعني بالنسبة لطبيعة هذا الكيان الاستيطانية الاستعمارية ، خطر التوسع والقضم لباقي الاجزاء فضلا عن خطره في الاغتصاب الاصلي . ففي مذكرته الى عصبة الامم في ١٤ تموز ١٩٣٧ رداً على تقرير بعثة اللواء بيل التي اقترحت التقسيم يقول سعادة في مسألة قيام « الوطن اليهودي » ما يلي : « ويصبح في وسع رعايا هذه الدولة ان يدخلوا من اليهود العدد الذي يعود تقدير استيعابه اليهم وحدهم » كما يحذر من ان « تعيين حدود الوطن القومي اليهودي يتطلب الاعتراف بهذا الوطن وتنازل السوريين عن حق سيادتهم على وطنهم . وهو خسارة مادية لا يمكن الامة السورية ان تسلم بها لأنها مسألة حياة وموت لها ... ان التعويض لسوريين الجنوب عن خسارة اراضيهم باعانة مالية من الخزينة البريطانية ومن « الدولة اليهودية » حين تبادل السكان هو استملاك اكراهي لهذه الاراضي » .

وهذه المسائل كلها التي اثارها سعادة في ١٩٣٧ مثارة اليوم في كل ابحاث التسوية ومشاريع السلام لجهة التعويض على الفلسطينيين ، لجهة الاستملاك الاكراهي لاراضيهم الذي تم قسم كبير منه منذ ١٩٤٨ ويتفاقم في الضفة الغربية اليوم . ويرى سعادة بوضوح منذ ١٩٣٧« ان التقسيم المقترح يكسب الوطن اليهودي صيغة « دولة » ستكون نواة الدولة اليهودية « التي ستستعبد الشعب السوري وتفرض الجزية على الامم الغربية » حسب نصوص التلمود »(١) .

الا ان اهم ما تنبه له سعادة وكان وحيداً في هذا الاستشراف مسألة تهويد الشعب بعد تهويد الارض ، مسألة الانعزالية المتصهينة التي كتب العديد في مقالاته وابرزها « الانعزالية افلست » « والدول السورية تستفيق » في ١٩٤٨ محذراً من « ان لبنان هو اقرب الدول السورية الى مطامع اليهود ، والدعاوة الصهيونية تعمل كل ما في وسعها لايجاد شقة واسعة بينه وبين الدول السورية الاخرى » وايضا « غريبة هي ، في هذا الصدد اعمال العقلية الانعزالية في لبنان المؤسسة في تفكير الدولة الدينية . فهناك ترحيب هائل بغفلته بقيام الدولة اليهودية الى جانب الدولة المسيحية التي لا تزال تراود افكار الفئة الرجعية الانعزالية وتتردد في احلامها . انه ترحيب الباحث عن صفته بكل قوته »(٢)

---

(١) مراحل المسألة الفلسطينية ـ مذكرة سعادة الى العصبة الاممية ١٩٣٧ ـ ص ٧٤ ـ ٨٠

(٢) مراحل المأساة الفلسطينية ـ ص ١١٢

وفي هذا المفصل يؤكد سعادة ان الصراع دفاعا عن الوجود هو حتما ودون تردد بحاجة الى شمولية المواجهة المؤسسة على شمولية النظرة والتحليل ، فمسألة الاقليات الدينية وربحها للقضية القومية بدل خسارتها في عصر الانحطاط وردود الفعل المذهبية والاتاحة للعدو اللعب على التناقضات الداخلية هي في صلب عملية المواجهة المصيرية .

وهنا يطرح المعلم الثالث من دراسات هذا الكتاب : هل صراعنا ضد العدو ، صراع الذود عن وجودنا ، هو صراع حضاري ام صراع الكفاح المسلح ؟

في اعقاب نكبة حزيران ظهرت دراسات كثيرة باقلام عديدة انصبت على عزو الهزيمة الى التخلف الحضاري ودعت الى الوثوب حضاريا ، طبعا اكثر هذه الدراسات عالج مظاهر الحضارة اكثر من جوهرها بالتحديد .

والحقيقة ان كفاحنا الحضاري ، ووثوبنا الحضاري هو شأن اساسي في الصراع ذودا عن وجودنا ولكن الحضارة هنا ليست التكنولوجيا قطعا ، مع اهمية الوسائل التكنولوجية والذهنية التكنولوجية في الصراع .

ان الصراع الحضاري هو اشمل . وهذا ما حاولنا ابرازه في فصول الكتاب . فمما لا ريب فيه ان التصدي لغزوة استيطانية استعمارية لها اساليب العصر الحديث بمؤسسات وذهنية عصر القبيلة وبفقدان الرابطة الاجتماعية وعصبتها القومية الموحدة وعلى اساس التناقضات المذهبية الطائفية او على اساس فكرة الجهاد المقدس باستثناء شطر من الشعب وكأن القضية ليست قضية الشعب والارض وعلاقتهما الحميمة التفاعلية في القضية القومية ، او مواجهة المصير القومي بفقدان المؤسسات وعقلية التنظيم والخطة النظامية الدقيقة ، او بعقلية اقليمية كيانية فاقدة الاحساس بوحدة المصير القومي العام في كل ارض البيئة الطبيعية باغفال الرابطة العربية الجبهوية ، ان كل هذا يشكل تخلفا حضاريا في المواجهة .

ومن جهة اخرى فان التخلف التكنولوجي مع توفر النهوض الحضاري بالمفاهيم والجوهر الانساني لا يشكل الخطر الذي سيشكله توفر الوسائل التكنولوجية مع التخلف الحضاري بالمفاهيم والجوهر الانساني . فلقد انتصرت ثورات العصر في مجتمعات متخلفة تكنولوجيا على اكثر الجيوش الاستعمارية تقدما تكنولوجيا لأن حرب التحرير هي خطوة انسانية متقدمة جدا على عصر الاستعمار . كما ان الصراع ضد الاستيطان الاستعماري الصهيوني في سبيل التحرير هو خطوة متقدمة ، الا ان الاستيطان الصهيوني يطرح خلفه مع عصر الانحطاط لذلك مفروض ان تقترن حرب التحرير ضده بعصر النهضة الشاملة .

يبقى انه مع تأكيدنا على اهمية الجانب الحضاري في الصراع خاصة لجهة مفاهيم وحدة المجتمع والتعبئة القومية ، بحيث ان اسقاط عصر التجزئة الاجتماعية والقومية ، هو الشرط الاساسي لنجاح الصراع ذودا عن وجودنا القومي ، الا ان تجسيد المفاهيم على ساح الصراع يكون بالكفاح المسلح .

وكل اسقاط لمقولة الكفاح المسلح في معادلة حرب التحرير هو اسقاط لكل المعادلة .

فصحيح ان المقومات الحضارية اساسية ولكن الكفاح المسلح هو الوسيلة الوحيدة لتجسيد الصراع مع انه ليس المظهر الاوحد من مظاهر صراع الوجود ومع ان بقاءه دون المقومات الحضارية يجعله يتيما ويفقد الكثير من مضامين حرب التحرير، الا انه الاداة الواجبة

للذود عن المصير القومي . لأن « القوة هي القول الفصل في احقاق الحق القومي او انكاره » ، بدون الحق القومي القوة غاشمة . ولكن بالحق القومي القوة واجبة لاحقاقه ولمنع انكاره . هذه هي معادلة حرب الوجود .

والقوة هنا مقترنة بالحق والحرية فهي ، منتعشة بالقيم الانسانية لا مطفأة بالظلم الانساني . يقول سعادة تحديداً في هذا الموضوع : « لا سبب عندنا لنخاف العراك من اجل تثبيت حقنا في الحياة ، نحن لا نبحث اليوم في انشاء امبراطوريات ، لكننا نبحث في حق صحيح ، في حق الحياة في الوطن الذي هو ملك الامة . وكما قلت سابقاً ان اعتمادنا على مجرد ايضاح الحق ليس كافيا ولم يكن كافيا ، قد يذهب وطننا من ايدينا قطعة بعد قطعة ونحن لا نفعل غير كتابات وخطب وفوضى عظيمة في الداخل . جاسوسية خبيثة تعبث بعقول الناس . خيانات بيع الوطن، تجزؤ وتفسخ اجتماعي وسياسي . وتحدث الحرب بهذه الحالة . »

(سعادة ــ المحاضرات
العشر ص ١٦٦) .

الجزء الأول: من هزيمة حزيران ١٩٦٧ الى تلاشي جنيف في ١٩٧٧

هذا الجزء يشمل مرافقة المؤلف على مدى عشر سنوات لمختلف جوانب الصراع المصيري مع العدو وتطورات المسألة الفلسطينية من هزيمة حزيران ١٩٦٧ الى تلاشي جنيف في ورقة العمل الاميركية ـ الاسرائيلية في ١٩٧٧ .

وهو يشمل أبوابا ستة :

الباب الأول:عبر ودروس حزيران ١٩٦٧ وهو سلسلة أبحاث كتبت في أعقاب هزيمة حزيران ١٩٦٧ وتقع في ثلاثة فصول تتناول نقدا لمختلف وجوه حياتنا ومفاهيمنا واستراتجية العمل في ضوء النكبة ونتائجها وتطرح البديل .

الباب الثاني : المقاومة ومؤامرات التسوية : ويقع هذا الباب في فصلين يعرضان مما واجهت المقاومة الفلسطينية والمسألة الفلسطينية اجمالا من ترهيب وترغيب في نطاق فرض التسوية التصفوية خلال السبعينات من ١٩٧٠ الى ١٩٧٧ ,

الباب الثالث:الابعاد والمضامين وهو يشتمل على مجموعة دراسات تناقش أطروحات استسلامية وقد ظهرت بين ١٩٧٤ و ١٩٧٧ . وهذا الباب هو الاعمق بين الأبواب الثلاثة من حيث طرح المضامين الفكرية ويتسم بطابع الدراسة المدققة في جذور المسائل . وهو يبدأ بفصل يناقش شارل مالك في أطروحاته عن السلم الاميركي ـ الاسرائيلي وينتهي بدراسة حول « جنيف ومواقف الاطراف والطريق المسدود » ١٩٧٧ .

ويعتبر **هذا الجزء الأول** من الكتاب بأبوابه الثلاثة محاكمة لمسيرة التسوية ونتائج الهزيمة ١٩٦٧ حتى ١٩٧٧ حين تلاشى سراب جنيف .

بينما الجزء الثاني يعالج مرحلة ما بعد زيارة السادات الى القدس ونهج كامب دافيد .

وبينما يشكل الجزء الأول مجموعة دراسات نشرت على مدى عشر سنوات ١٩٦٧ ـ ١٩٧٧ فان الجزء الثاني ينشر لأول مرة وقد كتب خصيصا لهذا الكتاب .

الباب الأول

عبر ودروس هزيمة حزيران ١٩٦٧

مدخل الباب الأول

الفصل الأول : هزيمة حزيران وقواعد العمل العربي (١٩٦٧)

الفصل الثاني : فلسطين أبعد من الحل السياسي والحل العسكري (١٩٦٨)

الفصل الثالث :في ذكرى النكبتين ١٥ أيار و ٥ حزيران (١٩٦٨)

مدخل الباب الأول

يشمل هذا الباب اولا ثلاث دراسات ظهرت تباعا في تموز ١٩٦٧ وفي نيسان ١٩٦٨ وفي حزيران ١٩٦٨ ، والمؤلف بعد في السجن وبتوقيع قيس الجردي . وقد شكلت هذه الدراسات محاولة في تحليل وتقييم أبعاد نكبة حزيران وتقصي جذورها في التفكير السياسي والاجتماعي والعسكري .

وتتميز هذه المحاولة التي تشكل الدراسات الثلاث حلقات متكاملة فيها بالنقاط التالية :

(أ) نقد حقوقي لشعار ازالة آثار العدوان اذا بقي في المطلق ولم يرتبط باستراتيجية التحرير كنضال مرحلي مشدود الى هذه الاستراتيجية . وينبه هذا النقد في ضوء صيغ التسويات الدولية المطروحة ــ وقبل صدور القرار ٢٤٢ ــ الى المأزق الذي يمكن أن ينشأ عن هذا الالتباس ، وهو المأزق الذي نشأ فعلا على مدى السنوات العشر التالية وعرف بالتناقض بين البرنامج المرحلي لاستعادة الاراضي المحتلة في ١٩٦٧ « الحقوق الفلسطينية المشروعة » وبين الهدف الاستراتيجي والحقوق القومية الثابتة .

ان هذه الدراسات نبهت مبكرة الى هذا المأزق وضرورة تجاوزه .

(ب) نقد للفكر الايديولوجي الذي قاد النضال القومي والوحدوي في مرحلة ما قبل النكسة والذي لم يدرس المجتمع القومي وشروط نشوئه وتوحيده من زاوية نظر علمية وطبع بالرومانسية والارتجال ، ودعوة الى اعادة نظر في كل التراث الفكري والحضاري والعقائدي في ضوء تحديات النكبة باتجاه نهج اكثر علمية واكثر جذرية مع رفض كامل للانحناء أمام الهزيمة ودعوة الى التنوير الشامل للمجتمع بدءاً من بناء الانسان الجديد قاعدة بناء النظام الجديد ، تأكيدا على اهمية ارساء الثورة على انسان جديد وانه دون العقدنة الثورية لشعبنا لا يمكن ان تخاض حرب تحرير ناجحة ومنتصرة ، وباكرا منذ ١٩٦٨ يقول المؤلف:« ان العمل الفدائي البطولي اذا لم يدعمه خزان بشري متدفق من شعبنا واذا لم يستند الى منطلقات من أرضنا القومية كلها واذا لم ينتظم في حركة ثورية واحدة فانه قد يصل الى طريق مسدود » . وكانت أحداث الاردن في ١٩٧٠ و١٩٧١ اكبر تأييد لهذا التخوف وفي لبنان ١٩٧٥ لولا الحركة الوطنية وفي طليعتها الحزب السوري القومي الاجتماعي ، والقتال المرير الذي قاتلت الى جانب المقاومة تحقيقا لهذا التحرك البشري الذي يشكل سدا شعبيا لحماية المقاومة لكانت عملية التصفية سائرة سيرها الخطر ، واستمرت الدعوة الى وحدة المقاومة حتى وثيقة طرابلس في كانون الأول ١٩٧٧ .

(ح) تسفيه شعارات الرعب امام تفوق العدو واسطورة العدو الذي لا يغلب وتأكيد الايمان المطلق بالشعب وقدرته معبأ وفق قواعد تورية سليمة على انتزاع النصر ، وبالتالي الدعوة الى اعادة نظر في كل نهج يؤدي الى عزل الشعب عن معركة المصير القومي لان لا حرب تحرير اذا لم يكن الحكم الثوري مستندا الى ارادة شعبية ثورية معقدنة حرة .

أي النقد البنوي لوسائل وهياكل الحكم في مرحلة التحدي المصيري .

(د) نقد للفكر السياسي الذي حال دون تحقيق وحدة الهلال الخصيب وادراك اهمية تحقيق الوحدات الطبيعية وبخاصة وحدة الهلال الخصيب كمنطلق لحشد الطاقات القومية في حرب التحرير ضد العدو الاسرائيلي . وبالتحديد نقد عدم تحقيق وحدة بغداد ودمشق في ١٩٦٣ بحجة مراعاة الحساسيات العربية حتى لا تعتبر هذه الوحدة المصيرية محورا ضد مصر بينما كان مفروضا ان تكون محورا قوميا قتاليا ضد العدو الاسرائيلي ومتحالفا مع مصر .

(هـ) نقد الفكر العسكري الذي تجلى قبل النكسة بعقد اتفاقات ثنائية بين كل من دول الهلال الخصيب على حدة ومصر دون قيام الجبهة الشرقية مما ادى الى خلل عسكري استراتيجي اساسي في حرب حزيران فحمل مصر كل الاعباء الفعلية بدل تجميع قوة الهلال الخصيب التي تشكل مقتلا للعدو .

وكما يقول فؤاد مطر في « النهار » لاحقا ان فكرة الجبهة الشرقية طرحت رسميا على الصعيد العربي من مصر بعد نكبة حزيران وتحديدا في ١٩٦٨ .

(و) طرح تصور كامل وبرنامج عملي لتحقيق الجبهة العربية عسكريا واقتصاديا على قاعدة محورين : محور الجبهة الشمالية (الشرقية) (كما سميت لاحقا) وعمقها العراق والجبهة الجنوبية (الغربية) وعمقها السودان وليبيا والجزائر والدعوة الى تشكيل جيش تحرير اتحادي عربي فضلا عن توحيد جيوش الهلال الخصيب على الجبهة الشمالية وجيوش مصر وعمقها الاستراتيجي في وادي النيل وحتى الجزائر على الجبهة الجنوبية : (في مقال صادر في ١٦ تموز ١٩٧٦) .

وهذا تماما ما دعا اليه التفكير العربي الثوري السليم في مؤتمر الشعب العربي المنعقد في طرابلس في كانون اول ١٩٧٧ اذ نصت توصية المؤتمر على : « اقامة الجبهة الشمالية في القطر السوري والعراقي والثورة الفلسطينية ، وأية قوة عربية مقاتلة ، والجبهة الغربية من الجماهيرية والجزائر وقدرات شعب مصر أو أي قدرات اخرى عربية يمكن توظيفها بخلق جيش تحرير قومي عربي – يخوض معركة التحرير في اطار استراتيجية قومية لتحرير فلسطين » .

على الصعيد السياسي العالمي

(ز) التنبه الى :

(١) اهمية المقارنة بين الاستيطان الاستعماري في جنوب افريقيا واسرائيل بكسب شعوب افريقيا في النضال والتعاضد مع جوهر قضيتنا في التحرير . وعدم الاكتفاء بالدعوة الى تطبيق قرارات الامم المتحدة بصورة غامضة لا تتناول جوهر الصراع والذي كان سائدا بالنسبة للسياسة العربية الافريقية قبل ١٩٦٧ . (١٦ تموز ١٩٦٧) .

(٢) اهمية الحوار مع الفاتيكان ودور كنيسة انطاكية .

(٣) حوار العالم الاسلامي (مؤتمر لاهور لاحقا)

(حـ) التنبيه الى ضرورة التفريق بين المسألة اليهودية والمسألة الفلسطينية (مقال ٢٢

تموز ١٩٦٧) و (دراسة أيار – حزيران ١٩٦٨) وهذا يتبلور لاحقا في المذكرة الى فالدهايم (شباط ١٩٧٧) ، وأهمية التفريق بين المسألتين اليهودية والفلسطينية هي في انها من جهة تؤكد موقفا غير عدائي غير نازي ، غير شوفيني من اليهود كبشر شرط ان يتخلوا عن مشروعهم العدائي لاستيطان واغتصاب فلسطين . وتطرح على البشرية موضوعيا مشكلة جماعة تقوقعت وانغلقت تاريخيا ومفروض ايجاد حل انساني لها دون اضطهاد ولا ظلم عليها ، ولا قبول ظلم منها على شعب آخر كما حصل في المسألة الفلسطينية التي هي مسألة حق قومي ثابت لشعبنا في كامل ترابه .

وبدل التفريق النظري بين اليهودية والصهيونية الذي شغل العقل العربي والذي لم يعد قائما في اكثر الحالات باستقطاب الصهيونية لاكثر يهود العالم تفرق هذه الدراسة بين المسألة اليهودية والمسألة الفلسطينية بمعنى دعوة اليهود الى التخلي عن أحلامهم ومشاريعهم لاغتصاب فلسطين وفك الارتباط بمشروع الهجرة الاستيطانية الاستعمارية الى بلادنا معيارا عمليا ملموسا على طلاقهم الصهيونية وبالتالي مدخلا للتفريق بين اليهودية والصهيونية الذي لم تؤكد التجارب المتتالية صوابيته طالما الصهيونية تستقطب يهود العالم مستندة الى الارث التاريخي العدائي .

(ط) تأكيد دعم وتأييد ظاهرة الكفاح المسلح – العمل الفدائي – كأنبل ظاهرة بعد النكبة – ولكن اثارة موضوعتين .

(أ) اهمية الفكر الثوري والاستراتيجية الثورية التي توجه الكفاح المسلح (الوعي السلاح الامضى في يد الثوار أيار– حزيران ١٩٦٨) .

(ب) اهمية تثوير المجتمع القومي كله حتى لا ينضب خزان الثورة والكفاح ويجد الفدائيون انفسهم محاصرين وامام طريق مسدود (دراسة حزيران ١٩٦٨) . وهو ما تعرض له العمل الفدائي لاحقا في ١٩٧٠ و ١٩٧١ و ١٩٧٥ و ١٩٧٧ .

وهنا تطرح جديا في هذه الدراسات فكرة مجتمع الكفاح المسلح ومجتمع حرب التحرير التي دعا اليها سعادة خاصة في كتاباته في ١٩٤٨و ١٩٤٩ في (« الطلاب نقطة ارتكاز في العمل القومي الاجتماعي ») والتي رسم فيها ملامح ومعالم المجتمع المثور لحرب التحرير

(ج) مجتمع الكفاح القومي هو كل محيط فلسطين الطبيعي ، والثورة بدأت بالفلسطينيين ولكن مفروض امتدادها لتشمل كل السوريين مدعمة بجبهة عربية واسعة معادية للامبريالية والصيهونية وللرجعية .

الفصل الاول

هزيمة حزيران وقواعد العمل العربي (١)

١

قواعد العمل العربي

الشعوب العظيمة هي التي ترتفع فوق الكارثة لتستشرف غدها وتبنيه بناء مسؤولا .

لقد دعا الرئيس عبد الناصر الى « ان نتحدث بقلوب مفتوحة وان نتصارح بالحقائق مؤمنين انه في هذه الطريق وحدها نستطيع دائما ان نجد اتجاهنا السليم مهما كانت الظروف عصيبة ومهما كان الضوء خافتا » . بهذا الكلام الشجاع المسؤول واجه الرئيس عبدالناصر العالم العربي معلنا « اننا واجهنا نكسة خطيرة خلال الايام الاخيرة » . وداعيا الى « كثير من الصبر والحكمة والشجاعة الادبية ومقدرة العمل المتضامنة » لتجاوز النكسة . ومن ضمن هذه الروح المسؤولة نعيد استعراض ارض المعركة لا من زاوية فنية اختصاصية ضيقة بل من جوانب اوسع واعمق واشمل تتناول قواعد العمل العربي الاساسية .

اولا : الجبهة العربية انطلاقا من الضرورات الاستراتيجية للمعركة .

١ ـ الجبهة العربية ولدت في المعركة فلتبن على أسس ثابتة

حققت المعركة الاخيرة في فلسطين املا من اعز امال العرب في جميع اقطارهم . **فرغم جراح المعركة تحقق التضامن العربي في جبهة عربية متحدة ملتحمة مصممة . تلك غاية من غاياتنا الاساسية وأمالنا ، وكان المخلصون جميعا يصبون الى قيامه . فليس اروع من هذا التضامن الذي يحرك الجيوش من اقاصي المشرق باتجاه الجبهة ولا أروع من هذا التضامن الذي يقطع البترول عن الدول المعتدية خلال ساعات من العدوان . تلك هي ملامح الجبهة العربية التي ارتفعت في سبيلها الدعوة قبل اكثر من ثلاثين سنة لتكون « سدأ منيعا في وجه المطامع الاجنبية » .** فالعالم العربي قوة كبرى في الوزن الدولي اذا احسن تنسيقها . وأننا ندعو الى هذا التنسيق الذي يحقق مبدأ رفعناه منذ ١٩٣٢ بقيام الجبهة العربية التي يكون لها وزن في القضايا الدولية .

لقد وقفت الجبهة العربية هذه المرة وقفة واحدة مخلصة فلم تشتتها الارادات الاجنبية

---

(١)ظهر هذا المقال على ثلاث حلقات في ملحق « النهار » بدءا من ١٦ تمور ١٩٦٧

كما حصل عام ١٩٤٨ ولا استفردت مصر وحدها كما حدث عام ١٩٥٦ بل ان انهار الدماء التي سالت غزيرة دفاقة في القدس والضفة الغربية والحرب التي استعرت على طول الجبهة السورية كانت شهادة حية على روعة التضامن وعظمة البطولة في الجبهة الشمالية .

واذا كانت الجبهة الشمالية قد حملت قسطا كبيرا من ضريبة الدم والخراب فقد سارع العرب في جميع اقطارهم حتى النائية عن المعركة الى تعبئة القوى وبذل المال ووقوف المواقف المؤيدة لجهود المعركة . **فتحقق اجماع عربي رائع لكنه تحقق بصورة متاخرة ومرتجلة وبعد اندلاع اللهب وفوات الاوان . انها روح جديدة هذه التي هبت على العالم العربي وتجلت بعفوية وصدق فأكدت اهمية الرابطة العربية وعمقها وفوائدها العملية الكبرى . ولكن النقص الاساسي ان يكون هذا التضامن العربي وهذه الجبهة العربية قد ولدا على عجل خلال ساعات المعركة ولم يكونا موجودين معبأين ككيان سياسي ــ دفاعي ــ اقتصادي يشكل قوة ذات وزن دولي قبل المعركة . ولو كانا على هذا النحو لكان فعلهما ترك من الاثار ما حول اتجاهات المعركة لمصلحة الجبهة العربية . ان الجامعة العربية كانت قد تحولت مع الوقت الى شكل دون محتوى والى شعار فاقد المضمون فكان من اهم اسباب النكبة ان العالم العربي دخل جبهات مفككة ولم تولد جبهته الموحدة الا من خلال لهيب العراك وفي انقاض الكارثة .**

٢ ــ تجسيد الجبهة العربية في كيان سياسي ــ عسكري ــ اقتصادي

الا انه لا يجوز وقد توقف القتال ان لا نفيد الافادة الكبرى مما تحقق في المعركة.فعلى العالم العربي ان يحتفظ بهذه الروح العظيمة الجديدة فيطوّر علاقاته بفعلها ليقيم الجبهة العربية المتراصة كحقيقة عملية دائمة تنظم الجهد لا كطفرة طارئة رافقت ظروف المعركة . على العالم العربي ان ينتقل من مرحلة الجبهة العربية كما ظهرت بكل تعاطفها وتساندها فينمي تعاونها ويرسيه على أسس ثابتة . ومن اجل ذلك لا بد من تحقيق خطوات عملية تجسد هذه الروح الجديدة في مؤسسات لها طابع الاستمرار والديمومة .

١ ــ انشاء جيش عربي اتحادي تشترك في انشائه بصورة اساسية الدول العربية التي لا حدود مشتركة بينها وبين اسرائيل ويجهز بقوى آلية وطيران قوي وتكون قيادته معقودة للثورة الجزائرية ــ مفخرة العرب في حروب التحرير ــ وتمول موازنته الدول العربية المنتجة للبترول . ويكون هذا الجيش الرديف الاحتياطي المعبا للجيوش العربية المرابطة حول دولة العدو .

٢ ــ تحقيق الوحدة العسكرية الكاملة في كل من الجبهتين الشمالية والجنوبية بحيث تصبح كل جبهة قوة موحدة متوافقة مع وحدتها الجغرافية والاستراتيجية وترتبط الجبهتان باتفاق ثنائي دفاعي بينهما وقيادة عليا مشتركة . وفي هذا المجال نرى ان العراق امتداد طبيعي للجبهة الشمالية كما ان السودان امتداد طبيعي للجبهة الجنوبية ولا بد من اتخاذ الخطوات التي تجعل فعل هاتين الدولتين اقوى في كل من الجبهتين .

٣ ــ من ضمن مبدأ التكامل الاقتصادي للعالم العربي انشاء صناعات عسكرية عربية مشتركة تحقق في مدى معين المزيد من الاكتفاء الذاتي العسكري العربي .

٤ ـ انشاء مجلس اعلى للدول المنتجة للبترول ورسم سياسة بترولية عربية موحدة تتجاوب مع مصالح العرب وحقوقهم لا سيما مع الحق القومي في فلسطين .

٥ ـ رسم سياسة خارجية موحدة ازاء الشرق والغرب والعالم الثالث مستوحاة من مواقف الدول الاجنبية من الحق القومي في فلسطين وتتناول كل الموارد العربية والطاقات الاقتصادية والسياسية .

٦ ـ تصفية الخلافات الاقليمية العربية لمصلحة الجبهة العربية وتراصها وضمان مبدأ حق تقرير المصير لكل شعب عربي .

٧ ـ انشاء مكتب اعلام مركزي عربي للتوعية العالمية في مسألة فلسطين ووضع خطة موحدة له علمية الاسس والنهج تنطلق من فهم طبيعة المعركة والخلفية الذهنية لكل شعب وعقليته ومفاهيمه .

٨ ـ درس الهجوم الديبلوماسي العربي على صعيد الدول الكبرى والامم المتحدة والعالم الثالث من اجل مسألة فلسطين مما سنأتي عليه تفصيلاً في فصل لاحق .

هذه خطوط عريضة لصيغ التعاون العربي التي نقترح والتي يمكن ان يضاف اليها الكثير. ان الجوهري في الموضوع ليس التفاصيل بل اقامة كيان عربي قادر ان يحقق عمليا على كل صعيد خطوات التنسيق والتعاون الفعالة . وهذا الكيان العربي ـ الدفاعي ـ السياسي ـ الاقتصادي الذي هو الجبهة العربية لا بد ان يقوم على فكرة اتحادية نامية تنطلق من مراعاة الواقع الاجتماعي ـ الجغرافي ـ الاقتصادي ـ الاستراتيجي للبيئات العربية اولا تمهيداً لمزيد من التفاعل والتلاحم والتلاقي يؤدي مع الزمن وبسلوك الطريق الايجابية الموضوعية المدروسة الى قيام اتحاد عربي اشمل .

٣ ـ الجبهة الشمالية : وحدة جيوش الأردن والعراق والشام طريق الانتصار في الجولة المقبلة .

ومن ضمن هذا التضامن العربي ومن ضمن فكرة الجبهة العربية لا بد من درس ارض المعركة من جديد . لقد تأكدت اهمية الجبهة الشمالية ودورها الكبير في المعركة . ولقد اظهرت الجيوش الاردنية والعراقية والسورية بسالة فائقة ، كما حملت ، خاصة الجبهة الاردنية ، اعباء قاسية ودفعت ضريبة الفداء كاملة . لكن نقطة الضعف الكبرى في هذه الجبهة انها **كانت جبهة عدة جيوش لم يجر بينها أي تنسيق مسبق كما لم تحتل في استراتيجية المعركة دورها المتناسب مع خطورتها فاعتبرت جبهة دعم للجبهة الجنوبية بينما كان المفروض ان تكون هي جبهة الهجوم والقتال الرئيسية .**

وما انقضت ايام على النكسة حتى ارتفع اكثر من صوت من صميم القيادات العربية يقول قولنا هذا . فقد اعلن عميد الجو عارف عبد الرزاق رئيس الحكومة العراقية الاسبق واحد رجال الطليعة الثورية في العراق ، في تصريح ادلى به لجريدة « الثورة البغدادية » في 19 حزيران الفائت : « لقد كانت جبهة الاردن هي المنطقة المثالية للهجوم ولو وصل اليها المزيد من القوات العراقية والسورية لاستطعنا شق اسرائيل ولحطمنا مطاراتها في دقائق معدودة » .

وقالت جريدة « الثورة » البعثية الدمشقية في مجال تعرضها لدرس النكبة مثل هذا القول

معتبرة الجبهة الاردنية هي الرئيسية للمعركة ومشيرة الى ان دور الجبهتين السورية والمصرية كان يجب ان يقتصر على الالهاء بينما يتركز الجهد الحربي العربي الاساسي على الجبهة الاردنية . واشارت ايضا الى صعوبة اعتماد سيناء لأية عملية قتال رئيسية بسبب طبيعة الصحراء المكشوفة .

واكد الرئيس عبد الناصر شيئا من هذا في خطابه اثر النكبة حين قال : « ان قواتنا البرية كانت تحارب اكثر المعارك عنفا وبسالة في الصحراء المكشوفة » .

وأعلن وزير الاعلام السوري السيد الزعبي في مؤتمره الصحافي ان القوات الآلية السورية توجهت الى الجبهة الاردنية بعد نشوب القتال لكنها وصلت متأخرة .

من كل هذا يتبين ان الجبهة الشمالية ــ خاصة الاردن ــ كان مفروضا استراتيجيا وجغرافيا وواقعيا ، ان تكون في الهجوم ، جبهة القتال الاساسية ، وذلك لم يحصل لان القوات العراقية والسورية وصلت متأخرة او لم تصل بكميات كافية ، ولان القوات الثلاث الاردنية والعراقية والسورية لم تبن قوة مشتركة وتنسق سلاحها وعتادها وخططها وحاجاتها . فسبب النكسة الاساسي هو فقدان التنسيق المسبق المدروس بين الجيوش الاردنية والعراقية والسورية مما أضعف الجبهة الشمالية فلم تعط قدرتها الاستراتيجية من حيث الخطة العامة ولا من حيث الاعداد الحربي المتفق مع اهميتها لتكون هي الاولى فيخفف عن الجبهة الجنوبية ثقل كبير . وفي غياب هذا التنسيق حاولت مصر ان تملأ الفراغ العسكري فعقدت الاتفاقات الثنائية مع الدول الثلاث لكن هذه لم ترتبط قبل المعركة بوحدة عسكرية في ما بينها تتفق مع مستلزمات ارتباطها الجغرافي ــ الاستراتيجي برا وجوا . فرغم هائل التضحيات ورغم مواقف البطولة على طول الجبهة الشمالية فان غياب التنسيق المسبق بين دولها والاعداد الحربي المتكامل قد افقد هذه الجبهة طاقات كبرى كان بالامكان ان يكون لها وزنها الرئيسي في الميدان .

فعلى الصعيد البري لم يتح للعراق ان يلقي بكامل ثقله العسكري والبشري في المعركة ولا وصلت القوات الالية السورية في الوقت المناسب . وعلى الصعيد الجوي كانت هذه الجبهة تعتمد ، كما ورد في بيانات كل من ملك الاردن ووزير الاعلام السوري ، على المظلة الجوية المصرية ولم يكن لديها طيران قوي قادر ان يتابع المعركة بعد اخراج الطيران المصري منها في الساعات الاولى لبدء القتال . فقاتلت جيوشها دون تنسيق مسبق ودون الارتكاز على استراتيجية واضحة كما قاتلت دون مظلة جوية واقية .

كل هذا يؤكد ضرورة التنسيق الكامل بين قوى الاردن والشام والعراق بدءا بتجميع القوى وتنسيق الخطط وتوحيد القيادة والعتاد والتدريب ، وجوا بامتلاك قوة جوية كبرى مشتركة خاصة بالجبهة الشمالية تكون مظلتها الجوية في هجومها ودفاعها فيتفرغ الطيران المصري للجبهة الجنوبية .

فاذا كانت للجبهة المصرية اهميتها البالغة في كونها جبهة ثانية فان العراق بحكم الارتباط الجغرافي البري بالجبهة الشمالية قادر ان يصبح عاملا فعالا قويا في هذه الجبهة لو روعيت مستلزمات الوحدة الاستراتيجية ــ الجغرافية التي تنتظمه مع بقية الانحاء .

وهنا لا بد من معالجة افكار مسبقة خاطئة نراها مسؤولة الى حد كبير عن التعثر الذي اصابنا في معركة فلسطين الاخيرة . نقول ذلك بصورة ايجابية لتجنب التعثر وسلوك الطريق

الايجابي المحقق المنعة والقوة لبلادنا في ظروف الصراع المصيري هذا . لقد انفعل الجو العربي بظروف النكسة الوحدوية بين مصر والشام عام ١٩٦١ فلم يعد يهتم ايجابيا بتحقيق المنعة والقوة الوحدويتين انطلاقا من دراسة موضوعية مسؤولة . نلك يتجلى في مباحثات الوحدة الثلاثية عام ١٩٦٣ كما يتجلى في المادة الاولى من الدستور العراقي عام ١٩٦٤ وكلها تؤكد رفض أية وحدة ثنائية بين العراق والشام مثلا حتى لا يعتبر نلك تكتلا اقليميا يعزل مصر .

ان رفض سياسة المحاور المتصادمة في العالم العربي لموقف نبيل وسليم تفرضه التزامات الجبهة العربية الواحدة . واننا نقف مع هذا الموقف النبيل السليم غير اننا نرى ان الدافع وان كان نبيلا ، يتجسد في سياسة ومفاهيم خاطئة تجافي الوحدة الطبيعية وتعرقل حصولها غير مدركة فوائدها العملية ولا امكان السير بها في غير وجهة سياسة المحاور والتكتلات الاقليمية المتصادمة .

٤ ـ وحدة البيئة وتحالفها العسكري ـ السياسي مع مصر

ان المتنكرين لوحدة البيئة لم يلحظوا تلك العلاقة الوثقى بين اتفاقية سيكس ـ بيكو التي مزقت وحدتها الطبيعية فكانت بتشتيتها القوة القومية ، التمهيد الضروري للمطامع الصهيونية ـ كما ذكر وايزمن في مذكراته ـ وبين وعد بلفور الذي جاء بعدها وكان منطلق اقامة الكيان اليهودي العدواني في فلسطين. كما انهم لم يتبينوا المناحي الايجابية والعملية من تحقيق هذه الوحدة لجهة مجابهة الخطر الصهيوني وسحقه بقيام القوة القومية المتراصة الموحدة المطبقة على كيان العدوان . ان قيام وحدة البيئة القومية هي الطريق القويمة للقضاء على العدوان الصهيوني وتحرير الارض السليبة وليس من طريق اقرب الى المعقولية والواقع منه . هذا هو الهدف الايجابي الاكبر من قيام هذه الوحدة .

ان رفض قيام تكتل في المنطقة يكون ضد مصر هو موقف سليم نبيل تقضيه ضرورات التضامن العربي . اننا حتما نقف الى جانب هذا المنطق. بل اننا نقول بوضوح وصراحة كاملة بأن الروابط التي تشدنا الى مصر هي فضلا عن روابط العروبة التي تجمعنا الى العالم العربي كله في عروة وثقى لا انفصام لها ، انها فضلا عن ذلك وبسبب قيام الكيان الصهيوني العدواني بيننا وبين جبهتنا الشرقية والجنوبية ، تحتم علينا باستمرار سلوك مسلك التعاون والتحالف والتساند معها بكل ما تعنيه هذه الكلمات من قوة ومعنى .

ان مصيرنا القومي يفرض علينا هذه الصلات الايجابية المصيرية مع مصر . غير ان رفضنا اقامة تكتلات ضد مصر لا يقودنا في معرض رفض الخطأ الى ارتكاب خطأ ادهى برفض قيام اي تكتل لقوى المنطقة بشكل مطلق وكأنما كل تكتل لهذه القوى لا قصد له ولا غاية ايجابية ، وكأنما عزل مصر ومناوأتها يجوز ان يكونا هما محور سياستنا القومية ازاء تحديات الخطر الصهيوني التي تفرض علينا وعلى مصر باستمرار وقوة ان تكون قوتنا قوة لمصر وقوة مصر قوة لنا .

من هذه الزاوية نرى ان تكتيل قوى المنطقة له قصدان ايجابيان : اولهما تحقيق التكامل الاقتصادي ـ العسكري لهذه البيئة الواحدة وثانيهما ان يكون هذا التكتل

بصورة ايجابية قوة للعروبة في المعركة ضد اسرائيل . بل انه في حالة تحقيقه يصبح هو محور المعركة وتكون له مصر سندا ونصيرا . هذا ما يقوله الواقع الجغرافي ـ الاستراتيجي لارض المعركة .

ومن اجل اقتران الهدف القومي من وراء هذا التكتل في المنطقة بمقاصد التضامن العربي خاصة مع مصر ، فان الصيغة المثلى لتحقيق ذلك يكون في قيام وحدة على اساس ارتباطها وتحالفها العسكري والسياسي مع مصر اولا ومع كل الدول العربية الراغبة في الاسهام الجدي في معركة التحرير وفي طليعتها الجزائر المجاهدة .

ذلك هو الاصل والاساس . اما اذا كانت تحول ظروف دون تحقيق الوحدة الكاملة ـ وان عدم تحقيقها سبب رئيسي من اسباب النكسة الاخيرة فعلى الاقل لا بد من تحقيق الوحدة العسكرية والاقتصادية بين الاردن والشام والعراق .

ان جيشا موحدا يضم جيوش الاردن والشام والعراق في وحدة عسكرية كاملة في القيادة والتدريب والعتاد والارادة ومزودا بقوى آلية وطيران قوي لقادر ان يحول الجبهة الشمالية ضد اسرائيل الى ما يجب ان تكون وما اجمع عليه المعلقون والقادة العرب في ما اثبتناه : جبهة اولى للقتال والهجوم تحمل عن الجيش المصري اعباء كثيرة في الجولة المقبلة . واننا في المجال العربي لا نرى حدودا تقف عندها العلاقات المتطورة النامية بين هذه الوحدة والشقيقات العربية وفي طليعتها مصر . بل ان الصيغ الاتحادية يمكن ان تتطور بنمو العلائق والتفاعل الايجابي باطراد واستمرار . ان التدرج في الوحدة نراه منبثقا من حاجات الجبهة والمعركة مراعيا للضرورات الاستراتجية والجغرافية والاقتصادية في انطلاقة نحو اتحاد عربي شامل .

٥ ـ وحدة السودان ومصر قوة للجبهة الجنوبية

اننا بالروحية المسؤولة نفسها التي ندعو فيها الى تراص الجبهة الشمالية ووحدتها العسكرية والى اجراء التنسيق المطلوب في ما بينها ، ندعو كذلك الى تراص الجبهة الجنوبية وتحقيق وحدتها العسكرية . لقد سارع السيد محمد محجوب الى عقد اتفاق دفاع مشترك مع مصر في ايام المعركة الاولى فكان في هذا الموقف الفذ ما هو موضع التقدير الكبير . لكن هذا كله قد حدث متأخرا . ان وحدة مصر والسودان المصيرية والتاريخية والجغرافية تفرض قيام وحدة مصر والسودان العسكرية قيادة وتدريبا وعتادا مما يعزز الجبهة الجنوبية ويزودها بطاقات مقاتلة جديدة .

ومن ضمن الجبهة العربيةترتبط الجبهتان الشمالية الموحدة والجنوبية الموحدة بقيادة عسكرية مشتركة وتحالف عسكري ـ سياسي ينسق التعاون بينهما ويكون مدخلا لتطوير صلاتهما التعاونية باستمرار .

وهكذا نواجه اسرائيل بقيادة عربية عليا مشتركة واحدة توجه ثلاثة جيوش اتحادية عربية كبرى : جيش الجبهة الشمالية ، وجيش وادي النيل الموحد في الجبهة الجنوبية ، والجيش العربي الاتحادي الذي يكون هو طاقة الاحتياطي للجبهتين .

وهكذا ينسق الجهد العربي فلا يتوزع ولا يتعثر وتتحكم الاستراتيجية والضرورات الجغرافية والتعبوية برسم خطط الجبهات وحشد الطاقات ويسيطر التنسيق المدروس على كل ذلك في وحدة قصد وهدف ونضال وقيادة .

٦ ـ لبنان المستقل مرتبط مصيريا ببيئته وعالمه العربي

اما لبنان فاننا ندرك وضعه وندعو الى الحفاظ على كيانه وسيادته نطاق ضمان للفكر الحر لكننا ندعو ايضا الى كيان لبناني تقدمي يصبح واجب الوجود كمنارة اشعاع وتطوير للمنطقة كلها وكقوة ثورية تقدمية في محيطه فاعلة في صنع المصير الجديد .

واذا كنا نشدد في الحفاظ على لبنان ووضعه الخاص لجهة كيانه واستقلاله انطلاقا من الاوضاع الاجتماعية السائدة في العالم العربي والتي لم تزل في اكثرها تخضع للتفكير الديني السياسي في الدولة ، فاننا نتصور ان يكون للبنان العلماني التقدمي الذي ننادي به دور رسولي في التقدم في المنطقة ولا نقبل العزلة نهجا له ولا التقوقع او الانكماش غاية وهدفا يتعارضان مع مصالح لبنانية اساسية في التفاعل الحي مع محيطه وارتباطه المصيري بعالمه العربي .

فليست عروبة لبنان او ارتباطه مجرد شراكة « ككل شراكة لها حسناتها وسيئاتها » يدخلها ساعة يشاء ويتخلى عنها ساعة يشاء بل هي قدر ومصير بطبيعة وجوده وصلاته القومية والاجتماعية والتاريخية والجغرافية .

ان لبنان مسؤول كاكثر ما تكون المسؤولية عن مواجهة اسرائيل في عراك المصير القومي وهي الطامعة به ارضا ومياها لا تميز في مطامعها العدوانية بين بلد عربي واخر . او بين فئة طائفية واخرى ، همها الارض أيا كان الشعب الذي يسكنها ومعتقداته الدينية . وقد شردت من فلسطين مسيحييها ومحمدييها حين اغتصبت الارض واقامت كيانها العدواني الطامع المتوسع .

فليست معركتنا ضد اسرائيل معركة مسايرة او رفع عتب تجاه احد بل هي معركة مصيرنا ووجودنا وكياننا .

ان لبنان مدعو الى التحول من دولة رفاه الى دولة تعبئة قادرة ان تكون في مستوى الخطر المتوعد فيقر قانون التجنيد الاجباري ويرفض العقلية المركنتيلية التي تقيس المصالح القومية العليا بحسابات الربح والخسارة الماديتين التجاريتين .

ولا بد للبنان في ضوء هذا كله من ان ينسق التعاون الدفاعي ـ الاقتصادي مع الدول العربية المجاورة التي تشده اليها وحدة الحياة فلا يعطل وضعه الخاص دوره في معركة المصير . ولا بد للبنان كذلك ببهاء الكلمة وبيقين المعرفة الجديدة من ان يتغلب على وضعه الخاص بتطوير نفسه في مستوى العصر وتطوير محيطه معه . فلكي يصبح حصنا قويا قادرا على الصمود في معركة المصير لا بد له من بناء الارادة الشعبية الموحدة التي يستند اليها الحكم والدولة ، ان ارتكاز الحكم والدولة على الارادة الموحدة في لبنان والتي تبنى بمفاهيم المواطنة هي وحدها معين القوة الحقيقي الذي يغنيه عن كل الضمانات الدولية والذي يجعله قادرا ان يخوض معارك المصير بعقلية المواطنة وولائها لا بمجموعات الحساسيات للطائفية .

من هذه النقطة بالذات يبدأ دور رسولي للبنان في المنطقة : دور التحول من دولة ملجأ تعيش في ظل الضمانات الدولية الى دولة حصن لها كرامة التحدي والى دولة منارة ينطلق

منها بهاء الفكر الجديد فاعلا في المحيط ومطورا له باتجاهاته التقدمية ومشاركا في صنع المصير الكبير .

II استراتيجية الصراع القومي عالميا

ان معركتنا السياسية مع العدو مداها العالم كله ، بطبيعة التغلغل الصهيوني العالمي ، عبر حركته المنظمة ونفوذه المالي ـ السياسي في اكثر من قارة ومركز الثقل في العالم ، من افريقيا حيث يتغلغل النفوذ التجاري ـ السياسي الصيهوني الى اميركا اللاتينية ـ احدى ركائز العالم الثالث ـ الى نيويورك العاصمة الاولى للصهيونية العالمية الى اوروبا حيث اختلط التغلغل مع العواطف الانسانية مع المصالح الاستعمارية . فنحن مضطرون على كل هذا المدى الى خوض معركة سياسية كبرى ضد عدو خطير احكم الخطة ، ونظم الجهد وحشد الامكانات ، فما هي طبيعة المعركة وكيف نعيد النظر في خططها ومداها ومجالاتها الواسعة .

قال ماوتسي تونغ في احدى اروع موضوعاته عن الاستعمار : ان الاستعمار هو نمر من ورق وعندما ننظر الى ان الاستعمار نمر له اسنان ذرية لا يجوز انه الاستهتار به الى هذا الحد . وشرح نظريته الهامة في استراتيجية الصراع ضد الاستعمار فقال انه ينطلق مبدئيا من احتقار الاستعمار والايمان بمصيره الاخير في الاندحار ايمانا منه بالشعوب ونضالها وحقها في الحياة . انما ذلك على صعيد استراتيجي ، صعيد النتيجة الاخيرة للصراع . اما على صعيد التكتيك ، على صعيد المعارك والمجابهات الفعلية مع الاستعمار فانه يدعو الى درس قوى العدو بكل موضوعية والتخطيط للانتصار اخذا بكل تفاصيل العراك وموجباته . هذه الاستراتيجية قلبها العرب رأسا على عقب في حربهم مع الصهيونية الاستعمارية فاحتقروا قوى العدو على صعيد المجابهات والمعارك فكانت الارتجالية والانفعالية اللتان حصدتا النكسة والهزيمة وكان الامر المفعول نتيجة لذلك كله هو الذي حصل عليه العرب بدأ من ١٩٤٨ . لقد حلت الاهداف البعيدة التي لا تتحقق الا بالتكتيك المدروس ، محل هذا التكتيك في خطة العمل واكتفي بها دون الوسائل والتخطيط فاختل الميزان . وكما ان حلول الاهداف الاستراتيجية محل التكتيك يعطل الوسائل والخطط فيشل الوصول الى الغايات ، فليس اقل خطرا من ذلك حلول التكتيك ـ حلول الوسيلة ـ محل الاهداف الاستراتيجية او تناقض التكتيك مع الاستراتيجة .

فاذا كان الارتجال والانفعالية لا يجوزان في المجابهات الفعلية فان القعود عن المجابهات والخضوع لذعر الحسابات دون العمل على اللحاق بالعدو والتفوق عليه لاشد ضررا واقرب الى الانهزامية المتفاقمة من اي شيء آخر . انه خطر اعتماد التكتيك محل الاستراتيجية الى حد غياب الاهداف الاستراتيجية عن الثورة او التناقض معها ، ولا يقل عن خطر حلول الاستراتيجية محل التكتيك ، ذلك ان الاولى تعطل الغايات لحساب الوسائل بينما الثانية تعطل الوسائل فتعرقل حصول الغايات . ان التكتيك على اهميته يجب ان يبقى جزءا مرتبطا بالاستراتيجية بالاهداف الاساسية البعيدة . ومن اجل حصول الرؤى الشاملة للمعركة التي تنطلق من تأكيد الاهداف البعيدة مع اتباع التكتيك المدروس ضد الصهيونية العالمية على مدى العالم كله

(أ)ـ تضليل العدو الاعلامي يرد عليه بالتحقيق قبل الكلام

لقد خدع العدو العالم بمظاهره البراقة محاولا اخفاء بشاعة عدوانه وعنصريته فرفع شعارات مضللة تلف حوله عطف قطاعات واسعة من الشعوب الغربية . لقد رفع شعار « واحة

الديمقراطية والاشتراكية » وسط عالم متخلف بينما هو يقيم دولة العنصرية والتشريد والاغتصاب في فلسطين منتهكا كل الحقوق القومية والانسانية لسكان البلاد الاصليين الشرعيين ورفع شعار « الشعب المضطهد المسكين » . فأثقل ضمير الغرب بدأ من الكنائس الغربية الى اليسار الاوروبي بما حل به في اوروبا ليستر عدوانه المستحدث في فلسطين ، ورفع شعار « الدولة الصغرى » المحاطة ببحر عارم من القوى المعادية والمتربصة فتحولت في دعايته ارادة شعوبنا الحرة في رفض العدوان والاغتصاب في فلسطين الى « عدوان » ، وباتت حروب العدو العدوانية علينا تلقى لدى الغرب نتيجة هذه الاضاليل عطفا خاصا يستغله تحالف المصالح الاستعمارية والرأسمالية مع اسرائيل .

ان معركتنا الاعلامية ضد العدو في العالم الواسع لا تكون فقط بدحض اكاذيبه وتبيان مغالطاته وفضح تخرصاته بل تكون ببناء الدولة والمجتمع في بلادنا على اسس جديدة قادرة على الانتصار على العدوان في كل المجالات . فلنجابه الدولة العنصرية الثيوقراطية العدوانية بانظمة علمانية تقدمية قومية تحقق ، فضلا عن القوة والمنعة الداخليين اكبر الانتصارات الاعلامية في المجالات الدولية لان التحقيق هو اقوى من كل كلام . واذا كنا قد خسرنا معركة الاعلام لاننا لم نكسب عقل الغرب وتفكيره فلاننا من ناحية اخرى لم نلجأ الى المواقف الحازمة الرادعة التي تشعر الغرب بأن مصالحه مهددة في الصميم ليغير من انحيازه للعدوان . فلا ربحنا الغرب من نافذة عقله ولا ربحناه من بوابة مصالحه الواسعة . وكان من نتائج ذلك خسارتنا المعركتين الدبلوماسية والاعلامية في الغرب والامم المتحدة .

ترتفع بين حين وآخر دعوات ضد السلبية السياسية ودعوة حارة الى الايجابية في السياسة الدولية . ومما لا ريب فيه ان الايجابية في كل شيء هي الافضل لكن الايجابية السياسية لا تكون بتجاوز ما حصل وبناء علاقات مع الغرب وكأن شيئا لم يكن ، بل ان الايجابية السياسية انما تكون بردع الغرب عن سياسته المنحازة حتى تكون اية علاقة في المستقبل في مستوى كرامتنا وحقوقنا القومية وسيادتنا .

ان تصريح دين راسك الاخير الذي يشجب (العدوان في فيتنام) ويتجاهل العدوان الصهيوني في فلسطين وعلى الاراضي العربية فيدعو الى السلام في الشرق نموذج على هذه الازدواجية الناحرة لكل القيم .

ب ـ ابعاد المعركة دوليا

١ ـ تصفية آثار العدوان

ان المنهج السياسي الذي اعلنه الرئيس عبد الناصر لخصه بثلاث نقاط تهدف الى ازالة اثار العدوان هو المنهج الذي تلتقي عليه كل القوى العربية في هذه المرحلة ، اننا نوافق على هذا المنهج وندعو له بكل قوة . ففي هذه المعركة لا بد من الاستمرار في التصلب والصمود في الحق القومي ازاء العدوان ولا بد من تسخير كل القوى لاحداث الضغط المطلوب ولا بد من اجماع عربي يدعم هذا الموقف ، وفضلا عن هذا المنهج الذي نؤيده تأييدا كاملا نطالب بارساء الجبهة الحربية بالصورة التي عرضنا لها قبلا واقامة التوحيد العسكري في كل من الجبهتين الشمالية والجنوبية وارتباطهما بقيادة عليا واحدة كما اننا في المجال الدولي نحذر من تكرار الاخطاء السابقة . فلقد ارتضى العرب طوال سنوات وكرروا ذلك في الفترة الاخيرة ، ارتضوا مقررات

الامم المتحدة وعابوا على العدو عدم تنفيذها . انه لا يجوز في رأينا بأن نسلم بالباطل الصغير في استهداف ازالة الباطل الاكبر ، ذلك ان موقف الحق القومي لا يهاود فهو يرفض الباطل دون مراعاة حجمه .

٢ ـ اساليب العدو لتشويه حقيقة المسألة الفلسطينية

ان من اقوى الادلة على عقم القبول بانصاف الحلول الدولية المنتقصة من الحق القومي ان العدو يتشبث بمكاسب عدوانه متحديا كل قرارات الامم المتحدة التي صدرت منذ ١٩٤٨ . رغم ان هذه القرارات انطلقت من التسليم بالاساس العدواني لدولة العدو . فاذا كان العدو يتمسك بمكاسب العدوان فبالاحرى بأن يتشبث اصحاب الحق بحقهم القومي الرافض كيان العدوان من الاساس . ومن الشواهد الصارخة على ان هذه القرارات الدولية تخضع للمصالح الموقوتة والراهنة لا لاية قواعد اخرى ، ان موضوع تدويل القدس يطرح اليوم دون بقية قرارات الامم المتحدة التي تجرد دولة العدوان من النقب والجليل واقسام من الارض المحتلة ، وعلى العكس من ذلك فان التسويات الدولية التي يلوح بهاالغرب كلها تشير الى تصحيح في (الحدود الاقليمية) لجهة التسليم مجددا ببعض التوسعات الاسرائيلية الاخيرة .

ان في اساس الخطأ الذي البت دولة العدو بواسطته الكثير من الدول ضد حقنا القومي المشروع هو محاولتها اظهار الامر وكأنه خلاف بين دولة قائمة هي اسرائيل وجاراتها الدول العربية . وكأن الامر خلاف اقليمي كما هي الحال بين الهند وباكستان او بين المانيا وبولونيا بحيث يغدو السلام هو المقصد الذي تتمحور عليه الجهود الدولية دون مراعاة للحقيقة الاساسية التي هي حقيقة العدوان الذي اغتصب الارض وشرد الشعب وحل بالقوة في ارض لا علاقة له بها ليقيم عليها دولة هجينا غريبة في اقبح عدوان عسكري في القرن العشرين .

٣ ـ الفصل بين المسألة اليهودية العالمية وبين الحق القومي في فلسطين

ان الفصل بين المسألة اليهودية كمسألة تهم العالم المتمدن وبين المسألة الفلسطينية وما ترتب عنها من اغتصاب وعدوان وتشريد هو في اساس طرح قضيتنا على العالم المتمدن ، فلن تحل المسألة اليهودية على حساب شعبنا وسيادته القومية بانتهاك كل الحقوق الدولية والقومية والانسانية . ان رفع الاضطهاد الذي مارسه بعض الاوروبيين على اليهود لا يكون بارتكاب اضطهاد اقبح ضد شعبنا . ان الشعوب والامم التي اساءت الى اليهود عليها ان تتحمل وزرهم الاكبر لا ان تحمل الشعوب العربية التي لم تشترك في اي اضطهاد عنصري وزر هذه المسألة كاملا، ارضنا تغتصب وشعبنا يقتل ويشرد ويباد .

٤ ـ فلنأخذ المبادرة الاعلامية في عرض حقيقة العقدة اليهودية من العالم :

ان المسألة اليهودية لا تحلها مسألة اقامة دولة عنصرية تقوم على العدوان المستمر . انها مسألة علاقة اليهودي بالعالم . فاذا كان شجب الاضطهاد العنصري الذي تعرض له اليهودي في اوروبا يدخل في المبادىء الانسانية التي ترتفع في العالم المتمدن المعاصر فان الابعد من ذلك والاهم هو بحث علاقة اليهودي بالمجتمعات التي فيها وهو الذي احتفظ دوما وباستمرار دون

سائر الفئات الدينية والعنصرية بولائه المنفصل عن المجتمعات التي يعيش في ظهرانيها مقيما رابطة دينية عنصرية معقدة ترفض الانصهار حتى في ارحب هذه المجتمعات واكثرها تفاعلا . ففي الولايات المتحدة حيث لم يعد المواطن الاميركي يبحث عن اصوله العنصرية او الفروقات في معتقداته الدينية وحيث تم قيام مجتمع اميركي موحد صاهر تلك الفروقات في ظل فلسفة ليبرالية واسعة نشطت الحركة الصهيونية والمعادية بطبيعتها المطلقة لليبرالية بين اليهود مستفيدة من جو الحرية في اميركا وهي التي زعمت انها قامت ضد الاضطهاد ومتخذة من نيويورك عاصمة اولى لها ومتجهة بكامل ولائها لدولة اسرائيل مسخرة المصالح الاميركية نفسها لماربها تسخيرا استغلاليا بشعا وصل الى حد وصفه بعض الكتاب والمفكرين الاميركيين اخيرا في بيان صحافي تحذيري بأنه موقف يكاد يفقد اميركا صداقة العالم العربي كما افقدها من قبل الصين .

٥ ـ الليبرالية الغربية في محنة كبرى
سببها الاخطبوط الصهيوني ـ الامبريالي

لقد وضع الاخطبوط الصهيوني الامبريالي المالي ـ السياسي ، الليبرالية الغربية نفسها ازاء امتحان رهيب : ذلك أنه عندما تخضع هذه الليبرالية للمصالح المالية ـ السياسية الصهيونية الامبريالية في تقرير سياستها تنقض القاعدة القيمية التي تضمنها ثوراتها الليبرالية الكبرى وتنحر شعارات حرية الشعوب وحق تقرير المصير وتكون قد واجهت أمام العالم خاصة وأمام الشعوب النامية المتطلعة اليها ، انتحارا قيميا رهيبا وتصبح مضطرة وهي التي قبلت بتحكم المصالح الصهيونية في سياستها الى أن تقبل بدفع الثمن من مصالحها في العالم الا اذا أبدلت انحيازها لاسرائيل . وفي هذا المجال لا نستطيع أن ننسى وقوف الجنرال ديغول في وجه الاخطبوط الصهيوني المتآمر على قيم الليبرالية الفرنسية .

ان اللوثة العنصرية اليهودية هي مشكلة العالم الكبرى وهي لا تحل بأية من الطريقتين اللتين جربتا في الغرب الان . ان سياسة التمييز العنصري والنبذ والغيتو والابادات النازية كلها قد أفلست وثار عليها العالم المتمدن ولم يعد يمارسها اليوم الا الصهاينة انفسهم في فلسطين وضد شعب فلسطين فضلا عن بضع جيوب استعمارية متلاشية كما ان جو الحريات في المجتمعات الرحبة وعدم التمييز العنصري قد فشلا هما ايضا في حل المسألة اليهودية لانهما كانا من طرف واحد هو المجتمعات الانسانية نفسها بينما تحول اليهود في تلك المجتمعات ، مستفيدين من جو الحريات الرحب الى اخطبوط مالي ـ سياسي يحاول ، مدفوعا بعصبية متطرفة ، السيطرة على المجتمعات وتسخيرها لمآرب المذهبية الخاصة والمتعارضة مع مصالح تلك المجتمعات بالذات

٦ ـ حل جذري انساني للمسألة اليهودية :

ان العالم مدعو الى حل المسألة اليهودية حلا جذريا انسانيا لا يتوسل دفع الاضطهاد عن فئة بايقاع الاضطهاد على شعب آخر كما حدث في فلسطين ، ولا يتيح كذلك ولادة الاخطبوط المالي ـ السياسي ـ العنصري الصهيوني في المجتمعات الحرة وتخريب قيمها ونحر مصالحها في استهدافه مكاسبه الخصوصية العنصرية . ان الحل الاول ـ وهو الامثل ـ وان كان الابعد عن طبيعة اليهود ـ هو ان يتخلى اليهود عن قوقعتهم العنصرية السياسية وينصهروا ويتفاعلوا كبقية الشعوب والفئات في المجتمعات التي يحييون فيها فيصبحوا مواطنين بكامل معنى هذه التسمية متساوين حقا وواجبا وولاء مع سواهم ، يمارسون معتقداتهم الدينية دون ولاء

سياسي خارج تلك الاوطان التي يتزلون فيها .

واول منطلقات هذا الحل هو في تصفية الحركة الصهيونية العنصرية والكيان الصهيوني العدواني في فلسطين وتوجه مليونين يهودي من فلسطين المحتلة الى بلاد كالولايات المتحدة قادرة على استيعاب الهجرات الكبيرة نظرا لامكاناتها الواسعة فينضمون الى ٣ أو ٤ ملايين يهودي المقيمين هناك وتعطى لهم احدى الولايات فيتساوى مصير اليهود الذين اضطهدوا في اوروبا بمصير البولونيين والمجريين وبمصير الايرلنديين من قبل وغيرهم من الشعوب التي نزحت من اوروبا الى اميركا . ولم تخلق مشاكل عنصرية خاصة بها بل انصهرت لتسهم جميعا في اقامة مجتمع اميركي جديد تتساوى فيه بالحرية والكرامة(١) .

ان قيام اسرائيل لم يحل مشكلة اليهود في العالم بدليل بقاء يهود الولايات المتحدة في تلك البلاد مفضلين العيش على النزوح الى اسرائيل وبدل ان تنفق الولايات المتحدة بلايين الدولارات على مد كيان عدواني كاسرائيل بأدوات الدمار والعدوان ، تستطيع ان تنفق تلك الاموال على تأمين استقرار المليوني يهودي المهاجرين من فلسطين الى اميركا ليعيشوا بسلام . فتحل مشكلة كبرى ويزول السبب الرئيسي للتوتر في الشرق الاوسط ويرفع الظلم عن شعب فلسطين المشرد وتنتصر مبادىء تقرير المصير التي رفعتها الثورات الليبرالية ومنها الثورة الامريكية على ميكيافيلية السياسة الغربية الراهنة . ان تصفية الحركة الصهيونية العنصرية في الولايات المتحدة وفي العالم وتصفية اثارها العدوانية في فلسطين هو المدخل الرئيسي لامكان حصول هذا الحل الانساني للمسألة اليهودية بمساواتهم مع الشعوب الحرة في العيش الكريم . ان الحركة الصهيونية العنصرية التي تتجه بولاء اليهود الى خارج الاوطان التي يعيشون فيها لا يجوز السماح لها بالعمل في مجتمعات العالم الحرة خاصة في الولايات المتحدة الاميركية تحت شعار الحرية والمساواة . ذلك انها تشكل مؤامرة على الولاء الاميركي وتثير النعرات العنصرية منطلقة من فلسفة منافية لليبرالية ، كما انها عمليا زجت وتزج اميركا في توترات عالمية متعارضة مع مصلحة الشعب الاميركي في السلام . وهي من هذه الزاوية اخطر بما لا يقاس من وهم خطر الحركة الشيوعية على المجتمع الاميركي .

انه يجب الفصل كليا بين شعار رفض اللاسامية وبين احتضان الحركة الصهيونية . فرفع الاضطهاد عن اليهود يكون بتأمين العيش الكريم لهم كبشر وهذا يتأمن بهذا الحل الذي نقترح والذي يساويهم بشعوب العالم الحـر كله ، بينما الحركة الصهيونية هي حركة عدوانية عنصرية تتنافى مع كل القيم الليبرالية ومع اسس المجتمع الاميركي وقواعده .

وتبقى فلسطين لجميع الاديان بمن فيهم اليهود رمزا مقدسا يحجون اليها كما يتوافد اليها الحجاج المسيحيون والمسلمون من كل مكان في العالم دون مطامع ملك ولا عدوان ولا اغتصاب .

فلا يجوز بناء دولة على اساس تحيز ديني .. عنصري متعارض ومتناقض ليس فقط مع حقوق السيادة القومية لشعبنا على ارضه بل ايضا مع عواطف ومشاعر مئات الملايين المسيحيين والمسلمين في العالم .

---

(١) بل يتساوون حينذاك مع البيورتنز الذين بنوا اميركا بعد ان نزحوا من بريطانيا في زمن الاضطهادات الدينية . فما بنوا جمهورية بوريتنية بل جمهورية ديمقراطية ليبرالية . وهو امر غير متاح للصهيونية بطبيعة تحجرها المذهبي المتحالف مع الامبريالية .

اما اذا عجزت المجتمعات الانسانية عن تغيير ما بات ارثا ملازما لليهود وبقيت عنصريتهم متحكمة بولائهم السياسي ــ وظهر ان الصهيونية واليهودية هما شيء واحد لا ينفصلان ــ فلا مندوحة من ايجاد الحل الاخر وهو اقامة دولة ــ محجر او دولة ــ مصح لهم تضم جميع يهود العالم بحيث يرتاحون هم من عقدتهم وترتاح المجتمعات من اخطبوطهم ، وتقام هذه الدولة لا بارتكاب جريمة تشريد شعب وسلب ارضه القومية كما جرى في فلسطين بل في ارض غير مأهولة او على ارض تتبرع بها احدى الدول الغربية تكفيرا عن اضطهادات الغرب لهم ــ وتكون لديها مجالات واسعة من الارض تفيض عن حاجات سكانها فلا تعاني من ازمة تزايد السكان الهائلة التي يعاني منها العالم العربي . ونسمي على سبيل المثال لا الحصر كلا من كندا واوستراليا لهذا الدور الانساني الكريم .

فالعقدة اليهودية لا يجوز ان تحل بخلق «غيتو» جديد من المشردين والمضطهدين الفلسطينيين وباقامة كيان يهودي عدواني وسط عالم ثائر على عدوانه . بل ان الحل الافضل في مثل هذه الحال هو اقامة كيان يهودي لا يثير قيامه المشاكل ودون حصول اغتصاب او عدوان . من هنا كانت كندا اول الامثلة التي نقدمها لانها اذا تبرعت بجزء من اراضيها مجسدة عاطفتها المتزايدة تجاه اليهود تكون قد حققت فعلا الاسهام في حل العقدة اليهودية .

ولقد وصفنا مثل هذه الدولة اليهودية بالدولة ــ المحجر او المصح ــ لانها دولة تحتضن فئة حكم عليها العالم المتمدن بالشذوذ عن كل القواعد الاجتماعية والانسانية في التفاعل الحر والانصهار الايجابي في المجتمعات الانسانية .

٧ ــ جولة صعبة في العالم الثالث قوامها التخطيط والتنظيم

على صعيد العالم الثالث كان هناك ربح واسع وكانت هناك خسارة كبرى . لقد تجلى الربح الواسع في وقوف دول تمثل اكثر من نصف سكان الارض مثل الصين والهند وباكستان واندونيسيا الى جانب حقنا في فلسطين كما ان موقف دول عدم الانحياز بصورة عامة كان مشجعا . وكان ابرز مواقف التأييد موقف الدول الاسلامية الذي اكد اهمية الرابطة الاسلامية كقوة عالمية نصيرة للشعوب العربية في صراعها ضد الصهيونية والاستعمار وهذا الاطار الثمين لتجسيد هذه الرابطة .

الا ان نقاط ضعف برزت في مواقعنا في العالم الثالث اولاها اميركا اللاتينية التي كان مفروضا ان يكون موقفها اسلم واكثر تجاوبا مع امانينا القومية والعربية ، اذ فضلا عن ان اميركا اللاتينية واقعة ضمن العالم الثالث فجالياتنا اقامت فيها جسر صداقة كان من المفروض ان يكون ابلغ اثرا الا انه في المقابل كان لقوتين مضادتين الوزن الاكبر في ترجيح الاتجاه الذي اتخذت دول اميركا اللاتينية . الاولى النفوذ الاميركي الذي يعتبر القارة الجنوبية مداه الحيوي والذي تتجاوب معه حكوماتها في عراكها ضد القوى الثورية المدعومة من كوبا ، والثانية النفوذ الصهيوني الاكثر تنظيما واشد عصبية والاوسع نفوذا من جالياتنا التي لم يقم بينها تنظيم شامل واسع مبني على اسس عقائدية تقابل الصهيونية وتتحداها ، ومدعوم من احدى دولنا ، او مرتكز على مجموعة من الدول العربية . ان الجامعة العربية لم تتمكن في هذه المعركة الدبلوماسية الاعلامية الواسعة من ان تحقق شيئا اكثر من اعلانها عن سعيها لجمع بعض التبرعات للاجئين .

ان التنظيم الشعبي العقدي الوحيد بين المغتربين والذي صارع الصهيونية بعنف خلال ٢٠ سنة والذي كانت له مواقف كبيرة في كل المهاجر في هذه الازمة الاخيرة⁽١⁾ ان هذا التنظيم غير مدعوم من حكومات الوطن بل انه كثيرا ما تحاربه هي . والتبجحات التي ارتفعت خلال الاسابيع الماضية عن مساعي دبلوماسيينا مع دول اميركا اللاتينية ذهبت ادراج الرياح لان المساعي الدبلوماسية اذا لم ترتكز قاعدة منظمة في المغتربات لا تعطي ثمارها. ان روابط المغتربين باميركا اللاتينية من الضروري تعزيزها وانماء روح الصداقة والتعاون مع عالمها .

٨ ـ لننقل المعركة الدبلوماسية الى قلب الغرب ولنعمل على ربح قلاعه الروحية :

وعلى الدبلوماسية العربية ووسائل الاعلام واجب كسب الرأي العام الغربي المضلل بالاراجيف الصهيونية والاستعمارية وشرح قضيتنا الحقة له ، وربح تلك القطاعات التي يهمنا ان لا تؤخذ بدعايات معادية لحقنا القومي الصريح

اننا مدعوون ان نربح المسيحية في الغرب . ان المسيحية في الغرب قد وقعت بصورة متزايدة تحت وطأة التراث التوراتي من جهة ووطأة رد الفعل الانساني والديني ضد الاضطهادات النازية فضلا عن نشاط وسائل الاعلام اليهودي المتمركزة في قلب الغرب .

اننا مدعوون إلى انتشال المسيحية في الغرب من التأثيرات السلبية والايجابية التي يمارسها خصومنا في اوساطها وبدون وعي كامل لارضية المعركة وافاقها لا تستطيع ان تربح أي موقع .

وهذا ينطبق كذلك على المدى الاسيو ـ افريقي خاصة في قارة افريقيا النامية حيث يتغلغل نفوذ صهيوني في عدد من الدول والذي لا بد من مجابهته بمحاولة جديدة مسؤولة تهدف الى خنق اسرائيل اقتصاديا عن طريق وضع برنامج اقتصادي سياسي عربي مشترك للمعونات التكنية (التدريبية ـ والتعليمية ـ والتعميرية) للدول الافريقية. ان معركة افريقيا لم تربح بعد للقضية⁽٢⁾

وعلى الصعيد الاعلامي لابد من الربط الكامل بين دولة جنوب افريقيا العنصرية واسرائيل ككيانين للتمييز العنصري والعدواني⁽٣⁾ . اننا نعتز بالتراث الاسلامي لامتنا وهو الذي يجمعه الى عالم اسلامي كبير في رابطة روحية عامة . اننا ندعو الى تعزيز الرابطة الاسلامية والافادة من تأييد العالم الاسلامي لحقوقنا القومية . وقد كان موقفه المناصر في هذه الازمة موقفا مشرفا . فحين تصبح الروابط الروحية والحضارية في مركز دعم للحق القومي تكون روابط ايجابية. وفي طليعة المراجع الغربية التي يهمنا ان ينشأ معها حوار واسع مدروس مع المراجع الكنسية المسيحية عامة وخاصة السدة البابوية لجهة موقفها من العدوان الصهيوني اساسا ولجهة موقفها من الاماكن المقدسة التي هي جزء لا يتجزأ من تراثنا الروحي والقومي والتي حافظنا على قدسيتها في كل العصور .

---

(١) تنظيم الحزب السوري القومي الاجتماعي عبر البحار

(٢) كان هذا الكلام قبل نحو ثماني سنوات من اي تحرك عربي اقتصادي باتجاه افريقيا . وتبقى المساعدات العربية لافريقيا حتى الساعة دون المطلوب .

(٣) وهو النهج الذي ظهر في اواسط السبعينات .

٩ - في سبيل حوار مع الفاتيكان :

لابد من ان يتوضح لهذا المقام بصورة جلية لا لبس فيها ان اسرائيل لا يمكن ان ينظر اليها من زاوية النظر الى اليهود كفئة دينية عادية كبقية الفئات ففضلا عن ان اليهود منذ البداية حلموا حلم دولة وعنصر اندمج بدين تفوح من كل جنباته ريحة الملك الزمني والمطامع الدنيوية المتناقضة اساسا مع جوهر المسيحية الالهي والمسكوني ، فان دولة اسرائيل في هذا العصر قد قامت لا بتدخل الهي بل بركوب مؤامرة دولية وامتطاء اعصار حربي وعلى اساس عنصرية مغتصبة ولقد صاحبت قيام تلك الدولة اليهودية مذابح بربرية في بطاح فلسطين وقراها من قبية ونحالين وبير ياسين قضى فيها الاف السكان الابرياء من المدنيين العزل من ابناء فلسطين وبناتها واطفالها وعجائزها وشيوخها في احدى اعنف اضطهادات العنصرية المعاصرة مما حدا بكبير فلاسفة القرن العشرين ارنولد تونبي الى اعتبار صهاينة اليوم ورثاء نازيي الأمس وكأنهم قد تتلمذوا على ايدي هؤلاء بحيث انقلبوا حين قبضوا على زمام الامر من ضحايا الى مفترسين ذبحوا الالوف وشردوا مئات الالوف وان هذه الاساليب العنصرية المهووسة التي ورثها الصهاينة عن النازيين في الابادات الجماعية قد استخدمت مرة اخرى خلال العشرين عاما الاخيرة في العدوان الصهيوني الاخير في الضفة الغربية وغزة وقرى الحدود السورية . فكما يرتفع صوت الكنيسة باستنكار الاضطهاد النازي على يهود اوروبا لا بد ان يرتفع في استنكار الاضطهاد الصهيوني لسكان فلسطين الشرعيين الاصليين وقتلهم وتشريدهم واغتصاب اراضيهم . ان المسيحية في الغرب ازاء ازمة وجدان ان هي اكتفت بشجب الاضطهادات النازية دون شجب قرينتها المعاصرة للاضطهادات النازية بأبناء فلسطين .

اما الاماكن المقدسة فان مشروع تدويل القدس ليس اخف وطأة من الاحتلال الصهيوني لانه يقيم وجودا غريبا على ارضنا يذكرنا بشبح الحروب الصليبية والدول - الامارات الهجينة التي اقامتها تلك الغزوة لارضنا والتي اساءت كثيرا الى وجه المسيحية المثالي والروحي والتي حاولت روح المؤتمر المسكوني الفاتيكاني الثاني المنفتحة ان تمحو اثارها .

ان من الغريب المستهجن ان تنتزع القدس من سيادتنا المشروعة بحيث يضع مشروع التدويل هذ السيادة المشروعة على المستوى نفسه مع الاغتصاب الصهيوني المعتدي في وقت تقوم سيادتنا فضلا عن حقها المستمد من مبدأ السيادة القومية على المشاركة الرحبة السمحاء بين مختلف الفئات بينما تقوم اسرائيل على اساس عنصري مذهبي مطلق .

انه من الغريب المستهجن ان يكون تدويل القدس هو جزاء شعبنا الذي كانت الاماكن المقدسة دوما في حرز حريز تحت سيادته . ولقد شاهد قداسة الحبر الاعظم بنفسه - كما قال رئيس وزارة الاردن - حين قام بحجته الى قبر المسيح وغيره من الاماكن المقدسة في القدس القديمة ما تحاط به هذه الاماكن من توقير وما يتمتع به زوارها من حريات مصونة وما احيطت به زيارته بالذات من معاني الترحيب الشعبي والرسمي على كل صعيد . ان رفض العدوان الصهيوني عليها لا انتزاعها من سيادتنا هو الموقف المبدئي النزيه الذي ينتظر من الفاتيكان .

١٠ - دور البطريركيات الانطاكية

اننا نرى البطريركيات الانطاكية مدعوة الى اداء دور خاص منبثق من جوهر تراثها الروحي والقومي العريق . اننا نقترح بكل تواضع ان ندرس البطريركيات الانطاكية لمناسبة

زيارة قداسة البابــا امر التوجه الى لقائه في مدينة الله العظمى في انطاكية وتطلب اليه باسم عاصمتي المسيحية الاصليتين : القدس وانطاكية ان يقف في وجه التهويد والتدويل ولمصلحة عودة القدس الى مركزها الطبيعي في الوطن .

فاذا كان المقام البابوي له الاولوية في شؤون اللاهوت والايمان فللبطريركيات الانطاكية الرأي الاول والمشورة الاولى في شؤون تتعلق بكرامة الارض والتراث وعلاقتهما بالملايين من ابناء هذه البلاد من كل المذاهب والاديان فضلا عن مئات الملايين من العالمين العربي والاسلامي اللذين تحيا فيهما البطريركيات المشرقية . فلتضع بطريركيات انطاكية ثقلها المعنوي في الميزان فالوقت حرج وهذا هو دورها .

١١ ــ الاماكن المقدسة والعالم الاسلامي :

واخيرا فهذه الاماكن المقدسة بينها اماكن مقدسة اسلامية كريمة لا يجوز التفرد من مرجع ديني واحد ببحث مصيرها دون الوقوف على رأي عالم اسلامي كبير اعلن باجماعه تأييده المطلق لسيادتنا عليها ورفض اي مشروع آخر بشأنها .

ولقد اعلن المؤتمر المسكوني الفاتيكاني الثاني انفتاحه على العالم الاسلامي وسعيه الى اقامة الصلات معه بينما جاءت الخطوة بمشروع التدويل متضمنة تصديا صريحا لارادته ورأيه وتعارضا مع رأي مسيحيي المشرق الذين اعلن عدد من احبارهم ردهم لمشروع التدويل تجاوبا مع المشاعر الوطنية في البلاد وفي وجه مشروع يبدو غريبا لا يمثل رأيا عالميا شاملا مما يسيء تبنيه الى مقام روحي كالفاتيكان والمقام الداعي الى المسكونية العالمية والمفروض ان لا يسند الغرب ضد الشرق .

١٢ ــ جزء من تراثنــــــا :

وفضلا عن هذا كله واهم من ذلك كله كون هذه الاماكن المقدسة المسيحية والمحمدية على حد سواء هي جزء لا يتجزأ من تراثنا الروحي كله كانت المسيحية والاسلام رسالتيها الكونيتين الى العالم . وان انتزاع هذه الاماكن من سيادتنا طعن بمقدساتنا الروحية والقومية وبتراثنا الذي نعتز بتراث الروح المتفاعل بانفتاح ومحبة مع العالم .

واخيرا فان على الاعلام العربي ان يجهد باساليب مدروسة وفي المستوى لكسب الانتلجسيا الغربية المخدوعة بالخرافة اليهودية خاصة في اوساط المفكرين والكتاب

١٣ ــ الصداقة السوفياتية ثمينـــة جدا لكن مظلتنا الحقيقية في قوتنــا الذاتيــة :

لقد كان الموقف السوفياتي موضع نقد من عدد من المراجع العربية الثورية المتعاونة مع الاتحاد السوفياتي وذلك في الايام الاولى من النكسة . فلقد وجه الرئيس الجزائري نقدا شديدا اليه ودعاه الى موقف شجاع مع العرب كما ان بعض الصحف المصرية انحت عليه باللائمة .

صحيح ان الاتحاد السوفياتي قد وقف الى جانب القضايا العربية باستمرار في السنوات الاخيرة وامد الدول العربية بالسلاح والمعونات الاقتصادية لكسر اطواق الاحتكار الغربي . ومع ان موقفه ابان الازمة الاخيرة كان وديا ووصل الى حد قطع العلاقات مع اسرائيل ومساندة

وجهة النظر العربية في الامم المتحدة وكل هذا يدل على صداقة طيبة . لكن الامر الذي كان ينتظره حلفاؤه العرب منه كان اكثر من ذلك بكثير . ان يبادر الى نجدتهم ابان المعركة فعليا او يوجه انذارا بالتدخل المباشر ــ كما فعل عام ١٩٥٦ اذا لم تمتثل اسرائيل لوقف اطلاق النار. وشيء من هذا لم يحصل . ان تفسير الموقف السوفياتي كامن في مبدأ التعايش السلمي الذي يحرص عليه الاتحاد السوفياتي كل الحرص والذي بات هو بوصلته الدولية منذ المؤتمر العشرين . فسياسة التعايش السلمي التي يلتزمها السوفيات لا يجعلهم يتخطون حدود العون بالاعتدة والاسلحة في اي عراك اقليمي بالعالم . حتى في فيتنام الشيوعية يتحاشى السوفيات مجابهة التدخل العسكري الاميركي السافر بتدخل سوفياتي مجابه ضده وهم لذلك موضع اتهام الصين .

اننا من ضمن مبدأ المحافظة على الصداقة السوفياتية الثمينة وانمائها والاحتفاظ بكل صداقة دولية تفيد قضيتنا القومية وفي طليعتها صداقات شعوب العالم الثالث والمعسكر الاشتراكي ندعو الى بناء قوتنا الذاتية ليكون الاعتماد الاقوى عليها .

III-لا يغلب النظام الا نظام افضل

كل الحقائق المتقدمة تؤكد امرين لا يجوز ان يغيبا عن اعيننا للجولة المقبلة . اولا:ان الصداقات الدولية والمحالفات السياسية لها حدود تقف عندها فلا يجوز الاعتماد كليا عليها ولا حتى بصورة رئيسية . ثانيا:ان المظلة الوحيدة التي يجب ان نستظلها هي قوتنا الذاتية التي لا بد من بنائها بهدوء وتصميم وعزم .

وهذا يفترض ان تكون الثورة اعمق واشمل واغنى لتبني انساننا الجديد . ان المعركة الاخيرة لم تشترك فيها كل طاقات امتنا . ان الهيكل الثوري الفوقي لم يعمق بعد في كل العالم العربي ليشمل القاعدة الشعبية بقطاعاتها الواسعة . وهو لا يستطيع ان يشملها ما لم ينطلق من عقيدة اجتماعية ثورية شاملة .

اننا من ضمن مبدأ الصداقة والانفتاح على السوفيات وعلى المعسكر الاشتراكي لا يجوز ان نقبل بان تملأ الفراغ الا قوتنا القومية النامية اساس الثورية الجديدة .

لا ثورة بدون جيل جديد

وفي هذا المجال الاعمق نرى ان معركتنا ضد الاستعمار والصهيونية لا يجوز ان تكتفي بعفوية الاستجابة للتحدي بل علينا ان ننقل المعركة لتصبح في مستوى التحدي لتعميق الاستجابة لتصل الى ارساء الحكم والدولة في بلادنا الى جيل ثوري عقدي هو الذي افتقر وتفتقر الى مثله اكثر الانظمة العربية حتى الثورية منها . وهذا الجيل هو الزاد الذي لا غنى عنه وهو الذخيرة التي لا يربح بدونها عراك . فاذا كانت نكسة ١٩٤٨ هي نكسة الرجعية فان نكسة ١٩٦٧ هي نكسة الثورية غير المكتملة نكسة الافتقار الى جيل ثوري عقدي يرسى عليه الحكم والدولة في كل العالم العربي .

هذه هي المسألة الكبرى التي طرحها قبل ثلاثين عاما مفكر من بلادنا حين اعلن ان النظام لا يغلب الا بنظام اقوى وافضل ، فلن تغلب اسرائيل الباغية وهي دولة قامت على النظام وعلى التعبئة المعنوية والمادية الا بنظام قومي افضل نقيمه في بلادنا ويكون في مستوى التحدي . ان مثل هذا النظام القوي الافضل هو نظام ثوري بالضرورة لكن ثوريته لا يمكن ان تقتصر على

القمة بل يجب ان تنطلق من القاعدة حتى رأس الهرم .

فما هي ملامح هذا النظام الذي يحقق الثورية المكتملة المتفوقة بزخمها وشمولها على كل تحديات العدو ؟؟

الانتقال من الفرد :

لقد اعلن الرئيس عبد الناصر في خطابه . « ولقد كنت اقول لكم دائما ان الامة هي الباقية وان اي فرد مهما كان دوره ومهما بلغ اسهامه في قضايا وطنه هو اداة لارادة شعبه وليس هو صانع الارادة الشعبية . انني بذلك لا اصفي الثورة ، لكن الثورة ليست حكرا على جيل واحد من الثوار . »

بهذا الموقف قدم الرئيس عبد الناصر اعمق تحد للثورة المصرية التي حققت في ٢٣ يوليو ان هذا الموقف يكاد يكون اكبر من الحدث الثوري نفسه ، فالمحك الكبير لكل ثورة هو قدرتها على الاستمرار بعد غياب قائدها ومفجرها بالمعاني الثورية العميقة التي تملك نفوس المؤمنين بها في القاعدة الشعبية .

فشرط استمرارية الثورية اجتماعيتها وشمولية عقيدتها وارتكازها على كادر توري شعبي . دون العقيدة والنظام لا تستطيع الثورة ان تستمر بفعل ارادي مهما كانت صادقة .

وكم نتمنى ان تسود المجتمع المصري التوري وكل المجتمعات العربية المفاهيم الاجتماعية الداعية الى اعتبار الفرد (مجرد امكان اجتماعي) واعتبار المجتمع (هو الحقيقة الانسانية الكلية) والى التسليم بأن (الافراد يأتون ويذهبون اما المجتمع فباق)(١) لان هذه المفاهيم هي ارقى ما وصلت اليه الثورية الاجتماعية المعاصرة وبها ومنها يولد الانسان الثوري الجديد الذي يحيا، التقدم والتغيير ابعادا تتجاوز طاقة الافراد واعمارهم . لقد حققت التورات العربية ـ خاصة في مصر ـ خطوات هامة عددها الرئيس عبد الناصر في خطابه ان لجهة الاستقلال السياسي او لجهة الانماء الاقتصادي وعدالة التوزيع ولكن الذي به وحده تصبح الثورة نهضة والذي به يكون الاعداد للجولة الفاصلة انما هو بارتكاز الثورة لا على فئة من الثوريين بل يمتد لهبها فيحول القاعدة الشعبية كلها الى انسان ثوري جديد يعبىء طاقات الامة في نظام قومي يرتكز على عقيدة شاملة يفكر ويخطط ويعمل بعقلية متفوقة بتنظيمها الهادىء المسؤول وبتخطيطها الواسع الشامل وشحنتها النفسية مصممة على دك الكيان المتحدي .

مجابهة الصهيونية بفلسفة شاملة

واذا كانت الصهيونية فكرة عنصرية تشحن نفوس معتنقيها بعصبية عنصرية مهووسة وتجعل من معسكر العدو معسكرا عقائديا مؤمنا حتى في الباطل والاغتصاب والجريمة ، فان هذا الايمان مشحون يملأ النفس ويدفعها بزخم وقوة . اننا لا نستطيع ان نربح المعركة دون ان تتحول جبهتنا الى معسكر عقدي يشحن النفوس ويفولذها ويملأها بعقيدة قومية ذات مضامين اجتماعية شاملة .

يتحدثون في الاذاعة الرسمية عن الحرب النفسية التي يشنها العدو لبث التفرقة

---

(١) سعادة .

الطائفية او اثارة الاقليات او غير ذلك . ثم يكتفون بدحض الشائعات سلاحا وحيدا في هذه الحرب الدعائية وهو الادهى لانه سلاح سلبي لا يقدم شيئا ايجابيا كالذي تقدمه عقيدة شاملة تحل من الاساس في نفوس المواطنين كل المواطنين ، عقد الاقليات والاوطان العنصرية الطائفية فتهدمها وتزيل مسبباتها باقامة الولاء القومي الكامل للارض والشعب في تفاعلها التاريخي وتقيم الارادة الشعبية الموحدة على اساس الوعي القومي السليم .

مثل هذه العقيدة تبني الحصن النفسي ــ العقدي في القاعدة الشعبية وتقيم بالمعرفة والولاء والايمان الدروع الشعبية التي لا تخترقها الحرب النفسية بل تنطلق هي حافزا ودافعا يحرك القوى في كل جبهة وميدان بالشحنة النفسية العارمة . في معركة مصيرية من هذا النوع لا يجوز ان نحارب بافكار مختلفة عن طبيعة هذه المعركة : بعضنا يحارب منطلقا من مقررات الامم المتحدة التي نقضتها اسرائيل وبعضنا يحارب دفاعا عن الاماكن المقدسة وبعضنا يحارب دفاعا عن البيت والارض والعشيرة . ولاء واحد جامع يجب ان يفجر في النفوس فكرة الدفاع المستميت ولاء للارض ضد الاغتصاب ، ولاء للحق القومي ضد الباطل المعتدي ، وولاء للشعب بمجموعه بكل فئاته ، بوجوده المجتمعي الذي تخطى الفئوية بكل جزئياتها .

معارك الميدان تحتاج الى تفوق في السلاح النفسي الذي يحرك كل سلاح ويحقق كل انتصار . بالتفكير والتخطيط وتطليق الرومانسية الانفعالية . واذا كانت الحركة الصهيونية المعادية تعتمد في حربها التخطيط بتفكير علمي في الاساليب والخطوات المرحلية فلا يجوز ان نجابهها بالرومانسية او العاطفية او الارتجالية بل اننا مدعوون الى اعتماد العلمية والموضوعية اساسا لتفكيرنا القومي والسياسي والاستراتيجي . ان النكسة على ما فيها من مرارات والام كبرى تبقى لها فائدة واحدة اساسية يحسن بنا ان نقطف ثمارها بكل مسؤولية ولا نجعلها تفوت دون مبالاة او اكتراث . انها قد هزت اوضاعنا واظهرت الهشاشة والضعف فينا . فهي مناسبة فريدة لاعادة النظر في كل اساليب العمل العربي . فعلى صعيد العالم العربي ككل لا يجوز بعد اليوم سلوك طريق الانفعالات العاطفية والرومانسية في اي مطلب من المطالب الكبرى سواء الوحدة او الاعداد للمعركة او الثورية وابعادها .

لقد آن الاوان لاستلهام ضرورات المعركة والارتفاع الى مستويات التحدي وتحكيم العقل والتنظيم والشمول في كل ذلك . اننا ندعو الى تحقيق الجبهة العربية كيانا دفاعيا ــ اقتصاديا ــ عسكريا منبثقا من وحدات العالم العربي الطبيعية وناميا نحو صيغة اتحادية عربية اشمل .

اننا ندعو الى سياسة الاعداد المخطط للمعركة بكل ابعادها واحتمالاتها والى التصميم العازم على خوض معركة طويلة صعبة تنطلق من قاعدة شعبية واسعة معبأة بعقدنة ثورية شاملة .

التعبئة الكاملة

لا يجوز ان نحارب بعد اليوم دون ان تشمل التعبئة الكاملة الوطن والمغترب .
فالعدو قد نظم نفسه في حركة عالمية خطيرة انطلق منها الى اقامة كيانه العدواني .

ان معركتنا معه في المغتربات ــ وهي في مجالات العالم الثالث من اميركا اللاتينية الى

افريقيا الى اوسترالية ـ خطيرة ونتائجها تسهم كثيرا في نتائج معركة الوطن . لن نستطيع ان نخوض مثل هذه المعركة الشاملة دون تعبئة كاملة . فاذا كنا ندعو فاننا ندعو الى تعبئة نفسية على صعيد المغتربات حيث لم تعبأ كل القوى وحيث كان هم الدبلوماسية العربية على اختلافها ان تنشىء العصبية الخاصة لكل منها لا للقضية الكبرى وحيث لم يزل جزء كبير من تفكير الجامعة اللبنانية مثلا ينصرف الى الرابطة العاطفية مع لبنان اكثر من ادراك مصيرية المعركة الدائرة في فلسطين او ادراك الارتباط المصيري بين فلسطين ومصير لبنان .

الفصل الثاني

فلسطين أبعد من الحل السياسي والحل العسكري(١)

الحل السياسي في المستوى الدولي

تم في الامم المتحدة بعد طول مخاض اقرار « الحل السياسي » في صيغة المشروع البريطاني . وتنادت الدول العربية لتدارسه واتخاذ الموقف المناسب منه بعد ان رجح اعتبار المشروع البريطاني « غير كاف » عربيا دون رفضه من الاساس .

ومن الصدف العجيبة النادرة ان تكون بريطانيا صاحبة تصريح بلفور الذي بدأت به المشكلة الفلسطينية قبل خمسين سنة هي التي تقدمت بمشروع الحل السياسي الى مجلس الامن . تقول « التايمس » اللندنية في تعليق لها في ذكرى بلفور هذا العالم : « ان الوعد لم يكن بيانا عظيما وانما كان خليطا من المثالية والحذق « السياسي » الامبراطوري . وجاء في كلمات مطاطة اعتبرها المنتفعون به عقود ملكية لدولة جديدة » . وتمضي « التايمس » في تعليقها فترى ان تصريح بلفور ارتكز على بندين « انشاء وطن قومي لليهود » « والمحافظة على حقوق الطوائف الرئيسية غير اليهودية » . وترى ان البند الاول قد نفذ على حساب البند الثاني « فقد انتهى وجود عرب فلسطين وهم الطائفة الرئيسية من غير اليهود » . هذا ما تقوله « التايمس » في وصف اول تصريح بريطاني نشأت على اثره المشكلة الفلسطينية !

وثمة مفارقتان في هذا التعليق . اولاهما وصف « التايمس » لتصريح بلفور بانه « كلمات مطاطة وخليط من المثالية والحذق السياسي البريطاني » . وهذا يكاد ينطبق حرفيا على وصف المشروع البريطاني الاخير الذي اقره مجلس الامن . فقد حار اعضاء المجلس في تفسيره حتى ليمكن القول انه اشتمل على تفاسير عدد الدول الاعضاء . فمشروع الحل البريطاني الاخير جاء هو ايضا في « كلمات مطاطة وخليطا من المثالية والحذق السياسي الامبراطوري » . ولا ننسى في هذا الصدد ، مراسلات مكماهون ـ الحسين وقد احتملت اكثر من تفسير فهي سلمت بقيام دولة عربية مستقلة على ان لا يشتمل ذلك المناطق التي تقع ضمن التفاهم الانكلو ـ فرنسي فضلا عن تحفظات اخرى تنقض الاعتراف الاول .

اما المفارقة الثانية في تعليق « التايمس » وبالتالي في تصريح بلفور بالذات ، ففي النظر الى شعبنا في فلسطين على انه « الطائفة الرئيسية من غير اليهود » . بحيث يجرد في هذا الوصف من كل مشروعية الحق القومي للجماعة القومية السيدة الاصيلة في ارضها ويعتبر الامر لا امر الشعب السيد في ارضه القومية بل امر « طائفة من غير اليهود » . والمفارقة الكبرى انه بعد خمسين سنة من هذا التصريح تمكنت المؤامرة الصهيونية

---

(١) ظهر هذا الملف عن « دار النهار » في نيسان ١٩٦٨ بقلم قيس الجردي .

الاستعمارية بعد ان نفذت البند الاول فاقامت دولة « اسرائيل » من ان تقدم مسألة فلسطين في المحافل الدولية الى مسألة « تسوية عادلة » لموضوع اللاجئين وكاد المطمح الابعد لديبلوماسيتنا العربية ان يكون تنفيذ مقررات الامم المتحدة بشأن اللاجئين . اما الارض واما الشعب ، اما فلسطين كمسألة قومية فقد تقلصت وتراجعت الى الوراء .

رصيد المعركة والحل السياسي

هذه حقيقة لا بد من الاقرار بها في معرض تقييمنا للوضع الراهن في المنطقة ، صحيح من وجهة اخرى ان العالم العربي قد حقق بعض التقدم من ضمن الوضع الراهن السيء وصحيح ان العدو لم ينجح في فرض الصلح والاعتراف والمفاوضة كما انه فشل في اسقاط الانظمة العربية الثورية ، وتأكد له ان ليس في العالم العربي من يرضى او يجرؤ على قبول مصالحته رغم النصر العسكري الذي اقتنص ، فسقط بذلك وهم كبير كان يعيش العدو عليه في ان ينتزع بالقوة الصلح والاعتراف ، وتأكد له بالنتيجة ان العالم العربي لم يستسلم وان شعوبنا صامدة . كل ذلك جميل ورائع وكل ذلك كسب لا يستطيع احد من ضمن الظروف الراهنة ان يقلل من اهميته ولكن العدو ان لم يقتنص « الصلح » فقد اقتنص « السلم عندما قبلت اكثر الدول العربية بمبدأ « انهاء حالة الحرب » معه وحل هذا الشعار في المحافل العربية بدل فكرة استرداد الارض السليب المغتصبة عام ١٩٤٨ والتي كانت شعار العشرين عاما الماضية . فحتى لو تحقق انسحاب قوات العدو من الاراضي المغتصبة في حزيران ١٩٦٧ فانه قد استطاع على الاقل ان يحول البيان الثلاثي الذي كفل سلامة حدوده عام ١٩٥٠ الى بيان دولي صادر عن الامم المتحدة .

فحتى لو تحقق انسحاب قوات العدو من الاراضي المغتصبة في حزيران ١٩٦٧ فانه قد استطاع على الاقل ان يحول البيان الثلاثي الذي كفل سلامة حدوده عام ١٩٥٠ الى بيان دولي صادر عن الامم المتحدة .

كما ان المسألة الفلسطينية كأساس تراجعت وبرزت « اسرائيل » امام العالم كواقع مسلم به وتقلصت مسألة فلسطين الى مسألة لاجئين وممرات مائية وحدود مأمونة مستقرة لدولة العدوان .يقول ليفي اشكول في احدى تصريحاته الاخيرة الهامة في ٢٧ تشرين الثاني ١٩٦٧ : « اعتقد ان اهم تطور كان الاعتراف بحق اسرائيل في العيش بأمن وسلام » .

هذه نتائج النكبة وهي نتائج خطيرة الا ان الذي يبدد بعض غيومها هو ان العقل في بلادنا في حيرة والم وقد عصرته النكبة بات يتساءل عن طريق الصعود من الوهدة . وما هذا النقد الذاتي الذي يرتفع من هنا وهنالك وما هذه الاسئلة التي تتصاعد والابحاث التي تجري والمحاضرات والدراسات التي تحاول ان تعلل الاسباب وترسم مخططات المستقبل الا دليل المخاض الذي يحسه شعبنا في وجدانه في تلمس الطريق . كل هذا يطلع الامل المورق من عتمة ذلك الليل الداهم . فان نعرف ، هو منطلق لكل انقاذ كبير . فالمعرفة الصحيحة هي الطريق .

ان التساؤل الاساسي الذي لا بد من طرحه هو من المسؤول عن هذا كله ؟ حتما ليس الذين قبلوا الحل السياسي بمسؤولين اكثر من الذين رفضوه . فالحل السياسي كان مفروضا طالما تعذر ويتعذر الحل العسكري .

لقد انشغل العرب في الاونة الاخيرة في بحث الحلين المستعجلين : الحل السياسي والحل

العسكري . وطال البحث حولهما وكان لكل منهما انصار ومريدون وان غلب الاخذ بالحل السياسي في مؤتمر الخرطوم . ولكن النكبة ابعد من الحلين وهي بعد ان تكررت مرتين خلال عشرين عاما تحتاج الى ما هو ابعد : الى اعادة نظر اساسية في وجودنا وحياتنا ومصيرنا دون ان يعني ذلك التخلي عن الاعداد والعمل في مجال الحلين المستعجلين .

ولقد كان لخطاب الرئيس عبد الناصر في ٢٣ تموز ١٩٦٧ وما اعلنه من عنفوان الوقفة المتحدية في وجه النكبة وتحمله المسؤولية في الاعداد لازالة اثارها ، وما نقله بهذا الصدد من بشرى استكمال الاعداد العسكري الدفاعي والمضي في الاعداد الهجومي وما دعا اليه من تقوية الروابط العربية بتطوير الجامعة العربية ، كان لذلك كله ابلغ الاثر في النفوس . ففي كل هذا يجد الثوريون في العالم العربي على اختلاف عقائدهم وافكارهم وحركاتهم ، انهم في لقاء حميم مع الرئيس عبد الناصر في كل ما اعلنه من مواقف قوية في رفض الاستسلام للامر المفعول وفي الدعوة لتطوير العلاقات العربية في مستوى الجبهة المنيعة القادرة وفي اكمال الاعداد الحربي .

ولقد بات واضحا من مختلف التصريحات التي ادلى بها الرئيس عبد الناصر ان الذين ارتضوا الحل السياسي لم يسقطوا من حسابهم الحل العسكري ولكنهم ارادوا له العدة والتهيئة كما ارادوا ان يستنفدوا اولا وسائل العمل السياسي سواء اكان ذلك توفيرا في الطاقات او كسبا للوقت او محاولة في تبديل الموقف الدولي لمصلحتنا . فلقد كان الانطباع عن العالم العربي بعد الهزائم المتتالية انه كتلة عواطف فائرة لا تقترن بالعمل ولا بالواقعية . فانقلب وعيدنا الى فقاقيع صابون اثر كل هزيمة كانت تلحق بدولنا وبات شعار رمي العدو بالبحر بعد ان تجرد من امكانية التحقيق واقتصر على الكلام ، سيفا ذا حدين يقطع في كرامتنا من جهة ويقطع في سمعتنا الدولية من جهة ثانية .

المسؤولية على عشرين سنة

كل هذا لا بد من تسجيله حتى يأتي البحث موضوعيا خاليا من الانفعال والعاطفية والسلبية . فاذا كنا نسجل لاصحاب الحل السياسي ذلك كله فلا نستطيع من جهة ثانية ان نقول اننا في احسن حال ، فنحن ازاء نكبة خطيرة لا يمكن التقليل من شأنها ولا بد من الغوص في تحليلنا الى الاعماق لنتلمس الاسباب البعيدة ، وهي ابعد من الحل السياسي ، وابعد من الحل العسكري ولنتأمل في النتائج المترتبة عن ذلك كله .

ففي رأينا ان مسؤولية الوصول الى النكبة اولا ومن ثم الى وضع ما بعد النكبة الذي بات يتضمن في احسن حالاته قبول المحافل العربية الرسمية انهاء حالة الحرب مع دولة العدوان وتسويات اخرى مهما كانت بعيدة عن الاستسلام الا انها تحمل في طابعها العام معاني الانكسار ، ان مسؤولية ذلك كله تقع على عشرين سنة او اكثر من الانظمة العربية التي فشلت في الاعداد لما سمي « الجولة الثانية » ، كما تقع على العقلية العامة السائدة التي لم تحقق الانقلاب العقلي الضروري لتحقيق الثورية الكاملة القادرة ان تعد الاعداد الشامل للمعركة . ونعني بالاعداد ، الاعداد الكامل الشامل لقدرة الشعوب على الصمود وتعبئتها وتنظيمها وتحقيق وعيها النضالي والعقدي وبناء وحدتها الاجتماعية والقومية وقيام قدرتها البشرية المتفوقة نفسيا واعدادا لاستخدام السلاح والتدريب . ان المسؤولية تقع على الانظمة القائمة كلها — بمن فيها الذين يلوحون بالحل العسكري العاجل . ذلك لان الحل العسكري لا يمكن ان يكون الا احد حلين فأما حل هجومي يستطيع دك معالم العدوان وازالة اثاره وهذا يفترض قدرة

عسكرية هائلة لم تكن متوافرة لدى الدول العربية قبل العدوان ولا يمكن توافرها بعده بالسرعة التي نادى بها اصحاب الحل العسكري ، او حل دفاعي يستجر العدو الى معركة ، ويصمد في الدفاع صمودا طويلا قادرا على تلقي الضربات وتقديم التضحيات دون استغاثة ولا استسلام حتى ينزف العدو وينهار وهذا معنى حرب التحرير الشعبية .

فهل ارسى دعاة الحل العسكري مؤجلا كان ام معجلا حلهم ذاك على هذه القواعد ؟ هل ارسوا البناء العسكري على بناء شعبي وسياسي قادر ؟ اننا من الراي القائل ان ما يؤخذ بالقوة لايسترد الا بالقوة ، فالقوة هي القول الفصل في احقاق الحق القومي ولكن القوة هي اشمل من مجرد الاعداد العسكري ، انها قوة الانسان الذي يمسك بالسلاح ويحركه : فهل بنينا الانسان الذي يمسك بالسلاح ؟ هذا السؤال يواجه دعاة الحرب الشعبية كما يواجه دعاة الحرب الكلاسيكية .

لقد اعلن الرئيس عبد الناصر ان المرحلة مرحلة اعداد للهجوم اذا فشل الحل السلمي ولكن الاعداد لا يمكن ان يقتصر على الجانب العسكري فالدولة التي تحارب هي التي تفسح المجال لكي تكون حربها حرب الشعب كله . وهذا لا يتم الا بتوافر الطاقة الثورية التي تلف القواعد الشعبية . ان المسؤولية تكبر على قدر الاهداف الكبرى التي نتطلع اليها .

ولقد دعا الرئيس عبد الناصر الى مؤتمر قمة خامس يبدو ان المساعي لعقده تتعثر وبالتالي يتعثر معها امر الحل السياسي على مستوى عربي . فعدا تلكؤ عدة دول عربية عن حضور ذلك المؤتمر في الظروف الراهنة ولكل اسبابها **فلقد جاء بيان منظمات الفدائيين الفلسطينيين برفض سياسة مؤتمرات القمة والحل السياسي يشكل اول بادرة تمرد فلسطينية على وصاية الملوك والرؤساء العرب منذ دعا هؤلاء الفلسطينيين الى وقف ثورة ١٩٣٩ .**

ان الحل السياسي من ضمن الظروف الراهنة ، مهما كان ، لا يمكن الا ان ينطلق في حال حصوله من القبول بتنازلات مبدئية وعملية هامة لا يمكن للثوريين القبول بها ، وكذلك فان الحل العسكري العاجل في ظروف العالم العربي يبدو اقرب الى المزايدة الكلامية .

تبقى الشعلة التي اضاءها ببطولة ، الفدائيون الفلسطينيون ، ولكن معركة تحرير فلسطين تحتاج الى اعداد اعمق واشمل لا يقتصر على الفلسطينيين . انها معركة بناء القوة العسكرية والاقتصادية وقبل ذلك بناء الانسان الجديد في بلادنا كلها وفي العالم العربي .

كيف يمكن للحل السياسي ان ينجح وقد سارعت اسرائيل بعد اشهر من المفاوضات في سبيله ، تلتهم الضفة الغربية وتعتبرها جزءا من اراضيها في وقت كان قد بدا التفاؤل في الجانب العربي بامكان نجاح مهمة يارنغ ، وكانت قد اخذت الاذاعات العربية تصور كيف سجل اليهود تراجعا بقبولهم التفاوض بالواسطة بدل التفاوض المباشر ؟

ان مؤتمر القمة اذا ما انعقد بعد هذا التأخر الطويل فلكي يدرس مواجهة اسرائيلية جديدة بضم الضفة الغربية لدولة العدوان ، بعد ان انقسم العرب طوال هذه المدة بين التفاؤل بالحل السياسي والتشاؤم به .

فماذا اعد العرب لمواجهة هذا الوضع الجديد ؟ ماذا اعد اصحاب الحل العسكري الذين تشاءموا بالحل السياسي ورفضوه ، وماذ اعد اصحاب الحل السياسي ؟

الثورة المصرية امام تحديات النكبة

لا نستطيع ان نتصور ان المعركة هي مجرد سلاح وتدريب وقوى مسلحة ، انها اوسع من ذلك واشمل . ان النكبتين اللتين حلتا بالعالم العربي في ١٩٤٨ و ١٩٦٧ تؤكدان ان المعركة اوسع واشمل من مجرد جيوش تتصارع : انها تتناول حياتنا كلها . وفي هذا المجال ندعو الى الحل الجذري لتغيير حياتنا تغييرا ثوريا شاملا يكون في مستوى التحدي ومستوى العصر والمصير . ان دعوتنا هذه لا تتعارض مع التهيئة والاعداد الماديين الحربيين الضروريين ولكنها لا تكتفي بهما . انها تكمل الاعداد المادي الضروري بان ترسيه على قواعد اسلم واقوى : على قاعدة الانسان الناهض القادرة على الفعل في الاحداث وصنع التاريخ : على الارادة الشعبية الثورية الفاعلة . فلا يمكن ان ينهض بناء عسكري سليم الا على بناء شعبي وسياسي واقتصادي سليم وعلى عقلية جديدة . فهل قامت هذه الاوضاع في اي من الدول العربية ؟

لقد اعلن الرئيس عبد الناصر ان مصر استعادت قوتها العسكرية . وهذه بشرى يتلقاها بالترحيب كل ابناء العالم العربي ولكن القوات المسلحة كما اعلن الرئيس عبد الناصر في خطاب ٢٣ يوليو لا يمكن فصلها عن الشعب . فالبناء العسكري جزء من البناء الشعبي . ولقد اعلن الرئيس عبد الناصر في خطابه في ٢٣ يوليو انه ينوي اعادة النظر في البناء السياسي والشعبي في الجمهورية العربية المتحدة ليحقق مزيدا من النقاء الثوري واعتبر ان صلة اساسية تقوم بين اعادة البناء السياسي والشعبي وبين الاعداد للمعركة . ولقد اعلن كذلك الرئيس عبد الناصر في خطابه الاخير في ٢٣ تشرين الثاني ان الارادة الشعبية هي التي حولت الهزيمة الى صمود بعد ٩ حزيران وبالتالي فان الارادة الشعبية عوضت عن خسائر الميدان واثبتت في وقت كان الرئيس نفسه ، كما قال ، يعتقد ان هذه الارادة قد سقطت تحت اثار الصدمة ، انها اقوى من الصدمة . « وكنت اعتقد انه لن يكون هناك رد فعل لخطاب التنحي لاني كنت اشعر بالصدمة التي يشعر بها كل واحد من ابناء الوطن ... كنت اعتقد ان الشعب بعدما هزمت قواته هزيمة عسكرية سريعة بهذا الشكل سيفقد الامل الى حد كبير في قدرتنا على الصمود وعلى المقاومة . وكنت اعتقد نتيجة لهذا ان الشعب سيرحب بالحلول السلمية سواء مع الولايات المتحدة او مع الدول العربية المعادية لنا . وكنت اعتقد ان الشعب سيرى في جمال عبد الناصر عقبة في هذا . ولذلك قررت ليلة ٨ حزيران التنحي واعلنت القرار يوم ٩ حزيران . ان اعداءنا كلهم كانوا متوقعين ان ننهار تحت وطأة الصدمة . وفي هذا الوقت خرج الشعب ليؤكد قوة ارادته التي لا تقهر رغم اية خسارة في المعدات او الارض » . (خطاب الرئيس عبد الناصر في ٢٣ ت ٢) .

هنا اذن ظاهرة جديدة . فالارادة الشعبية التي لم يكن يحسب لها دور كالذي مارسته في ٩ حزيران تحركت بحماستها الوطنية العفوية وانتزعت من اشداق الهزيمة الصمود وقد هزها حبها لبلادها وتأييدها لمنجزات الثورة ومواقفها العزيزة هزا عفويا .

والرئيس عبد الناصر في موقفه هذا الاخير من عدم التعويل على الارادة الشعبية بحيث فوجىء بها في موقفها الرافض للامر المفعول هو غيره بعد نجاح حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ عندما كان يعول على الارادة الشعبية التعويل كله في ان تجترح المعجزات : « لقد كنت اتصور قبل ٢٣ يوليو ان الامة كلها متحفزة متأهبة ، وانها لا تنتظر الا طليعة تقتحم امامها السور ، فتندفع

الامة وراءها صفوفا متراصة منتظمة تزحف زحفا مقدسا الى الهدف الكبير ... بل لقد كان الخيال يشط بي احيانا فيخيل الي اني اسمع صليل الصفوف المتراصة واسمع هدير الدفع الرهيب لزحفها المنظم الى الهدف الكبير ، اسمع هذا كله ويبدو في سمعي من فرط ايماني به حقيقة مادية ، وليس مجرد تصورات خيال .. ثم فاجاني الواقع بعد ٢٣ يوليو ... قامت الطليعة بمهمتها ، واقتحمت سور الطغيان ، وخلعت الطاغية ، ووقفت تنتظر وصول الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة الى الهدف الكبير .. وطال انتظارها ... (فلسفة الثورة ـ عبد الناصر) .

من هذه المثالية الطوباوية في تصور تحول الجماهير الى ارادة شعبية ثورية قادرة بمجرد حصول الانقلاب الذي تقوم به الطليعة وخلع « الملك الطاغية » وما عقب ذلك التصور من انتظار طويل لم تتحرك فيه الجماهير « في زحفها المنظم الى الهدف الكبير » عبر تجارب هيئة التحرير فالاتحاد القومي الى الاتحاد الاشتراكي ، نتيجة ذلك كله تغير ايمان القائد بعد هذه التجارب ، بهذه الارادة الشعبية حتى بات يعتقد في اعقاب ٥ حزيران واحداثه المفجعة ان هذه الارادة الشعبية قد سقطت تحت الصدمة الكبرى وهي التي لم تستطع ان تحدث التغيير الثوري طوال السنين .

الحلقة المفقودة في الثورة المصرية

سر هذا التحول في تقدير قيمة الجماهير الشعبية يعود الى ان الحلقة المفقودة في صلة الرئيس بالجماهير الشعبية هي حلقة الحزب الثوري الذي لم تمارس مصر الثورة بعد خبرته .

ان الارادة الشعبية التي صمدت في يوم ٩ حزيران كان بامكانها ان تنتصر في يوم ٥ حزيران لو توافرت لها شروط معينة بقيام المؤسسات الثورية والعقيدة الثورية الشاملة فالحماسة الوطنية والثورية العفوية ليستا مثل الكفاح المعقلن الذي لا بد منه في معركة مصيرية من هذا النوع ضد عدو عقلن كفاحه ونظم نفسه تنظيما مصيريا دقيقا .

لقد كانت دوما مشكلة الثورة المصرية ان النخبة الثورية في القمة تفتقر الى جيل عقدي ثوري ترسى عليه الثورة والحكم والدولة . فلقد صاحبت هذه المعضلة ظروف الثورة المصرية منذ قيامها . فهيئة الضباط الاحرار لم تستطع ان تكون بديلا عن التنظيم الثوري . والتنظيم الثوري رغم اهمية الخطوة التي تبلور عنها الاتحاد الاشتراكي المرتكز على ميثاق شبه ايديولوجي ، بقي بحاجة الى النظرة الثورية الشاملة والى الحزب الثوري الطليعي .

ولقد ساد تفكير الثورة المصرية منذ البداية موقف سلبي من التنظيم الحزبي والعمل الحزبي متأثرا ومنفعلا اولا بخبرة مصر قبل الثورة في الاحزاب الشخصية البورجوازية الاقطاعية التي مثلت تكتلات شخصية فارغة المضمون الاجتماعي فكان حلها وتجاوزها عملا ثوريا سليما وبالتالي كان من جملة ظاهرات القضاء على حكم تحالف الرأسمال والاقطاع . وثانيا مفهوم ماركسي ، تأثرت به الثورة المصرية ، يربط بين الحزب والطبقة بحيث اصبح تجنب العمل الحزبي نوعا من تجنب التكتل الطبقي .

وهذان المفهومان قصرا عن ادراك ظاهرة الحزب الثوري المعاصر الموحد في صفوفه المواطنين ايا كانت اصولهم الطبقية في تنظيم ثوري صاهر يرتكز على نظرة ثورية جديدة .

ولقد ادى هذا الموقف السلبي من العمل الحزبي الى مضاعفات سادت علاقة الثورة المصرية مع الاحزاب الثورية في الهلال الخصيب التي كان يمكن ان تكون حليفا طبيعيا للثورة المصرية .

كما ادى هذا الموقف السلبي في مصر الى عدم قيام التنظيم الثوري الحزبي الذي تستند اليه الثورة . فقد اعلن الرئيس عبد الناصر قبل سنوات قليلة وابان محادثات الوحدة الثلاثية : « احنا ما بنعتبرش الاتحاد الاشتراكي حزب .. احنا عملنا التنظيم السياسي ده فقلنا لو سمينا نفسنا حزب الحقيقة نبقى ما بنعبرش التعبير الحقيقي ... ولكن احنا تحالف .. تحالف قوى الشعب العاملة لان في داخل هذا الحلف فيه تناقض .. بهذا جنبنا البلد في الحقيقة حاجات كثيرة .. احنا الاول كنا نفكر في تحديد عدد اعضاء الاتحاد الاشتراكي ، حناخذ كنا حوالي يمكن ٣٠٠ الف ٤٠٠ الف . لكن عجزنا عن ذلك .. السبب هو البلد كلها بتقول احنا معاكم . نقول لهم لا مش عايزينكم . احنا عزلناكم .. او عايز بس ٣٠٠ الف .. فعلا اتقدم ٥ مليون ، ترفض ٤ ملايين و ٧٠٠ الف وتأخذ ٣٠٠ الف ؟ العملية بهذا الشكل غير طبيعية لان بعد ١١ سنة فيه تأييد جماهيري من الناس للثورة . المطلوب هو تنظيم هذا التأييد وخلق اسلاك موصلة او اتصال بين القاعدة وبين هذا التأييد الجماهيري » (جلسة ١٩ آذار ١٩٦٣ من مباحثات الوحدة) ولكن هذه الاسلاك الموصلة بالتأييد الجماهيري لم تكن حزبا ثوريا طليعا بل تنظيما جماهيريا موسعا منطلقا من فكرتين : ١) عدم عزل الجماهير عن الثورة ، ٢) انه بعد مدة على انتصار الثورة وتحقق منجزاتها « الناس مع الثورة » .

ان مشكلة الثورة المصرية الاساسية هي انها تهتم بتوسيع قاعدة الديمقراطية قبل الاهتمام بتعميقها . بينما لا يمكن تحقيق توسيع القاعدة الديمقراطية في المجتمعات النامية الا بعد تعميقها في الطليعة الثورية . وصحيح ان الثورة المصرية تجد نفسها منذ البدء في وضع صعب لجهة تعذر انشاء حزب ثوري من فوق بل نشوئه بصورة عفوية من الشعب ، ولكنها لم تحاول حتى رغم هذه الصعوبة انشاء هذا الحزب لانها لم تقتنع بأن الحزب الثوري هو سبيل الثورة وقاعدتها . فالفكرة الاساسية التي تنظم تجارب هيئة التحرير والاتحاد القومي والاتحاد الاشتراكي رغم تباين خطوط كل منها . ترتكز على مسألتين . اولا عدم الوعي لدور الحزب الثوري الطليعي في بناء النفوس وارسائها على قاعدة ثورية جديدة ، لكأنما الجماهير بمجرد تأييدها للثورة تصبح قادرة على العمل الثوري بحيث تغدو منطلقه وقاعدته وحركته الفاعلة ، وبالتالي قصر عضوية الحزب الثوري وقف على نخبة طليعية وكأنه عزل لهذه الجماهير او وقف تأييد للثورة على اقلية من الشعب . مع ان المسألة ابعد من ذلك وهي ليست مسألة تحكم اقلية بأكثرية – بل هي مسألة اعمق . فالديمقراطية في المجتمعات النامية الناهضة من التخلف لا يمكن ان تكون ديمقراطية جماهيرية منفلشة تمثيلية تمثل الوضع النفسي – العقلي للجماهير بل ديمقراطية انشاء وبناء تتولى فيها النخبة عبر الحزب الثوري – اداة التعبير عن الثورة – عملية رفع الجماهير الى مستوى الثورة باطلاق الوعي العقدي الجديد والتثقيف النفسي والفكري بين مجموعها وانشاء الاطار السياسي القائد لها .

ان عمل الحزب الثوري الطليعي في المجتمعات الراكدة الحديثة النمو ، هو تفجير كل سدود المجتمع التقليدي واطلاق حيوية الامة وفاعليتها لتعبر هوة التخلف السحيقة ، هوة اجيال طويلة ، بأسرع ما يكون ، مسلحة بالوعي ومدرعة بالفكر الجديد وبالعقلية الجديدة .

ان عملية لم الملايين وجمعها بانتظار حصول التغيير العقلي – النفسي – المناقبي بمجرد

اطلاع هذه الجماهير على الميثاق او تأييدها لمنجزات الثورة ، عملية ناقصة . ولقد تأكد نقصها اكثر من مرة واعلن الرئيس عبد الناصر برجولة مسؤولة في اعقاب نكبة ٥ حزيران الدعوة الى اعادة البناء السياسي والشعبي في مصر على اسس من النقاء الثوري والطهارة الثورية . غير ان فشل هذه التجارب تكرارا واضطرار الرئيس عبد الناصر بنفسه الى تولي الاشراف على الاتحاد الاشتراكي يجب ان يؤكد ان الفشل لا يعود الى القيادات وضرورة تغييرها بقدر ما يعود الى قواعد العمل الثوري كلها .

لقد قللت الثورة المصرية من اهمية الحزب الثوري واعتبرت ان بامكانها التحقيق بدونه ونهجت نهج التنظيم الجماهيري الواسع المستغني عن حزب ثوري طليعي يشكل الطليعة الفاعلة في الشعب والنامية ابدا من تفاعلها الحي مع القواعد الشعبية . فان كان لا يجوز اقامة حزب منعزل عن الشعب متسلط عليه فلا يجوز من ناحية ثانية في البلدان النامية سلوك مسلك الانفلاش الجماهيري المتجاوز دور الحزب الطليعي من حيث نشره بين مجموع الشعب افكاره وثوريته ، وعمله على رفعها الى مستواه الثوري .

لقد افتقرت الثورة المصرية الى الخميرة الثورية الشعبية التي يؤمنها وجود الحزب الثوري الطليعي ودوره القيادي الخطير في بناء وانشاء الديمقراطية التعبيرية التي ترفع الشعب من التخلف الى النهضة ، وضاعت تدابير الثورة لهذه الجهة بين الحكم العسكري وبين اقامة المنظمات الشعبية التمثيلية التي تضم الملايين دون ان تستطيع تغييرها وبناءها من جديد .

ثانيا : لقد وقعت الثورة المصرية تحت فكرة ان الحزب بالضرورة يمثل مصالح طبقية واعتقدت ان الاتحاد الاشتراكي او الاتحاد القومي انما هو الصيغة التنظيمية المثلى للتعبئة الشعبية باعتبارها تتحاشى ما يعتور الحزبية من طبقية . وهذا المفهوم اضعف مفاهيمها القومية الاساسية . فلقد اعتبر الرئيس عبد الناصر في الميثاق ان « التحالف الطبقي » لقوى الشعب العاملة هو اساس الوحدة الوطنية التي تمثلها الدولة الثورية . وهذا المفهوم للمجتمع والدولة هو في اساس التناقض المبدئي الحاصل في فكرة الثورة المصرية . وهو ما سنعرض له بصورة اوفى عند بحث مفهوم الثورة الاجتماعية في اخر هذه الدراسة .

معضلة الفكر الثوري

كما ان محاولة الغربلة التي انتهجتها الثورة المصرية عبر التجارب انطلاقا من محاولة هيئة التحرير فالاتحاد القومي الى الاتحاد الاشتراكي كانت غربلة تلتزم الحدود الطبقية لا غربلة ايديولوجية وثورية ومناقبية وهي مستلزمات قيام الحزب الثوري الطليعي النخبوي . فمفهوم الطليعة الثورية لا يرتكز الا على مقاييس الوعي العقدي الثوري والمستوى المناقبي المنبثق منه . وهذا تماما هو المفهوم الذي قال به لينين بالذات . فلا يكفي عزل الاقطاعيين والرأسماليين عن الاتحاد الاشتراكي ليصبح هذا التنظيم ثوريا ما لم يعتمد المفاهيم الثورية الطليعية ومقاييسها في تكوين النخبة الطليعية من جماهير الشعب .

من كل هذا يتبين ان عملية اعادة البناء الشعبي والسياسي في مصر تتطلب الانطلاق من مفاهيم نهضوية اخرى تتجاوز الحدود التي التزمتها الثورة المصرية وتتجاوز حتى الفكر الماركسي الذي حاول بعض المتأثرين به انتظار قيام قاعدة عمالية ثورية من خلال الظروف الموضوعية التي تخلقها العلاقات الانتاجية الجديدة . هذا ما يقول به الدكتور منيف الرزاز في

تحليله الثورة المصرية (كتاب التجربة المرة) .

غير ان هذا يفترض ان تغيير علاقات الانتاج من شأنه ان يقيم القواعد الثورية بينما الواقع السائد في العالم المتخلف هو ان القواعد التورية هي التي غيرت علاقات الانتاج .. والحزب الشيوعي الصيني لم ينتظر نشوء البروليتاريا الصينية بل انشأها هو بعد انتصاره وتصنيعه الصين .

ان الفكر الثوري هو الذي ينشىء الحزب الثوري لا علاقات الانتاج المتغيرة . فلقد اعلن لينين في كتيبه « ما العمل » ، ان النضال الاقتصادي ينشىء نضالا نقابيا بينما الثورة تولد على ايدي التوريين العقديين الذين احترفوا الثورة . من هنا نرى ان معضلة الحزب الثوري في مصر هي معضلة الفكر الثوري والنضال الثوري اكثر من كونها معضلة علاقات الانتاج . ان تكون البروليتاريا – القاعدة العمالية الجديدة – في مصر لن يفضي – من ضمن هذا المنطلق الاقتصادي نفسه – الى نشوء الحزب الثوري بل الى نشوء الاحزاب التطورية الاصلاحية ذلك انه في الغرب حيث قامت اوضاع اقتصادية متقدمة تحولت الاحزاب الثورية الى احزاب تطورية اصلاحية .

ان ولادة الحزب الثوري ابعد من الشأن الاقتصادي وحدوده لانها تتعلق بالنهضة الشاملة لحياة مجتمع بأسرها ومن ضمنها الاقتصاد . والنهضة تولد من فكر ثوري جديد لا من الظروف الاقتصادية بصورة آلية بل باستيعابها من ضمن النهوض التوري الشامل . وهذا ما وقع في عكسه « القوميون العرب » عندما عددوا في بيانهم بعد النكسة اسبابها فوجدوا ان في طليعة الاسباب هو التركيب الطبقي للقوى الثورية العربية بحيث لم تستطع البورجوازية الصغيرة ان تكون في مستوى المرحلة الحالية وبحيث يتوجب لمتابعة الحرب مع الاستعمار الجديد « انتقال مقاليد القيادة الى الطبقات والفئات الاجتماعية الكادحة الاشد جذرية في مقاومة الاستعمار وحلفائه المحليين بحكم مصالحها وطبيعة ايديولوجيتها » (ص ٢٤ من بيان حركة القوميين العرب بعد النكسة) .

ان الربط الأول بين التركيب الطبقي والموقف الثوري امر تخلت عنه الشيوعية المعاصرة نفسها بعد ان اعلن لينين ان النضال الثوري – الايديولوجية الثورية – غير مرتبطة بالتركيب الطبقي البروليتاري بل انها تعطي البروليتاريا من خارجها – من المثقفين الثوريين الذين ينتمون الى البورجوازية الصغيرة . فحتى لينين لم يعتبر ان الايديولوجية الثورية منبثقة « من الطبقات والفئات الاجتماعية الكادحة » بل اعتبر هذه الايديولوجية منبثقة من المثقفين البورجوازيين الثوريين . وبالتالي غير موقوفة على طبقة . واذا كان الكادحون هم مادة التورة فلكي يتحولوا الى وقيدها لا بد من الفكر والتنظيم الثوريين ، من الحزب الثوري .

وهكذا يبدو ان « القوميين العرب » بربطهم بين الثورية والطبقية قد اصبحوا ماركسيين اكثر من لينين وهم يعودون بهذا المفهوم الى البيان الشيوعي الذي اصدره ماركس وانكلز عام ١٩٤٨ .

ان الايديولوجية الثورية الجذرية ليست ايديولوجية طبقة او طبقات بل هي ايديولوجية الحزب الثوري الطليعي المتوجه الى الامة كلها ، يريد تبديلها تبديلا توريا في كل علاقاتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وفي كل مفاهيمها النفسية والمناقبية والفكرية ، ومن ضمنها اوضاع الاستغلال المادي والبلبلة النفسية .

ظاهـرة ٩ حزيـران والحـزب الثوري

ان الظاهرة الشعبية التي انفجرت في ٩ حزيران على غير توقع من النظام الحاكم نفسه وقد جرحتها الكارثة والعدوان فانطلقت تؤيد استمرار الرئيس عبد الناصر وترفض الاستقالة اي تصون الكرامة القومية ضد العدوان الخارجي ، هي نفسها عادت فانطلقت في ٢٥ شباط ايضا دون توقع السلطة ، تطالب بحل الاتحاد الاشتراكي ومجلس الامة معلنة ان هوة واسعة تقوم بين النظام القائم ومؤسساته وبين الارادة الشعبية الحقيقية .

وفي هذا يقول عدد من النواب المصريين اثناء مناقشات مجلس الامة حول اسباب التظاهرات الطلابية والعمالية « ان اسبابها تعود الى الفراغ في تنظيم السياسة الداخلية للبلاد وعجز الاتحاد الاشتراكي عن الاندماج مع الجماهير ، وخاصة العناصر الشابة ، اندماجا فعالا ، وضعف اطارات الشباب ونقص التنسيق بين المنظمات الشعبية والسلطات ، والارتجال في بعض القطاعات والبطء في اصلاح الاخطاء المرتكبة » (مناقشات مجلس الامة ـ الصحف اول آذار ١٩٦٨) .

والخطير في هذا الامر ان هذه الظاهرة الشعبية ليست ارتدادا عن الثورة الى الرجعة تقوم بها بقايا الاقطاع القديم او الرأسمالية المقلوبة بل هي اكثر ثورية في قاعدتها وتطلعاتها من النظام القائم لانها تنطلق من القاعدة العمالية والطلابية المفروض ان تكون عماد الثورة ومرتكزها الاساسي .

كل هذا يؤيد بوضوح ما ذهبنا اليه من ان الثورة المصرية لم تزل تعاني من عقدة افتقارها الى قاعدة شعبية ثورية ومن ان اصطناع التنظيم من قبل السلطة لم يؤد الى الغاية المنشودة .

لقد جاءت هذه الظاهرة الشعبية الجديدة في مصر في خضم التطورات العربية المختلفة بعد نكبة حزيران لتؤكد بالتجربة الحية خطأ الاتجاه الذي اعتقد بأن الزعامة الملهمة هي الظاهرة التي اخذت تحل محل التنظيم الحزبي في العالم العربي كبديل عن الحزب الثوري في تعبئة الجماهير واستقطابها .

لقد دافع عدد من الكتاب عن امكان ذلك كان بينهم انيس صايغ في كتابه « في مفهوم الزعامة السياسية : من فيصل الاول الى عبد الناصر » الصادر قبل سنتين والذي عاد فيه المؤلف بتفكيره « التقدمي » الى جمال الدين الافغاني يستوحي نموذجه في « القوي العادل » ليرى ان هذا النموذج قد تحقق فعلا في هذه السنوات ، وان هذه الزعامة الملهمة التي كان من « حسن حظها » ان ترتقي « السلم نحو الحكم والزعامة في اعقاب حرب فلسطين (١٩٤٨) اي بعد ان مني العرب بأكبر خسارة في تاريخهم الحديث .. وكانت خيبة امل المواطن العربي بالزعامات وانظمة الحكم السياسية قد بلغت ذروتها بعد تلك الحرب .. » (ص ١٧٩ من الكتاب) ، هي البديل عن الاحزاب واي تنظيم شعبي آخر⁽¹⁾.

لقد جرفت النكبة الاخيرة في حزيران ١٩٦٧ ثم الظاهرة الشعبية الجديدة المنفجرة في اعقابها كل هذه الافكار والمفاهيم الهشة التي نادى بها انيس صايغ وامثاله وظهرت جزئية تفكير اصحابها وارتجاليتهم وانفعاليتهم ووقوعهم تحت مركب شرقي قديم هو التبخير للسلطان اكثر من التقييم الموضوعي المفروض في اصحاب العلم ورجال الفكر . فمصر الثورة هي نفسها

---

(١) ولان الثورة لم توجد لها تنظيمها حل فرد كما السادات في تولي الزمام مكان قائد الثورة فاجهضها

تعيد اليوم التقييم في ذلك كله وتتعالى الاصوات في مجلس الامة بالذات منتقدة « الفراغ في تنظيم السياسة الداخلية للبلاد » ومعلنة عجز مؤسسات الثورة « عن الاندماج في الجماهير » .

اننا مع الرئيس عبد الناصر في ضرورة الحفاظ على الثورة بكل منجزاتها وتطلعاتها التقدمية ، واننا معه في رفضه الرجوع الى الوراء الى حكم تحالف الاقطاع والرأسمال ولكن لا بد من تحقيق ما وعد به من نقاء ثوري باكمال الثورة وتأليقها فلا تخنقها البيروقراطية ولا تشلها المؤسسات الفاشلة غير المعبرة عن ارادة شعبية حقيقية ولا تشرنقها الشعارات المفتقرة الى مضمون فكري واضح والى خطة عمل كاملة .

ان المطالبة بحل الاتحاد الاشتراكي دون تقديم بديل ، كما قال الرئيس عبد الناصر ، هو موقف سلبي . ولكن البديل في رأينا هو ارساء الثورة على اسس جديدة قادرة ان تستوعب ثورية القواعد الشعبية بالانبثاق منها والتعبير عنها وقيادتها قيادة منهجية واستشراف المستقبل بدل الانفعال بالحاضر ، والانطلاق من وضوح عقدي وفكري شاملين . ان ذلك يستلزم ان ينمو التنظيم الشعبي الثوري الجديد في ظل عطف الشعب لا في رعاية السلطة . فهيئات الاتحاد الاشتراكي القيادية معينة من قبل السلطة وهي المفروض ان تكون منبثقة من داخل التنظيم الثوري نفسه .

ان ازمة الاتحاد الاشتراكي الاولى هي انه يعاني بطبيعة نشأته من معضلة مزدوجة : فهو ليس حزبا ثوريا طليعيا جرى قيامه وتنظيمه على اسس ثورية تراعي مقاييس النخبة المناقبية والنضالية فتقوم من ضمنه ديمقراطية مفتوحة وتنبثق قيادته من قاعدته في تفاعل متكامل بل هو تنظيم جماهيري واسع يضم الملايين وقد توخت قيادة الثورة الحاكمة من اتساع قاعدته ان تؤمن الديمقراطية ، ولكنها عادت فمارست عليه وصاية واسعة من فوق . فهي منحته ديمقراطية القاعدة لجهة الانفلاش على الملايين ولكنها حرمته عمليا من ممارسة هذه الديمقراطية عندما عينت هي القيادة بقرارات من فوق وخططت له كل شيء .

وفارق كبير بين ان يكون الاتحاد الاشتراكي هو الحزب الحاكم فيكون امتدادا لارادة الشعب في الحكم فيؤدي دور الحزب الثوري الذي يعبر عن الشعب في الحكم وبين ان يكون كما هو الان تنظيما هو اقرب ان يكون امتدادا لارادة الحاكم في الشعب . لقد كانت نكبة حزيران منعطفا خطيرا فسقط بنتيجتها حكم « طبقة عسكرية سياسية » كما وصفها الرئيس عبد الناصر كانت مهيمنة على الثورة انطلاقا من اسهامها في صنع يوم ٢٣ يوليو . وكان المفروض ان تحل محل هذه الطبقة العسكرية بعد سقوطها مؤسسات الثورة السياسية والشعبية كالاتحاد الاشتراكي ومجلس الامة ولكن ظهر جليا بعد شباط واحداثه ان هذه المؤسسات ليست في مستوى الثورة . والتحدي الان امام الرئيس عبد الناصر ان يخلق الثورة من جديد . وهو تحد يتطلب فكرا ثوريا شاملا .

اننا مع كل الثوار ، نشجب الثورة المضادة ، ولكننا نستعير تعبيرا ثوريا لميشال دوبريه فندعو في مصر الى « ثورة في الثورة » أي اقصى الثورية . فهل تستطيع مصر ان تحيا ثورة في الثورة ؟ فتجتاز تناقضات الحاضر وتراكمات الماضي الى طريق مفتوح نحو الغد ؟

لقد وجه رئيس الاتحاد العام للعمال في حلوان نقدا عنيفا محقا الى عقدة البيروقراطية في النظام القائم ليدلل على ضرورة تلبية حاجات الثورة ومطالب قواعدها الشعبية باكمال الثورة وارسائها على الشعب وانمائها في مناخه الحر . وفي هذا المجال نرى ان الحرية تنمو في ظل

الاشتراكية ولا تناقض معها خاصة اذا ارست الثورة نفسها على قاعدة شعبية ثورية تصون الثورة بالارادة الشعبية الحرة لا بالزجر . فلقد اسقطت الثورة مؤخرا « دولة المخابرات » وحمل الرئيس عبد الناصر على ما اسماه « بطبقة عسكرية سياسية متحكمة » وأعلن قيام « المجتمع المفتوح » بعد نكبة حزيران . كل ذلك يدل على ان الثورة استطاعت ان تسير منذ النكبة في طريق الحرية دون ان يكون العسف الذي اسقطته وهاجمته ، من مستلزمات الاشتراكية .

انه من الخطير جدا ان يظن بأن بمقدور « الحزب الرجعي » تسيير مظاهرات طلابية وعمالية ضد نظام الثورة المفروض فيه ان يرتكز على تأييد هذه الفئات الفتية في المجتمع وهو الذي حقق الثورة الصناعية والاشتراكية . ان هذا القول يتضمن حقيقتين خطيرتين : اولا : الشك بالقواعد الشعبية الطلابية والعمالية وقدرتها بعد ١٢ سنة من منجزات الثورة على رفض تضليل « الحزب الرجعي » ثانيا : الحكم الذي لا يقبل الجدل على الاتحاد الاشتراكي بالفشل التام في ان يحصن هذه القواعد الشعبية ضد سموم « الحزب الرجعي » واضاليله .

ان حماية الثورة من اعدائها في المراحل الاولى ضرورة ثورية على ان تستطيع الثورة بمكاسبها ومنجزاتها ان تتحرر من كابوس الخطر الدائم عليها بتوليد الارادة الشعبية الملتفة حولها ، المؤمنة بها ، المعتبرة ان الثورة ثورتها لا شيئا مفروضا عليها من خارجها .

... والحل العسكري يفتقر الى الحل الجذري

بعد ٩ اشهر على نكبة مصيرية كبرى ، مثل نكبة حزيران لم تتحقق اية خطوة لتوحيد القوى وتنسيقها على اساس واقع الجبهة ومتطلباتها الجغرافية والاستراتيجية ولم يزل الشعور بوحدة المصير وقفا على ساحات المعركة ثم ينطوي بعد توقف القتال لتعود اوضاع التجزئة فتتحكم بمصير الجبهة التي تفتقر الى التنسيق والتخطيط الشاملين . ولم يزل دعاة الوحدة من الخليج الى المحيط يعجزون عن تحقيق وحدة عسكرية بين الاردن والشام والعراق تعزز الجبهة الشمالية وتجعلها في قدرة الطاقة الحربية الموحدة الداعمة لجبهة مصر والحاملة عنها الكثير من الاعباء . كل ذلك لان العقلية الرومانسية قد عطلت المفاهيم فامتصت الشعارات الزخم النفسي بدل ان يحقق العقل الواعي معجزة التخطيط الملبي لمتطلبات المعركة .

اذا كنا نرى ان دعاة الاعداد للحرب الكلاسيكية مدعوون الى اكمال البناء الشعبي الثوري وارساء اعدادهم الحربي عليه فهذا ينطبق بالتالي اكثر على دعاة الحرب الشعبية التي يصبح دور الشعب فيها اوسع واشمل .

لقد دعت الجمهورية العربية السورية الى الحل العسكري العاجل فهل حققت البناء السياسي والشعبي القادر على احتضان الحل العسكري ؟ لقد اتخذ مؤتمر حزب البعث مقررات حول اعتبار حرب التحرير الشعبية هي السبيل لازالة اثار العدوان ورفض العمل على اساس مؤتمرات القمة والعودة الى القاعدة الجماهيرية الثورية واعتبار معركة الثورات العربية الاشتراكية ، والدعوة الى وحدة عربية تقوم على اساس طبيعة انظمة الحكم واتجاهاتها وتكليف القيادة القومية لحزب البعث بالدعوة الى مؤتمر يضم جميع الاحزاب والقوى والمنظمات التقدمية في العالم العربي لبحث الموقف واتخاذ خطوات التعاون اللازمة معها والاستمرار في موقف مقاومة الاستعمار والصهيونية .

هذه هي اهم مقررات مؤتمر حزب البعث وهي مقررات خطيرة تتصف بالطابع المبدئي

الثوري وتستحق المزيد من الاهتمام . والحقيقة ان هذه المقررات كانت تستحق التأييد في اكثرها لولا مسألتان خطيرتان تعطلان قيمة هذه المقررات في الاساس وهما اولا : افتراق المبدأ عن العمل واختلاف الشعار عن الواقع في اكثر هذه المقررات بحيث تسقط قيمتها لمجرد انها لا تمثل واقعا عمليا ثوريا قادرا على تحقيقها فتغدو شعارات مفتقرة الى المضمون العملي . وهذه اخطر نقطة في نقد هذه المقررات كلها كما سنبين في الاسطر القليلة الاتية . ثانيا : التناقض الذاتي الذي تحمله هذه المقررات نفسها بحيث يتأكد انها مجموعة من المبادىء والشعارات غير المتناسقة وغير المتجانسة وبالتالي غير المنطبقة وغير العملية . مثال على ذلك الدعوة الى وحدة عربية مع الدول العربية الاشتراكية من جهة و « تخوين » بعض هذه الانظمة العربية الاشتراكية لقبولها الحل السياسي . « هل يمكن ان يحدث انشقاق بين قوى الثورة العربية حول موضوع المقاومة والكفاح المسلح في هذه الظروف ؟ الجواب ببساطة : كلا . لان المقياس الحقيقي الثوري العربي في هذه الظروف هو استعداده للمقاومة والقتال والتضحية وحينما يرفض اي طرف ثوري ان يقاتل فانه بذلك لا يحدث انشقاقا في صفوف القوى الثورية ، بل يفقد في الاساس صفة الثورية وبالتالي يساهم في بلورة الوضع ، ويزيل الغشاوة عن الاعين .. » « الحل السياسي يعني ببساطة : الاستسلام امام الامر الواقع ثم القبول بالتفاوض والمساومة بشكل مباشر او غير مباشر » (الطليعة البعثية الدمشقية في ٥ ايلول ١٩٦٧) . فما معنى وحدة الانظمة العربية الاشتراكية طالما ان بعضها من جهة ثانية يصنف على انه مستسلم ومتواطىء ؟

اما بصدد المسألة الاولى ، مسألة افتراق المبدأ عن العمل ، واختلاف الشعار عن الواقع فيتجلى الامر بوضوح في أنه سبق للحكم القائم أن دعا الى اعتماد حرب التحرير الشعبية والكفاح المسلح والى اكثر من هذه الشعارات التي يرددها اليوم وذلك قبيل حرب حزيران الماضية . وهذه الاساليب هي الافضل والاكثر مبدئية وثورية شرط ان تتوافر لها القوة القادرة على فرضها . ولقد كانت اذاعة دمشق قبل اندلاع الحرب الاخيرة تملأ الاسماع بأن « الجماهير العربية ملت الانتظار ، وانها تريد الحرب لتحرير الارض المغتصبة فورا » ولكن الشعار لم يتجسد عمليا في التجربة الحربية التي تلت فكيف يمكن العودة اليه بعد الهزيمة وعلى اي اساس وبأية اساليب ؟ وما هو التغيير الذي حصل منذ هزيمة حزيران حتى يطمئن الناس الى ان الشعار هذه المرة سيقترن فعليا بالنتائج المرجوة ؟

أساس المشكلة ان لحرب التحرير الشعبية مستلزمات لا نراها تتوافر في الانظمة القائمة فحرب التحرير الشعبية كما ابتدعها ماوتسي تونغ ، وكما جربها بنجاح هوشي منه ضد قوى دولية ضخمة ، هي تلك التي تعتمد البؤر الشعبية العقدية **المنظمة القادرة على تحريك قطاعات واسعة من الشعب معها . فالكفاح المسلح يسمى بحرب تحرير شعبية لانه وان حركته النخبة الثوريه الا انه يلقى تجاوبا شعبيا واسعا . وهذا يستلزم ان يطمئن النظام الثوري الى قاعدته الشعبية الواسعة المتجاوبة معه وان يطمئن ثانيا الى فعالية عقيدته وافكاره وشمولها النظري والعملي .**

ان الحزب الشيوعي الصيني الذي خاض حرب التحرير او الحزب الفيتنامي الثوري هما حركات نشأ كفاحها المسلح على صعيد القاعدة الشعبية الواسعة المتجاوبة مع اطارها الثوري كما ان كفاحها قد تدرع بالشمول العقائدي والنظري لابعاد المعركة .

ما لم يحدث انقلاب جذري في الحياة العربية

اذا كانت التجربة المصرية تشكو من الجماهيرية التي لم تعبأ في حزب ثوري طليعي فان الحاكم الحزبي الذي يشكو من عزلته عن الجماهير والقاعدة الشعبية الواسعة يعاني من نقص كبير . ذلك لانه اذا كانت تراعى قواعد النخبة الطليعية في قيام الحزب الثوري فان الجماهير هي خبزه اليومي والشريان الاوحد ليجدد حياته من قاعدتها الشعبية كما ان تجاوب جماهير الشعب معه واطمئنانها اليه وثقتها به والتفافها حوله هي مستلزمات قيادته الثورية لها ..

أما على صعيد العقيدة ، فلقد أعلن المؤتمر القطري المنعقد عام ١٩٦٣ « ولم نهتم بمسألة الفكر الحزبي وبمدى وضوح النظرة التقدمية الى الحياة .. كان عندنا خيط من العقائدية ولكن ظروف العمل القاسي هي التي تركتنا نقوم بهذا العمل .. وكتبت نشرات لا تفسر لكنها تتساءل : ما هي الاشتراكية في الحزب ، وما هو تكوينه ؟ » ١٨/٩/١٩٦٣ . فالبعث الذي كان له السبق بين القائلين بالقومية العربية الى رفع شعار الوحدة والحرية والاشتراكية أخذ يقدم المضامين العقدية والفكرية لهذا الشعار في مؤتمراته الأخيرة التي بدأت توضح هذه المفاهيم .

لقد اختار الحكم في دمشق الحل العسكري ردا على هزيمة ٥ حزيران ولكن هل يقدم البناء السياسي والشعبي القادر على احتضان حرب التحرير الشعبية ؟

تقول مجلة الطليعة البعثية الدمشقية الصادرة في ١٧ تشرين الأول ١٩٦٧ : « يجب الاعتراف ان الوعي العسكري لدى الجماهير العربية ما زال وعيا بدائيا بل هو أقرب الى الحدس والغريزة منه الى الوعي .

« فالى جانب ضعف الوعي العسكري العربي ، هناك نوع من التقصير في تحويل كل مواطن الى جندي يعرف دوره قبل المعركة ودوره في المعركة ، ويمارس هذا ممارسة جدية .

« وذلك يفتح مهمة احداث انقلاب جذري في الحياة العربية وبدون هذا الانقلاب سيكون الحديث عن حرب الشعب حلما جميلا في أحسن الحالات » .

فبعد أشهر من اعلان دمشق أخذها بالحل العسكري ارتفع هذا الصوت منها يقول الحقيقة ، كل الحقيقة ، بانه ما لم يحدث « انقلاب جذري في الحياة العربية » فسيكون الحديث عن حرب الشعب « حلما جميلا في أحسن الحالات » .

هذا الانقلاب الجذري في حياتنا ، ما هو ؟ وما هي معالمه وقواعده ومناحيه ؟ ولما لم يتم حتى الان ؟

لقد كان البحث يدور حتى الان في الحل المستعجل الملح الواجب اتخاذه لمواجهة « آثار العدوان » فانقسم العرب رسميا بين الحلين السياسي والعسكري ، فريق قبل الحل السياسي وهو الاكثرية فكان منطقيا مع نتائج عشرين سنة من عدم الاعداد الكافي للحل العسكري ، وفريق نادى بالحل العسكري ولكنه اعترف مؤخرا بأن هذا سيكون « حلما جميلا في احسن الحالات » ما لم « يحدث الانقلاب الجذري في الحياة العربية » .

هنا تتلاقى الافكار والاراء والاجتهادات حول انه بدون هذا الحل الجذري فلا الحل العسكري الظافر ممكن ولا الحل السياسي يحصل الا على مستويات التسوية والقبول بالامر

المفعول وان تفاوتت درجة هذا القبول من رفض الاستسلام الى القبول ببعض الامر الواقع الحاصل .

فلنتوجه اذن الى هذا الحل الجذري الذي سبق ان دعونا اليه في تموز الماضي بالقول : « وفي هذا المجال الاعمق ، نرى ان معركتنا ضد الاستعمار والصهيونية لا يجوز ان تكتفي بعفوية الاستجابة للتحدي . علينا ان ننقل المعركة لتصبح في مستوى التحدي بتعميق الاستجابة لنصل الى ارساء الحكم والدولة في بلادنا ، على جيل ثوري عقدي هو الذي افتقرت الى مثله أكثر الانظمة العربية حتى الثورية منها . وهذا الجيل هو الزاد الذي لا غنى عنه ، وهو الذخيرة التي لا يربح بدونها عراك . فاذا كانت نكسة ١٩٤٨ هي نكسة الرجعية فان نكسة ١٩٦٧ هي نكسة الثورية غير المكتملة، نكسة الافتقار الى جيل ثوري عقدي يرسو عليه الحكم والدولة في كل العالم العربي .

هذه هي المسألة الكبرى التي طرحها قبل ثلاثين عاما مفكر من بلادنا حين أعلن ان النظام لا يغلب الا بنظام قومي افضل ، فلن تغلب اسرائيل الباغية وهي دولة قامت على النظام ، وعلى التعبئة المعنوية والمادية الا بنظام قومي أفضل نقيمه في بلادنا ويكون في مستوى التحدي . « ان مثل هذا النظام القومي الافضل هو نظام ثوري بالضرورة . لكن ثوريته لا يمكن ان تقتصر على القمة بل يجب ان تنطلق من القاعدة حتى رأس الهرم .

ان الذي به وحده تصبح الثورة نهضة والذي به وحده يكون الاعداد للجولة المقبلة الفاصلة انما هو ارتكاز الثورة لا على فئة من الثوريين بل بامتداد لهبها فيحول القاعدة الشعبية كلها الى انسان ثوري جديد يعبىء طاقات الامة في نظام قومي يرتكز على عقيدة شاملة » .

في سبيل الحل الجذري محاولة الدكتور زريق

ولقد ظهر بعد النكبة الاخيرة في شهر آب المنصرم كتاب للدكتور قسطنطين زريق بعنوان « معنى النكبة مجددا » يطرح امر الحل الحضاري للنكبة وهو يدعو الى « تبدل اساسي في الوضع العربي ، وانقلاب تام في اساليب تفكيرنا وعملنا وحياتنا بكاملها ، يكفل قيام كيان عربي متقدم قادر على ان يدرأ الخطر الصهيوني بل اي خطر اجنبي ، ويتغلب عليه ، ويتيح للشعوب العربية اسباب البقاء والكرامة » . ولقد سبق للدكتور زريق ان دعا الى مثل هذا « التبدل الاساسي في الوضع العربي » قبل عشرين عاما في كتابه « معنى النكبة » ويبدو ان ما دعا اليه لم تحققه التغييرات الحاصلة في انظمة الحكم العربية خلال العشرين سنة الماضية والا لما كانت النكبة الثانية ولما كان كتابه الجديد « معنى النكبة مجددا » واذ به يدعو الى « قلب المجتمع العربي قلبا جذريا وسريعا من مجتمع انفعالي توهمي ميثولوجي شعري الى مجتمع فعلي تحقيقي عقلاني علمي » . (ص ١٧). وهو يدعو الى « العلم والانتاج » ، ولكنه يرى ان هذه الدعوة ليست « دعوة سهلة » فهي تتطلب اشياء كثيرة يجملها بقوله : « وبكلمة مجملة انها تتطلب انقلابا عقليا جوهريا وثورية فكرية جذرية يقضيان على تخلفنا الذاتي ويسريان منا الى مجتمعنا فيقضيان على تخلفه ، ويجعلانه مجتمعا عقلانيا مبدعا » (ص ٤٣) وهو يرى اننا نعاني من « الضعف النضالي » اذ لا يكفي « التخلف العلمي » لتبرير النكبة « فثمة شعوب ــ كالشعب الجزائري والشعب الفيتنامي ــ ناضلت وتناضل شعوبا تتفوق عليها تفوقا هائلا في العلم والتقنية ووسائل الحرب الحديثة ومع هذا فقد صمدت في وجهها ، وفازت في الجزائر ، وما تزال صامدة لا تلين في فيتنام » (ص ٦٢) .

ويعلل الدكتور زريق سر نلك الصمود على النحو التالي « في رأينا ان الروح النضالية تنبعث من مصادر متعددة في النفوس ، وتقوى وتضعف تبعا لقوة هذه المصادر وصفائها او نضوبها وكدورتها . من هذه المصادر وضوح الغاية وتغلغلها في النفس وبروزها في الذهن على اية غاية اخرى »(ص ٦٢) والى جانب « وضوح الغاية وتغلغلها في النفس » يرى الدكتور زريق ضرورة « تحقيق هذه الارادة الواحدة في صفوف الشعب ، فتعم افراده وتتغلغل في جميع فئاته وطبقاته »(ص ٦٧) . ويقتضي ذاك ان « يعرف كل فرد من افراد الشعب دوره في المعركة ، ويتدرب عليه ، ويبادر اليه في الدقيقة التي يدعو فيها الداعي او تنطلق صفارة الخطر . ماذا كانت كثرتنا تفعل ابان القتال ؟ كانت تمضي في اعمالها العادية اذا استطاعت نلك... » ويمضي الدكتور زريق متسائلا « أين هذا من التعبئة الشعبية المنتظمة ، القائمة على الارادة الواحدة ، التي حسبت كل طاقة في المجتمع ، ووضعت كل فرد في موقعه من المعركة ، وعينت له دوره فيها ، ودربته عليه ، وجعلت من الامة كيانا منيعا متماسكا يتحرك تحرك الالة الدقيقة والعقل المنظم ؟؟ » (ص ٦٩) .

ويرى الدكتور زريق ان « من مصادر الروح النضالية ارتباطها بالدار والارض والوطن » (ص ٧٠) « مما يقوي الروح النضالية ، ممارسة النضال واخذ النفس بما يتطلبه ، ان الروح النضاليه القاهرة لا تأتي بنت يومها ، بل تنبت من الكفاح الصابر المديد وتتغذى بالعطاء والتضحية . ويبدو اننا لم نعط بعد قدر ما يجب ، ولم نتعود بذل التكاليف الباهظة في سبيل ما نصبو اليه » (٧٥) . واذا كانت العقلية الثورية من مقتضيات نهضة هذه الشعوب في هذا الدور من حياتها ، وفي هذه المرحلة من الحياة الانسانية » (ص ١١٨) « فان العقلية الثورية الصحيحة هي التي تنبع من ثورية عقلية ، اي هي التي تتخذ ثورية العقل مثالا لها وبليلا » (ص ١٢١) نلك « ان كل انطلاق في سبيل تحصيل حق من الحقوق الانسانية قد سبقه انطلاق فكري نبه اليه ودعا الى النضال من أجله وهيأ العقول والنفوس لتقديره والسعي لاكتسابه . وكل ثورية لا تستند الى قناعة فكرية خالصة والى مبادىء قد اثبت العقل صحتها وغرسها في صميم النفوس تبقى معرضة لاخطار الانحراف عن مقاصدها او اضاعة مكاسبها . » (ص ١٢٢) .

كل هذا الذي يقوله ويريده الدكتور زريق جميل ورائع · سواء دعوته الامة الى تحقيق انقلابها العقلي الشامل او قيام تعبئتها الشعبية المنظمة المرتكزة الى روح نضالي والمنطلقة من ثورية عقلية او ايمانه بضرورة « ارتباط الروح النضالية بالدار والارض والوطن » . ولكن الاقوال المبدئية السليمة تبقى دون قيمة اذا لم تتجسد عمليا في حركة تحقق هذه الاهداف . ان الاطلاق والتعميم بين النهضة وبين الوعظ والارشاد هو فارق التحقيق والتجسيد المرتكزين على التعيين والوضوح .

ولنسأل الدكتور زريق بماذا اسهم هو وغيره من كبار المثقفين في تحقيق هذا الانقلاب العقلي في حياتنا باقامة الروح النضالية السليمة ؟ الم يهب في كتابه « الوعي القومي » الصادر عام ١٩٣٨ « بقادتنا ومفكرينا » وهو منهم ان « يقوموا بهذه المهمة الخطيرة في حياتنا القومية » واعتبر انه من « النقص الشائن » انهم لم يرسموا رسالتنا الخاصة بصورة لا يشوبها غموض او ابهام »(ص ٤٠) . فماذا فعل الدكتور زريق منذ نلك الحين لايضاح « رسالتنا الخاصة » وهو «من قادتنا ومفكرينا » ؟

بل ان هذا الانقلاب العقلي الذي يطلب تحقيقه ، من يحققه وكيف يتحقق ومتى يتحقق ؟

من وكيف ومتى ؟ هذه الاسئلة التي بدونها لا يتحقق شيء ولا قيمة لشيء في حدود الزمان والمكان وفي حياة الانسان . واضح من استمرار دعوة الدكتور زريق الى الانقلاب العقلي في حياتنا سواء بعد النكبة الاولى عام ١٩٤٨ او بعد النكبة الثانية عام ١٩٦٧ ان هذا لم يحصل بعد وان الانظمة العربية لم تحدثه بعد وبالتالي ان الثورية العربية لم تزل باوضاعها الراهنة تفتقر الى كل هذا الذي يفتقده الدكتور زريق ولا يجده بدءاً من الثورة العقلية حتى الروح النضالي المعبىء الشعب كله .

هنا نصل الى جوهر الموضوع . اذا كان دعاة الحل السياسي قد قبلوا به لانهم يحتاجون الى اعادة البناء الشعبي والسياسي والحربي الذي بدونه لا يكون الحل العسكري واذا كان دعاة الحل العسكري العاجل قد باتوا يعتقدون ان حلهم لن يتجاوز حدود الحلم ما لم يرتكز الى تغيير جذري في حياتنا ، واذا كان المفكرون والمثقفون يرددون مع خلدون الحصري والدكتور زريق مطالبين « بالحل الاساسي » او « الحل الحضاري » ويدعون الى « الانقلاب العقلي » والتغير الذي تولده « الثورية العقلية » فواضح من هذا كله ان مجتمعنا والعالم العربي يعيش مخاضا كبيرا ، مخاض النورة الحقيقية . الثورة العقلية والاجتماعية التي تقلب حياتنا لتصبح في مستوى التحدي لقد مر معنا من خلال استعراضنا لملامح النظامين الثوريين المصري والشامي ان الاول رغم منجزاته الكبرى في حقول تحدي الاستعمار والتحرر السياسي والعدالة الاقتصادية والاجتماعية والانماء القومي الاقتصادي لم يزل يفتقر الى النظرية الثورية والى الحزب الثوري الطليعي اللذين بدونهما لا نستطيع تعبئة الجماهير تعبئة عقدية ثورية . فقد ظهر للنظام المصري بعد ٩ حزيران قيمة الظاهرة الشعبية التي انتزعت الصمود من اشداق الهزيمة بثوريتها العفوية على غير توقع النظام نفسه . وبات هذا منطلقا هاما لاعادة نظر كبرى في علاقة النظام الثوري الحاكم بالقاعدة الشعبية في عملية اعادة البناء السياسي .

ولكن هذا لا يعني ان الثورية قد فشلت . اننا نرفض هذه المسلمة التي يحاول ان ينطلق منها التفكير الرجعي والاستعماري . ولكننا ندعو الى اقامة الثورية الاشمل بدل الثورية غير الكاملة . الثورية الاشمل هي وليدة التعيين والوضوح في كل شيء .

كيف يتحقق الحل الجذري ؟

فالدكتور زريق وعدد من رجال الفكر والعلم ــ يريدون ان تتحقق المعجزة وتتحول حياتنا من جحيم الاتكالية والقدرية والاستسلام الى نعيم العقلانية والثورية والنضالية والعلمية ، كل نلك بقفزة سحرية دون المرور بالوسائل الانسانية الضرورية لتولد النهضات وقيام الثورات وتحقق التغييرات الكبرى في التاريخ . يريدون ان نكون مثل فيتنام وينسون ان الذي يحرك فيتنام هو حزب ثوري عقائدي وان النضال والروح النضالية لا يولدان الا من مفاهيم جديدة ، مفاهيم فكرية وعقلية ومناقبية جديدة تقرن القول بالفعل ولا تفصل بين الفكر والعمل بل تختزن في ثوريتها هذه الوحدة العضوية بين المبدأ والتحقيق : « حينما تعني المبادىء حياة الامة الجيدة ، المرتقبة ، في هذا العراك ، نحن مستعدون كلنا للتضحية لكن الذين يسقطون يظلون جزءا من الكل يسقط في سبيل الكل ، حتى اذا تحقق خير الكل وجد الكل في هذا التحقيق ما يرضي القيم الانسانية العليا التي يفيض خيرها على مجموع الشعب تحقيقا لما يتمنى المرء في نفسه لامته اولا ولنفسه ثانيا ، وليس لنفسه اولا ولامته ثانيا . »⁽١⁾هذا هو الطريق الذي ترسمه

---

(١) سعـــادة

الثورية المؤمنة لاتباعها في وحدة الفكر والعمل من اجل ان يتجسد الايمان صراعا لا ينتهي .

نحن امام حقائق موضوعية نتيجة هذا التلهف عند الجميع ، مفكرين وقادة وانظمة ، لقيام الثورة الاشمل التي تقلب حياتنا وتغيرها تغييرا جذريا . اولى هذه الحقائق ان هذا التغيير لم يتم حتى الان على صعيد الدول والانظمة والحياة العربية العامة ولذلك كانت الدعوة لقيامه . هذا ما يقرره الدكتور زريق وما يؤكده خلدون الحصري وما يلتقي معهما محمد حسنين هيكل في العديد من مقالاته لا سيما عند وصفه العدو بانه عصري وتقدم وان علينا مواجهته بما يفوق تقدمه وعصريته او يضاهيه على الاقل .

بين تغيير الاوضاع وتغيير الانسان

ان السؤال الذي يطرح هو الى اي حد تمكنت الثورات العربية من تحقيق ذلك ولماذا كانت النكبة اذن ؟

لقد تمكنت الثورات العربية ، خاصة الثورة المصرية من العمل على تحديث اوضاع المجتمع لا سيما الاقتصادية والانمائية كما انها غيرت علاقات الانتاج لمصلحة العدالة الاجتماعية وحققت خطوات هامة على صعيد مجابهة الاستعمار والتحرر السياسي ، وهذه خطوات ثورية يلتقي معها دون ريب جميع الثوريين في العالم العربي . وفي هذا نحن نلتقي مع الثورة المصرية لقاء حميما في اوسع اطارات الجبهة الجبهة العربية الصادقة الصامدة .

ان ما حققته الثورة المصرية في مجالي التحرر السياسي والاقتصادي او ما حققه غيرها من الانظمة الثورية العربية يشكل ثورة في اوضاع عالمنا العربي الا انها كذلك من زاوية تقييم نسبي للثورية منطلق من حالة الاوضاع السابقة التي قلبتها ، اكثر من انطلاقها من الثورية الاساسية ومقاييسها العامة .

ذلك ان ثورات العالم العربي في السياسة او الاقتصاد لكونها لم ترتكز على مفاهيم ثورية جذرية ، الى تغيير اساسي في حياة وعقلية وتطلعات ومفاهيم المجتمع ، فقد بقيت ثورات غير مكتملة كما وصفناها من قبل ، ثورات لم تصل الى مرحلة النضج الثوري والشمول والتكامل الثوريين(١) . وهذه الثورات ليست كلها في النسبة الثورية نفسها ، فبعضها لا يستطيع ان يحمل هذا الوصف اذا قيس بالمقاييس الثورية الحق . وبعضها اقترب اكثر من المقياس الثوري السليم .

ولقد طرحت نكبة حزيران الكثير من اعادة النظر في مقدار الثورية في كل من الثورات العربية . فارتفعت في مصر الدعوة الى النقاء الثوري ، والطهارة الثورية في اعقاب ما اعتبر انه اعراض وورم للسلطة البيروقراطية ووصف في وثيقة رسمية بـ « ديمقراطية المخابرات » . فالافتقار الى القاعدة الثورية الشعبية الجأ الحكم الثوري الى البيروقراطية العسكرية لفرض

---

(١) يقول ياسين الحافظ ، احد ابرز المفكرين القوميين العرب في كتابه « التجربة التاريخية الفيتنامية ــ تقييم نقدي مقارن مع التجربة التاريخية العربية » الصادر عن « دار الطليعة » في آذار ١٩٧٦ وفي الصفحة ٣٣ ما يلي « ويكمن القول ، دونما خوف من الوقوع في خطأ جسيم ، ان الفكر والايديولوجية السائدين في كتلة الانتلجنسيا العربية يذكران بالمستوى الذي كان في فكر ايديولوجيا الانتلجنسيا الفيتنامية في العقدين التاسع والعاشر من القرن الماضي لا شك ان الفتح الناصري كان ايجابيا على صعيد التحرر السياسي من الامبريالية ، غير ان الارضية الايديولوجية للحركة القومية العربية بقيت تنويعة تقليدية من حيث الاساس ، وهذا ما سهل عملية ضرب الانجاز السياسي ، عملية بلغت ذروتها في عدوان حزيران ١٩٦٧ . »

مشيئته . وما التدابير التي اتخذت في اعقاب نكبة حزيران لازالة هذا الوضع الا دليلا على المأزق الصعب الذي كانت تعاني الثورة منه غياب الحزب الثوري والذي لم يستطع الاتحاد الاشتراكي ان يسد غيبته .

وفي العراق لم تزل الثورة تعاني من وضع انتقالي . فلم ترس نفسها بعد على مؤسسات مستمرة ولم يزل دستورها مؤقتا ، وهي تبحث عن قاعدة ، فلا نجحت محاولات محاكاة الاتحاد الاشتراكي المصري ولا ارست الثورة نفسها على اية قاعدة شعبية سياسية قائمة في العراق . كما ان الثورة تفتقر الى نهج واضح والى منجزات هامة في الحقل الاقتصادي . وحتى الانتلجنسيا العراقية التي اشتركت في الحكم الثوري من اللواء العقيلي الى الدكتور البزاز ، اصبحت ، لا سيما بعد نكبة حزيران ، من اشد منتقدي الحكم القائم .

هذا لا يعني ان الثورة لم تكن ضرورة ولكنه يعني ان الثورة في العراق تدور في محور قائدها اكثر من ارسائها على قواعد ومناهج واطارات .

اما في الشام فالثورة تعاني مما وصفه الدكتور الرزاز « بيسار بيروقراطي ديكتاتوري » منفصل عن القاعدة الحزبية والجماهيرية والشعبية ، ومفتقر الى الايديولوجية الثورية الشاملة (١) .

اما الجزائر فثورتها انقى ثورات العالم العربي واصفاها غير انها تعاني من مشكلة غموض العلاقة بين الحزب والحكم والجيش . رغم ان الجيش الجزائري يختلف عن باقي الجيوش العربية في انه جيش نشأ في الثورة فتعمد بلهب كفاحها واكتوى بنار نضالها فهو الجيش الثوري حقا . لذلك فهو يمثل قطاعا ثوريا ، وقائده هواري بومدين يمثل قيادة ثورية حقيقية .

ولقد حققت الثورة الجزائرية بقيادة بومدين انجازين هامين : موقفا عربيا ثوريا شد المغرب في حزيران لاول مرة الى مشاركة نضال مع المشرق العربي بعد مئات السنين من الفرقة ، واستقرار افضل في البناء الاقتصادي الجزائري عندما تخلصت الثورة في السنتين المنصرمتين من رومانسية « التسيير الذاتي » لتشرع في تحقيق الانماء مع الاشتراكية على يدي الدولة متجاوبة مع حاجات النهوض في مجتمعات العالم الثالث .

أما ثورة اليمن فلما تزل تجتاز محنة الحرب الأهلية وانشقاقاتها الداخلية رغم أنها ادت الى هز مستنقع القرون الوسطى . وتطل في الجنوب ثورة فتية خرجت من نضال استقلالي وهي ترفع شعار وحدة اليمن . ولعل الجامع المشترك لأزمة الانظمة العربية الحاكمة هو أنها تعاني اولا ، من انفصال بين البيروقراطية والقاعدة الشعبية والحكم ، وهي ثانيا ، تعاني من الافتقار الى الشمول الثوري في الفكر والعمل .

ان الثورات العربية الحاكمة قد حققت بنسب متفاوتة محاولات في تحديث اوضاع المجتمع السياسية والاقتصادية ولكن اساس الثورية في راينا هو في تغيير الانسان في القاعدة الشعبية : في خلق الانسان الثوري الجديد . وهذا لا يتم بشموله ما لم تنبع الثورية من شمول فكري عقدي فيتحقق الانقلاب العقلي النفسي المناقبي في مجتمعنا الذي ينتزع المواطنين من المجتمع التقليدي بكل سلفيته وسكونيته ليصهرهم في وحدة عقلية نفسية دينامية جديدة تحقق

---

(١) الكلام عن الشام والعراق بعد نكبة ١٩٦٧ كان قبل الثورتين الأخيرتين في ١٩٦٨ و ١٩٧٠ .

الارادة الشعبية القادرة على القاعدة التي يدعو لها الدكتور زريق دون ان يدلنا كيف تحقق ودون ان يدلنا كيف يتحقق الانقلاب العقلي والثورية العقلية التي يرجوهما .

ان الانسان الثوري الجديد الذي ندعو اليه لا يمكن ان يكون نصف متحرر او شبه متحرر فينعم بالحرية السياسية او الحرية الاقتصادية ، ولكنه يرسف في قيود نفسية اتكالية قدرية مستسلمة ، او يقبل او يبقي المجتمع التقليدي بكل حدوده المذهبية او العنصرية او العشائرية ، او يرضى ان يغلف فكره القومي بنزوع رومانسي متفلت من المكان والزمان ، او يشعر بان الحرية السياسية او الاقتصادية التي حصل عليها هي من شان الدولة وهي المسؤولة عن صيانتها بل ان يشعر باندماجه الكلي في مجتمعه ومصيره واعيا لابعاد الثورة وشمولها الشأنين المادي والنفسي، مسؤولا عنها في القاعدة الشعبية ، معبأ نفسيا ووجدانيا وعمليا لمصيرها في كل الحالات الصعبة والعادية على حد سواء ، فيولد في اعماقه الانسان ــ المجتمع ، فيضيف الى شعوره بشخصيته شعوره بشخصية مجتمعه ولا يرى مصلحته الا من ضمن مصلحة مجتمعه ولا يرى وجوده الا من ضمن وجود مجتمعه ولا يحيا الا من اجله وفي سبيله .

ان الثورية التي ندعو اليها ، الثورية التي بها نؤمن لتغيير الانسان في بلادنا ليست مجرد ثورية سياسية ولا مجرد ثورية اقتصادية بل هي ثورية في نظرتنا الى الحياة بشمولها ، ثورية تتخطى المجتمع التقليدي بكل مفاهيمه الى انشاء حياة جديدة تقلب نظرتنا الى الطبيعة والحياة قلبا ثوريا متجددا وتحررنا من مستنقعات الطائفية وتقاليدها ، والعشائرية وفواصلها ، والعنصرية وقوقعاتها ، لتقيم مجتمعا موحدا ناميا ناهضا الى رحاب القرن العشرين . انها ثورية ترفض ان يبقى المجتمع مجزءا الى تقاليد متنافرة بل تريده وحدة اجتماعية حقيقية ، تنبثق منها الارادة الشعبية الموحدة المعقدنة التي ينشأ بها وفيها الانقلاب العقلي النفسي في المجتمع(١) .

لقد اعلن رئيس حكومة الشام في تدشينه سد الفرات ان التهام الضفة الغربية هو شروع في تحقيق حلم صهيوني قديم بان تصبح حدود « اسرائيل من الفرات الى النيل » . وان المخطط الصهيوني العدواني معروف وقديم ، ولكن ما هو المخطط المقابل ؟ ماذا أعد نظام البعث الحاكم لمجابهة هذا التحدي ؟ لماذا يترك الغاصبين ان يفرضوا عدوانهم على هذه الارض ؟ لماذا لا يوحد اهل الارض ارضهم قبل ان يمتد فيها العدو ؟ لقد ادرك العدو وحدة الارض فلماذا لا ندرك نحن وحدة الشعب عليها فنحقق الوحدة القومية في وجه الغزاة ؟ ماذا يمنع اتحاد الشام والعراق في هذه الظروف المصيرية وهل حقا لا يجوز اتحادهما الا اذا اتحدت معهما مصر والجزائر كما يدعو المشروع البعثي الاخير أو بعد أن تحقق وحدة العراق ومصر أولا كما ينص الدستور العراقي الموقت ؟ أهكذا يكون تحقيق الوحدة برفض التدرج والابقاء على التجزئة ريثما تتحقق الاحلام الابعد ؟ أيشار الى أن

---

(١) ــ يقول ياسين الحافظ : « على سبيل التوضيح ، ماذا تعني هذه الاطروحة ، مثلا ، على صعيد الصراع العربي ــ الاسرائيلي ؟

تعني ان قيام اسرائيل لم يكن صدفة وان استمرارها ليس أعجوبة . قامت اسرائيل على انقاض التأخر العربي . اسرائيل جزء تاريخي للتقليدية العربية ، وبالتالي ، ستبقى ما بقيت هذه التقليدية مهيمنة على الايديولوجيا العربية وعلى المجتمع العربي . وستزول مع زوال هذه التقليدية . على المدى التاريخي، لن تنجو اسرائيل من زوال سنة امبريالية اذا بزغت نخبة عربية حديثة وتقدمية . الامبريالية لا تستطيع ان تحمي اسرائيل التأخر العربي وحده هو الذي حمى ويحمي وسيحمي اسرائيل »

ص ٨ « التجربة التاريخية الفيتنامية ــ تقييم نقدي مقارن مع التجربة التاريخية العربية » الصادر في اذار ١٩٧٦ .

العدو يريد أن يمتد من النيل الى الفرات وفي يوم يدشن فيه سد الفرات ولا تكون العراق والشام دولة اتحادية فيتحول بناء السد على أهميته من مسألة محصورة بالشام الى عملية فنية اقتصادية كبرى يشترك فيها طرفا الهلال الخصيب بقدرة الانسان المتفوق على تحويل طاقة دجلة والفرات معا لري بادية الشام ووصل العمران بينهما كما كان أيام تدمر العظيمة وتوليد نهضة زراعية اقتصادية صناعية في الهلال الخصيب بجهد موحد مشترك يرسو عليها بناء عسكري ضخم قادر أن يكون نقطة الانطلاق لمعركة الثأر القومي ؟

بدل ان يكون هذا المستوى من التفكير المصيري ينطلق الدكتور زعين وهو رئيس حكم « وحدوي عربي » من عقلية التجزئة ودبلوماسية التجزئة فيعلن حرصه على ان « ينال كل من سوريا والعراق وتركيا حقوقه كاملة غير منقوصة » ويدعو « الى تفاهم على توزيع مياه النهر بما يصون حقوق البلدان الثلاثة » ويؤكد أن « المشروع السوري لسد الفرات لا ينقص شيئا من حصة العراق » . ان اعتبار العراق احدى « البلدان الثلاثة » وبينها تركيا ، ثم الطمأنة الى أن « المشروع السوري لا ينقص شيئا من حصة العراق » ليس في مستوى الفكر الوحدوي العملي المصيري الذي كان مفروضا ان يجعل هذا المشروع جانبا من جوانب توحيد الجهد العمراني العراقي الشامي في خطة مشتركة موحدة لمصلحة الوطن كله . فاذا جاز لعهود الانفصال الشامية ان تفكر هذا التفكير فلا يجوز لحكم « وحدوي عربي » أن يتابع نهج التجزئة وعقلية التجزئة .(١)

اساس الثورة الشاملة

ان اساس الثورية الشاملة هو في مجابهتها المجتمع التقليدي بثورية العقل . فهي تعلن ان « العقل في الانسان هو الشرع الاعلى والشرع الاساسي » (سعاده) . فالثورية الدائمة لا تعرف الا حدود العقل ونمو المجتمع واغراضه ومطامحه . والثورية الحقيقية هي التي تستوعب باستمرار حالات التطور لتطلق باستمرار هي ايضا افكارا ورؤى في مستوى العصر ومن قواعد انطلاقها الفكرية بالذات . من هنا كان العقل شرعا اساسيا للثورية القصوى ، لان العقل ثوري بطبيعة مجابهته الحركية للوجود وشؤون الحياة واوضاع المجتمع . فلا حتميات يقف عند حدودها ولا السلفية التقليدية تعطله ولا الدوغماتية تشله بل هو في الحركة الثورية قواعد انطلاق لنمو متكامل فلا طوطمية يتوقف عندها في تكامله تكامل المجتمع ونموه نمو الحياة .

واذا كان العقل ثوريا بطبيعته فان مدى ثوريته تحددها ظروف المجتمعات واحوالها ومراحل تطورها وطبيعة حركة النهوض . فثورية العقل في الغرب لم تعد تمتد الى المدى السياسي والاقتصادي او الاجتماعي بعد ان استنفذت ثوريتها في هذه المجالات في عصور النهضة الغربية والاصلاح والثورة الصناعية والثورات الليبرالية والاشتراكية بحيث اقتصرت ثورية العقل في هذا العصر على الشان العلمي تحيا فيه عصر التكنولوجيا المتفوقة . اما في مجتمعنا الناهض من الانحطاط والتخلف والضياع الحضاري بعد فترة امتدت الف سنة ، فان ثورية العقل فيه لا تقتصر على شان الحياة ولكنها تشملها كلها في ما هو اعمق واوسع واشمل في ثورية مجابهة للمجتمع التقليدي ومفاهيمه وافكاره ومؤسساته لتقيم بدلا منها مفاهيم وافكار ومؤسسات

---

(١) قام حكم البعث في العراق والشام في ١٩٧٨ بتحقيق الشروع بهذه الأمنية القومية فاستحق تقدير كل المناضلين وذلك بعد تناقضات سابقة نفضل أن نطوي صفحتها .

عصر النهضة الشاملة وهي في ذلك تعود الى جذور مجتمعنا الحضارية والتاريخية الاصلية فتتفاعل معها في مستوى العصر مظهرة صنعية المجتمع التقليدي ومخالفته لطبيعتنا الحضارية والتاريخية الاصلية ، لا في عودة « غابرية » الى هذه الجذور بل بالانطلاق منها لبناء المستقبل الثوري : « اذا كنا نجد الشرقي المتسكع ، في قيود المادة قد راى ، في ارقى فلسفاته الهندية والصينية ، ان الطريقة الوحيدة لانتصاره على المادة هي اهمال قضايا المادة وشفافيتها، فان العقل السوري الذي خطط للمتوسط والغرب قواعد ثقافته ، المادية والروحية راى ان الانتصار على المادة يكون بمعالجتها والقبض عليها وتسخيرها للغايات النفسية الجميلة التي تجعل الوجود الانساني ، جميلا ، صريحا ، نيرا » (سعاده) .

بهذه الدينامية تجابه ثورية النهضة المجتمع التقليدي لتغييره فتنصب على كل جوانبه والى اعماقه عاملة على تغييرها تغييرا جذريا غير قاصرة نفسها على السياسة او الاقتصاد بل تنصب على اعماق المجتمع النفسية والعقلية ، على اقتناعاته العميقة ، على نظرته الى الحياة والكون والفن فتستبدلها بنظرة جديدة منبثقة من اغراض النهضة .

فهي تجابه القدرية والاستسلام في المجتمع التقليدي بمبدا الاعتماد على الانسان ويجعل الصراع والتفوق طريق الثوريين الحقيقيين« :نحن لا نقول ان الحياة كلها الم وتعب ، وان الغاية العظمى هي التهرب من الحياة ومتاعبها .. نحن نقول باننا كفؤ ، نقول باننا اكفاء للاضطلاع بالحياة ومتاعبها وان لنا المقدرة على حمل اتعابها بسرور ، عاملين بتقدم نحو الفلاح ، نحو التغلب ، نحو المقدرة لانحو الفناء ونحو الخضوع ونحو التلاشي » . (سعاده) .

وهي تحل نظرة الى الحياة والطبيعة ترفض الاتكالية والهرب من الالة او التغني بفضائل النفسية الشرقية التي وصفها مخائيل نعيمة والتي رسمها توفيق الحكيم والتي تحدث عنها امين الريحاني وهي النفسية التي تعتبر ان لها الروحيات بينما للغرب الماديات ، مصطنعة الفصل المفتعل بين المادة والروح . بينما تقول النظرة الثورية الجديدة: « بفساد ذاك التقسيم السطحي الذي يعد الشرق كله روحيا والغرب كله ماديا » وهي ترفض العقلية الشرقية الاتكالية التي تعتبر ان « الطريقة الوحيدة لانتصارها على المادة هي اهمال قضايا المادة وثقافتها » وتدعو نظرتنا الثورية الجديدة الى ان « الانتصار على المادة يكون بمعالجتها والقبض عليها وتسخيرها للغايات النفسية الجميلة التي تجعل الوجود الانساني جميلا ، صريحا ، نيرا » « القوة النفسية مهما بلغت من الكمال تبقى ابدا محتاجة الى القوة المادية . القوة المادية دليل قوة نفسية راقية .. لذلك كان اتجاهنا نحو انشاء قوة مادية تدعم قوتنا النفسية » ولذلك « كان اهتمامنا بالقوة المادية ضروريا ولازما .. اذا اغفلنا الناحية المادية اثبتنا اننا اغفلنا الناحية النفسية ايضا . » « نحن الفنان الذي يستخدم ما تقدمه الطبيعة من امكانات ليبدع وينتج ويبني » (سعاده) .

«ان الالة الحديثة بطبيعتها وعملها ، ليست مستعبدة الانسان وقواه بل محررة الانسان من قيود الانتاج المحدود . ولكن النظام الذي اتبعه الانسان بعد نشوء الالة هو الذي استعبد الانسان بدلا من ان يزيد حريته ونشاطه وفاعليته » (سعاده) .

بهذه المضامين الثورية لعلاقة الانسان بالمادة تجبه النظرة الجديدة المجتمع التقليدي في عقليته الشرقية المستسلمة ، متخطية اياها الى روح العصر دون ان تخضع في ذلك لتقديم المادة على الروح ، انفعالا سلبيا بتراث الشرق في تقديم الروح على المادة بل هي بكل ايجابية

وموضوعية ، تطرح تخطي النظرة المادية وجزئية النظرة الروحية ، اذ تقدم الانسان الفاعل في الكون محورا لفلسفتها مطورا المادة ، ومرتقيا الى سمو روحي متكامل ، ومشيدا اسسا عمرانية جديدة . « انه لا يمكننا أن نقف مكتوفي الايدي بينما العالم يكاد يهلك في صراع مميت بين مبدا الترجمة المادية للحياة ومبدا الترجمة الروحية للاعمال الانسانية ... ان القاعدة التي يمكن عليها استمرار العمران وارتقاء الثقافة .. ترفض الاقرار باتخاذ قاعدة الصراع بين المبدا المادي والمبدا الروحي اساسا للحياة والاعمال الانسانية ... بل هي تعلن للعالم مبدا الاساس المادي – الروحي للحياة الانسانية » (سعاده) .

بهذه المفاهيم الثورية الشاملة تتصدى الثورة لمفاهيم المجتمع التقليدي في الفنون والاداب في كل وسائل التعبير عن الحياة . تتصدى لمفاهيمه وذوقه العام وهي تدرك انه لا يمكن ان تكون ثورة بمعناها الاشمل وتبقى الموسيقى في المجتمع متخلفة عن سمو روحي منبثق من التغيير الثوري الجذري ، لا يمكن ان تكون ثورة وتبقى موسيقى النواح والبكاء والغرائزية العاطفية المتداعية وكل ما ينقض الثورة . ذلك ان الموسيقى او الادب او سائر الفنون الجميلة ، تعبير عن اعمق اقتناعات المجتمع ونظرته الى الحياة .

فالمفهوم الثوري الاشمل يرفض « الطرب والشجو » مقياسا للموسيقى الجميلة ويعتبرها « من ملازمات الحياة الفقيرة في الثقافة النفسية وفي الفن والمناحي الروحية . » ذلك « أن فائدة الموسيقى لا تقتصر على الطرب والشجو الا حيث جمدت الموسيقى عند حد هذين الشعورين الاولين بجمود حياة البيئة روحيا وماديا » وهو يدعو الى «الموسيقى الراقية التي تحمل الانفس على تأملات فكرية وثورات روحية » وهو يعتبر « هذه الموسيقى الراقية هي وليدة عصر راق أو انتاج مخيلة مبدعة قدرت بذاتها أن تتصور عالما من الافكار والتأملات والشعور من الانغام والالحان تحتاج بدورها الى عصر يفهمها . » لذلك يعلن « انه ليس لنا موسيقى بعد من نتاج نفسيتنا . أما الالحان الشائعة بيننا فليست مما نشأ من نفسيتنا بل هي مزيج من نفسيات أقوام مختلفة . واذا كان فيها ما يعبر عن جزء يسير من عواطفنا ومزاجنا فهي تقصر تقصيرا كبيرا عن استيعاب ما في أعماق نفوسنا من شعور يستغرق ما في الكون من عوامل ومؤثرات » . (سعادة)

هذا التبدل الجذري لم يحصل لانه – ما خلا بعض محاولات قليلة – لم يتفاعل بعد مع جذور مجتمعاتنا الاعمق . فبينما يفجر « فوردي » من تاريخ مصر اوبرا عايدة لا يستطيع فنان في العالم العربي أن يضع اوبرا في مستواها ... وهذا يدل على أن الثورة لم تكتمل بعد ، وهذا ما تريد أن تحققه النظرية الثورية الجديدة في تصديها للمجتمع التقليدي تغيره من الاساس لتقيم الادب والفن الجديدين

« لذلك أقول أن التجديد في الادب هو مسبب – لا سبب – هو نتيجة حصول التجديد أو التغيير في الفكر وفي الشعور – في الحياة وفي النظر الى الحياة هو نتيجة حصول ثورة روحية ، مادية ، اجتماعية سياسية تغير حياة شعب بأسره وأوضاع حياته وتفتح افاقا جديدة للفكر وطرائقه وللشعور ومناحيه . » (« الصراع الفكري ») . (سعادة)

بهذه المفاهيم الثورية المتصدية لكل حياتنا تتقدم النظرة الثورية الجديدة لتسلط ثورية العقل على حياتنا الراهنة بكل مؤسساتها وتنظيماتها وعلى تقاليدها المتنافرة المتنازعة ولاء المواطنين . فتعلن « أن لا انقاذ للامة من مصير التضعضع والهلاك الا بحركة اصيلة تقيم مجتمعا جديدا واحدا وعقلية جديدة وشعورا واحدا » .

وهذه الحركة تتقدم لانشاء الارادة الشعبية الجديدة على غير أساس الحدود العازلة التي فرضها المجتمع التقليدي بين فئات المواطنين ، حدود الطائفية والعشائرية والطبقية والعنصرية بل أنه بنشأتها على غير هذه الاسس تبدأ بأحداث التغيير الكبير في قواعد المجتمع وفي التقاليد المجزأة .

« ان نظامنا يرمي الى صهر التقاليد المنافية لوحدة الامة ، والتقاليد ... لها مساس بالاقتناعات العميقة في نفس الانسان ، وهي تختلف عن العادات ، فالعادات التي يمكن ان تتغير بسهولة لانها تتعلق بسطحيات الحياة أما التقاليد فلها علاقة بالاقتناعات النفسية العميقة ...

فالتقاليد التي تمثل اما مبادىء أو استمرار مبادىء ليست لاجل حياة الامة وارتقائنا يجب أن تصهر لاجل الحياة وليس لاجل أن تكون الحياة لها ، ان التقاليد في عرفنا كالمبادىء للحياة وليست الحياة للتقاليد ... » (سعادة)

« ان في أمتنا تقاليد متنافرة مستمدة من أنظمة مؤسساتنا المذهبية كان لها أكبر تأثير في اضعاف وحدة الشعب الاجتماعية والاقتصادية وتأخير نهضتنا . وما دامت هذه الحواجز التقليدية قائمة تذهب دعواتنا الى الحرية والاستقلال صيحات ألم وتأوهات عجز . انه لا يحسن بنا أن نعرف الداء ونتجاهل الدواء . نحن لا نفعل كالذين يدعون الى الاتحاد ويجهلون روابط الاتحاد .

كل أمة تريد أن تحيا حياة حرة مستقلة تبلغ فيها مثلها العليا يجب أن تكون ذات وحدة روحية » .

« وهذه الوحدة الروحية المتينة لا يمكن أن تكون بواسطة روحيات متعددة بل بواسطة نظرة واحدة الى الحياة والكون والفن ، بواسطة مقاييس ومفاهيم واحدة ، مقاييس وإرادات ومصالح في الشعب الواحد في الامة الواحدة (سعادة . المحاضرات العشر .)(١)

الروح النضالي والعقلية الاخلاقية

وهذه النظرة الواحدة الى الحياة والكون والفن التي افتقرت الى مثلها حركة القومية العربية هي التي عنها ينشأ الروح النضالي كما تنشأ بها العقلية الاخلاقية الجديدة . فالمناقب لا تنشأ في فراغ ودون مضمون عقدي فكري جديد . المناقب هي وليدة الرسالات والنهضات التي أعطت تأويلا جديدا للحياة . لذلك دون « قضية شاملة تتناول الحياة من أساسها ومن جميع وجوهها » لا يمكن أن تنشأ « العقلية الاخلاقية الجديدة » ولذلك كانت غاية النهضة هي في « قضية شاملة تتناول الحياة القومية من أساسها ومن جميع وجوهها ، أنها غاية تشمل جميع قضايا المجتمع القومي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والروحية والمناقبية واغراض الحياة الكبرى ، فهي تحيط بالمثل العليا القومية وبالغرض من الاستقلال وبانشاء مجتمع قومي صحيح . وينطوي تحت ذلك تأسيس عقلية اخلاقية جديدة ووضع أساس مناقبي جديد وهو ما تشتمل عليه المبادىء التي تكون قضية ونظرة الى الحياة كاملة أي فلسفة كاملة . » (سعادة)

---

(١) كم كانت هذه النظرة التوحيدية مستشرفة لما يحدث في غيابها ، كما حدث مثلا في لبنان في ١٩٧٥ ـ ١٩٧٨

الحزب الثوري : جبهة مناقبية جديدة

فالحزب الثوري الطليعي هو الذي يجسد هذه النظرة الى الحياة الجديدة في مستوى القاعدة الشعبية فتولد النهضة من الأساس ، بتغيير الانسان ، بتغيير عقليته ونظرته الى الحياة وقيام « جبهة مناقبية جديدة » في المجتمع تغيره تغييرا جذريا . اننا أمام مفهوم جديد للحزب الثوري الطليعي ، على أنه جبهة مناقبية جديدة تصارع من أجل انتصار نظرة الى الحياة جديدة ، من أجل تغيير العقلية والأخلاق والحياة في المجتمع . « لقد قدرت منذ البدء أن مهمة نهضتنا التحررية الأولى هي انقاذ مجتمعنا من حالة انحطاطه وتعثره ، وليس لتحقيق هذه المهمة سوى طريق واحدة مستقيمة واضحة هي طريق انقاذ العناصر الجيدة ، الصالحة لبناء مجتمع صحيح وتكوين جبهة مناقبية جديدة منها تقيم حاجزا متينا يمنع مثالب عناصر الظلمة من الاندماج فيها أو من التأثير على الشعب . وبالنظر الى هذه المهمة أرى أن النتيجة التي توصلت اليها هي عظيمة وفاصلة . فان عناصر النور تفترق الآن عن عناصر الظلمة وتتعارف وتبتدىء في تكوين مجتمعها ومعرفة قوتها ومهمتها . » (سعادة) .

فالانسان الجديد ليس انسانا ينشد التحرر السياسي فحسب أو ينشد العدالة الاقتصادية فقط ، بل هو انسان يثور على كل ما يشده الى عصور الانحطاط في حياته ليدخل القرن العشرين من بابه الواسع . من هنا ان الحزب الثوري الطليعي ليس حزبا سياسيا ثوريا فقط ولا هو حزبا اقتصاديا ثوريا في مجتمع يريد أن ينتقل من التخلف الى النهضة بل ان ثوريته في السياسة والاقتصاد هي نتائج لثوريته الاساسية التي هي ثورية النظرة الجديدة الى الحياة الشاملة كل شؤون الحياة والمحدثة انقلابا مناقبيا وانقلابا عقليا كاملا في كل المجالات .

وهذا الانقلاب العقلي يتناول فكرنا القومي من الاساس كما يتناول معاني الثورة الاجتماعية وعلاقتهما بروح النضال .

يقول الدكتور زريق ان من مصادر الروح النضالي ارتباطه « بالارض والدار والوطن » . ولكن هل طبق الدكتور زريق هذا المفهوم على الشأن القومي في العالم العربي ؟ هل ارتبط مفهومه للقومية بالارض والدار والوطن وهو الذي أغفل عامل الارض عند تعداده عوامل القومية في كتابه « الوعي القومي » ، فاذا هي « اللغة والثقافة والعادات ، والذكريات والمصلحة الحاضرة والمستقبلية » (ص ٩٣)

ان الدعوة الى ربط الروح النضالي بالارض تفترض ان يكون فكرنا القومي مرتبطا من الاساس بالارض فلا نستطيع أن نلجأ الى الارض نستوحيها في المعارك المصيرية ونتنكر لها في نظرنا وفكرنا القومي ان الحركة القومية العربية لم تنهض على مبدأ الارتباط بالارض والوطن فلقد قدمت عند دعاتها دوما عوامل نفسية ولغوية على الارض وعلاقة الانسان بها واعتبرت أن الوطن هو امتداد للمدى اللغوي لا للارض ووحدتها الجغرافية فلم نأخذ بمفهوم « أن الامة تجد اساسها ، قبل كل شيء آخر في وحدة أرضية معينة تتفاعل معها جماعة من الناس وتتشابك وتتحد ضمنها » (سعادة — نشوء الامم)

ولقد كان هذا مصدرا من مصادر ضعف الروح النضالي لا سيما في مسألة فلسطين التي ننظر اليها من زوايا متعددة متباينة فها هو وزير خارجية دولة عربية كبرى يقول في الامم المتحدة في دورتها الاخيرة أن على هذه المنظمة الدولية أن تعود الى قراراتها بشأن اللاجئين التي

تتوافق مع شرعتها في حق تقرير المصير ، ان حق تقرير المصير للشعوب ليس حق اللاجئين في العودة الى أرضهم ليعيشوا كأفراد وجماعات في ظل حكم غاصب ، بل ان حق تقرير المصير للشعوب هو حق سيادة الشعب وممارساته هذه السيادة على أرضه . وهذا الحق لا يمكن لاي منظمة دولية أن تلغيه . فعندما صدرت قرارات الامم المتحدة بشأن التقسيم والتي تتضمن أيضا فقرة بشأن اللاجئين باتت هي اليوم كل المبتغى في نظر الانظمة الحاكمة ، قالت ثوريتنا في وجه تلك القرارات عند صدورها عام ١٩٤٧ : « ليس لجمعية الامم المتحدة وهي جمعية الامم المحاربة التي انتصرت مصالحها في الحرب العالمية الثانية ومن والاها . انها ليست جمعية عالمية ولم تنشأ بارادة عالمية في ظروف من تساوي الحقوق في ما بين أمم العالم وانها فوق ذلك جمعية منقسمة على نفسها ولا تكون وحدة انسانية كلية . ان هذه الجمعية لا تملك حق تقرير مصير امتنا ولا تقرير مصير جزئها الجنوبي فلسطين ...

ان كل مقررات انترنسونية تخالف ارادة الامة وحقها في تقرير مصيرها ومصير وطنها بملء حريتها هي مقررات باطلة . » (سعادة)

ما اصدق هذا القول على الامم المتحدة اليوم التي تحول دون دخول الصين بملايينها السبعمئة اليها بينما تمنح قسما كبيرا من فلسطين بعد تشريد شعبها لعدوان دخيل اسمه اسرائيل . كل ذلك بسبب تحكم المصالح الدولية بهذه المنظمة تحكما جعلها أن لا تصدر عن « ارادة عالمية في ظروف من تساوي الحقوق في ما بين امم العالم » .

القاعدة العقدية للكفاح القومي

ان حقوقية الحق القومي في فلسطين على أساس ارتباط الشعب بالارض مبدأ خطير تنازلت عنه المواقف الرسمية العربية في الربع الاخير ، ومن ضمن هذا أخذ ينظر الى تصريح بلفور على أنه مخالف لتعهدات مكماهون للحسين بدل أن ينظر اليه من الزاوية الحقوقية القومية على أنه اعتداء على حق شعبنا في أرضنا .

ولم ينشأ من جهة ثانية اعتقاد واحد شامل شعبنا حول علاقته الاساسية بالارض منذ فجر التاريخ وبدء الحضارة وقيام الانسان . فبدل التوكيد على أن ارض فلسطين عرفت أصلا « بأرض كنعان » وان اليهود « ظلوا تجاه أهل البلد الاصليين وغيرهم من الشعوب غرباء يحتاجون الى توطيد اقامتهم بالسيف » . . . « وواضح أن اليهود ليسوا أصليين في البلاد وان وجودهم في فلسطين لم يجعل لهم صفة خلفاء لاهل البلاد الاصليين ... كان جنوب سورية مقرا للكنعانيين الذين اتخذوه وطنا لهم وعرف باسمهم قسمي في أحاديث اليهود أرض كنعان فجاء العبرانيون الى هذه البقعة عشائر بربرية مبتدية وأخذوا يعيثون في الارض ويخربون وينهبون ومع الوقت استولوا على بعض المدن والاراضي وانشأوا فيها امارة خاصة بهم وأخذوا من الشرائع الكنعانية شريعتهم ولكنهم ظلوا تجاه أهل البلد الاصليين وغيرهم من الشعوب غرباء يحتاجون الى توطيد اقامتهم بالسيف وظلت هذه حالهم الى أن ضربتهم الدولة السورية ضربة عظيمة وشتتهم الرومان » . (سعادة) (١)

وانه انطلاقا من هذه الرؤية التاريخية الواضحة « فادعاءات اليهود في جنوب سوريا ليست قائمة على أساس حقوقي . فلا يبقى سوى ادعائهم وعد الله اياهم بجعل أرض كنعان

---

(١) اما المستوطنون الصهاينة فلا علاقة لهم تاريخية باولئك اليهود لانهم اوروبيون تهودوا في بوادي روسيا في زمن لاحق

ميراثا لهم ، وهو عودة الى النظرة الخصوصية في الدين ، ولم يؤيد الله وعده لهم في المسيحية ولا في المحمدية ولا في أي دين الهي آخر » .

بدل هذا الارتباط بين أرض كنعان التي هي أرضنا منذ فجر التاريخ وحقنا القومي المستمر في الارض ، قامت اراء مختلفة تعلل حقنا في فلسطين على أسس أوهى . منها ما لفظه مؤخرا رئيس سلطة تشريعية في دولة عربية صغرى فقال : « ثم هناك حقيقة تاريخية ، يجدر بنا اعلانها هي أن العرب لم يغنموا القدس من اليهود بل دخلها الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عام ٦٣٨ بعدما هزم الجيوش البيزنطية ، وكان قد مر على زوال الحكم اليهودي خمسمئة وثلاث سنوات ، كما أنه لم يقع في التاريخ أي اصطدام بين العرب واليهود الذين لم يكن لهم كيان سياسي ، وقد أمنهم العرب على ممتلكاتهم وحرياتهم وعقائدهم مما أهاب بالمؤرخ الفرنسي الشهير غوستاف لوبون الى القول « ان العالم لم يعرف فاتحين متسامحين مثل العرب ولا دينا سمحا كدينهم »

ان هذا التعليل وهو السائد في الاوساط العربية الرسمية يجعل أمر فلسطين من زاوية حقوقية وتاريخية وقومية وكأنه أمر فتوحات متتالية ليس أمر انساننا وشعبنا وعلاقته المقدسة بالارض منذ كانت أرضنا أرض كنعان ، شعبنا التاريخي العظيم ، الى أن أصبحت أرض العروبة بعد أن أصبحت أمتنا أمة عربية في استمرار قومي تاريخي لشعبنا الواحد في أرضه الواحدة .

ارتباط الكفاح القومي بالارض

فلا يمكن اصطناع الارتباط بالارض والوطن والدار في الازمات اذا كانت مفاهيمنا أساسا مفتقرة الى هذا الوضوح في تقدير عامل الارتباط بين الشعب والارض ارتباطا مصيريا تاريخيا مستمرا . ان الروح النضالية لا تنشأ اصطناعيا ولا تنشأ في فراغ من المفاهيم والقواعد والافكار بل هي حصيلة وعي فكري ، وعي عقدي هو وحده الذي يتغلغل في النفوس ويصيرها تلك الارادة الواحدة المصممة . « ان الترابط بين الامة والوطن هو المبدأ الوحيد الذي تتم به وحدة الحياة ولذلك لا يمكن تصور متحد انساني اجتماعي من غير بيئة تتم فيها وحدة الحياة والاشتراك في مقوماتها ومصالحها واهدافها وتمكن من نشوء الشخصية الاجتماعية التي هي شخصية المتحد ـ شخصية الامة . » (سعادة ـ التعاليم)

دون هذا المبدأ القائل بالترابط بين الامة والوطن لا نستطيع أن ندعو الفلسطينيين الى اعتماد الارتباط بالارض والوطن والدار مصدرا أساسيا من مصادر الروح النضالي بينما ندعوهم من جهة أخرى كما ندعو غيرهم من ابناء شعبنا والشعوب العربية الى التقليل من أهمية الارتباط بين الانسان والارض وتقديم العوامل الاخرى على الارض وجغرافيتها ومداها الطبيعي الى حد أن أكثر أدب القومية العربية يقوم على التقليل من أهمية الارتباط بالارض وتقديم عاملي اللغة والتاريخ عليها كأنه يمكن فهم التاريخ بمعزل عن تفاعل الانسان والارض وقيام وحدة حياته عليها وكأنه يمكن فصل اللغة عن الحياة وعمرانها واجتماعها .

تقوم الثورة الفيتنامية على اساس توحيد شقي البلاد الجنوبي والشمالي اللذين جزاهما الاستعمار والارادات الاجنبية . ويرفض هوشي منه جائزة لينين الى أن يتم توحيد البلاد . وقامت ثورة الجزائر الحرة متخذة من المغرب العربي الكبير كله مدى انطلاقها الثوري . وضمنت الجزائر الحرة دستورها ما ضمنته دول المغرب كلها

لدساتيرها : الاعلان انها جزء من وحدة المغرب العربي الكبير . فالثورتان الجزائرية والفيتنامية وهما مضرب الامثلة عند الحديث عن النضال الشعبي من أجل فلسطين ، قد قامتا على أساس هذا الوعي العميق لوحدة الارض ووحدة كفاح الشعب فيها .

مثل هذا الكفاح حتى يقوم في بلادنا عليه أن ينطلق مستوحيا مقررات المؤتمر السوري الكبير الذي تنبه قبل خمسين سنة الى مؤامرة سلخ فلسطين عن بيئتها القومية فأعلن : « استقلال سورية بحدودها الطبيعية ومن ضمنها فلسطين ورفض المزاعم الصهيونية الداعية لاقامة وطن يهودي في سورية الجنوبية المعروفة بفلسطين . »

ولقد تجاوب فكر النهضة مع هذه الحقائق حين أعلن : « على أساس معاهدة سيكس ــ بيكو ، وقبل انتهاء الحرب ، وقبل وضع بريطانيا وفرنسة يديهما على سورية بالفعل ، رأت السياسة البريطانية أنه لا يوجد ما يمنع بريطانية من بيع فلسطين لليهود .. » ذلك أن اتفاقية سيكس ــ بيكو التي جزأت أرضنا وتصريح بلفور الذي مهد لقيام اغتصاب فلسطين يشكلان توأمي المؤامرة الدولية الاستعمارية على حقنا القومي .

ان ازالة « اثار العدوان » فعلا تتخطى مسألة انسحاب القوات المحتلة مؤخرا لاجزاء جديدة من أرضنا . ان ازالة « اثار العدوان » الاساسية تبدأ عندما تتوحد أرضنا التي مزقتها اتفاقيات التجزئة والاستعمار فيبدأ معها مدنا القومي الموحد لاسترداد فلسطين . وينتهي بذلك اخر فصل من فصول المسألة الشرقية ، مسألة اقتسام القوى الاجنبية لتركة الرجل المريض وذلك باستعادتنا وحدتنا وتصفية القاعدة الصهيونية في أرضنا .

وكما ارتفع صوت الدكتور زريق بعد النكبة يدعو الى ربط كفاحنا بالارض والوطن والدار في فلسطين فلقد ارتفع صوت محمد حسنين هيكل يدعو الى الشيء نفسه في مصر : « وقلت لخروشوف إنني أختلف معك وقد يكون التصور مبعث هذا الخلاف . لكني ما زلت أرى أن الوطنية والقومية المرتبطة بالارض أقوى من أي اعتبار آخر بالنسبة لنضال الشعوب بالذات وقت أزمات المصير . » ولكن هذه « القومية المرتبطة بالارض » والتي هي « أقوى من أي اعتبار آخر » لم تكن لتنطبق على الفكرة القومية التي نادت بها الثورة المصرية منذ ١٩٥٦ . « فالميثاق » تبنى مفهوما للقومية يقول : « يكفي أن الامة العربية تملك وحدة اللغة التي تصنع وحدة الفكر والعقل ... ووحدة التاريخ ... ووحدة الامل ... » وفي كل هذه لا وجود لوحدة الارض التي هي « أقوى من أي اعتبار آخر . »

يريد محمد حسنين هيكل من جهة أن يحصن مفاهيم الوطنية والقومية بالارتباط بالارض لتقوى على الصمود في أزمات المصير ولكنه يرتد الى المفاهيم نفسها المتجاوزة ارتباط الشعب بالارض حين يقول : « ونحن نتحدث كثيرا عن وحدة اللغة ، ووحدة اللغة تصنع وحدة الفكر باعتبار أن الكلمة هي أداة التفكير ووسيلته . » ولكن مصر واجهت نكبة حزيران بالرجوع الى نفسها عفويا ودون التخلي أبدا عن مسؤولياتها وصلاتها وروابطها العربية فمن ضمن موقفها العربي السليم ارتفع الكلام عن صمود (الشعب المصري) وعن تاريخه الممتد الى سبعة الاف سنة (مقالات محمد حسنين هيكل ، وخطاب الرئيس عبد الناصر في ٢٣ يوليو) ، وعن ثورة المصريين الابية لدى مشاهدتهم العدو على الطرف الآخر من القناة (خطاب ٢٣ تشرين الثاني) .

ان الترابط بين الشعب المصري وأرضه وهو « أقوى من أي اعتبار آخر » قد تجلى بصورة

عفوية ولو غير معقدنة في ردة الفعل الفورية بعد نكبة حزيران . ولن تنهض في رأينا الجبهة العربية بل لن يتحقق أي نوع من أنواع الاتحادات العربية الحاملة المنعة والقوة للعالم العربي ما لم تكن حصيلة هذا « الاثـم الكنعاني » ، هذا الترابط بين شعوبنا وبيآتنا الطبيعية ، وتربتها المقدسة !

ان الصهاينة قد عقدنوا كفاحهم الباغي العدواني في اغتصاب أرضنا على أنها حسب خرافتهم العنصرية « أرض الميعاد » فلنعقدنن نحن بالمقابل كفاحنا القومي الحق لا على وهم خرافة العنصرية كما فعل العدو بل على حقيقة الواقع الاجتماعي الذي يشدنا عبر آلاف السنين الى هذه الارض الطيبة المقدسة لتحريرها وتمجيدها . فما لم تولد حرارة الايمان بالارض لن نقوى على تحريرها ودك معالم الاغتصاب والعدوان فيها .

وطالما أن الحديث عن الفكرة القومية وعواملها فلا يمكننا في هذا العصر ان نفصل بين الفكرة القومية والثورة الاجتماعية . ولقد كانت احدى أبرز الثغرات في الثورية العربيه المعاصرة أنها عاشت هذه الازدواجية بين طرفي النقيض فيها ، بين مفهوم رومانسي للقومية متفلت من حدود الزمان والمكان ، وبين مفهوم مادي للاشتراكية متأثر بنتائج الثورة الصناعية وكل ما تعنيه من أفكار معاصرة . وكادت أفكار العصر الحديث في هذه الشراكة غير الطبيعية بين الفكرتين أن تأكل أفكار العصر الرومانسي .

فعندما قال محمد حسنين هيكل أن « الاستعمار يحاول الان أن يستغل ظروف الخلاف الاجتماعي واثاره للحيلولة دون تحشيد امكانات القوة القومية العربية بكل طاقاتها وتأثيراتها » رد عليه راديو دمشق بعنف قائلا : « وهذه الغاية نفسها ، اي تفريغ المد الجماهيري العربي من مضمونه الاشتراكي ، هي الغاية الكامنة وراء عدوان الاستعمار في حزيران ... وليس تجاه ذلك سوى دعوة صريحة للتخلي عن الثورة الاجتماعية في عدة من البلدان العربية التقدمية ... » وكان محمد حسنين هيكل قد قال في مقاله المذكور أيضا أنه قال لخروشوف « أنتم في الحرب العالمية الثانية تمكنتم من هزيمة هتلر تحت اعلام الوطن وليس تحت اعلام الحزب ... ان حكم الحزب الشيوعي تحت سيطرة ستالين ــ بشهادة كل ما قيل في المؤتمر العشرين ــ لم يكن فيه ما يغري الناس بأن يموتوا دفاعا عنه ... ولكن أرض روسيا بصرف النظر عن كل تطبيقات الحزب ، حركت الناس حتى يموتوا دفاعا عنها ... »

الثورة الاجتماعية مرتكزة على القضية القومية

ما هي الخلاصة من كل هذه الاقوال ؟ أرض الوطن هي المحرك الاساسي للفكرة القومية السليمة . ولكن هذا القول يمكن اكماله بحقيقة أشمل هي أنه عن هذه الفكرة القومية السليمة تنبثق الافكار الاجتماعية الثورية التقدمية . ذلك أن الفكرة القومية السليمة المرتبطة بالارض ، النابعة من التفاعل بين الشعب وأرض الوطن بكل نشاطاته المادية ــ الروحية هي نفسها مولدة لافكار الثورة الاجتماعية . فاذا كان قد حصل فصل بين القومية والعقيدة في روسيا الشيوعية ــ لمرحلة ما ــ فهذا لا يحصل عندما ترسو الثورة الاجتماعية على القومية .

ولقد كانت نقطة الضعف الكبرى في أفكار الحركات القومية العربية المعاصرة في أنها عانت من ازدواجية فكرية بين رومانسية الفكرة القومية المرتكزة على اللغة والتاريخ ووحدة الامل والالم دون ارتباط بالارض دونما وعي لتفاعل الشعب والارض من جهة وبين الدعوة الى اشتراكية طبقية منفصلة عن هذا النظر الرومانسي الى الشأن القومي .

كان نتيجة ذلك قيام هذا الفصل بين الثورة الاجتماعية ضد الاستغلال وضد السيطرة الطبقية المتحكمة وبين القضية القومية كأساس يتجسد فيه كل شأن اجتماعي خطير . فاعتبرت الثورة الاجتماعية وكأنها مناقضة للوحدة القومية مع أنها منبثقة منها ، متى تبدلت المفاهيم والنظرة الى مضامين القضية القومية بحيث لا تقوم على العوامل الرومانسية بل ترتكز على العوامل الحياتية : المادية ــ الروحية المتفاعلة .

ان المفهوم القومي الاجتماعي للقضية القومية والثورة الاجتماعية يجعل الثورة الاجتماعية مرتكزة على القضية القومية ، كما أنه لا ينظر الى القضية القومية مجردة عن المضمون الاجتماعي . انه مفهوم يعتبر أن المحرك الاقوى للثورة الاجتماعية في هذا العصر هو المحرك القومي كما أنه يعتبر التجسيد الحي للقضية القومية هو في النهوض الاجتماعي الشامل . انه مفهوم « الامة مجتمع واحد » الذي تزول منه كل العصبيات والنزاعات الجزئية الطبقية والطائفية والفردية بتحقيق الثورة الاجتماعية الشاملة التي تبني الانسان ــ المجتمع على قواعد المساواة والعدالة والتكامل المادية الروحية ، **فلا طبقية ولا استغلال بل شراكة على أساس الانتاج ، ولا طائفية ولا عنصرية ، بل وحدة حياة قومية في ولاء موحد للارض وشراكة في المصير** . وبهذا يتفوق هذا المفهوم للثورة الاجتماعية بشموله الشأنين المادي والنفسي على المفاهيم التي تقصر الثورة الاجتماعية على جانب من جوانبها .

ان الانفصال بين القومية والاجتماعية الذي عانت وتعاني منه الافكار والنظرات الرومانسية التي اعتبرت الامة كائنا روحيا تراثيا منسلخا عن الارض والاقتصاد والحياة ، واعتبرت ، من جهة ثانية ، المجتمع مجموعة طبقية اما تتنازع أو تتحالف ، ان هذا الانفصال بين وجهي الحقيقة الاجتماعية والذي حاولت أن تتجاوزه الثوريات العربية المعاصرة ، فوقعت في ازدواجية فكرية ، رومانسية القومية ومادية الاشتراكية ، انما هو في أساس التعثر النظري والعقدي الذي تعاني منه الثورة العربية المعاصرة كما أنه قصر معنى الثورة الاجتماعية لدى هذه الثورات على الشأن الاقتصادي دون الشأن النفسي الخطير ، فبقي التمزق الاجتماعي والنفسي بين الفئات العنصرية والطائفية على ما هو عليه في المجتمع التقليدي الذي استمرت بعض أوضاعه في ظل الثورات الاشتراكية العربية .

ان الاجتماعية لا تتجسد الا في القومية. فالامة هي المتحد الاجتماعي الاتم ، هي المجتمع الكامل ، هي المجتمع الواحد كما أن القومية لا وجود حقيقي لها الا في الاجتماعية ، فالامة هي وحدة الحياة الاجتماعية بكل لطائفها المادية ــ الروحية وبكل تفاعلاتها الحضارية ، وما الاقتصاد الا أحد نشاطاتها البالغة الاهمية بل لعله من أهم نشاطاتها الحياتية .

ان وحدة المجتمع ، وحدة الامة تستلزم بالضرورة تحقق النهضة الثورية الاجتماعية التي تزيل كل ما يعترض تحقيق وحدة المتحد الاجتماعي القومي من سدود طبقية أو مذهبية تستند اليها حالات التخلف وسيطرة الوضع التقليدي الجامد . من هنا كان النهوض القومي في هذا العصر لا يستغني عن الثورة الاجتماعية في المجتمعات النامية وكانت العدالة الاقتصادية والاجتماعية واسقاط سيطرة الاقطاع واستغلال الرأسمال من مستلزمات قيام الامة مجتمعا واحدا يسوده التكافؤ ويرتكز على الانماء والمساواة ، ولم يكن بالضرورة أن لا يتم اسقاط سيطرة الاقطاع والرأسمال الا بحلف طبقي مقابل . ذلك أن المجتمع ـ مجموع الشعب ــ مجموع المنتجين بأساس ارتباطهم المصيري بأرض الوطن ووحدة حياته القومية يقومون وراء

قيادتهم القومية الثورية بأداء هذا الدور الواجب تجاوبا مع مواطنتهم وشراكتهم في الحياة والمصير وليس بأي دافع طبقي مجرد .

فالاشتراكية ممكنة من ضمن القومية ، والقومية بهذا المعنى هي المرتبطة بأرض الوطن ، بكل ما فيها من تفاعلات مادية ــ روحية ومن ضمنها الاقتصاد وليست القومية هنا مقتصرة كما هي الحال في النظرات الرومانسية السائدة في العالم العربي على اللغة والعوامل الروحية . والقومية بهذا المعنى لا تفرغ من مضمونها الاجتماعي الثوري الاشمل المتخطي الاشتراكية بمعناها الطبقي الضيق ، مرتكزة على الاجتماعية التي تنبثق منها اشتراكية قومية الاساس ، لا تقوم على صنع النزاع الطبقي أو التحالف الطبقي بل تنهض على فكرة « الامة مجتمع واحد » الذي تسقط فيه أسوار الفروقات الطبقية وسيطرة الاستغلال ، لمصلحة الشعب بمجموعه المنتج المرتبط عقلا وساعدا بأرض الوطن .

معرفة العدو بعد معرفة الذات

اذا كانت النهضة تحيط بشمول ، بكل هذه الجوانب من فكرنا القومي الاجتماعي ، وبنظرنا الى الحياة لتحدث التغيير الجذري في مجتمعنا فان معرفتها لمجتمعها ، لاوضاع تعثره ولكيفية نهوضه تشكل دون ريب ، المنطلق الاساسي لعملها وسيرها ولكن الى جانب ذلك ثمة ناحية اخرى في مرحلة النضال هذه يتوجب على النهضة ان تحيط بها وتعرفها ، وهذه الناحية هي معرفة العدو على حقيقته لا على اساس تصورنا له او تخميناتنا عنه ، فبعد معرفة الذات تأتي معرفة العدو : مراكز الضعف ومراكز القوة لديه .

ولقد اعلنت النهضة منذ اكثر من اربعين سنة ، وهي لم تزل بعد جنينا في فكر باعثها ، معرفتها لطبيعة ذلك العدو . « رغما عن كل ما تقدم ومن ان الحركة الصهيونية غير دائرة على محور طبيعي تقدمت هذه الحركة تقدما لا يستهان به فاجراءاتها سائرة على خطة نظامية دقيقة اذا لم تقم في وجهها حركة نظامية اخرى معاكسة لها كان نصيبها النجاح » . (سعادة) وكان ذلك عام ١٩٢٥ ... ولان النزاع في فلسطين لم يكن بين الحركة الصهيونية « السائرة على خطة نظامية دقيقة » وبين « حركة نظامية قومية معاكسة لها » فان نظام العدو لم تغلبه « فوضى الشركات السياسية التي تألفت للعناية بالقضايا الجزئية » فكانت النكبة الاولى ، نكبة ١٩٤٨ .

ان اقصى ثورية في شعبنا هي ثورية شعب فلسطين البطل الذي ما انفك منذ ١٩٢٢ يحمل السلاح ضد عدو متفوق ولكن ثورته لم تتعقلن في حركة ثورية منظمة .

لقد سجل الفدائيون الفلسطينيون اروع قمم البطولة فكانوا موضع فخر لشعبنا وقمة عز مضيئة في تاريخنا الحديث ، ولكن حركة الكفاح الفلسطيني لكي تكون في مستوى التحدي لا بد من ارسائها على تنظيم موحد منسق صاهر لكل الامكانات والقوى في حركة موحدة منظمة ، كما لا بد من ارسائها على مفهوم قومي واضح شامل ينبثق منه تخطيط وتنظيم في مستواه الثوري .

لا تستوي المقارنة بين اعمال الفدائيين الابطال في فلسطين واعمال الفيتكونغ الثوار في فيتنام . فقد تتشابه بطولاتهما من حيث البذل والفداء ولكن القاعدة والمدى الثوريين مختلفان جدا . ذلك ان ثوار الفيتكونغ يوغلون في قلب المعركة في الارض المحتلة وقد انطلقوا من الدولة ــ النواة للثورة ، من فيتنام الشمالية المتاخمة لارض المعركة والمتمرسة هي قبل الفيتكونغ

بحروب التحرير الشعبية تصمد للقصف المدمر صمود الفيتكونغ لنار المعركة واكثر .

اما في فلسطين فالفدائيون ينطلقون الى ارض المعركة وليس هناك دولة نواة للثورة متاخمة بنت نفسها ونظامها في مستوى حرب التحرير الشعبية وهيأت الشعب والبلاد للصمود في وجه مضاعفات حرب التحرير ونتائجها . وهكذا اذن اذ يتشابه الفدائيون مع الفيتكونغ من حيث البطولة والفداء الا انه ليس لدى الفدائيين مثل فيتنام الشمالية . من هنا كان العمل الفدائي ناقصا في نتائجه رغم روعته وبطولاته . ومن هنا كان أمر قيام دولة نواة للثورة هو المهمة الاولى والاساسية قبل العمل الفدائي وبعده . ومن هنا كانت المعجزة لا في خلق فيتنام في فلسطين كما يتصور البعض بل في تحويل الدول المحيطة بفلسطين من حيث الاعداد والتنظيم والبناء المادي والنفسي والصمود الثوري الى فيتنام شمالية قومية ، تكون من جذورنا وارضنا لا مستوردة من اي نموذج اخر .

ومن هنا ان معركة تحرير فلسطين تبدأ اولا في العواصم المحيطة بفلسطين قبل ان تبدأ في فلسطين . وان اقامة الدولة – الثورة هو المنطلق الاوحد لتحرير فلسطين . وان الدولة ليست شعارات فارغة المضمون ولا هتافا ولا صياحا بل هي انسان جديد ، هي نظام جديد ، هي تاريخ جديد .

لا يمكن ان تخضع حركة مصيرية من هذا النوع لطبيعة او مزاج قادتها ، فمن مزايدات كلامية شقيرية تصل الى حد افناء جميع اليهود في فلسطين قبل حرب حزيران ، الى نفس سياسي مهادن بعد تغيير الشقيري يقبل « بتعايش سلمي مع اليهود »⁽¹⁾ ان هذا التأرجح غير الموزون يطعن كفاح الابطال في الارض المحتلة .

ان هذا التأرجح مصدره عدم الانطلاق من قاعدة قومية عقدية ثورية تدرك ان الهجرة اليهودية الى فلسطين ، هجرة خطرة يجب دفعها عن بلادنا بكل قوة ، وان فلسطين كلها جزء لا يتجزأ من وطن طبيعي واحد ، لشعبه وحده الحق في التصرف بمصيره وممارسة سيادته القومية عليه . ان رفض قيام كيان صهيوني عدواني في فلسطين لا يعني عنصرية او سلبية كما تحاول ابواق اليهود في الغرب ان تزعم في محاولتها تشويه المواقف المبدئية لكفاحنا القومي المشروع . ذلك ان هذا الرفض انما هو ممارسة لحق تقرير المصير القومي الذي هو اساس الحقوق الليبرالية التي اعلنتها ثورات اوروبا واميركا قبل قرنين من الزمن ، وهو رفض للعنصرية الصهيونية المعتدية . ومن هنا كان رفض الهجرة اليهودية الى فلسطين لانها هجرة – كما برهن قيام اسرائيل – ذات اغراض عدوانية .

ان شعبنا لم يضطهد اليهود في كل تاريخه ، فرغم مجيء اليهود الى ارضنا عصابات معتدية وقبائل بربرية ترفع شعار الافناء لكل مدننا وشعبنا وكأنه واجب الهي مقدس ، فان شعبنا الحضاري الرائد رد على هذا العدوان بمحاولة التفاعل الحضاري لتمدين هؤلاء البرابرة عاملا على ملاشاة تقنفذهم التاريخي بنشر الكنعانية فالارامية بين اليهود الذين اقتبسوا كذلك الشرائع السورية وتقاليد العبادة وانماط الحياة ، وكادت محاولة شعبنا الحضارية هذه ان تصيب نجاحا كبيرا لو جرت مع اي شعب آخر لم يمتصه التقوقع العنصري – الديني امتصاصا كاملا كما كان حال اليهود .

---

(١) تصريحات لحمودة انذاك .

ولما استمر التقنفذ العنصري اليهودي رغم محاولات التفاعل الكنعاني فالارامي الحضارية هذه ، كان سبي بابل محاولة من نوع آخر انما بالقصد نفسه لفرض هذا الاندماج الحضاري . وعرف اليهود فيه أرقى انواع المعيشة فبدل الابادات العنصرية التي مارسوها هم بحق الشعب والتي عادوا فتعرضوا لها في القرن العشرين ، تذكر التوراة ان كثيرين من اليهود قد رفضوا العودة في بادىء الامر من بابل حيث كانوا ينعمون بحياة رخاء مادي واستقرار ملحوظ . فكان حالهم تماما كحال يهود اميركا واوروبا الغربية الذين يتمسكون بحياة الرفاه في تلك المجتمعات فلا ينزحون الى فلسطين المحتلة . فبابل كانت نيويورك العالم القديم .

ولكن اليهود بالنتيجة رفضوا كل محاولات شعبنا المتنوعة للتفاعل ، فرغم سرقتهم الكثير من حضارة كنعان وبابل لم يندمجوا بمجتمعنا الحضاري محافظين على تقنفذهم العنصري – الديني ، واستمروا في موقفهم السلبي في المجتمعات الحضارية طوال التاريخ ، فكان ان رفضتهم المدنية الاوروبية الغربية وعزلتهم طوال عصور في حياة الغيتو ولما أهل العصر الليبرالي على الغرب بدل ان يندمج اليهود في حضارته الليبرالية ويتخلوا عن تقنفذهم العنصري – الديني متلائمين مع مبادىء الثورة الليبرالية ، استفادوا من هذه الليبرالية لينظموا عنصريتهم في حركة مهووسة هي الحركة الصهيونية ذات الاطماع العدوانية في العالم كله وفي أرضنا على وجه التخصيص . ان النازية هي رجوع غربي عن الليبرالية في معاملة اليهود الى نوع من رد الفعل العنصري المهووس على عنصريتهم التاريخية المتقنفذة . وأن اضطهادات النازيين الوحشية لا يضاهيها ويفوقها سوى اضطهادات الصهاينة لبني شعبنا في فلسطين . ان رفضنا الهجرة اليهودية هو رفض شعب حضاري عريق منفتح على العالم ، بلا اليهود ماضيا وحاضرا وأدرك خطورة تقنفذهم التاريخي وهو رافض لكل عنصرية حقود .

من هذه المعطيات الواضحة ينطلق فكر النهضة في معرفة العدو على حقيقته ، وفي مجابهة خطره . فيطلق صيحته الاولى عام ١٩٢٥ محذرا الامة من الحركة الصهيونية « السائرة على خطة نظامية دقيقة » ومن مطامعها .

ولقد رافق فكر النهضة خيوط المؤامرة على فلسطين وخطواتها خطوة خطوة ، منبها وداعيا لليقظة والتلبية ولكن الامة ، والعالم العربي كانا في غفلة مريعة . ولم تترك النهضة ناحية من نواحي نشاطات العدو ومؤامراته الا فضحتها . فهي تعلن في رفضها لاول مشروع تقسيم وضعته بعثة بيل البريطانية عام ١٩٣٧ ما يمكن ان ينطبق تماما على حال اللاجئين اليوم ، بعد ثلاثين سنة وما يتعرضون له من مساومات دولية . « أن التعويض لسوريي الجنوب عن خسارة أراضيهم باعانة مالية من الخزينة البريطانية ومن « الدولة اليهودية » حين تبادل السكان هو استملاك اكراهي لهذه الاراضي . ان التقسيم المقترح يكسب « الوطن اليهودي » صبغة « دولة » ستكون نواة الدولة اليهودية « التي ستستعبد الشعب السوري وتفرض الجزية على الامم الغربية » حسب نصوص التلمود . » ونتيجة ذلك تعلن النهضة « عدم رضاها عن مشروع التقسيم وتدعو العصبة الامية والامم المتحدة والصديقة الى رفضه » .

وفي ١٩٣٨ تعلن النهضة « ولا ينحصر خطر اليهود في فلسطين ، بل هو يتناول لبنان والشام ... لان اليهود لن يكتفوا بالاستيلاء على فلسطين ، ففلسطين لا تكفي لاسكان ملايين اليهود الدين اثاروا عليهم الامم النازلين في اوطانها » .

وابان احتدام الحرب العالمية الثانية والناس منشغلون بانتصارات الحلفاء بعد

انتصارات المحور في ١٩٤٤ . يتنبه فكر النهضة وينبه مجددا الى خطوات المؤامرة على فلسطين : « من اهم المشاكل الخطيرة جدا التي ستواجهنا بعد هذه الحرب ، المشكل الصهيوني الذي صار خطرا عظيما مداهما يهدد بالقضاء على معظم امالنا ... ان مئات الفروع اليهودية المنتشرة في جميع انحاء العالم المندمجة في المنظمة الصهيونية تعمل عملا واحدا منظما .. وفي هذه الحرب العالمية الثانية اشتدت المناورات اليهودية وتدخلات اليهود الانترنسونية ... وقد مكنتهم وحدتهم وخضوعهم لنظام واحد من اغتنام الفرص السانحة والاستفادة من امكانات واسعه .. فاشتد تدخلهم في سياسة قضيتهم وفي سياسة اميركانية ... وتمكنوا من اكتساب الانصار في مجالس بريطانية واميركية .. وتمكنوا باهتمامهم المتواصل من احراز قسم غير يسير من مطاليبهم فدخل فلسطين عشرات الوف اليهود ... اهتم اليهود ، في هذه الحرب ، باجراء اشياء اخرى غير اكثار عدد اليهود الداخلين الى جنوب سورية ، ومن الامور الجوهرية التي اعتنوا بها عناية كبيرة هي تاليف جيش يهودي يحارب مع جيوش الامم المتحدة ويمارس اساليب الحرب الحديثة ... فقد فازوا بتأليف الجيش اليهودي وتخويل الفرق اليهودية رفع العلم اليهودي على المواقع التي تحتلها في شرق المتوسط » .

وفي عام ١٩٤٤ يتنبه فكر النهضة الى خطوة في العالم المسيحي هي رسالة البابا بيوس الثاني عشر بصدد التوراة ـ العهد القديم والتي تعتبر « من اشد الرسائل البابوية خطورة وأكثرها تعديلا للموقف الكاثوليكي الرسمي في ما يختص بالتوراة ـ العهد القديم » « بان تقديس التوراة اليهودية المخالفة للروحية الناصرية المعلمة المحبة والمساواة الانسانية هو من اهم « موجبات » العطف على اليهود ومطامعهم ... » في الغرب . وقد كان ذلك قبل اكثر من عشرين عاما من صدور قرار المؤتمر المسكوني الفاتيكاني الثاني بصدد تبرئة اليهود من القتل الالهي . ويقول الجنرال ديغول في تصريح له اخير في ٢٧ ت ٢ ١٩٧٦ حول عطف الغرب على اليهود « وكان مصدر هذا الاهتمام والعطف ذكرى الكتاب المقدس العظيمة » .

وفي عام ١٩٤٧ عند صدور قرار التقسيم الذي رفضته النهضة اعلنت « ولما بات امر التقسيم مقررا وصارت المسالة مسالة كيفيات وحيثيات قامت السياسة عينها المسؤولة عن وصول المسالة الى هذا الحد تنادي وتدعو الى « الجهاد » وتستفز وتحرض لتعيد تمثيل محاولة جديدة من تلك المحاولات الاعتباطية ! ان الاستفزاز والتحريض كان يجب ان يبدل بهما التنادي الى التعاون القومي المنظم . وان الحركة الحربية كان يجب ان تهيأ من قبل لا ان ترتجل كقصيدة صغيرة في عرس ! .. » هذا كان رأي النهضة في كارثة ١٩٤٨ !(١) .

في ضوء فكر النهضة لا بد من ان نقيم العدو لنعرف من نحارب وكيف نحارب

نقض وجهات النظر السائدة

وانه لا بد في هذا المجال من التسجيل ان هناك جهلا واسعا للعدو وحقيقته يتبدى في وجهات النظر التي تكاد تكون الوجهات الرسمية او السائدة في العالم العربي

فهناك وجهة نظر تعتبر ان الحركة الصهيونية نشات كرد فعل لنشوء الحركة القومية والعنصرية في اواسط القرن التاسع عشر . « وكان من نتائج انتشار الفكرة القومية في اوروبا

---

(١) ان هذه الاقوال صدرت عن سعادة بين ١٩٢٤ و ١٩٤٨ .

ان ظهر في البلدان الاوربية وخاصة في المانيا وفرنسا دعوة قومية متطرفة قائمة على مبدأ نقاء العنصر . فكان اليهودي والحالة هذه يتميز بعنصره عن اكثرية السكان » .

ان هذا التعليل خاطىء لان الحركة الصهيونية ليست رد فعل على الحركات العنصرية الاوروبية ، وبالتالي ليست دون جذور عميقة في التراث اليهودي الديني العنصري نفسه . فهي انبثاق من هذا التراث الذي هو جوهر اليهودية . وهنا نصل الى هذا التمييز المصطنع بين اليهودية والصهيونية فحتى لو لم يكن كل اليهود صهاينة مع ان أغلبيتهم الساحقة هي كذلك فان الصهيونية اساسا هي بنت اليهودية ، بنت تفكيرها العنصري المتطرف التي احتكرت في نطاقها القبلي حتى الله فصيرته يهوه الـه « اسرائيل » والتي تمسكت بافكار غريبة شاذة كفكرة « الشعب المختار » العنصرية المتطرفة كما ان كتب اليهود الدينية حافلة بالحقد والكراهية والنقمة على كل الشعوب .

وهناك وجهة نظر اخرى تعتبر « اسرائيل » مجرد قاعدة استعمارية للامبريالية الغربية وهي وجهة نظر الفكر اليساري . ورغما من ان وجهة النظر هذه تتضمن اكثر من حقيقة الا انها غير كافية . فاسرائيل قاعدة استعمارية ولكنها ليست مجرد ذلك بل هي الى جانب كونها قاعدة استعمارية للغرب فهي تمثل حلم الصهيونية العالمية التي سخرت بدورها وتسخر الغرب لسياستها واهدافها . فهي قاعدة للغرب بقدر ما اصبح الغرب قاعدة لنشاطها ومسخرا لمصالحها، وهكذا نشات هذه العلاقة السببية منذ البداية ، منذ تصريح بلفور الشهير : فقد ولد ذلك التصريح من تزاوج المصالح البريطانية الامبراطورية الاستعمارية المعتبرة ان وجود اليهود في فلسطين يكون رديفا لوجودها في قناة السويس ، مع المصالح الصهيونية في جر بريطانيا الى تاييد احلامها بالاستيلاء على فلسطين . والعلاقة السببية نفسها تتكرر اليوم مع اميركا .

يضاف الى هذا الموقف اليساري العام موقف الشيوعيين العرب فرغم التقائهم مع اليساريين العرب في اعتبار ان اسرائيل مجرد قاعدة للاستعمار والامبريالية ودون التوكيد على طبيعتها العدوانية الذاتية التي ادت بها الى هذا الدور ، الا انهم يختلفون عنهم جوهريا في انهم يعتبرون ، ضمنا ، امكان التعايش معها اذا ما ابدل حكمها القائم بحكم الحزب الشيوعي الاسرائيلي . وهذا موقف في منتهى الخطورة لانه يفترض امكان تحول دولة عنصرية ثيوقراطية عدوانية الى دولة تقدمية مشروعة وذلك بمجرد سقوط احزاب وقيام احزاب من داخلها ودون التعرض لجوهرها واساسها العدواني .(١)

وهذه الازدواجية في الوجود الصهيوني تطرح امامنا جانبا اخر من علاقة اسرائيل بالغرب : هل اسرائيل دولة رجعية تيوقراطية عنصرية ؟ لقد كان احد اهم اسباب انفعال العقل الغربي خاصة اليساري والتقدمي بتجربة اسرائيل هذه الزاوية بالذات . كما ان القول بوجوب الرد على اسرائيل « العصرية المتقدمة » باساليب عصرية ومتقدمة ، وهو مايردده اكثر المفكرين والباحثين في هذه الايام من محمد حسنين هيكل الى قسطنطين زريق الى سواهم يجعلنا نتساءل

---

(١) يستثنى من هذا الموقف الحزب الشيوعي السوداني بقيادة محجوب الذي اتخذ موقفا رافضا للوجود الصهيوني وعمليات النقد الذاتي حول الموقف من القضية القومية والصراع في فلسطين التي طرحت في الحزبين الشيوعي السوري واللبناني وادت الى حركة انشقاقية في الأول والى تصحيح مفاهيم الأخير ثم هل يستمر هذا التفكير بعد عملية هجرة اليهود السوفيات ؟ وهل سيكون الشيوعيون الاسرائيليون اكثر أممية من اليهود السوفيات .

عن طبيعة اسرائيل المزدوجة الاخرى : كدولة عصرية وكفكرة رجعية في الوقت ذاته ، كجزء من الغرب المتحضر وكاستمرار لليهودية المتخلفة . هنا ايضا نحن امام ازدواجية تلازم الوجود الصهيوني .

كفاح العدو المزيف

ان العدو قد عقدن كفاحه بان استل قضيته من تراث الوف السنين من التقوقع الديني العنصري ومن مايشكل هذا التراث من عصبية تملأ النفس بالحقد والتصميم . وتوسل لها كل عقلية الغرب الحديثة وحضارته المادية والروحية فتم بذلك حصول اخطر عملية تزييف حضاري في التاريخ ان تتقمص قضية رجعية ثيوقراطية عنصرية شاذة عن كل قيم مجتمعات العالم المتمدن وتراثها ، قيم هذه المجتمعات وتراثها في الدفاع عن عدوانها .

فنحن نحارب بالفعل عمليا قلعة غربية بعقليتها وتنظيمها ولكن مضمون هذه القلعة الغربية هو ضد كل ما تقوم عليه حضارة الغرب من قيم وافكار ومثل ، وهذه بالفعل ماساة الغرب في ان يحتضن مزيفي تراثه وقيمه وحضارته ...

فتحت مبدا حق تقرير المصير للشعوب الصغيرة والقوميات المضطهدة الذي رفعه الغرب في ثورته الليبرالية ، تمكن الذئب الصهيوني من ان يلبس ثوب الحمل الوديع ليستفيد في نظر العرب من هذا الحق ليثبت عدوانه واغتصابه ، وليصبح له « حق البقاء والعيش بسلام » .

وتحت مبدأ الديمقراطية والاشتراكية شيد دولته العنصرية باشكال ديمقراطية وتنظيمات اشتراكية .

وتحت مبدأ الانماء في العالم المتخلف سلط التكنولوجية الغربية التي يحذقها ، على الارض التي اغتصبها وشرد اهلها بعد ان انهكهم الاستعباد العثماني والاستعمار الغربي فلم ينظموا أنفسهم في حركة قومية معاكسة لاطماعه بل حاربوه بشجاعة الابطال دون التحلي بروح العصر فكرا وتنظيما .

فاسرائيل دولة الحقد العنصري والتحجر اليهودي التاريخي هي نفسها في نظر الغرب الدولة الديمقراطية والاشتراكية المعاصرة !

لقد توسل العدو العصر بكل روحيته وافكاره وتقدمه المادي ليدافع عن قضية رجعية ثيوقراطية عنصرية في أخطر عملية تزييف حضاري . وهي ليست أول عملية تزييف حضاري يلجأ اليها اليهود في تاريخهم . فالذين سرقوا طوفان بابل وقصة الخليفة وتجربة دانيال ومأساة ايوب وغيرها من الملاحم والاساطير من تراثنا فضلا عن شرع حمورابي ، وكونوا من ذلك كله تراثهم الديني المغلق الحاقد على تراثنا وشعبنا وحضارتنا وانساننا والطامع بأرضنا ، هم انفسهم الذين يمارسون اليوم تقمص حضارة الغرب واعطاءها في الحركة الصهيونية ودولة اسرائيل مضمونا عنصريا خطيرا

اذا كان العدو الشاذ بعنصريته ومذهبيته عن كل المجتمعات قد لجأ الى عملية التزييف التاريخية والحضارية هذه فلا نستطيع نحن كشعب حضاري عريق أن نفعل الشيء نفسه فنقصر عملية دخولنا العصر الحديث على تقمص الحضارة الغربية وعصرنة أساليبنا وتكنولوجيتنا وعقلنا العلمي التكني مع بقاء مجتمعنا التقليدي بافكاره واقتناعاته النفسية العميقة . ان الصهيونية تستطيع ذلك لان تقوقعها التاريخي قد جعلها مجتمعا اثريا يتجدد في العصر الحديث بعملية التزييف الحضاري هذه .

اما مجتمعنا فلا يستطيع توسل العصر في شؤون الارتقاء التكنولوجي او التنظيمي مع بقاء مجتمعه التقليدي وذلك لسببين جوهريين يتصلان بطبيعة مجتمعنا وحقيقته العميقة .

اولهما : ان المجتمع التقليدي الراهن لا يعبر عن روحنا التاريخي بل هو وليد مرحلة تخلف وانحطاط طارئة ومناقضة لشخصيتنا الحضارية الاساسية فلا بد من التخلص منها لنستعيد قوتنا الذاتية الحقيقية . ثانيهما : اننا في الاساس مجتمع حضاري اسهم منذ فجر التاريخ بتكوين الحضارات الانسانية الاولى اسهاما خلاقا ذاتيا قادرا ، وانه اذ يدخل العصر الحديث ، لا يدخله متوسلا وسائله او اشكاله او عقليته التكنية بل يدخله في نهضة جبارة تقصد ان تعيد قدرتنا على الاسهام الحضاري في صنع الانسان الحديث كما اسهمنا في صنع الانسان القديم .

من هنا انه اذا كان العدو ينسجم مع تراثه في تزييف الحضارات وادعائها فيتوسل العصر ليدافع عن قضيته العنصرية الحاقدة الاثرية المتقوقعة فان توسلنا العصر نحن يعيدنا الى سيرنا التاريخي الحضاري فتتفاعل جذورنا التاريخية العظيمة معه لتوليد قضية تمدنية نهضوية من صميم العصر والانسان والحضارة ، كما اعطت بلادنا الابجدية العالم في أعظم ثورة انسانية ثم اعطته الدين في رسالاته التوحيدية الكبرى في اعظم ثورية روحية فان نهضتها المعاصرة لا بد انها مسهمة في التكون الثوري للعصر الحديث .

هذا هو معنى النهضة وهذا هو رد أمتنا التاريخي على التحدي الصهيوني . ان معركة فلسطين وان كانت تتأرجح بين الحل السياسي او الحل العسكري ولكنها ابعد منهما واعمق واشمل . انها معركة الانسان الناهض ليبني مجتمعه على اسس نهضوية جديدة تجعله يضع حدا للفتوحات والعدوان بنماء حضاري روحي مناقبي قومي جديد تدعمه القوة الحربية التي هي القول الفصل في معارك المصير القومي والتي لكي تنتصر يجب ان تكون تعبيرا عن نفسية قوية جميلة .

وليس ابدع من هذه الكلمات في وصف هذا العراك المصيري ضد العدو الصهيوني كيف يجب ان يكون في مستوى النهضة .

البناء المتين الذي لا يفهمه المستعجلون

« ان القوة النظامية مهما كانت صغيرة أفعل بكثير من الجماهير التي لا تجمعها ارادة واحدة في الحياة ونفسية واحدة وبناء مناقبي واحد . لا يمكن أبدا أن نسير الى أي انتصار بدون الوحدة في العقيدة والاهداف والخطط . هذا النسيج الجديد من الارادة والافكار هو شيء لا يستغنى عنه مطلقا للنهوض بالامة والتقدم بها نحو ميادين الحياة الواسعة .

« هذه هي طريقنا المختصرة الطويلة . هذا النمو يراه المستعجلون في الامور إمرا بطيئا بعيدا عن معالجة القضايا الخطيرة ، هذا هو الطريق السريع لمعالجة القضايا الخطيرة . انه البناء المتين

« لا يمكن أن تربح معركة واحدة بدون جيوش منظمة نفسيا وعمليا . »

« اليهود انتصروا على قلتهم لانهم اتبعوا هذه الطريقة البطيئة السريعة . أسسوا قضية صهيونية من زمان بعيد حتى صارت ارادة واحدة واهدافا معينة ، حينئذ انطلقت لتحقيق الغاية فكان عملها سريعا وفعالا فاذا كنا نتأمل صد الاعداء ودفعهم الى الوراء فأملنا بهذا النظام الذي يعد ويبني ويوحد النفوس والارادة ويسير بوعي وفهم صحيح وتعاون مشترك ، فلا غشاءات على العيون ولا شكوك في النفوس ولا بلبلة في اللغة والمفاهيم ، بل ارادة واحدة تكفل لهذه المواهب العظيمة الانتصار والتغلب على كل ما يمكن أن يعترض طريقها .

« ان ايمانا من هذا النوع فقط ما يمكننا في المستقبل من ان يمحو العار الذي لحقنا من قضايا الماضي »

بيان ٣٠ مارس

لقد اكد خطاب الرئيس عبد الناصر الذي وصف « ببيان ٣٠ مارس » والذي القي بعد دفع هذه الدراسة الى الطبع عدة حقائق هامة : ان الرئيس عبد الناصر هو الحاكم العربي الوحيد الذي تحرك في محاولات جدية لاعادة تقييم حكمه الثوري مستفيدا من النكبة ومضاعفاتها وذيولها الداخلية والشعبية . وهذا موقف يستحق التقدير الكلي .

ثانيا : أكد بيان ٣٠ مارس جدية الانتقادات التي وجهت الى النظام المصري سواء لجهة ضرورة ارسائه على قاعدة شعبية او لجهة الديمقراطية والحرية واوضاع الاتحاد الاشتراكي ومجلس الامة غير المنبثق من تمثيل سليم . لقد ادرك الرئيس عبد الناصر وأعلن بوضوح في بيان ٣٠ مارس ان الثورة لا تستطيع الصمود بمجرد الرضى السلبي بل بالمشاركة الشعبية الفعالة . وهذا ما كنا ذهبنا اليه في أكثر من موضع في هذه الدراسة . فنزع مهمة وضع الدستور الجديد من مجلس الامة الى المؤتمر القومي المزمع انتخابه يتجاوب مع انتقادات تظاهرات شباط الماضي لاوضاع مجلس الامة . كما ان محاولة ارساء الاتحاد الاشتراكي على قاعدة شعبية منتخبة بدل تعيين لجانه وقيادته من فوق يتجاوب مع مطلب شعبي آخر .

ان كل هذه الانتقادات الموجهة الى أوضاع التمثيل الشعبي والسياسي في مصر كانت قد رفعتها الجماهير المتظاهرة في شباط الماضي . ان محاولة « بيان ٣٠ مارس » اكتناه كل هذه المطالب وتبني أكثرها وطرحها في استفتاء شعبي يقدم دليلا ساطعا على أن هذه الانتقادات والمطالب تحظى بتأييد قاعدة شعبية واسعة عبر عنها الطلاب والعمال في تظاهراتهم وكانت تعبيرا شعبيا أصيلا عن ضرورة التغيير . وبالتالي فان ما حصل في مصر هو انتفاضة شعبية تجاوب معها الحكم فكان بيان ٣٠ مارس .

ثالثا : ان بيان ٣٠ مارس هو مرحلة جديدة من مراحل نقل السلطة في مصر من العسكريين الذين قاموا بانقلاب يوليو الى القاعدة الشعبية وقد كانت استقالة السيد زكريا محي الدين اخر حلقات غياب الوجوه الكبيرة من قادة حركة ٢٣ يوليو من الضباط الاحرار . يبقى الرئيس عبد الناصر والجماهير وجها لوجه . واذا كان « بيان ٣٠ مارس » قد قدم وسائل التحول من حكم القلة العسكرية الى حكم ينبثق من القاعدة الشعبية من قاعدة جماهيرية الى قاعدة طليعية ثورية وهذا هو سر الثورات الكبرى ، فلم تزل الاسس نفسها التي اعتمدت في الميثاق التي تسير فكر الثورة ولم يتناولها بعد اي تقييم جديد أو اعادة نظر مسؤولة . في وقت كان قد أعلن محمد حسنين هيكل قبل سنتين في آب ١٩٦٦ وبعد انقضاء أربع سنوات على وضع الميثاق « ان التيار المعاصر للثورة العربية لم يستطع حتى الآن أن يتم عملية الاستكشاف الفكري للأرض الجديدة التي وصل الى مشارفها » وانه « استفاد فكريا حتى الان من احتهادات سبقت انطلاقته الجديدة ولم تعد تصلح له » .. ففكرة التحالف الطبقي من جهة وفكرة الانتماء المصري الى الامة العربية — وهما الفكرتان اللتان شكلتا تزاوج الماركسية المادية على الفكرة القومية الرومانسية ما زالتا تشكلان قاعدة فكر الثورة المصرية .

ان بيان ٣٠ مارس هو بداية في طريق « الثورة في الثورة » التي دعونا لها في هذه الدراسة ولكنه ليس منتهاها ولا قمتها فلم تزل الثورة بحاجة الى فكر ثوري جديد يبلور القاعدة الشعبية بلورة ثورية واضحة ويتجاوز تناقضات الانطلاق الرومانسي والماركسي الى قاعدة فكرية موحدة سليمة

الفصل الثالث

في ذكرى النكبتين ١٥ أيار و ٥حزيران

(١٩٦٨) (١)

الوعي سلاح الثوار الامضى في معارك تقرير المصير

صوت من التاريخ

« تقولون يا سيدي ، ان الاعمال التي انجزتها الصهيونية الى الان كافية للدلالة على ان الارض التي كانت تفيض لبنا وعسلا لم تكن حديث خرافة وتنسون ان اللبن والعسل كانا يفيضان من تلك الارض بفضل سواعد الامة التي كانت فيها فبل مجيء اليهود اليها هاربين من مصر ، والتي لا تزال فيها الان » ..

« تقولون « لليهود دعوى خاصة بحقهم في ارض كنعان » ولكنها دعوى نحن نعرف والعالم كله يعرف مبلغها من الصحة . انكم تحاولون اثبات هذه الدعوى بالقول ، ان اليهود لم يجدوا وطنا لهم في مصر وبابل . فهل وجد اليهود وطنا لهم في فلسطين ؟ اذا كنتم تعجزون عن اعطاء جواب يتفق والحقيقة فان « سني السبي » تسعماية سنة نفي تعطي الجواب الصحيح .

« ... ان امورا عظيمة ــ امورا عظيمة جدا ــ ستترتب على هذه المحاولة الاثيمة التي لم يعرف التاريخ محاولة اخرى تضاهيها في الاثم ، واني اطمئنكم بان نتائجها لا تقتصر على فلسطين بل ستتناول العالم اجمع وان عظتها البالغة لن تكون لبني اسرائيل فقط بل لجميع بني الانسان ! ومن يعش ير » . « من الرد على خطاب لويد جورج ١٩٣١ » .

« اننا نعلن عدم الرضى عن مشروع التقسيم وندعو العصبة الامية والامم المتحدة والصديقة الى رفضه واعطاء امتنا حقها وتأييد سيادتها القومية » . ان تعيين « الوطن القومي اليهودي » يتطلب الاعتراف بهذا « الوطن » وتنازلنا عن حق سيادتنا على وطننا .

ان التعويض لسوريي الجنوب عن خسارة اراضيهم باعانة مالية من الخزينة البريطانية ومن « الدولة اليهودية » حين تبادل السكان هو استملاك اكراهي لهذه الاراضي . ان التقسيم المقترح يكسب الوطن اليهودي صبغة « دولة » ستكون نواة الدولة اليهودية « التي ستستعبد الشعب السوري وتفرض الجزية على الامم الغربية » حسب نصوص التلمود .

---

(١) ظهرت هذه المقالة في كراس وزعه مكتب الطلبة في الحزب السوري القومي الاجتماعي في حزيران ١٩٦٨

ان ادعاءات اليهود في جنوب سورية ليست قائمة على اساس حقوقي . فلا يبقى سوى ادعائهم وعد الله اياهم بجعل ارض كنعان ميراثا لهم « وهو عودة الى النظرة الخصوصية في الدين »

(من المذكرة المرفوعة الى عصبة الامم ١٤ تموز ١٩٣٧) .

« ولا ينحصر خطر اليهود في فلسطين ، بل هو يتناول لبنان والشام ، والعراق ، انه خطر على الشعب السوري كله ، لان اليهود لن يكتفوا بالاستيلاء على فلسطين ، ففلسطين لا تكفي لاسكان ملايين اليهود الذين اثاروا عليهم الامم النازلين في اوطانها بقدر ما عملوا لقضية قومية خاصة بهم . وهم منذ اليوم يقولون « الحمد لله اننا اصبحنا قادرين على ان نمارس الرياضة الشتوية في ارض اسرائيل » ، يعني التزحلق على الثلج في لبنان » . (من خطاب اول اذار ١٩٣٨) .

« ولما بات امر التقسيم مقررا وصارت المسألة مسألة كيفيات وحيثيات قامت السياسة عينها المسؤولة عن وصول المسألة الى هذا الحد تنادي وتدعو الى « الجهاد » وتستفز وتحرض لتعيد تمثيل محاولة جديدة من تلك المحاولات الاعتباطية ! . ان الاستفزاز والتحريض كان يجب ان يبدل بهما التنادي الى التعاون القومي المنظم . وان الحركة الحربية كان يجب ان تهيأ من قبل لا ان ترتجل كقصيدة صغيرة في عرس ! » .

« انني ادعو اللبنانيين والشاميين والعراقيين والفلسطينيين والاردنيين الى مؤتمر مستعجل تقرر فيه الامة السورية ارادتها وخطتها العملية في صدد فلسطين وتجاه الاخطار الخارجية جميعها .

انني ادعوهم الى نبذ الحزبيات الدينية والتأويل التي اولت الدين تأويلا فاسدا وقالت غير ما قال الله ... لقد قالت المسيحية بالتآخي ومحبة حتى المبغضين وبرفع الفوارق والحزبيات الدينية وقالت المحمدية بمثل ذلك واهل الحكمة الموحدون مذهبهم الاخاء والمحبة . ايها السوريون ليس من سوري الا وهو مسلم لرب العالمين فاتقوا الله واتركوا تأويل الحزبيات الدينية العمياء . فقد جمعنا الاسلام : منا من اسلم بالانجيل ومنا من اسلم الله بالقرآن ومنا من اسلم الله بالحكمة » . « من رسالة الى الامة في تشرين الثاني ١٩٤٧ » .

معركة الحق القومي في فلسطين ابعد من ازالة اثار العدوان الاخيرة

ايها المواطنون .

بهذه النداءات التاريخية توجهت حركتنا قبل ثلاثين سنة وما اصدق اقوالها بالامس البعيد وما أكثر انطباقها على حال امتنا وعالمها العربي اليوم .

فها نحن خلال العشرين سنة الاخيرة نواجه نكبتين مصيريتين ، تقام في اولاهما للعدوان دولة ــ رأس جسر لعدوان متكرر جديد كانت هزيمة حزيران الماضية احدى حلقاته .

ولقد كانت النكبتان الى حد كبير وليدتي قصر النظر في استشراف الاخطار من جهة والعجز عن وضع التخطيط المنبثق من شمول الرؤية من جهة ثانية .

وكم نرى في هذه الاقوال اعلاه من وضوح في الرؤية ومن استشراف للمستقبل ومن اشارة صريحة الى كيفية النهج لتحقيق الانقاذ . ففي رفض حركتنا للتقسيم باكرا منذ مشاريعه الاولى

عام ١٩٣٧ قالت : « ان التقسيم المقترح يكسب الوطن اليهودي صيغة « دولة » ستكون نواة الدولة اليهودية » ولا ينحصر خطر اليهود في فلسطين .... لان اليهود لن يكتفوا بالاستيلاء على فلسطين ، ففلسطين لا تكفي لاسكان ملايين اليهود ... » وبعد مرور عشر سنوات على هذا القول حلت النكبة الاولى عام ١٩٤٨ فقامت دولة العدوان على قسم من فلسطين التي رفعت شعار اسكان ملايين اليهود في الارض المحتلة واخذت تتحفز كما اكدت السنوات العشرون الاخيرة لعدوان اخر فجرته في الخامس من حزيران ١٩٦٧ ملتهمة الاقسام الباقية من فلسطين ومؤكدة بمد عدوانها الى اراض جديدة ان ليس لمطامعها حدود ، وان حلم اليهود التاريخي الذي ذكره التلمود باستعباد شعبنا » « وفرض الجزية على الامم الغريبة » هو الذي تجسده في هذا العصر الحركة الصهيونية في مطامعها العدوانية .

ان حركة الحق القومي قد اعلنت منذ نشوئها واكدت ذلك في كل مناسبة ان لا مساومة ولا مهادنة ولا تفريط بالحق القومي . وان كل مقررات دولية تتخذ مخالفة لحقنا في تقرير مصيرنا هي مقررات باطلة . تلك هي صيحة الحق الذي لا يخبو ، نجدد اطلاقها في وجه التسويات على حساب الحق القومي .

فمنذ وقعت النكبة الاولى عام ١٩٤٨ وسياسة الاصرار على تنفيذ مقررات الامم المتحدة شأن فلسطين ، وهي المقررات التي تدعو الى التقسيم ، تكاد تصح خلال العشرين سنة المنقضية السياسة السائدة في العالم العربي .

وها اليوم ، وبعد ثلاثين عاما على رفضنا فكرة التقسيم ترتفع من هنا وهنالك دعوات تنادي بانهاء حالة الحرب مع العدوان بتضييق حجم الاغتصاب او بالاكتفاء بازالة اثار العدوان الاخير وتجاهل العدوان الاساسي . ان المعركة ليست ولا يجوز ان تكون محصورة في نطاق ازالة اثار العدوان الاخير ، انما ابعد من ذلك . انها معركة الحق القومي في فلسطين وما ازالة اثار العدوان الاخير الا مرحلة من مراحلها باتجاه الهدف الاخير .

نتلاقى مع الثوريين المخلصين في رفض التسويات

اننا في موقفنا المبدئي الثوري الرافض كل هذه التسويات على حساب الحق القومي نعبر عن روح الثورة ونتلاقى مع الثوريين المخلصين في امتنا ، خاصة مع ابطال العمل الفدائي الذين اعلنوا بالبطولة المحققة رفضهم للتسويات وانصاف الحلول .

ان الخطر اليهودي كما اعلنت حركتنا قبل ثلاثين عاما وكما اكدت التجارب والنكبات الاخيرة هو خطر على ارضنا القومية كلها وليس على فلسطين فحسب .

ان حرب التحرير يجب ان يشترك فيها اللبنانيون والشاميون والعراقيون والاردنيون وينسقوا قواتهم وخططهم من اجلها . اننا نجدد الدعوة التي اطلقها باعث نهضتنا قبل عشرين عاما الى اللبنانيين والشاميين والعراقيين والاردنيين والفلسطينيين لوضع الخطة الكاملة لاسترداد فلسطين تدعمهم في تلك الدول العربية الشقيقة لا سيما المتاخمة لدولة العدوان والمشتركة معنا في موقف مصيري ضد العدو المتوسع . ان معركة فلسطين هي معركة شعبنا كله ، ومعركة الجبهة العربية المساندة لحق شعبنا المقدس في ارضه ومصيره

ان العمل الفدائي البطولي اذا لم يدعمه خزان بشري متدفق من شعبنا واذا لم

يستند الى منطلقات في ارضنا القومية كلها واذا لم ينتظم في حركة ثورية واحدة فانه قد يصل الى طريق مسدود . ان الشعلة التي اضاءها الفدائيون الفلسطينيون يجب ان تبقى متوهجة حتى يسطع فجر الحق . ولقد كان نداء حركتنا منذ نشوء المسألة الفلسطينية وبروز الخطر اليهودي على فلسطين في اعقاب الحرب العالمية الاولى انه ما لم تقم حركة قومية منظمة تفوق حركة العدو الصهيونية في اجراءاتها وتدابيرها فان الكارثة واقعة . ولقد واجهت امتنا العدو في النكبة الاولى بعقلية متخلفة عن العصر .

« ان كارثة فلسطين مسؤولة عنها سياسة الخصوصيات والحزبيات الدينية والعشائرية ! » (١٩٤٨) وبعد عشرين عاما ورغم تململات ثورية عديدة لاقامة اوضاع جديدة في امتنا والعالم العربي تكون في مستوى التحدي فقد جاءت الهزيمة الاخيرة ، هزيمة حزيران تؤكد ان الثورية غير المكتملة التي تشوبها العاطفية والرومانسية وتحافظ على جمود المجتمع التقليدي ومفاهيمه الراكدة وتفتقر الى القاعدة الشعبية الثورية المعبأة بالوعي العقدي ، ان هذه الثورية الناقصة لا تستطيع ان تربح المعركة . ولقد سقطت تلك الثورية الناقصة وبرزت تناقضاتها في الهزيمة المرة . وهي ليست ابدا تناقضات محض طبقية بل هي تناقضات بين الثورة والجمود ، بين العقل والرومانسية ، بين التغيير وجزئيته ، بين تغيير الاوضاع وعدم تغيير الانسان لان تلك هي المشكلة .

ما لم تقم حركة قومية منظمة ...

ان المعركة يجب ان تصبح معركة امتنا معبأة في حركة قومية موحدة لتستطيع ان تنتزع من العدو الغلبة لحقها القومي المدعوم بوحدة قوتنا . اما اذا بقيت المعركة بين العدو ومجتمعنا المحتضن التناقضات الاجتماعية المتخلفة القبلية والطائفية والطبقية فان العاقبة ستكون وخيمة . لقد اكدت النكبتان المتلاحقتان خلال عشرين سنة صوابية التحذير الذي اطلقه باعث النهضة في شباط ١٩٢٥ .

« رغما عن كل ما تقدم ومن ان الحركة الصهيونية غير دائرة على محور طبيعي تقدمت هذه الحركة تقدما لا يستهان به فاجراءاتها سائرة على خطة نظامية دقيقة اذا لم تقم في وجهها حركة نظامية اخرى معاكسة لها كان نصيبها النجاح ولا يكون ذلك غريبا بقدر ما يكون تخاذل السوريين كذلك اذا تركوا الصهيونيين ينفذون مآربهم ويملكون فلسطين .

حتى الان لم تقم حركة سورية منظمة تنظر في شؤون سورية الوطنية ومصير الامة السورية لذلك نرى اننا نواجه الان اعظم الحالات خطرا على وطننا ومجموعنا فنحن امام الطامعين والمعتدين في موقف تترتب عليه احدى نتيجتين اساسيتين هما الحياة او الموت واي نتيجة حصلت كنا نحن المسؤولين عن تبعتها .

لا نريد ان ننكر العمل الذي قام به سوريو فلسطين ولكننا نقول ان ذلك العمل لا يكفي لانه لا يشمل سورية كلها وينقصه التضامن الضروري لحياة الامم فما دامت اعمالنا مترتبة على فئات قليلة لا يمكننا ان نقف في وجه التيارات الغريبة التي تريد جرفنا من بلادنا » .

وبعد اربعين عاما على هذا القول لما تزل الحالة السائدة في بلادنا باكثرها هي نفسها . ان اقامة النظام الجديد ، نظام الفكر والنهج ، ثم نظام الاشكال الذي يحققه هي الخطوة الضرورية الاساسية لدك دولة العدوان ومحو اثار الاغتصاب في الجنوب .

ان « اسرائيل » قد اقامتها حركة صهيونية منظمة مدعومة بقوى دولية كبرى ولا يمكن اقتلاعها الا عندما تصبح امتنا معبأة في حركة قومية منظمة لان النظام لا يغلب بالفوضى بل يغلب بنظام اقوى وافضل .

اننا ندرك ان معركة دك معالم العدوان وازالة خطره ليست بالمعركة الهينة بل هي معركة ذات ابعاد خطيرة ، انها معركة الشعب الثائر ضد مغتصبي ارضه والمعتدين على حياته ومنتهكي حقه في السيادة الكاملة على وطنه . وهي اذن لا بد ان تكون معركة الشعب كله ، كل فرد منه ، كل طاقة وامكانية وقد عبأها وعي عقائدي قادر على وضع الامة في موضع الاستنفار النفسي وفي مستوى القوة الضرورية لكل انتصار .

الصهيونية تجد جذورها في اليهودية

ان وعينا لمعركتنا في ابعادها الحضارية والانسانية والقومية هو طريقنا الى ربح المعركة الفعلية لان الوعي اساس النضال وسلاح الثوار الامضى في معارك المصير .

ان اخطر ما يهدد جبهتنا الداخلية هو شيوع مفاهيم منحرفة تحدث ثغرات في مناعة صفنا . من هذه ، التسويات المضيعة لحقنا ، القابلة بالتعايش مع اسرائيل في حجمها المصغر . ومنها المفهوم الخاطىء الذي يسلخ الصهيونية عن اليهودية متجاهلا ان الصهيونية تجد جذورها في تربة التراث اليهودي العنصري – التيوقراطي ، وانها نسخة حديثة – في عصر الامبريالية وبالتحالف معها – لتراث يهودي قديم حفل في التلمود والتوراة بالحقد على الشعوب ومطامع الاستيلاء على أرضنا .

وانه ليصعب جدا فهم الظاهرة اليهودية المعاصرة التي تمثلها الصهيونية العدوانية دون الرجوع الى التراث اليهودي المؤكد في فكرة « الشعب المختار » ، وفي الدعوة الى ابادة الامم وافناء الشعوب ، لعنصرية دينية مذهبية خطرة .

ان رفض هذه العنصرية جذورا تاريخية وواقعا معاصرا على حد سواء هو رفض لكل عنصرية مذهبية متحجرة ، لا دفاعا عن حقنا القومي فحسب ، وهذا واجب مقدس ، بل تجاوبا كذلك مع ايماننا بقومية تبنى على انسانية منفتحة على سائر الشعوب والامم .

ان امتنا كانت في كل حضارتها ورسالاتها الروحية منفتحة على العالم وهي ترفض الدعوات الشوفينية والعنصرية . وما نهضتنا القومية الاجتماعية الا التعبير الاصيل عن نفسية هذه الامة .

ان حربنا ضد اليهودية العالمية هي حرب المصير القومي ضد العدوان والاغتصاب كما انها من وجهة حضارية تمثل اعمق صراع بين مفهوم القومية الاجتماعية العلمانية المؤمنة بتمدن انساني يقوم على اساس ان العالم اسره شعوب ومجتمعات ترتكز عصبيتها الاجتماعية على وحدة الحياة والمزيج البشري والارض ضد العنصرية – الثيوقراطية اليهودية ونظرتها المتقوقعة الحاقدة على الشعوب التي صنفت العالم منذ « العهد القديم » حتى اليوم على اساس « الشعب المختار » من جهة (والامم) من جهة اخرى .

تصادم روحنا الحضاري المنفتح مع الروح اليهودي المتقنفذ

وان هذا الصراع هو استمرار لتصادم روحنا الحضاري المنفتح على العالم والروح اليهودي المتقنفذ روح العنصرية الحقود . ان بلادنا وبخاصة فلسطين كانت للعالم محجة روحية في كل العصور الا لليهود الذين ارادوا ان يقيموا فيها دولة يهودية على حساب شعبنا وحقنا القومي متآمرين على حضارة انسانية هي الحضارة الام للعالم المتمدن . ان الرسالات الروحية التي انطلقت من ارضنا تخطت حدود المعنى الديني الى المضمون الحضاري المعبر عن جوهر نفسيتنا المنفتحة على العالم تفاعلا لحمته الاخذ والعطاء ، وسداه الاسهام الحضاري الذي قدمته امتنا في عملية بناء صرح التمدن الانساني . بينما كانت اليهودية تناقض روحنا المسكوني والانساني المنفتح فتقنفذت الدين عنصريا متوسلة اياه لتحقيق اغراضها الزمنية العدوانية منذ محاولة اليهود اقامة ملك لهم بحد السيف في ارض كنعان لم يلبث ان تصدع تحت ضغط شعبنا واندثر ، الى تصريح بلفور واقامة دولة العدوان في القرن العشرين .

ان دفع الهجرة اليهودية عن ارضنا ومحاربة الخطر اليهودي هو خط تاريخي لا يمكن ان تتنازل عنه امتنا لا سيما بعد تجاربها المرة الاخيرة في فلسطين وبعد ان تكررت تجارب اليهود في الامم والشعوب المتمدنة التي حاولوا دائما ان يبقوا فيها متحدا منفصلا عن حياتها ومصيرها منغلقا على نفسه متطلعا الى الرابطة العنصرية اليهودية وحدها في العالم يمحضها ولاءه الكامل .

ان القومية الاجتماعية قد قامت على اساس رفض الاصل الدموي او الرابطة الاتنية او الدينية اساسا للقومية فاعتبرت كل مواطن يرتبط بأرض الوطن ويشترك في وحدة حياتها يمحض بلادنا ولاءه الكامل ايا كانت اصوله الدموية ، مواطنا ينتمي الى شعبنا وبلادنا بولائه القومي واشتراكه. ولذلك فهي ترى في الظاهرة اليهودية المتقوقعة على نفسها في كل المجتمعات والطامعة باغتصاب فلسطين شذوذا عن طبيعة الاجتماع البشري ونواميسه ترفضه ، كما ترى فيها خطرا مصيريا على حقنا القومي وحياتنا لا بد من استئصاله . انها في موقفها هذا الرافض للخطر اليهودي تعبر عن حق تقرير المصير القومي الذي كان أساس ثورات العصر كما تعبر عن فهم عميق للمسألة اليهودية .

المسألة اليهودية : ظاهرة شذوذ عنصرية تيوقراطية عصيت على كل المجتمعات

اننا نواجه مسألتين حاول العدو ان يدمجهما في مسألة واحدة : المسألة اليهودية والمسألة الفلسطينية . اما المسألة الفلسطينية فليس لها من حل سوى ازالة معالم الاغتصاب والعدوان وممارسة شعبنا لحق تقرير المصير كاملا وفق المبادىء القومية على ارضه .

اما المسألة اليهودية التي يحاول اليهود منذ كانوا ان يحلوها بشذوذهم العنصري التيوقراطي على حساب حق شعبنا في ارضنا القومية فاننا نعتبرها ظاهرة شذوذ عنصري تيوقراطي متحجر مسؤولة الاسرة البشرية المتمدنة عن معالجته بما يكفل الخير لمجموع مجتمعاتها دون اي ظلم او امتهان لحياة الانسان او كرامته وفي ضوء تجارب التاريخ وطبيعة هذه المسألة وهو ما سنعرض له في اخر هذا البحث .

ان المسالة اليهودية ليست محصورة في نشأة الحركة الصهيونية المعاصرة بل ان هذه الحركة قد وجدت اساسها وجذورها في المسالة اليهودية وفي التراث اليهودي وفي التراث اليهودي الديني العنصري وفي النظرة اليهودية الى العالم .

ان المسالة اليهودية مسالة يجب ان تشترك كل الامم المتمدنة ــ وشعبنا في الطليعة ــ في ايجاد حل انسانــي عادل لها انما ليس على حساب الشعوب الحرة وحقها الكامل في السيادة على ارضها . فالمسالة اليهودية لا تحل بارتكاب ظلم جديد على شعب آمن باغتصاب جزء من ارضه القومية وتشريده عن موطنه . ان اليهود لم يتنازلوا عن وجهة النظر العدوانية هذه في تطلعهم المستمر الى فلسطين . ولا نستطيع ان نتخذ من شذوذ الافراد ما ينفض القاعدة والاساس ذلك انه ليس من جالية يهودية في العالم لا تتجاوب مع الحركة الصهيونية وتؤيدها وتسير في ركابها اما التذرع بافراد قلائل هنا وهناك لاحداث هذا التمييز فيكون كمن يريد ان يجعل من شذوذ الافراد قاعدة تطمس القاعدة .

ان المسالة اليهودية تحل في راينا باعادة نظر اساسية في مسببات هذه المسالة التاريخية والاجتماعية .

فاذا كان الغرب في اقبح موجاته العنصرية المهووسة قد انزل ظلما باليهود يستحق الشجب والاستنكار فاننا لا نستطيع ان نتجاوز كذلك ظاهرة التقنفذ اليهودي العنصري ــ التيوقراطي الذي جعل اليهود غير مندمجين في الشعوب التي نزلوا بين ظهرانيها خلال التاريخ حتى انهم في اكثر المجتمعات الليبرالية بقوا متقوقعين على عصبيتهم العنصرية . فهم رغم الحريات الواسعة التي يتمتعون بها في المجتمعات الغربية ورغم سيطرة اخطبوطهم المالي والسياسي بصورة خاصة في اميركا لم يندمجوا في المجتمع الاميركي ولا في غيره من المجتمعات ولا تنازلوا عن عصبيتهم العنصرية ــ الدينية الرهيبة بل اتخذوا من نيويورك مثلا قاعدة حركتهم الصهيونية ليوجهوا منها العدوان على فلسطين وعلى ارضنا القومية كلها .

ان في هذا تأكيدا على ان المسالة اليهودية تتخطى مسالة الظلم الذي وقع على اليهود في بعض المجتمعات الاوروبية الى طبيعة نظرتهم وثقافتهم العنصرية ــ التيوقراطية التي جعلتهم عنصريين متعصبين خطرين في المجتمعات التي احتضنتهم وحدبت عليهم وفي المجتمعات التي اضطهدتهم سواء بسواء .

واننا عندما نؤكد على خطورة التراث اليهودي في دعم القضية الصهيونية العدوانية فانه لا يمكن فهم ما تمتع به اليهود من عطف في الغرب ومن حدب على مشاريعهم العدوانية في اسرائيل بمجرد حصر الموضوع بنفوذهم المالي ــ الاقتصادي ــ السياسي في الغرب وهو جانب خطير من المسالة ولكنه ليس كل المسالة . ففضلا عن ربط اليهود بين اضطهاد النازية لهم وبين مطمحهم في فلسطين ربطا ستر الجريمة الاخيرة واهوالها بهول الجريمة الاولى . فانهم قد ربطوا بين قضيتهم العدوانية في فلسطين وبين تراث التوراة الذي يتحدث عن « ارض الميعاد » التي كانت تفيض لبنا وعسلا فتوسلوا بذلك عطف العالم المسيحي في الغرب ومكانة التوراة في تلك الاوساط ليؤلبوا الرأي العام الغربي معهم .

ولقد ظهر ان اليهود كجماعة عنصرية ثيوقراطية متقنفذة ــ خلافا لكل تفسير محض اقتصادي ــ قد بقوا متقوقعين في عصبيتهم بمناعة سلبية لا تخرقها شيوعية الشرق ولا ليبرالية الغرب على حد سواء . لقد قال ماركس بان المسالة اليهودية تحل

بزوال الراسمالية ولكن المسالة اليهودية بقيت في الشرق الشيوعي كما بقيت وسيطرت في الغرب الراسمالي . وفي هذا دحض لافكار الذين يحاولون الربط بين الحرب الطبقية ومحاربة الصهيونية دون ادراك منهم لاهمية العوامل المعتقدية الايديولوجية في قولية فكر الجماعة : فلقد بقي تراث التلمود والتوراة في اذهان اليهود يولد العصبية العنصرية ـ التيوقراطية ويكون منهم خاصة دينية عنصرية لم يصهرها اي نظام الا نظام عصبيتها الخاصة .

وعدا ان كثرة من سكان الدولة الصهيونية قد هاجروا اليها من الدول الشرقية فان الاحداث الاخيرة في أوروبا جاءت تؤكد عصيان التقنفد اليهودي على تاثيرات الشرق الايديولوجية والغرب الاقتصادية ـ الليبرالية على حد سواء . فلقد عمد اليهود في عدد من المجتمعات الشرقية والغربية الى ممارسة ضغط كبير ضد تلك المجتمعات ودولها اثر مواقف تلك الدول في حزيران الماضي والتي اعتبرتها الصهيونية معادية لاطماعها . فقد حاول اليهود في عدة مجتمعات الافادة من ظاهرة الثورة الطلابية الاخيرة في العالم ليوجهوها حيث أمكن وفق مخططاتهم المتضاربة مع المعاني الجميلة لتلك الظاهرة . الانتفاضية في العالم ذلك كان شانهم دوما مع حركات التاريخ محاولة استغلالها لمآربهم الخاصة . فلقد أكدت حكومة غومولكا الشيوعية في بولونيا أن الاضطرابات الاخيرة حركتها عناصر صهيونية ردا على موقف بولونيا المؤيد لوجهة النظر العربية من أحداث حزيران الاخيرة . ولقد حاولت الدعاية الصهيونية أن تطلق في وجه الحكم الشيوعي البولوني اتهامات « العنصرية والفاشية » لانه وقف في وجه المؤامرة اليهودية على بولونيا ونظامها .

كما أن قائد حركات الطلاب في باريس هو الطالب حاييم كوهين بنديت الذي رفع شعار تحطيم نظام ديغول وانزل العلم الفرنسي ليرفع العلم الاحمر ومعروف ان نقمة اليهود كانت كبيرة على ديغول بسبب موقفه المؤيد للجبهة العربية وذلك رغم كل ما يتمتع به اليهود في فرنسا من حريات واسعة وبحبوحة ورخاء عيش .

ولقد لجأت اليهودية العالمية الى شعار اللاسامية والعنصرية ترفعه في وجه كل خصم لها حتى في وجه العرب انفسهم الذين هم حسب التصنيف اللغوي الاتني الشائع ساميون ، كما انهم لم يضطهدوا اليهود في التاريخ اطلاقا بل صور الصهاينة دفاع العرب عن اوطانهم ضد الخطر الصهيوني باللاسامية والعنصرية .

ان فضح العنصرية اليهودية والدعوة الى محاربتها بمختلف اشكالها هو واجب قومي ، وهو موقف ثوري تقدمي كما انه موقف علمي موضوعي يحدد طبيعة العدو وحقيقته كما يحدد طبيعة المعركة وحقيقتها . ولا بد ان تهتاج العنصرية اليهودية لدن فضحها فتكيل التهم جزافا كما فعلت عندما اتهمت غومولكا الشيوعي « بالفاشية والعنصرية » .

الحل الانساني العادل للمسألة اليهودية الشاذة في العالم

يتبين من كل ما تقدم ان المسالة اليهودية هي ظاهرة شذوذ عنصري ـ تيوقراطي مارسه اليهود في المجتمعات كلها على اختلاف انظمتها وقومياتها وعقائدها . ان الحل الانساني العادل الذي نقترحه لهذه الظاهرة الشاذة المنسجم مع خير الاسرة البشرية ودون اي اضطهاد او ظلم يكون بتخيير اليهود في كل المجتمعات بين الانصهار الكامل في تلك المجتمعات على اساس

المواطنة غير المجزأة الولاء والتخلي كليا عن فكرة « الوطن القومي اليهودي » في فلسطين ــ وهذا يستدعي اعادة نظر كلية في تراثهم ومفاهيمهم وهو امر مستبعد في ضوء تجارب تاريخهم ــ العنصري التيوقراطي وبالتالي الصهيونية العالمية التي تعبر عن هذا التراث في العصر الحديث ، وهو حال الاكثرية الساحقة ــ ان لم نقل ــ كل يهود العالم ، فلا بد عندها من ايجاد مكان في العالم غير فلسطين لا يصار الى اغتصابه وتشريد سكانه كما جرى في ارضنا بل تقدمه احدى الدول الواسعة المساحات الغنية الموارد ، المتقدمة ، والعطوفة على اليهود ، بملء رضاها مثل كندا والولايات المتحدة او غيرهما ، حيث يجتمع اليهود ويقيمون متحدا خاصا بهم فيريحون المجتمعات الاخرى من أخطبوط مؤامراتهم ويتخلون عن دعواهم في فلسطين ويعيشون بسلام .

حل المسالة الفلسطينية هو في دفع الهجرة اليهودية وتحرير فلسطين

هذا هو حلنا للمسألة اليهودية وهو حل انساني عادل مستوحى من خبرات التاريخ وطبيعة المسالة اليهودية اما المسالة الفلسطينية فحلها الاوحد هو في دفع الهجرة اليهودية وتحرير فلسطين . وهذا يستدعي اول ما يستدعي مجابهة العنصرية اليهودية ومطامعها وأخطارها بوعي عقدي في شعبنا ينطلق من تعيين معالم شخصيتنا القومية والحضارية بوضوح ليستقطب الولاء ويمحوره عليها كما انه يعين بوضوح طبيعة العدو وافكاره وايديولوجيته واهدافه ومطامعه تعيينا موضوعيا مسؤولا ليعرف كيف يدرأ الخطر وكيف يخوض الحرب .

لن يستطيع مجابهة العنصرية اليهودية الذين يعانون هم انفسهم من العقدة العنصرية لان مفهومهم للقومية اسقط الملايين من شعبنا من حق المواطنة بسبب اصولهم الدموية المختلفة وحصر المواطنة بالرابطة الاتنية ــ اللغوية فاعتبر « اليهودي السامي » اقرب الى العربي من الكردي الاري متجاهلا روابط الحياة والارض والمصير التي تصهر الذين هم من اصل عربي او اصل كردي او اصل اشوري في امتنا الواحدة على ارضنا الخصيب وأن الهجرة اليهودية عدا مطامعها العدوانية الواضحة ترتكز كذلك على تحجر التراث العنصري اليهودي التيوقراطي وخبرات التاريخ والمجتمعات الاخرى ، وارتباطها عبر الصهيونية بالامبريالية العالمية .

ولن يستطيع كذلك مجابهة العنصرية اليهودية الذين اعترفوا بان عقائدهم الرومنسية لم تكن في مستوى العصر ، فارغة من كل مضمون عقدي وفكري ، ولذلك اضطروا الى استعارة العقائد الاممية والطبقية محاولين ارساء فكرهم عليهما في وقت يعيد أصحاب هذه العقائد الاصليين المنتصرين في ثورات كبرى النظر في عقائدهم تحت ضغط الواقع الاجتماعي والقومي في العالم وتطورات العصر .

ان معركة تحرير فلسطين لم تربح في الماضي تحت راية الرومنسية او العنصرية او الحرب الدينية ، كما انها لا يمكن ان تربح تحت العقائد المستعارة بل تحت راية العقيدة القومية الموحدة شعبنا في مفاهيمه النفسية والاجتماعية والقومية والملتصقة بولائها وجذورها بتراب الوطن ، المستلهمة قدسيته في كفاحها القومي ، المؤكدة اهمية الارض في نشوء الحياة القومية ، المعلمة اجيال امتنا ان كل شبر من ارضنا يفتدى بشرايين دمانا .

معركتنا ضد اسرائيل معركة قومية مصيرية لها ابعادها الاجتماعية

وفي هذه المعركة لا بد كذلك من تعيين طبيعة العدو . ان لاسرائيل طبيعة مزدوجة كل تغاض عنها هو تفريط لا مبرر له . ان اسرائيل قاعدة المصالح الاستعمارية والامبريالية ولكن بقدر ما تتحول الدول الاستعمارية نفسها لقاعدة للمصالح الصهيونية كل اجتزاء لهذه الحقيقة هو فهم ناقص مشوه لطبيعة العدو وبالتالي لطبيعة المعركة .

ان اعتبار اسرائيل مجرد قاعدة للمصالح الامبريالية دون ادراك الجانب الاخر منها الذي هو سيطرة المصالح الصهيونية في الدول الاستعمارية الكبرى تدعمها المعتقدية اليهودية الدينية العنصرية ، هو اعتبار يفضي بسبب جزئية نظرته الى اعتماد تعليلات متجاهلة لهذه الجوانب تفسر الوجود الصهيوني المعتدي على اساس الربط الميكانيكي بين الامبريالية والحرب الطبقية والتخلي عن المحور القومي والدوران في فلك الاجتهادات المضيعة للجهد القومي العام .

ان معركتنا ضد اسرائيل وضد اليهودية العالمية الكامنة وراءها هي معركة قومية مصيرية لها ابعادها الاجتماعية ، وليست معركة من معارك الحرب الطبقية المجردة اذ لا يمكن ان نقبل وفق المفهوم الطبقي المناداة « باخوة العمال العرب واليهود » في حربهم الطبقية ضد « الراسمالية العربية واليهودية » . ان العمال اليهود الذين حلوا بالاغتصاب محل شعبنا النازح المشرد في الجنوب يمثلون اقبح انواع السطو والعدوان والاستغلال ولا يمكن للرابطة الطبقية الاممية ان تكون شفيع اخاء بينهم وبين ابناء شعبنا المشردين عن ديارهم ومواطنهم

ان معركة فلسطين هي معركة الوعي القومي الذي يحرك السلاح . ان السلاح الذي تكدس في ساحات المعركة اكد ان العبرة ليست للسلاح بل للانسان الذي يحركه .

ان المهمة الاساسية هي بناء الانسان القادر على تحرير فلسطين وتحقيق السيادة القومية على كل ارضنا وانشاء المجتمع الجديد .

الباب الثاني

المقاومة ومؤامرات التسوية

١٩٦٧ ـ ١٩٧٧

الفصل الرابع : المقاومة والنظام الأردني : ١٩٧٠ ـ ١٩٧١
ست حقائق دامية من عمان .

الفصل الخامس : حقوق الشعب الفلسطيني والتسوية

I ـ حقوق الشعب الفلسطيني فخ ديبلوماسي أم حق ثوري (١٩٧٤)

II-مع الثورة في الأمم المتحدة : مظلة لكفاحها لا وصولا الى جنيف (١٩٧٤)

III-تحيطم ميزان القوى الراهن حتى ننهض من مطبات التسوية الى استراتجية التحرير ١٩٧٥

IV-القرار ٢٤٢ والعقدة الفلسطينية ١٩٧٧

مدخل

كانت حمامات الدم للمقاومة الفلسطينية مدخل منعطفات الحلول الاستسلامية فاذا صح تسمية حمام الدم في عمان بحمام روجرز فقد كان حمام لبنان حمام كيسنجر . أما الان فقد أنذر السادات بسيل الدماء بعد زيارته الاسرائيلية .

وحين أعلنت فصائل المقاومة الفلسطينية بيان وحدتها الوطنية في طرابلس على أساس تأكيد رفضها القرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ وبدأت المفاوضات المباشرة بين مصر واسرائيل ، وجدت المؤامرة أن هدفها الثابت قد تحقق : « ان منظمة التحرير أقصت نفسها عن أي احتمال للاشتراك في محادثات السلام » هكذا قال كارتر . ذلك ان هدف المؤامرة اما أن تنقض منظمة التحرير نفسها وميثاقها وتنخرط بالتسوية وتعترف باسرائيل او تحذف !

وجرى المسعى المصري ـ الاسرائيلي للبحث عن « فلسطينيين معتدلين » أي خونة ، للاشتراك في صفقة بيع فلسطين . وكما يقول كارتر في تصريحه في ١٦ ـ ١٢ ـ ١٩٧٧ « وهذا ليس موقفي بل موقف الرئيس السادات ورئيس الوزراء بيغن والزعماء الاخرين » .

وهكذا تتجه المؤامرة الى تنفيذ آخر حلقاتها .

وفي ضوء هذا نستطيع ان نفهم الترابط بين فصلي هذا الباب : « النظام الاردني والمقاومة » الصادر في ١٩٧١ والمقالات حول « حقوق الشعب الفلسطيني والتسوية » ١٩٧٣ ـ ١٩٧٧ .

في ١٩٧٣ تعرضت المقاومة الفلسطينية لمحاولة تصفية مشابهة في لبنان ، ولكنها استطاعت الصمود أكثر لاختلاف ميزان القوى لمصلحتها عما كان في عمان في ١٩٧٠ ـ ١٩٧١ . واستطاعت دمشق بدل ان تستخدم قوتها العسكرية كما جرى في الاردن ان تستخدم قوتها الاقتصادية فيؤدي اغلاق الحدود الى تراجع النظام اللبناني عن مخططه ، خاصة بعد فشله العسكري .

وفي ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ كان ميلاد البندقية الوطنية اللبنانية الى جانب المقاومة هو الحليف الذي افتقدته في الاردن

والسؤال الذي يطالعنا هنا لو أن شعبنا الفلسطيني كان مسلحا ومنظما في ١٩٦٧ في الضفة الغربية هل كان العدو اجتاح الضفة بهذه السهولة ؟ ان معركة الكرامة لاحقا أثبتت أهمية المقاومة الشعبية المسلحة الفاصلة وشكلت منعطفا . لكن النظام الذي قمع المقاومة بعد معركة الكرامة هو الذي مارس القمع ضد شعب الضفة فجرده من سلاحه حتى أصبح هو والارض التي أحب مكشوفين أمام العدو .

لو كانت الضفة الغربية مسلحة منظمة في ١٩٦٧ لكانت أنهكت العدو لان جيشه قد يتفوق على هذا الجيش أو ذاك بكثافة النيران وبالطيران ، كما فعل ازاء الجيش الاردني في ١٩٦٧ ولكنه لا يستطيع أن ينجو من حرب الاستنزاف التي تشنها فرق المقاومة المنظمة خلف خطوطه أو من مقاومة كل قرية تعرقل تقدمه بالحرب الشعبية والارض المحروقة .

لقد ربط العدو بين أمنه والمستوطنات التي أقامها في الارض المحتلة . فهي مخافره الامامية التي تؤخر زحف الجيوش المعادية . ولكن العدو كان دوما في حالة هجوم علينا . ومع ذلك هو يبني مستوطنات مقاتلة تحسبا لساعة هجومنا بينما نحن في حالة الدفاع ولا نحول قرانا الى قرى محصنة يقاتل فيها الشعب ضد العدو . هذه هي المفارقة التي تدعو الى العجب .

لقد طالبنا باستمرار طوال السنوات الماضية بأن يتحول الجنوب اللبناني لا سيما الشريط الحدودي وعمقه المباشر الى قرى محصنة ، الى مزارع شعبية تعاونية مسلحة ، الى كيبوتزات مضادة للكيبوتزات الاسرائيلية في الارض المحتلة . ولكننا كنا على يقين بأن النظام الاقطاعي الطائفي الرأسمالي أعجز عن تحقيق هذه الامنية بل انه نقيضها لانه متى رفع الاستغلال عن الشعب وأصبح الشعب مقاتلا يسقط مقومان من مقومات هذا النظام : ١ ـ الاستغلال و ٢ ـ القمع .

وكانت النتيجة انه على أرض الجنوب شق الشعب بقيادة أحزابه التقدمية وقواه الوطنية الطريق الى المقاومة الشعبية المنظمة للعدو الاسرائيلي فقامت القوات الوطنية اللبنانية الى جانب قوات المقاومة الفلسطينية في عملية التصدي الشعبي المسلح للعدو الاسرائيلي وعملائه .

نحن نرفض النظرية العدمية التي تقول باستبدال حرب الجيوش بحرب الشعب لاننا ندرك اهمية الجيوش وتعزيزها وندرك انها عامل الحسم الفاصل . ولكن من ناحية ثانية لا يمكن أن نواجه عدوا حول نفسه شعبا وجيشا الى ثكنة بجيش يقاتل وشعب يتفرج ان دعم حرب الجيش بالمساندة الشعبية المسلحة المنظمة أمر مهم وفاصل في التصدي للعدو .

وليس أعظم من قيام الخندق القومي في وجه عدو راهن على تقسيمنا وتجزئتنا . ليس أعظم من أن يستشهد اللبنانيون والفلسطينيون في خندق واحد الا وقوف كل أبناء الامة معا . فذاك تقويض لحدود التجزئة وبناء الجيش القوي الذي يحرر فلسطين .

لقد كان تقديرنا لعملية الخالصة في بداية تصاعد الكفاح الفلسطيني المسلح في الارض المحتلة في ١٩٧٤ انها ضمت فلسطينيا وشاميا وعراقيا وأردنيا أن تكون النواة لتحرك شعبنا كله الى الارض المحتلة تحت رايات التحرير .

الفصل الرابع
المقاومة والنظام الاردني
١٩٧٠ ـ ١٩٧١ :
حتى لا تتكرر مأساة الأردن (١)
ست حقائق دامية من عمان
القسم الاول :
الحل السلمي والتناقض الكبير

تنعقد مجدداً بوادر غيمة سوداء في سماء الاردن . وقد أكد ذلك تصريح السيد ياسر عرفات لصحيفة « الاخبار » القاهرية في أعقاب تشكيل حكومة وصفي التل ، اذ قال « ان الموقف في الاردن لا يزال مشحونا بالتوتر والقلق ، والاستفزازات من جانب السلطات الاردنية لا تنقطع ضد الفدائيين » واتهم وصفي التل بأنه « المسؤول الاساسي عن مذابح شهر أيلول تخطيطا وتنفيذا » . (٦ ــ ١١ ــ ١٩٧٠) .

وفي تصريح للسيد وصفي التل ادلى به لمجلة « الحوادث » البيروتية حاول دفع هذه التهمة بقوله « انا لم اشترك في المجزرة » ولكنه برر حدوثها اذ قال : « ان حوادث أيلول لم تكن سببا ، بل كانت نتيجة للعلاقات غير الواضحة وغير الصريحة بين الحكم وبين الفلسطينيين » واتهم « زعماء المقاومة » بانهم « يخافون القواعد » واتهم القواعد بانها « جاهلة وخاضعة للاعلام وللعقلية الغوغائية » (« الحوادث » في ٦ ــ ١١ ــ ١٩٧٠) .

الا يقرأ المرء بين السطور أن السيد التل يجد للمجزرة المبررات ؟

من استعراض التصريحين يظهر بوضوح جو عدم الثقة بين المقاومة والحكم الاردني الجديد ، مما ينذر بعواقب خطيرة يأمل كل المخلصين تجنبها .

ولكن كيف يصار الى تجنب مجزرة جديدة ؟ بتسويات وانصاف حلول أم بوضوح في الخطة والهدف والرؤية ؟

ان سياسة بوس اللحى والمصالحات العشائرية لا تجدي . ان وضوح المقاصد هو مفتاح كل حل جذري سليم .

وهذا الوضوح قد أكدته ست حقائق دامية هي العبر والنتائج من احداث عمان في ايلول الماضي . فهل توقفت عندها الحكومة الاردنية الجديدة قبل ان تطلق شعارات كقول السيد التل « سأنفذ اتفاق القاهرة حرفيا . ومن يخالف من الطرفين (المقاومة او الجيش) سأقطع رأسه » ؟

---

(١) نشرت هذه الدراسة في كتيب باسم احسان مطر عام ١٩٧١

الحقيقة الاولى :

رفض الحل السلمي :

جاءت احداث الاردن بدوي مأساوي تؤكد وجود ارادة غير ارادة الأنظمة في تقرير مصير فلسطين ، وتسقط عمليا الحل السلمي وتسوياته المضيعة للحق القومي ، مؤكدة بألوف الضحايا والشهداء ، ان ارادة الشعب ، الشعب الفلسطيني وكل شعبنا في مدى الوطن الرافضة للحلول الاستسلامية ، هي في ميزان القوى ، القوة الفصل التي تقرر المصير ، ومؤكدة كذلك سقوط حق الانظمة بالوصاية على الشعب في تقرير مصير الارض ، حتى ولو توسلت القوة القمعية .

ان خطيئة الحكم الاردني الاولى الاساسية هي تجاهله لهذه الارادة الشعبية واعتماده على القوة المجردة ، على ولاء العسكر والمرتزقة لفرض حل يتناول مصير الشعب وترفضه أكثريته الساحقة .

لقد استظل الحكم الاردني مظلة قبول الحل السلمي من القاهرة وما لها من رصيد على الصعيد العربي ، متوهما أن ذلك يسول له المضي في مخطط الحل السلمي ضد ارادة الشعب في الساح الاردنية ـ الفلسطينية ، متجاهلا ان القبول ـ المناورة من القاهرة للحل السلمي لا يعرضها للتناقض الخطير الذي يتعرض له حكم في مدى فلسطين الطبيعي والجغرافي ، يقبل بالحل السلمي ويشكل الفلسطينيون أكثرية مواطني دولته ، فضلا عن رفض باقي شعبنا له .

ان مظلة القبول بالحل السلمي القاهرية لم تستطع انقاذ الحكم الاردني من الوقوع في التناقض الكبير . وهي نفسها لم تبق تظلله وتقيه لهب الغضبة الشعبية عندما انتج هذا التناقض المجزرة الدامية ، فسقطت كل الذرائع والمبررات ، وعادت القاهرة الى التجاوب مع تراثها السابق في دعم حركات التحرر الوطني ، وكانت برقية الرئيس عبد الناصر الاتهامية ، فاذا الحكم الاردني يجد نفسه عاريا امام غضبة الشعب وغضبة العالم العربي كله .

لقد اعتبر النظام الاردني ان له مظلة كذلك من الملوك والرؤساء العرب الذين يشكلون ، ما يصفه بعض كتابنا « بالنظام العربي » المتماسك في مصالحه وتناقضاته . وقد كانت لهذا « النظام العربي » سابقاته في اجهاض العمل الثوري لا سيما الفلسطيني ، منذ نداء الملوك والرؤساء الذي أجهض ثورة ١٩٣٦ في بداية الحرب بحجة عدم طعن « الحليفة » بريطانيا وهي تقاتل دول المحور ، كانما نحن مسؤولون عن أمن المستعمر الذي مكن اليهود من أرضنا !

ثم قام هذا « النظام العربي » ممثلا بدول الجامعة العربية ومؤسساتها بعقد هدنة ١٩٤٨ فمارس وصايته مجددا على الشعب الفلسطيني ، وشعبنا كله . وأخيرا كانت هزيمة حزيران خاتمة المطاف وقد سبقتها وتلتها مؤتمرات القمة الشهيرة .

ولكن هذه المظلة لم تستطع المضي مع النظام الاردني في قبول نتائج المجزرة . ووقف الرئيس عبد الناصر الى جانب المقاومة وختم حياته بالعمل على انقاذها من المجزرة . وأكدت كل من ليبيا والسودان انها سند حقيقي للثورة الفلسطينية سواء بالمواقف أو بوقف المدد المالي عن الحكم المعتدي .

واستظل الحكم الاردني مظلة اخرى ، أكثر شفافية ، هي المظلة الدولية التي باتت هي نفسها ، في شبكة الاحداث والنتائج منذ حزيران ١٩٦٧ ، محرقة لا مظلة ، وسيف نقمة لا حبل نجاة .

ان تصريح الدوائر الاميركية عن استعدادها لمد الحكم الاردني بالسلاح والذخيرة ، بعد مجزرة الاردن تكشف عن هول الهوة التي تفصل اميركا عن العرب والتي من شأنها الانعكاس على أي نظام يتعاون معها . فالسلاح الذي حجبه الاستعماريون عن الاردن وهو في خط النار ضد اليهود عرضوه عليه بعد الاصطدام بالمقاومة والفلسطينيين .

ان البادرة الاميركية وقبول بعض الانظمة العربية بها ، قد دفنت في عمان والزرقاء واربد والرمثا ، وسط أكوام الانقاض وركام الجثث والدمار .

ان الارادة الشعبية الثورية ، مجسدة بالمقاومة الفلسطينية البطلة ، وتعاطف أكثرية شعبنا وقواه الوطنية والثورية معها ، قد كتبت الرفض بالدم ، وكتب النظام القبول بالقمع والحديد والنار !

ان بعض قابلي الحل السلمي قد أرادوه ضربة تكتيك بارعة تؤدي الى ارباك دولة العدو واحداث الانقسامات والتناقضات فيها . ولكن الذي حدث في عمان أن قبول الحل السلمي والسير بمخططه المناقض لخط الثورة والتحرير ، هذه كانت نتائجه : تناقضا بلغ حد الحرب الاهلية والمجزرة والابادة الجماعية في أرضنا ، ووسط شعبنا ، وبعشرات الالوف من أبنائنا واخوتنا .

ان اي حل لمسألة فلسطين ، كما أكدت أحداث الاردن الدامية ، لا تكون فيه المقاومة الفلسطينية مدعومة بالقوى الوطنية والثورية من شعبنا ، هي صاحبة الرأي الاول فيه ، هو حل فاشل لا تفرضه الوصايات التي سقطت ، ولا القمع الذي لا يجدي . ان الانظمة التي تجاهلت في مؤتمراتها السابقة وهي تبحث عن الحل السلمي ، وجود الثورة ، اضطرت الى مواجهة الثورة في مؤتمر قمة عقد للبحث في « حل سلمي » بين « النظام العربي » والمقاومة في محاولة رأب الصدع القديم . وتلكم هي المفارقة .

في نور هذا كله كيف نفهم تصريحات السيد وصفي التل الاخيرة حول « الحل السلمي » . يقول التل : « أريد أن تفهم انني كوصفي التل لا اؤمن بأية تسوية سلمية مع الصهيونية » هذا ما قاله « للحوادث » في ٦ — ١١ — ١٩٧٠ . ولكنه في مؤتمره الصحفي الذي عقده في عمان في ٧ — ١١ — ١٩٧٠ أكد « ان الحكومة الاردنية ما زالت مرتبطة بالمبادرة الاميركية لتسوية أزمة الشرق الاوسط حسب قرار مجلس الامن » . واستباقا لاي قول بأن ثمة تناقضا بين اقواله السابقة واللاحقة اضاف : « ان قناعاتي لا تزال كما هي ، لكننا كدولة عندنا تحرك سياسي ، مع الشقيقة مصر متعلق بنتائج حرب حزيران وليس بصلب القضية »

والاسئلة التي توجه الى السيد التل كثيرة في هذا الصدد :

١ — كيف يقبل رئيس حكومة لا يؤمن شخصيا بالحل السلمي ان يرأس حكما قابلا بهذا الحل ؟ وفي هذه المرحلة بالذات ؟

٢ ـ كيف يوفق بين تحرك سياسي متعلق بنتائج حرب حزيران وبين عدم مس صلب القضية في وقت يبدو واضحا من مشروع روجرز وقرار مجلس الامن في تشرين ١٩٦٧ ، ان نتائج حزيران مرتبط حلها اشد الارتباط بالقرارات الدولية المشار اليها بحلول تمس صلب القضية . فالاعتراف « باستقلال كل بلد » في المنطقة « بما فيها اسرائيل » و « سلامته الاقليمية » وتصفية كل مطالبة بالتحرير وتصفية المسألة الفلسطينية على صعيد « حل مشكلة اللاجئين بالتعويض أو العودة بشروط » . كل هذه شؤون تمس صلب القضية . وبالامكان القول أن حل نتائج حزيران لا يكون وفق الحلول الدولية المطروحة الا على حساب القضية من الأساس ! وهذا أدنى ما تقبل به اسرائيل !

٣ ـ يقول السيد وصفي التل انه لا يؤمن شخصيا بالحل السلمي وانه يؤمن بتحرير فلسطين .

ويقول : « تحرير فلسطين يستوجب خطة استراتيجية طويلة الامد . ومتى تم الاتفاق المبدئي بين الحكومة الاردنية وبين المقاومة على خطة تحرير فلسطين فكل ما عدا ذلك يصبح ثانويا ومن باب الشكليات (« الحوادث » ٦ ـ ١١ ـ ١٩٧٠) .

هذا البديل عن الحل السلمي لماذا لا يطرحه رئيس الحكومة الاردنية رسميا بدل أن يطرحه للاستهلاك الاعلامي والصحفي ويلتزم بعكسه رسميا : بمقترحات روجرز !

التحدي الكبير أن يقرن السيد التل القول بالعمل فيطرح « خطة استراتيجية طويلة الامد لتحرير فلسطين » يصار على اساسها الحوار مع المقاومة ، أما أن يطرح « أمر الاستراتيجية الطويلة الامد » من حكم قابل بالحل السلمي عامل على اجهاض الثورة ، فتناقض ذاتي كبير . ولا يجدي طرحه على هذا النحو الاعتراض على العمل الفدائي بحالته الراهنة طالما المعترض يفتقر الى العمل لتصعيده الى حرب تحرير قومية . وهذا تماما ما يكمله التصريح (« للحوادث ») اذ يقول : « ورأيي الصريح كعسكري سابق وكشبه فدائي شاركت في حرب ١٩٤٨ بـ ١٩٤٩ ، أن عمليات عبور نهر الاردن واطلاق « كم قنيفة وكم كاتيوشا » لا تؤدي الى التحرير وتساوي صفرا على الصعيد العسكري » .

ان العمل الفدائي في حالته الراهنة لا يؤدي الى التحرير ولكنه يؤدي الى استمرار جذوة الثورة ورفض الامر المفعول والهزيمة ، وهو خميرة صالحة لتطويره الى حرب التحرير . والمطروح هو تصعيده لا اجهاضه ، تعزيزه لا انهاكه ، واطلاقه لا قمعه .

هنا نصل الى النقطة التالية : دور الجيوش والمقاومة في حرب التحرير .

القسم الثاني : الكيانية المناقضة لحرب التحرير

الحقيقة الثانية

دور الجيوش والمقاومة في حرب التحرير

اننا نؤمن بأن حرب التحرير القومية لا يمكن الا ان تلعب فيها الجيوش دورا اساسيا شرط ان تنسجم مع استراتيجية حرب التحرير بدل ان تتناقض معها .

وان الجيوش التي تقبل بحلول التعايش مع العدو لا يمكن ان تكون مرشحة لـدور قيادي في حرب التحرير .

ان النضـال ليس ضد الجيوش ولا يجوز ان يكون كذلك بل هو ضد الانظمة التي تحول الجيوش من استراتيجية التلاحم مع المقاومة في حرب التحرير والتكامل معها ، الـى التناقض معها فتصبح اداة لسحقها بدل ان تكون درعا لعضدها .

ان ما حدث في الاردن في ايلول لم يكن ولا يجوز ان يكون نضـالا ضد الجيش الاردني بل ضد النظام الذي طعن الثورة .

فللجيوش اذن دور خطير في حرب التحرير ولكن لا يمكن ان ينطلق اداء هذا الدور من مواقع الانظمة الملتزمة باستراتيجية مناقضة لحرب التحرير ، كيانية ، تقدم مصلحة الكيان والنظام على مصلحة الوطن والشعب والقضية .

ان الجيش الفيتنامي الشمالي ادى دورا تاريخيا وخطيرا في انجاح الثورة في الجنوب . ولكنه لم يؤد ذلك الدور الا في ظل قيادة ثورية واعية لابعاد حرب التحرير ، ومحققة للانسجام التام بين الجيش والمقاومة ، ليس على اساس التنسيق الكياني الذي يأخذ مصالح الكيان والنظام بعين اعتبار تتقدم في الميزان على مصالح الوطن وحرب التحرير ، بل على اساس استراتيجية حرب التحرير الثورية ومتطلباتها القومية الشاملة .

ان المطروح هو تحويل دور الجيوش من حامية للانظمة المتخلفة عن تحديات المصير ، الى حامية للثورة وحرب التحرير .

ان التلاحم بين المقاومة والجيوش لا يكون باتفاقات تعين السلبيات ، اي حيث لا يجوز ان تفعل المقاومة كذا ، ولا يجوز للجيش ان يفعل كذا ، وهذه هي الاتفاقات التي عقدت حتى الان بين المقاومة والكيانات القائمة ، ولا يحقق التلاحم . تصريح رئيس وزراء الاردن « سأنفذ اتفاق القاهرة حرفيا . ومن يخالف من الطرفين (المقاومة او الجيش) سأقطع رأسه » .

جو التهادن الداخلي هو جو خصام مشحون مؤقت ومتوقف على شرارة فيندلع لاهبا مدمرا .

التلاحم لا يتحقق في السلبيات . التلاحم يتحقق في الايجابيات . في ضوء استراتيجية حرب تحرير تتكامل فيها الادوار بدل ان تتناقض . وهذه الاستراتيجية لا يحققها نظام كياني ، عزل نفسه بمصالح جزئية عن قضية الوطن ككل . اعادة النظر يجب ان تبدأ من هذه الزاوية .

القنابل التي فجرتها المقاومة في قلب تل ابيب لن تحقق التحرير ولكنها تبقي جذوة الرفض في وجدان الشعب وتعلن للعالم في وقت تتهافت الانظمة على الحلول ـ التسوية ان في شعبنا ارادة رافضة الهزيمة والعار . كيف نحول هذه الطاقة الى فعالية في حرب التحرير ؟ هذا السؤال يجيب عنه نظام قومي يرفض الانحصار بالكيانية ، وثوري يرفض الاستسلام للامر الراهن . في ايدي الانظمة الكيانية القائمة تتحول المقاومة الى اداة ضغط على العدو من اجل القبول بالحل السلمي لا ارادة تحرير ولا طليعة حرب نظامية في سبيل التحرير .

فبين وقفة « الكرامة » في ١٩٦٨ ومجزرة عمان في ١٩٧٠ تقوم هوة فاصلة سحيقة ، كل معناها ومغزاها بعيد ، كان لا بد ان ينقلب الى صدام استراتيجي معها عندما لاحت بوادر الحل

السلمي ويبدأ التناقض الكبير . ان الطريق طويل وبعيد بين الموقفين وهو طريق استبدال الهدف القومي البعيد بالسلامة الكيانية القريبة التي يؤمنها الحل السلمي .

هنا نصل الى الحقيقة الثالثة من الحقائق الست موضوع هذه الدراسة : الكيانية وتناقضاتها كما تجلت في احداث ايلول الماضي . وهذه كيانية على نوعين ، وان كانت في الاخير من جنس واحد : كيانية ضمن الكيان الاردني وكيانية في علاقات الاردن بالكيانات المحيطة .

الحقيقة الثالثة :

كيانية ضمن الكيان الاردني

ان المأساة الكبرى هي ان يتظاهر سكان القدس المحتلة ، ضد نظام في بلادنا يذبح اهلهم، بعد ان كانوا يتظاهرون ضد الغزاة الاسرائيليين . يا لشماتة العدو بنا . ان يكون قمعه لشعبنا اخف وطأة ، من « نظام وطني » ! ويا لهول ان يصبح عندنا « لاجئون » باضطهاد الانظمة بعد ان كان « اللاجئون » من مشردي العدوان !

وتسأل « الحوادث » وصفي التل : « الا تظن ان الفلسطينيين صاروا يفضلون العيش في ظل الاحتلال الاسرائيلي عن العيش في ظل حكم الاردن بعد حوادث ايلول الفائت ؟ »

ويجيب التل : « ان حوادث ايلول لم تكن سببا ، بل كانت نتيجة للعلاقات غير الواضحة وغير الصريحة بين الحكم وبين الفلسطينيين . »

حوادث ايلول كانت نتيجة دون ريب ، ولكنها بحد ذاتها كانت سببا في زيادة النفور عبر عنه في التظاهر في قلب الارض المحتلة ضد النظام الذي ذبح اهل فلسطين . وفي هذا بحد ذاته ظاهرة كافية الدلالة . اما السبب الا بعد فيقول وصفي التل انه في « العلاقات غير الواضحة وغير الصريحة بين الحكم وبين الفلسطينيين .

فلنراجع جوانب عدم الوضوح وانعدام الصراحة في هذه العلاقات . الفلسطينيون الذين اصبحوا رعايا المملكة الاردنية لم يتنازلوا عن استعادة فلسطين . بينما الحكم الاردني قبل بالحل السلمي الذي يعيد جزءا من فلسطين ويتنازل عن باقيها لاسرائيل التي يفترض نلك الحل احترام « استقلالها الاقليمي » و « حدودها الامنة » . هذا هو مصدر التناقض الاساسي .

الفلسطينيون بقوا غرباء عن الكيان الاردني الذي قبل بالحل السلمي . والنظام الاردني لم يعتبر الفلسطينيين مواطنين حقيقيين .

لقد بقيت الكيانية ضمن الكيان الاردني نفسه تشطر المواطنين الى اردني وفلسطيني يعترف وصفي التل « قد يكون نوع من الهجرة الفلسطينية الى الاراضي المحتلة » ، ولكنه لا يحلل اسبابها الموضوعية الداخلية في محاولة اعادة تقييم ونقد ذاتي جريئة مفروض ان تكون هي المنطلق ، بل يكتفي بالاشارة الى المخطط الاجنبي المستفيد من هذه النتائج فيقول « وانا اعرف ان هناك مخططا اميركيا ـ اسرائيليا لانشاء دولة فلسطينية في الضفة الغربية » .

« هذه المؤامرة اميركية وسأعمل جهدي للمحافظة على الاردن بضفتيه الشرقية والغربية . لان شرق الاردن بدون الضفة الغربية لا يشكل دولة ، كما ان قيام دويلة فلسطينية في الضفة الغربية سيكون ضربا من الجنون لان اسرائيل ستسيطر عليها جغرافيا وعسكريا واقتصاديا ونفسيا » .

اذا كان صحيحا ان ثمة « مخططا اميركيا اسرائيليا لاقامة دويلة فلسطينية » عميلة خاضعة للنفوذ الصهيوني . ولكن هل تصرف الحكم الاردني في ايلول وقبل ايلول ساعد على احباط هذا المخطط ام على تصعيد خطوات تنفيذه ؟ هذا هو السؤال !

وهو سؤال يضع تصرفات الحكم الاردني كلها على المحك . فباسم الكيانية الضيقة ارتفع صوت التبريرات بعد مجازر أيلول لكل ما ارتكب « الغرباء » يخربون المملكة . هذا كان الشعار الابرز . ومن هم هؤلاء الغرباء ؟ هم الشعب الذي ضمت ضفته الى المملكة في اعقاب نكبة ١٩٤٨ ، واعتبر مواطنوه رعايا فيها . وباتوا يشكلون اكثريتها . مع ذلك فالنظام لم يأخذ بهذا التحول الذي طرأ على الكيان الاردني بعد ضم الضفة الغربية ، فلم يتحول في استراتيجيته او سياسته فلسطينيا ، أي باتجاه حرب التحرير ، بل اراد اخضاع الاكثرية الفلسطينية المتجهة نحو حرب التحرير صوب حدوده الكيانية ليحبسها في نطاقها . وأراد أن يجعل نفسه بديلا عنها ، متكلما باسمها في قبول الحل السلمي :

« ان حكومتي وحدها هي التي تتكلم باسم الفلسطينيين . ان عدد المتطرفين (اي رافضي الحل السلمي) سيقل تدريجيا كلما اقتربنا من الحل . وسنعمل ضد جميع الذين سيعرضون وحدة امتنا او وجودها للخطر » . « أما أن نتمكن من تحقيق سلام دائم وأما ان نغرق كلنا في كارثة ... ان السؤال الرئيسي هو معرفة ما اذا كانت اسرائيل تريد السلام حقا » (تصريحات الملك حسين للومند في ٨ ايلول ١٩٧٠) .

ولكن ما هي المملكة الاردنية الهاشمية ؟ وصفي التل يقول صراحة « ان شرقي الاردن بدون الضفة الغربية لا يشكل دولة » . فلماذا أقام أهل النظام والكيانية هذا التناقض بين أردني وفلسطيني ؟

وهل الاردن كيان طبيعي وهو الذي قامت موازنته طوال اربعين عاما على المساعدات الاجنبية ، لتقوم بعد حزيران على المساعدات العربية ؟

اليس هذا دليلا على أن الاردن جزء من وطن لا وطنا قائما بذاته ؟

ماذا قال المؤتمر السوري الكبير المنعقد في ٨ آذار ١٩٢٠ في دمشق ، في وجه ارادة الاستعمار الفرنسي ؟ لقد دعا فلسطين والاردن ، بسورية الجنوبية ، فأين ما هو حاصل اليوم من تحريض الأردنيين على الفلسطينيين ، والعشائر على سكان المدن من هذه الدعوة القومية ؟ الكيانية تنسى جذور الشعب والأرض ، وتقيم من الكيان بديلا عن الوطن ، لأنها مورد رزق واستمرار لأهل النظام المستفيدين منه !

ان لزوم الكيانات عدم التدخل بعضها في شؤون البعض الآخر المحلية والداخلية ، أمر صحيح . ولكن متى كان المصير القومي مطروحا على المحك . فلا يجوز ان تتحول الكيانية الى حبس للطاقة القومية . لا مواجهة العدو يجوز ان تبقى في النطاق الكياني ، ولا الصمت وغسل اليدين من دم المقاومة اذا استهدفت للتصفية ، يجوز ان يجد في الكيانية مبررا له وسندا .

ان بيلاطس البنطي ليس أفضل كثيرا من هرودس ، فالمتهرب من انقاذ الصديق وغاسل يديه من دمه ، لا يبعد كثيرا عن هادر دمه .

ان بادرة دمشق في التدخل لانقاذ المقاومة في ايلول ، بادرة في الخط السليم . الا انها على خطورتها واهميتها ، جاءت متأخرة وناقصة ، لانها افتقرت الى منطلق دائم وواضح ومبدئي

ترتكز عليه المواقف الثورية والعلاقات القومية ، يقيم استراتيجية ثورية شاملة لاسقاط الحل السلمي . والمضي في حرب التحرير وتصعيدها الى مستوى حرب التحرير القومية .

من هنا انه حتى تصبح هذه البادرة فاتحة خط ثوري وقومي جديد يستدعي ذلك قلبا لكل الاستراتيجيات السابقة التي التبست في المواقف والاحداث بالكيانية وتناقضات الانظمة . لتحل محلها سياسة قومية تستهدف الغايات الكبرى لا المماحكات الجزئية .

ان الحل الذي تم في القاهرة وحقن الدماء عاد « فعرب » المسألة الفلسطينية ، بعد ان كانت المقاومة قد رفضت وصايات الانظمة « والتعريب » . كل ذلك لان الفراغ القومي والثوري في مستوى الحكم في محيط فلسطين الطبيعي لم يستطع ان يحل المشكلة . وفي غياب استراتيجية ثورية وقومية بديل عن وصايات الجامعة ومؤتمرات القمة لا بد من العودة الى الجامعة ومؤتمراتها لحسم الخلافات . تلكم هي مأساة فراغ الحكم والاستراتيجية في دول بيئة فلسطين الطبيعية . فلقد ظهر واضحا وجليا ان بغداد الرافضة للحل السلمي لم تستطع ان تترجم رفضها عمليا في اي اتجاه منسق مع المقاومة . كما ان دمشق التي نجدت المقاومة عمليا لم يكن لها في الحل الذي تم في القاهرة أي رأي .

ان الكيانية مسؤولة عن كل هذا ، واذا لم تخرج كياناتنا عن تناقضاتها وانحصارها الكياني ، فلا بد أن تحل الوصاية العربية محلها بايجاد الحلول . وعلى هذه الكيانات اما أن تبادر الى اعتماد الخط القومي الثوري باستراتيجية ثورية شاملة ، ومرحلية ، وذات وضوح في الهدف والاسلوب ، أو أن تقبل بالتحكيم والوصاية العربيتين . اما المزايدات مع الدوران في الكيانية فكارثة قومية كبرى .

الكيانية على صعيد البيئة المحيطة بفلسطين

والكيانية مصيبة حلت بشعبنا ليس داخل الكيان الاردني فحسب بل على مدى البيئة الطبيعية التي تقع فلسطين فيها . فمنذ ١٩٢٠ ، منذ ميسلون يوم طوى الاستعمار بجيشه اللجب ودروعه وقمعه ، أمل الوحدة في الصدور انحسرت الوحدوية في شعبنا الى شعار براق دون انجاز عملي يلاشي اثار سيكس ــ بيكو وتخوم التجزئة . وبينما تتحقق الوحدوية في خطوات عملية تراعي الواقع الجغرافي والاستراتيجي وتكامله في وادي النيل ، ويكون ميثاق طرابلس نواة هذا الاتجاه السليم ، تنهش الكيانية وجودنا على الجبهة الشرقية ، وتحبس طاقاتنا في دوامتها الرهيبة. فالكيانية وتناقضاتها هي التي اجهضت الجبهة الشرقية وتآمرت على المقاومة الفلسطينية تارة مباشرة بمحاولات التصفية التي كانت آخرها في الاردن ، وطورا مداورة بالصمت عن محاولات تصفياتها بشتى الذرائع الكيانية كما فعلته بعض الحكومات ابان محنة المقاومة في ايلول .

والمقاومة الفلسطينية البطلة رغم ما شكلت من طلائع فداء بطولي الا انها لم تستشرف ابعاد حرب التحرير القومية من زاوية ارتباط المعركة بمدى البيئة ، وبشعبنا كله ، الاحتياطي البشري الذي لا بد من تثويره ليخوض حرب التحرير والا وصلت المقاومة الى الطريق المسدود .

وأن المقاومة التي وقعت في شرك التنسيق الكياني على اساس تعيين السلبيات مدعوة الى ان تتدارس مع القوى الثورية والوحدوية مخططا لحرب التحرير ينطلق من تحويل الجبهة الشرقية ، الى جبهة حرب التحرير فيقوم التكامل القومي في البيئة بدل التنسيق الكياني ، وتحل ايجابيات المعركة بدل سلبيات عدم خوضها ، ويطرح موضوع التلاحم بين القوى النظامية

والثورة بدل التعايش والتهادن السلبيين وتصبح للمقاومة والقوى الثورية المتعاطفة معها استراتيجية على مدى البيئة المحيطة بفلسطين ، فتمتد قوى الثورة الى عمق المجتمع وبعده الجغرافي الطبيعي كله ، بدل ان تنحصر على حدود الكيانات والتجزئة .

وان اخطر ما يواجه المقاومة انها لم تتعاطف مع قوى ثورية مبنية من الاساس على قواعد في التفكير والايمان مرتبطة بحرب التحرير . فهي قاتلت معتمدة على مد جماهيري لم تلبث ان امتصت بعض الاحداث فوراته ، وتقلصت موجات العضد في ضوء الظروف والحالات .

فبدون قاعدة شعبية ثورية على مدى البيئة ، مؤمنة بحرب التحرير ، رافضة الانحباس في حدود الكيانية يكون مصير الثورة قاتما ، محفوفا بالاخطار وامكانات التصفية .

لقد لمست الثورة الفلسطينية أن القاعدة الشعبية التي حالفتها في لبنان لم تكن بها، بل وجدتها تتقلص وتضمر بعد بادرة روجرز . وحسابات المقاومة ان قاعدة اوسع من الاردنيين تتجاوب معها لم تكن دقيقة ولا حتى صحيحة كما برهنت احداث أيلول الماضي .

والحكم العراقي الذي وضع جيشه بتصرف المقاومة قبل ايام من المجزرة لم يتمكن من القيام بالتزاماته .

ودمشق التي فعلت عكس ما فعلته بغداد ، ورفضت الانحصار بالكيانية الضيقة سواء بسماحها بدخول جيش التحرير الفلسطيني من أرضها الى الاردن ، او بتدخلها المباشر ، واجهت نتيجة هذا التدخل ، أزمة عنيفة في اعقاب ذلك .

القسم الثالث :

حول مضمون حرب التحرير

الحقيقة الرابعة :

المقاومة بين كفاح العدو والاصطدام بالانظمة :

من المسؤول ؟

« القواعد جاهلة وخاضعة للاعلام والعقلية الغوغائية » بهذا تحدث وصفي التل عن المقاومة الفلسطينية . وانتقد « السياسة النفاقية التهريجية التي يسيرون عليها مع السلطات الاردنية » وأضاف أن غالبية زعماء المقاومة من رأيي . فمن هي هذه الاقلية التي يستهدفها الاستاذ التل في حديثه ؟

يقول الاستاذ التل استطرادا . « مهمة الفدائيين الفلسطينيين هي تحرير فلسطين وليس حكم عمان » . هذا تماما ما كانت تقول به (فتح) حتى أحرجت فأخرجت ، فكان لا بد لها ان تكون في طليعة الصدام مع النظام في احداث ايلول وكان ياسر عرفات قائد الثورة الفلسطينية التي اصطدمت مع النظام .

لماذا تحولت « فتح » عن شعارها بتجنب الاصطدام مع الانظمة وبأن كل البنادق مصوبة الى العدو ، فقبلت التحدي وخاضت المعركة ضد النظام ؟ من المسؤول ، « فتح » أم النظام ؟

ان استراتيجية « فتح » في تحرير فلسطين لا حكم عمان ، ابطلها النظام الذي اراد تدجين المقاومة مع مقتضيات الحل السلمي فكانت الانتفاضة وكانت المجزرة . هذه حقيقة لا مفر من استيعابها قبل اطلاق الشعارات وتحميل المقاومة المسؤولية .

قبيل احداث أيلول وابانها وبعدها تردد ذكر « المخربين » المندسين في المقاومة : بمعنى بعض الفصائل الماركسية التي لم يهضمها النظام الاردني . ان هذه الحجة تسقط فورا ، بكون المجزرة لم تستهدف فصيلا ولا حتى المقاومة كلها ، بل استهدفت عشرات الوف المواطنين في عملية ابادة جماعية . ان ضرب المقاومة تحت غطاء الصراع مع بعض فصائلها هو مخطط للاستفراد قديم ومعروف ..

ان المعركة لم تكن معركة صراع ايديولوجي بين النظام وبعض فصائل المقاومة بل كانت معركة الحل السلمي والكيانية ضد المقاومة والثورة . من هنا وجدت فتح نفسها ، وهي التي سبقت وصفي التل الى رفع شعار كل البنادق ضد العدو وعدم التدخل في شؤون الانظمة ، مصطدمة بالنظام الذي حاول اخراس الثورة واخماد جذوتها .

النظام الاردني لا يستطيع أن يعزل الفصائل الماركسية على حد قوله ، طالما هو يقف ضد المقاومة اصلا . بل هو يسلم لهذه الفصائل الحجة والذريعة في ان تكون استراتيجيتها هي الاسلم في مصادمة النظام ويضطر « المقاومة الشريفة » على حد وصفه لها ، الى أن تسير هي ايضا في اتجاه الاصطدام معه ، لا مسايرة « للقواعد الجاهلة والخاضعة للاعلام والعقلية الغوغائية » كما يقول أهل النظام ، بل دفاعا عن الثورة وصيانة لشرف المقاومة بالذات .

ان الجبهة الشعبية، والجبهة الشعبية الديمقراطية اللتين تناديان بالماركسية اللينينية بديلا ثوريا للكفاح المسلح ، تشكلان مجموعة من الشباب العقائدي المناضل في الساح الفلسطينية . وان الجواب على ما تطرحان هو تقديم بديل ثوري للكفاح المسلح يكون اشمل واعـم وأبعد مدى من الماركسية اللينينية ومنطلق من جذورنا القومية . وطبعا ، وبكل تأكيد ، ليس القبول بالحل السلمي المتعايش مع اسرائيل ، هو هذا البديل .

ان الصراع الايديولوجي حول مضمون حرب التحرير مفروض ان يجري فوق ارضية اللقاء الاساسي على مطلب حرب التحرير ورفض التسويات المجهضة للحق القومي .

ان النظام ، أي نظام ، لا يستطيع أن يحالف قسما من المقاومة الا اذا أصبح هو طرفا في حرب التحرير ، متحملا اوزارها ومسؤولياتها ، اما طالما هو يقف من خارجها ويخطط انطلاقا من استراتيجية مناقضة لاغراضها فلن يجد امامه الا مقاومة موحدة تقف كلها في وجهه وتحاربه بشراسة كما جرى في ايلول .

وان محاولات النظام الاردني رفع شعارات تيوقراطية بالية في وجه بعض فصائل المقاومة كالنداء الذي وجهه راديو عمان الى « المقاومة الشريفة المؤمنة بالله » لترفض « الاحزاب الملحدة » لا يمكن ان يكون بديلا عن فكر ثوري معاصر كالماركسية . كما ان التحريض الطائفي على جورج حبش ونايف حواتمة لا يجدي . وقد ردت المقاومة ، وهي التي رفعت شعار الدولة العلمانية في فلسطين ، على هذه التحريضات ، ردا سليما برفض المتاجرة الطائفية او الثيوقراطية في الشأن القومي .

ان هذا كله نقوله دفاعا عن المقاومة بكل فصائلها ، وعن وحدة جبهاتها وتلاحم

صفوفها ، ولكن المقاومة مدعوة كذلك الى نقد ذاتي لخططها وتصرفاتها ، فلا تكون لها ، استراتيجيات متناقضة أو متجاهلة لسلم الاولويات بل استراتيجية ثورة واحدة .

ولقد خطت المقاومة منذ أحداث أيلول ، خطوات جيدة صوب التوحيد تنظيما واستراتيجية ، ولكن عليها ان تكمل الشوط حتى الاخير . واهم ما يواجه المقاومة في هذا السبيل انها تواجه اليوم خطر مناورة جديدة على الصعيدين العربي والدولي تجلت في قرار الجمعية العامة للامم المتحدة الاخير الذي طالبت له بعض الانظمة العربية. وخلاصة هذه المناورة ان القوى الدولية ، لم تعد تقدر ان تتجاهل ارادة المقاومة ولكنها تريد تطويقها بحل مبتسر يقول بالاعتراف بارادة الفلسطينيين لا كلاجئين كما كانت تنص المقررات الدولية السابقة ، بل كشعب ودولة ولكن من ضمن حدود التقسيم . ويرفض النظام الاردني ، دون ريب ، كما اكدت تصريحات وصفي التل هذا الحل ويفضل العودة الى مشروع روجرز وقرار مجلس الامن ١٩٦٧ حيث الحل يتناول اسرائيل والدول العربية المتاخمة ، ولا يتناول الفلسطينيين من قريب او بعيد ، باعتبارهم جزءا من الكيان الاردني .

والحقيقة ان الحلين المطروحين شر ومصيبة ، فكيان اردني يقبل بالتسوية السلمية مع اسرائيل ، أو دويلة فلسطينية في ظل الحراب الاسرائيلية ، مناقض لاغراض الثورة وحرب التحرير .

هذا مع رفضنا لكل تجزئة بصورة مبدئية .

كيف ترد المقاومة على هذا التحدي ، على هذه المؤامرة ؟

بوحدة صفوفها أولا ، وباتساع مدى استراتيجيتها الثورية ثانيا .

منطلق الاستراتيجية الثورية الرد على السلم بالثورة ، والرد على التجزئة بالوحدة. فبقدر ما يهم اعداء الثورة شلها بتجزئتها وتقليص مداها ، بقدر ما يجب ان يستأثر باهتمام الثورة توسيع مداها لتشمل كل المتحد القومي كل المدى الطبيعي ، كل البعد الجغرافي والبشري المحيط بها .

على الثورة أن تحافظ على وحدة الاردن وفلسطين ولكن ليس من أجل الحل السلمي بل من أجل الثورة وحرب التحرير .

وعلى الثورة أن لا تكتفي بوحدة الاردن وفلسطين ، بل أن تضغط متحالفة مع قوى الشعب الثورية في كل من المدى المحيط بفلسطين ، في الشام والعراق ولبنان والكويت لدفع قوى البيئة كلها الى حرب التحرير .

هذا هو الرد الثوري على المخططات الدولية المتآمرة .

القسم الرابع :

في استراتيجية حرب التحرير

الحقيقة الخامسة :

في مواجهة الاستراتيجيات الدولية المتآمرة

بادرة روجرز وقبول اسرائيل بها تشترطان تصفية المقاومة بل وتصفية كل القوى التي ترفض وجود اسرائيل الامن المستقر .

التسوية المطروحة تريد ان تفرض السلم الاميركو ـ اسرائيلي على بلادنا ، وتقيم اوضاعا خاضعة له في وطننا ، تريد ان تمد النفوذ الاستعماري ـ الصهيوني على بلادنا ، وأن تخضع شعبنا كله لسيطرته البغيضة . فالمعركة ضد اسرائيل ، هي في الوقت نفسه ضد الامبريالية الداعمة لها ، لا تجزئة ولا زوغان عن فهم طبيعة المعركة وابعادها .

يقول الاستاذ وصفي التل : « الحقيقة الثانية اننا دول مستعبدة بسبب وجود النفط ومواد الخام الغنية في اراضينا . فنحن عبيد للدول الكبرى التي تستورد بترولنا ومواد الخام الغنية ، كما ان هذه الدول هي بالوقت نفسه « عبدة » لمصالحها في بلادنا . هنا اساس المشكلة وهنا دور الحكومات العربية » .

(« الحوادث » ٦ ـ ١١ ـ ١٩٧٠ »)

الشق الاول من التصريح صحيح . فدولنا مستعبدة بسبب الاخطبوط الاحتكاري البترولي . ولكن ما هو الرد على هذا الاستعباد ؟ هنا نصل الى الشق الثاني من التصريح ان الدول الكبرى هي ايضا « عبدة » لمصالحها في بلادنا . كادت تكون كذلك لو واجهناها بتصميم ثوري غير مسالم وغير مهاود . عندها كانت ترضخ تلك الدول لمطالبنا وتصبح « عبدة » لمصالحها . ولكنها تعرف ان أوضاعا كثيرة تسايرها وتقبل منها بالقليل على حساب حقنا الذي ، الدول الكبرى وفي طليعتها الولايات المتحدة الاميركية ، تتآمر عليه وتنخره بدعمها المتواصل غير المشروط للعدو المغتصب المحتل .

ان العلاقة ليست بهذا التوازي والتوازن اللذين يصورهما التصريح . انها علاقة سيادة واستعباد . والرد على المصالح الامبريالية لا يكون « بدور الحكومات العربية » كما يدعو السيد التل . هذه الحكومات التي عجزت عن فرض ثقل مصالحنا القومية لا سيما في فلسطين على ميزان العلاقات مع الدول الكبرى . ان الرد يدخل في استراتيجية الثورة لا الحكومات .

ان الامبريالية الاميركية التي هددت بالتدخل في الاردن وحشدت القوات وحركت الاساطيل كانت تريد ان تكرر مأساة فيتنام ، تبرر تدخل جيش اجنبي دخيل بتدخل قوى وطنية من صميم ارض الوطن . فالاستعمار الذي يضع قواه الاجنبية الدخيلة على نفس المستوى مع قوى الثورة الفيتنامية بحجة الحفاظ على نظام سايغون العميل ، هو نفسه كان يريد تكرار المأساة نفسها في الاردن . ان الامبريالية الاميركية هي التي زرعت تقسيم الاوطان في كل مكان ، من فيتنام الى كوريا الى المانيا مخالفة حق تقرير المصير القومي الذي هو اساس الثورة الليبرالية التي تدعي اميركا الانتماء اليها .

والامبريالية الاميركية هي عدوة حركات التحرر القومي في العالم الحديث ، كما انها عدوة تراث اميركا الليبرالي نفسه ، بل ناقضته . انها تقف ضد واشنطن وجفرسون ولنكلن . ضد حرب التحرير الاميركية في وجه الاستعمار البريطاني عندما تعضد اسرائيل في وجه حركة المقاومة الفلسطينية وحرب تحريرنا القومية . وانها تقف ضد حق الشعوب المقدس وارادتها الحرة في تغيير حكوماتها . انها اقرب الى ماترنيخ وزمرة فيينا الرجعية في القرن التاسع عشر ، منها الى روح الثورة الليبرالية التي تزعم تحدرها منها ، ودفاعها عن قيمها .

ان التدخل الاميركي لا يواجه الا بفيتنام اخرى . ان ضرب المصالح الاميركية هو الرد الثوري الذي دعت اليه المقاومة والحزب السوري القومي الاجتماعي في بياناتهما ، ولكن الفارق الخطير في ميزان القوى هو ان هانوي عبأت شعبا بالثورة ، ودفعت جيشا عقائديا الى ساح المعركة ، فانتصرت الثورة في الجنوب . لقد مزقت فيتنام الشمالية حدود التجزئة الاستعمارية ببناء قوتها الثورية المتنطحة لمثل هذا الهدف القومي الكبير .

اما في بيئتنا ، فلا هانوي ولا من يحزنون . ان الانظمة المحيطة بفلسطين لم تحول كياناتها الى هذا المستوى . انها تفتقر الى استراتيجية ثورية قومية شاملة . انها أسيرة كيانيتها تغلفها بشعارات الوحدة العريضة دون جدوى ودون ممارسة عملية لما تقول .

ان هذه الحقائق الست المخضبة بالدماء الطهور تفرض قيام استراتيجية ثورية شاملة قوامها وقاعدتها التحام قوى المقاومة مع القوى الوطنية والثورية على مدى محيط فلسطين الطبيعي ، التحاما يجدد الاهداف والمراحل لكفاح قومي موحد وينطلق من تمزيق عملي وفعلي لتخوم سيكس ــ بيكو الاستعمارية ويكمل مسيرة دفن الحل الاستسلامي ومحاولات تصفية المقاومة ، ويقيم قوة موحدة على امتداد الجبهة الشرقية تلتحم فيها وتتكامل قوى الثورة والقوى النظامية في استراتيجية مجابهة ضد العدو وحلفائه في الداخل والخارج .

ان استراتيجية الانطلاق من تخوم التجزئة قد أفلست .

ان المطلوب هو استراتيجية في مستوى التحدي ، في مستوى الثورة

الحقيقة السادسة :

الجبهة الثورية على مدى البيئة الطبيعية

ان المقاومة مدعوة الى العمل على قيام الجبهة الثورية في القاعدة الشعبية على مدى البيئة الطبيعية . ان احداث الاردن اكدت سقوط الاعتماد على الانظمة حتى الثورية والوحدوية منها والتي تزايد في الشعارات ، كما اكدت ان الاعتماد على **الجماهير في لبنان او الاردن غير المبنية ثوريا لم يكن في موضع الامل . ان الجبهة الثورية في مستوى القاعدة الشعبية ، درع المقاومة ، يجب ان تنهض من كل الاحزاب والقوى التي تلتقي على مطالب حرب التحرير حتى النصر ، والتي تعتبر معركة فلسطين هي معركة قومية لا تخص كيانا ولا يعزل عنها كيان ، والتي تدرك اهمية وضرورة قيام الجبهة الشرقية على اساس الارتباط بمطلب حرب التحرير لا بمقصد اجهاض الثورة .**

فالسيد التل يقول : « شددت في بياني على ضرورة تقوية واحياء الجبهة الشرقية حتى نخفف العبء عن الجبهة المصرية ، لان قناعتي هي ان قيام جبهة عسكرية اردنية ــ عراقية ــ سورية أمر في منتهى الاهمية والخطورة » . ولكن الجبهة الشرقية التي هي مطلب قومي اذ لم ترتبط باستراتيجية حرب التحرير تصبح تجمع انظمة ضد الثورة . هل يعني هذا رفض وحدة هذه الجبهة ؟ كلا ، بل يعني ان المطلب القومي لا بد ان يلتزم بالمطلب الثوري والا فقد جدواه وهذا يلقي على القاعدة الشعبية الثورية مسؤولية النضال لتحويل الكيانات القائمة من حالة التناقضات الكيانية ومصالحها الجزئية الى التراص القومي الثوري المرتبط بحرب التحرير .

ان الاحزاب والقوى القومية مدعوة الى الالتحام مع المقاومة في استراتيجية ثورية

واضعة المراحل والاهداف . وان تجاوز الخلافات المذهبية بين القوى والاحزاب الثورية والقومية في سبيل المصير القومي هو المطلوب في هذه الجبهة .

ان الخلافات العقائدية مجالها الحوار والصراع الفكري ، ولكن في وجه تحديات المرحلة لا بد من قيام جبهة ثورية عريضة من هذا العيار والمدى تقود الكفاح القومي في كل بيئتنا حتى يتحول مجتمعنا كله الى مجتمع حرب تحرير ، فتربح المعركة بقلب موازين الضعف واستبدالها بموازين قوة .

ملحق :

الاحداث الاخيرة في منظور هذه الدراسة :

بعد وضع هذه الدراسة شهد العالم العربي سلسلة من الاحداث جاءت مؤكدة ما ذهبنا اليه في الفصول السابقة :

» اولى هذه التطورات : اشتباكات الاردن الدامية التي استدعت أن يعود الباهي الادغم رئيس لجنة المتابعة العربية الى عمان لعقد اتفاق جديد . فقد تأكد ان الجو المشحون لم يلبث ان انفجر .

ان الهدنة الجديدة في الاردن ، خطوة حسنة لانها توقف النزيف موقتا ولكنها تبقى في نطاق السلبية . ان وقف هدر الدماء امر نؤيده ، ولكن الكفاح ضد العدو هو المطلب الذي لا نلحظ ، كما أشرنا في الدراسة ، ان اتفاقات التنسيق تحققه ، بل هي تجهضه ، اذ تحبسه في حدود السلامة الكيانية ، واسباب التناقض الاساسية لما تزل نارا تحت الرماد .

ثاني هذه التطورات ومن اهمها : اعلان المقاومة انها عاكفة على درس صياغة توحيد جديد تنصهر فيها قواها قاطبة في وحدة تنظيمية عضوية . هذه خطوة جيدة في الاتجاه السليم ، ولكن لم تبرز بعد الى حيز الوجود بصورة كاملة ، كما يتوخى جميع المخلصين . يبقى ان تحقيق الوحدة التنظيمية للمقاومة اذ يحقق مطلبا هاما في طريق الثورة الا انه يحتاج الى تكامل مع خطوات اخرى حتى يستطيع العمل الفدائي **ان يرتفع الى مستوى حرب التحرير القومية. ومن اهم هذه الخطوات واخطرها ان يتوجه الكفاح المسلح باستراتيجيته الى احتياطي البنية الطبيعية البشري والاستراتيجي . فبقدر اهمية الكفاح في الميدان تبدو اهمية الكفاح في المجتمع لقيام تعبئة نفسية ــ مادية تكون ينبوع الثورة الدائم الدفق بالثوار . وهذا يستدعي استراتيجية لقاء ثوري مع كل القوى الملتزمة بحرب التحرير القومية على تباين اجتهاداتها العقائدية طالما هي تحدد العدو الاساسي : اسرائيل والصهيونية العالمية والاستعمار ، وطالما هي متوافقة على الهدف : تحرير الارض المغتصبة كلها ودك الكيان العدواني الاسرائيلي .**

ان استمرار ميوعة التراص الجبهوي لهذه القوى وحصول التناقضات فيما بينها ، وانعزال المقاومة عن خطة استراتيجية واحدة معها ، لثغرات خطيرة في جبهة الكفاح ضد العدو .

ثالث هذه التطورات : تمديد وقف اطلاق النار ثلاثة اشهر اخرى والتلويح بارسال قوات دولية الى المنطقة لتجميد الوضع القائم او تعديله جزئيا .

ما هو الرد على هذه التحركات المشبوهة من قبل الثورة ؟ الرد الاستراتيجي البعيد ، الرد المباشر ، ان الثورة تبدو مرتجلة في هذا الميدان ، لم تعد لمواجهة تحرك الاحداث دوليا ما يكون في وزنها وعيارها . ان الفقرة السابقة حول تصعيد استراتيجية المعركة الى مستوى الاحتياطي البشري في البعد المجتمعي والاستراتيجي للبيئة هو الرد . واذا لم تبادر الثورة الى تلك خسرت منطلقها وارتضت ان تبقى على الخطوط معرضة المؤخرة والقلب للاستنزاف والافناء والتصفية .

رابع هذه التطورات : تحولات في دمشق وقيام الاتحاد الرباعي

ان الاتحاد الثلاثي الذي قام في ميثاق طرابلس كان خطوة مباركة في الاتجاه السليم . فهو يقيم فعلا ، على الجبهة الغربية ما طالبنا بقيامه على الجبهة الشرقية ، تعبئة البعد المجتمعي والاستراتيجي .

فالجيش العربي المصري الذي رابط بصمود رائع مشهود على ضفة القنال طوال السنوات الثلاث ، يعزز احتياطه البشري والاستراتيجي بقيام الاتحاد الثلاثي الذي اعلن ميثاق طرابلس انه ينطلق من معطيات هيئات البلدان الثلاث « جغرافيا وتاريخيا » للاتحاد .

كان التحول الخاص في دمشق والشعار الذي رفعه الوضع الجديد كل شيء للمعركة ، تحولا حسنا في اتجاه الكفاح المنشود . اذ ان الوضع السابق كان يعطي اولويات اخرى غير الاعداد للمعركة . وقد اعتبرت دمشق ان دخولها الاتحاد الرباعي هو في هذا الاتجاه ، مع ان معارضي الخطوة يقولون انها جاءت التفافا غير مباشر على الحل السلمي . لا ندخل في هذه المجادلة هنا ، بل نكتفي بالقول ان موقع دمشق الطبيعي والجغرافي والاستراتيجي في المعركة هو على الجبهة الشرقية . في اقامتها وتوحيدها ؛ عندها تكون حققت الهدف الاستراتيجي الاول المطروح امامها في هذه المرحلة .

دخول عدة دول عربية في اتحاد ما ، أيا كانت صيغته ، ليس أمرا غير مرغوب فيه ، فقد تتطور العلاقات العربية وتنمو في ضغط الحاجات والظروف .

واذا ما سارعت دمشق الى العمل على بعث الجبهة الشرقية واخذت المبادرة الموضوعية نحو صيغ اتحادية . ولكن شرط ان لا يحل الاتحاد الابعد محل الاتحاد الاقرب . وشرط ان لا تتخلى اي بيئة بكل كياناتها عن المسعى الجدي والاولي لالتحام أجزائها وتكامل دورة حياتها وجبهتها القومية العسكرية والاقتصادية .

نحن لا نرى في الاتحاد الاقرب ما يناقض الاتحاد الابعد ، ولكن ان يحل الاتحاد الابعد محل الاتحاد الاقرب ، فذاك خروج عن المحور الطبيعي

مصر والسودان اتحدتا ، وبقيام وحدة الوادي امتدت الفروع والاغصان شرقا وغربا .

فهل تقوم وحدة بغداد ودمشق وعمان وبيروت لتكون النواة الصلبة المتينة على الجبهة الشرقية التي تعزز بالتحامها واتحادها مع ميثاق طرابلس وحدة الجبهة العربية ؟

قال الاستاذ محمد حسنين هيكل ، في ١٨ كانون الاول ١٩٧٠ ، ان الرئيس عبد الناصر كان يطلب في آخر مقابلة له مع احد حكام دول بيئتنا :

« ارجوك ان تفعل كل شيء للمحافظة على بقاء القوات العراقية على خط المواجهة في

الاردن ... ان بقاءها هناك ضروري ولو كرمز لامكانية احياء فعالية الجبهة الشرقية في يوم من الايام ! »

فقد كان « احياء فاعلية الجبهة الشرقية في يوم من الايام » هو الامر الضروري الملح عند الرئيس عبد الناصر الذي مات ولم يبصر بوادر تحقيقه .
فهل تجري المساعي من بعد موته لتحقيق هذا الامل ؟

واضح ان الرئيس عبد الناصر لم يكن يقصد بالاتحاد الثلاثي الذي اصبح رباعيا ان يحل محل السعي « لاحياء فاعلية الجبهة الشرقية » . بل ذاك كان خطوة متكاملة لتحقيق « احياء فاعلية الجبهة الغربية » ، لتلتحم الجبهتان فيما بعد في جبهة عربية واحدة ضد العدو .

من هنا ان الاتحاد الرباعي لا يجوز ان يكون بديلا عن السعي الاساسي لاحياء الجبهة الشرقية ، لتوحيدها عسكريا واقتصاديا وبالتالي سياسيا .

وخامس هذه التطورات : ان هذه الوحدات العسكرية مفروض ان تلتزم بحرب التحرير لا بصيغ التسويات الدولية . وعاجلا او آجلا ستنتهي مهلة وقف اطلاق النار . وقد صرح الرئيس السادات انه لن يقبل بتحديدها مرة أخرى ، اذا لم يقبل العدو بجدول زمني للانسحاب من الارض التي احتل بعد حزيران ، فهل يقبل العدو ؟ واذا قبل هل تصبح هذه الاتحادات والجبهات صيغا لتنفيذ الحل السلمي ؟ وهل يتناقض ذلك مع أغراض حرب التحرير ام نعود الى بحث اين تلتقي الخطوات المرحلية بالخطوات الاستراتيجية .. واين تتناقض ؟

واذا لم يقبل العدو هل اعدت دول وطننا والعالم العربي نفسها لحرب التحرير بديلا عن السعي وراء انجاح مهمة يارينغ ؟ هل اعدت العراق نفسها ؟ وهل اعد الاردن نفسه ام اكتفى بالمساعي الديبلوماسية تبذل في عواصم الغرب لتليين تصلب اسرائيل في الحل السلمي ؟ هل اعد لبنان نفسه ام يكتفي بضمانات دولية لم تحم حدوده من الاقتحام والتنكيل ؟ هل اعدت دمشق نفسها ، وهل تنوي مزيدا من الاعداد ؟

تلك الاسئلة مطروحة والايام القليلة القادمة ستحمل اكثر من جواب .
والمقاومة التي باتت اسيرة أقفاص الكيانية هل اعدت استراتيجية المستقبل ؟ ام ارتضت التعايش مع اوضاع تطلب الارض عن غير طريق الكفاح المسلح ، عن طريق الوساطات الدولية وتسوياتها ؟

ان الثورة هي ولادة امل جديد في النفوس ، فهل تقوى كل الطرق العسيرة على خنق هذا الامل ؟ ام ان ما تحرك في النفوس سيكون له دوي تاريخي اقوى من كل القوى المضادة ؟

اننا نؤمن بالانسان ، نؤمن بفعل القوى المعنوية في تفجير طاقات اقوى من سلبيات القدر ، هي التي تصنع التاريخ ، وتغير ، ان فعلت ، وجهه .

الفصل الخامس

حقوق الشعب الفلسطيني فخ ديبلوماسي أم حق ثوري ؟

مدخل

منذ اصبح مؤتمر جنيف السراب الذي يغري باعادة بعض الارض طرحت موضوعة « الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني » باعتبارها حقوقا مرحلية تندرج في التسوية حتى لا تتم التسوية بمعزل عن الشعب الفلسطيني و « ممثله الشرعي الوحيد « منظمة التحرير الفلسطينية . وكان مؤتمر الرباط هو الذي توج هذا النضال السياسي لمنظمة التحرير الفلسطينية وبدعم من الجزائر اولا والانظمة الوطنية استطاعت منظمة التحرير الفلسطينية ان تدفن نتائج مجازر ١٩٧٠ و ١٩٧١ السياسية وتنتزع من النظام الاردني الورقة الفلسطينية التي دفع ثمنها ألوف الشهداء في عمان واربد والجرش والاحراج . وانتزع مصير الضفة الغربية وقطاع غزة من ملك الاردن ومصر ، واصبحت عمليا منذ تلك التاريخ منظمة التحرير الفلسطينية بقرار من الجامعة العربية في قمة الرباط هي المسؤولة عن مصير الارض الفلسطينية المحتلة في حزيران ١٩٦٧ مما ادخلها سباق التسوية الى جنيف . هذا السباق الذي اجهضته قمة كامب دافيد واتفاقياتها كما سنرى لاحقا .

وكانت الرحلة طويلة وشاقة ، في عمان ذبحت المقاومة لانها رفضت مشروع روجز ورفضت ان تدخل فيه الدول العربية ، وفي لبنان ضربت المقاومة لانها كجزء من التسوية عقدت التسوية ببندقيتها ، « وبحقوقها المشروعة » التي اعتبرتها اسرائيل قنبلة موقوتة ووافقتها اميركا . ودار البحث الطويل حول معنى « الوطن الفلسطيني » الذي تعهد به كارتر وفسر بعد حين ما عنى على أنه ليس دولة بل كيان مرتبط بالاردن ، يتقلص اخيرا الى مشروع بيغن بالحكم الذاتي .

وكان الشرط الاميركي ــ الاسرائيلي لدخول منظمة التحرير لعبة التسوية اعترافها باسرائيل وتخليها عن ميثاقها. وعبثا حاولت قيادة المنظمة ان تمط التكتيك وتتحلى بالمرونة فكانت البنود العشرة ثم كان بيان المؤتمر الوطني الفلسطيني الثالث عشر في القاهرة والذي قبل بالتفاوض وحضور المؤتمرات الدولية الا ان الشرط الاميركي ــ الاسرائيلي اصر على كلام واضح محدد : الاعتراف باسرائيل و « حقها » في الوجود والتخلي عن مشروع التحرير كاملا .

وكان القرار ٢٤٢ هو المطلوب انعقاد التسوية في ظله وبالتالي « اسقاط كل الادعاءات » في فلسطين . ورفضت اسرائيل التعاطي مع منظمة التحرير كما استمرت منظمة التحرير لا تعلن اعترافها بالقرار ٢٤٢ وان كانت تسعى الى جنيف تحت شعار القرار ، ٣٢٣٦ الذي ينص على حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير واقامة دولة مستقلة .

وتبلور الموقف السوفياتي في السنوات الاخيرة بطلب انعقاد جنيف سندا الى القرارين ٢٤٢ و ٣٢٣٦ بمعنى انه أوجد المخرج الديبلوماسي الذي يجعله من جهة ملتزما بقرار مجلس الامن الذي اقترع عليه في ١٩٦٧ وعلى أساسه قبلت اسرائيل واميركا السير باتجاه التسوية لما فيه من ضمانات للاغتصاب كما في طلبهما تطبيق القرار ٣٢٣٦ باعتبار ان القرار ٢٤٢ يعتبر

الفلسطينيين مجرد لاجئين بينما هي تمثل الشعب الفلسطيني وبالتالي المسألة ليست مسألة اتفاقية لاوضاع لاجئين بل مسألة سياسية في « حقوق وطنية مشروعة » لشعب في دولة وكيان .

الا ان العقدة التي استمرت بالنسبة لمنظمة التحرير الفلسطينية والتي تمخضت عن اتجاه رافض لسياستها ، هي ان جنيف منعقدة في ظل القرار ٢٤٢ وان « الحقوق الوطنية المشروعة » التي ناضلت في سبيلها حتى لا يفوتها قطار التسوية وانتزعتها من النظام الاردني وكانت تشكل بالنسبة لها مطلبا اساسيا . ان هذه « الحقوق الوطنية المشروعة » حتى لو تمسكت المنظمة بتطبيق القرار ٣٢٣٦ ، فانها كلها تستظل في جنيف سقف القرار ٢٤٢ الذي يمكن أن يعدل في فقرات لجهة اللاجئين بمنطوق القرار ٣٢٣٦ يصبح التعاطي مع الشعب الفلسطيني في دولة تقام على الضفة والقطاع . وهذا اقصى ما كان يسعى له السوفيات ومنظمة التحرير الفلسطينية . وكان مؤتمر جنيف اذا قبل ان يكون القرار ٢٤٢ معطوفا على القرار ٣٢٣٦ والقرار ٣٣٧٥ وهذا ما لم يبت به وكان النضال يجري في سبيله من منظمة التحرير والسوفيات ، الا ان التعديل الضمني يطال فقط الفقرة التي تصف الفلسطينيين باللاجئين دون سائر الفقرات التي تنص على الحدود الامنة لاسرائيل واسقاط الادعاءات وانهاء حالة الحرب .

ومن هنا ان « الحقوق الوطنية المشروعة » كانت تواجه مأزقا مصيريا هو انه كان المطلوب لتثبيتها صياغتها من ضمن روح جنيف على قاعدة لا تتناقض مع التسليم بمشروعية الاغتصاب التي نص عليها القرار ٢٤٢ .

وهكذا وصلت « الحقوق الوطنية المشروعة » الى نفق مظلم بحيث انه بات مفروضا كي تمر وتكتسب « مشروعيتها الدولية » ان تسلم « بمشروعية الاغتصاب» وهكذا امسك كارتر بوعد بلفور وأقام على أساسه وعده « بالوطن القومي الفلسطيني » المفروض أن يولد في حضن القابلة الاسرائيلية وليس كبديل عنها أو بالتمرد والثورة عليها . فوعد كارتر إنبثق من التسليم بوعد بلفور وليس على أساس نقضه أو استبداله .

ولقد حسمت ورقة العمل الاميركية ـ الاسرائيلية الموقف ثم زيارة السادات وما نتج عنها بحيث بدا بوضوح ان لا مكان للثورة في التسوية .

وحين صدرت وثيقة الوحدة الوطنية الفلسطينية في طرابلس مؤكدة ان النضال المرحلي لاستعادة اراضي ١٩٦٧ الفلسطينية في طرابلس انما مفروض ان يكون خارج دائرة التسوية المنصوص عليها في القرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ اي خارج التفاوض والاعتراف والصلح اعتبر الطرف الاسرائيلي ـ الاميركي ـ المصري ان العقدة انحلت بالنسبة له لانه يعود للبحث عن « فلسطينيين معتدلين » لبحث مسألة (عرب اسرائيل) .

لقد كان دوما المأزق في كيف ان « الحقوق الوطنية المشروعة » لا تصبح بديلا عن الحق القومي التاريخي الثابت في كل أرض فلسطين دون تفريط .

وبات واضحا ان القرار القائم على تثبيت الاغتصاب لا يمكن اختراقه بالتفاوض بل بالثورة . وعلة السعي الى جنيف من ثقوب ابرة الديبلوماسية دونما اعتبار لميزان القوى وفعلها هي في أن هذا السعي كان محكوما أن يصل اما الى الطريق المسدود او الاستسلام .

لقد قيل الكثير في تبيان مزايا النضال المرحلي دوليا واعلاميا وفي تبيان تواضع المطلوب وعدم التطرف أمام العالم مما أكسب أصدقاء كثيرين للقضية . وكانت الخطورة أن تضيع

القضية عند أهلها حيث يبدأ البحث عن امكان التعايش مع العدو واعتبار حدود الحقوق هي حدود جزء من أرض الوطن

ومن الاساس اعتبر العدو ، بأن ليس ثمة غير حقيقة واحدة في فلسطين . أما حقنا القومي الثابت الذي هو نقيض وجود اسرائيل والمؤكد ان فلسطين لا اسرائيل هي الحقيقة ، أو المسلك الذي ينفي فلسطين والفلسطينيين كما أعلنت غولدا مائير وأكد مناحيم بيغن : « أرض اسرائيل التي عدنا اليها ! » ويبقى الصراع صراع وجود لا صراع حدود .

وقال السادات لقد أقصت منظمة التحرير الفلسطينية نفسها عن التسوية لانها لم تسر معه في قطار الاستسلام وكرر بيرجنيسكي : وداعا يا منظمة التحرير . ورد أبو عمار «وداعا يا مصالح اميركا في المنطقة ولا بديل عن منظمة التحرير ولا بديل عن البندقية في ظل الوحدة الوطنية الفلسطينية » . ويبقى الصراع صراع وجود لا صراع حدود .

١ – « حقوق الشعب الفلسطيني » فخ ديبلوماسي أم حق ثوري ؟(١)

يكاد يصبح تعبير « حقوق الشعب الفلسطيني » لغزا من ألغاز اللغة الديبلوماسية ومعمياتها في الحلول الدولية المطروحة . ذلك أن الخلفيات الكامنة وراء المعاني والكلمات في « لعبة الشرق الأوسط » تعطي تفاسير مختلفة ، وغالبا ما تكون مناقضة للمعنى الاصلي المقصود من الكلمة بحيث أنه بدل المعنى البديهي لحق الشعب في السيادة الكاملة على أرضه فهم بعض الرسميين العرب وحتى أحد الحقوقيين اللبنانيين من ثقاة الفقه الدستوري ان قرار مجلس الامن قد نص على حقوق الشعب الفلسطيني . لكن عودة الى القرار ٢٤٢ تضعنا رأسا امام نصين نقيضين لحقوق الشعب الفلسطيني بمعنى السيادة الوطنية على أرضه كاملة . النص الاول هو الذي يتحدث عن « حل عادل لمشكلة اللاجئين » . فبدل حقوق الشعب ينص القرار ٢٤٢ على « مشكلة اللاجئين » . والنص الثاني في القرار ٢٤٢ يتحدث عن « اعتراف بحدود آمنة » لكل دول المنطقة بما فيها اسرائيل . واسرائيل ذات الحدود الثابتة الامنة هي النقيض « لحقوق الشعب الفلسطيني » .

لقد اكتسب تعبير « حقوق الشعب الفلسطيني » بعدا دوليا خاصا عندما ورد للمرة الاولى على أعلى مستوى ديبلوماسي دولي في قمة برجنيف – نيكسون المنعقدة قبل اربعة أشهر في واشنطن والتي جاء في بيانها الختامي : « ووافق الطرفان على متابعة جهودهما لكي يتم في أسرع وقت ممكن احراز تسوية ، تتناسب مع مصالح الاطراف كافة في المنطقة بما يحفظ استقلال دول المنطقة وسيادتها ، ويأخذ في الاعتبار مصالح الشعب الفلسطيني المشروعة » .

وهنا لا بد من تسجيل معطيين : أولهما أن «مصالح الشعب الفلسطيني » بحسب القمة الاميركية – السوفياتية شرطها الا تتناقض مع « استقلال دول المنطقة وسيادتها » ومن بينها ، بالطبع اسرائيل . وهذا هو التفكير الدولي العام الذي ولد في مناخه قرار مجلس الامن ٢٤٢ . وثانيهما ان التطور الذي حصل من « حل عادل لمشكلة اللاجئين » الى (حقوق الشعب الفلسطيني) على الصعيد الدولي كان انعكاسا ولو ناقصا ومشوها ، لمسيرة صعبة محفوفة بالاشواك والآلام والدماء والنضال بدءا من معركة الكرامة الى عمليات ميونيخ وفيينا .

ذلك ان اسم فلسطين غاب كليا عن المسرح الدولي منذ ١٩٤٨ ، وكان دأب اسرائيل تغييب الاسم والشعب الفلسطيني واظهار القضية على أنها صراع بين اسرائيل « الدولة الصغرى » ومجموعة دول عربية أكثر عددا وأكبر مساحة . أما الشعب الذي طرد من الارض فقد غاب أثره وطمس ذكره . وكانت اسرائيل حريصة على الا يبعث من جديد ذلك الفينيق الذي يمثل نقيض استمرارها .

بين ٤٨ و ٧٦

وبين ١٩٤٨ و ١٩٦٧ ، على مدى عشرين سنة من غياب مسألة فلسطين والشعب الفلسطيني ، كان أقصى ما يطمح اليه العرب رسميا هو تطبيق قرارات الامم المتحدة التي تنص في أحسن حالاتها على « ايجاد حل عادل لمشكلة اللاجئين » . أصبح الفلسطينيون يتامى عربيا

---

(١) ظهر هذا البحث في « النهار » البيروتية على حلقتين في ٢١ و ٢٢ – ١١ – ١٩٧٣

ودوليا ، وطرحت مسألتهم في غربة هذا اليتم الكئيب ، وبات ينظر اليهم من خلال ثقوب وكالة الاونروا والحسنات الدولية وتصدق الفريسيين ودموع التماسيح . أما الارض والشعب فقد غابا عن المسرح الرسمي العربي الدولي . وكان هذا أقصى ما تشتهيه اسرائيل . والحقيقة أن الانظمة العربية التي كانت تطالب على مدى الخمسينات والستينات بتطبيق قرارات الامم المتحدة كانت تعترف ضمنا بالتقسيم ، وبأكثر منه ، بوجود اسرائيل قبالة العالم العربي وفي غياب كلي لفلسطين .

يقول احمد بهاء الدين في كتابه « اقتراح دولة فلسطين » الصادر في ١٩٦٨ ، والذي أحدث ضجة في حينه : « الغزو الصهيوني عام ١٩٤٨ نجح في اقتطاع جزء من فلسطين . ولكننا بدلا من ان نبقي ما تبقى من فلسطين متماسكا وصامدا ومطالبا ، قمنا نحن العرب بتفكيك ما تبقى في أيدينا من فلسطين ... » وقبل عشرين سنة في ١٩٤٨ بالذات قال سعادة : « ان الحرب في فلسطين كانت نزاعا بين دويلات على ما تبقى في فلسطين وليس على ما أخذ اليهود من فلسطين » . (« المسألة الفلسطينية » ص ٦٧) .

منذ ١٩٦٧ قامت معادلتان : الاولى هزيمة الانظمة التي رعت هذه الوصاية وقبلت هذا الاجحاف ، والثانية انفجار المقاومة الفلسطينية . وقد أعادت المقاومة القضية الى اقنومي الشعب والارض ، وكان هذا انطلاقا صحيحا . لقد انتقلت الانظمة العربية من الوصاية الكلية على قضية فلسطين الى الوصاية الجزئية ، ومن الوصاية المباشرة الى الوصاية المداورة . وكان من طبيعة الاشياء أن تصطدم المقاومة بالوصايات العربية . وكان بعض هذه الوصايات قد عرف حده وحجمه بعد الهزيمة ووجد في المقاومة حليفا له ولو لمرحلة بلوغ الحل السلمي . وبعضها الآخر كان شرسا في تشبثه بالوصاية وسرقة الارض والشعب الى حد ذبح المقاومة وابادة الفلسطينيين .

وكان الانتقال من « حقوق اللاجئين » الى (حقوق الشعب الفلسطيني) انتقالا نوعيا فرضه تطور الاوضاع بعد هزيمة ١٩٦٧ وقيام المقاومة . لكن حقوق الشعب الفلسطيني كانت مقطورة سواء في المعنى الرسمي العربي أو الدولي الى عجلة تسوية الحل السلمي ، ومشروطة بقبول الفلسطينيين الاشتراك في التسوية الدولية وانهاء حالة الحرب مع اسرائيل والاعتراف لها بحدود آمنة . تضمن ذلك القبول الخجول بمبادرة روجرز وأصبح الامر أكثر صراحة والحاحا بعد الحرب العربية الرابعة عندما طرح الرئيس السادات مشروعه للسلام مقرونا بتعهده بالسعي لاقناع الفلسطينيين بحضور مؤتمر السلام ومردفا في مؤتمره الصحفي ان أحدا لا يمثل الفلسطينيين الا هم انفسهم(١) .

وقبل الحرب ببضعة اشهر قال الدكتور محمد حسن الزيات في مجلس الامن بالدولة الفلسطينية على أساس أن « الفلسطينيين أمة يجب أن يكون لها صوتها ومكانها عند الحديث عن أية تسوية لأزمة الشرق الاوسط » . وهكذا ربط الكيان الفلسطيني بتسوية أزمة الشرق الأوسط التي من ضمنها اسرائيل . وارتضى الزيات ان يكون الفلسطينيون « أمة » على غرار ما يدعو افنيري . من ان في فلسطين (امتين) يهودية وفلسطينية . و « وجه العدالة » المفروض بالنسبة الى الفلسطينيين على اساس هذه الدعوة هو ان « الامة اليهودية » ، كما يقول افنيري ، قد اقامت كيانها ، ولكن لم يتح « للامة الفلسطينية » بعد ، أن تقيم كيانها ويسمع صوتها ،

---

(١) هذا ما نقضه في كامب دافيد بعد خمس سنوات .

وقبل الحرب ايضا صدرت تصريحات الحبيب بورقيبة لـ «النهار» عن الدولة الفلسطينية وعلى اساس حلولها محل الكيان الاردني ، وعلى اساس القبول بقرار التقسيم للعام ١٩٤٧ . « ... واذا تنازلنا وقبلنا بالجزء من فلسطين الذي أعطته الامم المتحدة وعدلنا الاوضاع الاصطناعية التي خلقتها بريطانيا في شرق الأردن فسنتمكن من خلق سلام وتعاون مثل الذي حدث بيننا وبين فرنسا » .

كيان مقلوع الجذور

ويستوقف كثيرا ان الحبيب بورقيبة يدعو الى تعديل الاوضاع الاصطناعية التي خلقتها بريطانيا في شرق الاردن ولا يدعو الى ازالة الاوضاع الاكثر اصطناعية التي اوجدتها بريطانيا واميركا بخلقهما دولة اسرائيل على ارضنا . كما ان دعوته الى « خلق سلام وتعاون مثل الذي حدث بيننا وبين فرنسا » يساوي فيها بين استعمار بلد اذا ما زال استعماره يبقى هو ويمكن انشاء علاقات وتعاون معه كفرنسا ، وكيان يقوم اصلا على الاستعمار الاستيطاني بحيث ان التعايش معه مردود الا في حالة القبول بطبيعته المتضمنة اصلا معنى الاغتصاب والاقتلاع وصراع البقاء . ان اسرائيل ليست كفرنسا بل هي كجنوب افريقيا وروديسيا وكالدول الصليبية : كيان مقلوع الجذور مغروس في ارض غريبة بحد السيف .

الا ان الاهم في تصريح الحبيب بورقيبة انه تزامن وبيان القمة الروسي ـ الاميركي الذي دعا الى تسوية في الشرق الاوسط تأخذ في الاعتبار حقوق الشعب الفلسطيني . ولقد كان بورقيبه في تصوره للدولة الفلسطينية « اكرم » من سواه من الانظمة العربية بعودته الى قرار ١٩٤٧ . فلقد بدا قرار التقسيم بعد ربع قرن من الهزائم كأنه مكسب كبير ! ذلك ان مشروع الملك حسين ارتضى بحدود ٥ حزيران ١٩٦٧ لمملكته العربية المتحدة المتصالحة مع اسرائيل والتي تضم ما تبقى من فلسطين !

ومن دون ان يتقدم بمشروع محدد ، وعلى اساس دعوة الفلسطينيين انفسهم الى تحديد حقوقهم حتى يلتزم بها لبنان والعرب ، تمنى الرئيس فرنجية على الفلسطينيين « التخلي عن قليل من حقوقهم والقبول بتقسيم ١٩٤٧ » .

هذا على صعيد الانظمة . ولكن في الوقت الذي كان يتمنى الرؤساء العرب هذه الامنيات ، صرحت غولدا مئير برفض حتى تصور الرسميين العرب « لفلسطينيان » (التعبير لمثقفي الثورة الفلسطينية ، راجع « شؤون فلسطينية ـ عدد ايار ١٩٧٣) وتقوم عملية شد الحبل على صعيد التفاوض الديبلوماسي لايجاد حل وسط يقضي باقامة كيان فلسطيني هزيل ترضى اسرائيل بوجوده كما ارتضت جنوب افريقيا بقيام البانتوستانت للسود المستعبدين في ظل سياسة الابارتيد العنصرية .

حرج المقاومة

وتزيد حراجة الموقف انه في هذا الظرف بالذات ، وقد بات مطلوبا حمل المقاومة الى مائدة المفاوضات لتدخل التسوية حتى يقوم « حل عادل ودائم » في الشرق الاوسط ، وردت الى حركة المقاومة تمنيات سوفياتية ان تحضر مؤتمر السلام .

ونجد هذا الحرج الذي يواجه الفلسطينيين بأصرح صوره في الحديث الذي أدلى به الاخ زهير محسن الى (المحرر) في ٥ تشرين ١٩٧٣ : « وهنا المأزق الحقيقي ، فاذا قالت منظمة

التحرير نريد أن نحكم قطاع غزة والضفة الغربية فكأنها تتخلى بذلك عن الحقوق التاريخية للشعب الفلسطيني في بقية الارض الفلسطينية ــ وتكتفي بالقطاع والضفة ــ اي بالاراضي التي احتلت عمليا عام ١٩٦٧ وليس عام ١٩٤٨ . واذا قالت المقاومة انها غير معنية بقرار مجلس الامن وبهذه التسوية فتصبح بذلك متخلية رسميا عن الضفة والقطاع للنظام الاردني الذي لم يحاول تحرير هذه الاراضي ، والذي تريده اسرائيل ان يستمر في دوره التقليدي كحارس لامنها وكابح للتطلعات الفلسطينية والعربية في المستقبل » . وفي بيان حركة (فتح) الصادر في اليوم نفسه تأكيد على اهداف الثورة في « تحرير وطننا المغتصب واقامة الدولة الفلسطينية الديموقراطية على كامل ترابنا المحتل » من جهة ، مع ترك الباب مفتوحا للمشاورات حتى « يكون قرارنا منسجما ومتفقا مع نتائج هذه الاتصالات والمشاورات » .

حقائق أساسية

ومع تقدير كامل لهذا الحرج الذي تجد المقاومة نفسها فيه ، الا ان ثمة حقائق اساسية لا بد من الانطلاق منها عند اي بحث :

اولا : ان الموضوع بالنسبة الى الثورة لا يمكن ان يكون كما هو بالنسبة الى الانظمة . وان المسألة ليست مسألة حدود الارض التي يهبها مؤتمر السلام للفلسطينيين ومدى اتساع رقعتها بل هي مسألة كيفية الحصول على هذه الارض وبأية شروط وضمن اية افاق وحدود . ولعل أذكى دعوة الى قبول الامر الراهن وتحول الثورة عن غايتها الاساسية لملاقاة هذا الامر المفعول في منتصف الطريق بحجة التكيف مع الظروف ، هي التي أطلقها غسان تويني في سلسلة من افتتاحيات « النهار » كان اهمها تلك الصادرة في ٦ تشرين التاني بعنوان « من الرفض الى الثورة الى الحكم » وفيها يدعو الى تطليق « المفهوم النظري الجامد للحقوق » أي مفهوم التحرير الكامل للتراب القومي المغتصب ، والاخذ بمفهوم الحق « كواقع تاريخي متطور ، رهن الزمان والمكان » فتتخلى الثورة عن التحرير الكامل لارض فلسطين وتقبل بما قبله لينين في « برست ليتوفسك » وما قبلته المانيا وفرنسا في الالزاس واللورين وما تقبله كوريا وكوريا والصين والصين والمانيا والمانيا وفيتنام وفيتنام من انقسام ضمن الوطن الواحد » .

ولكن فات غسان تويني ان المسألة ليست مسألة خلاف على حدود بين دولتين متجاورتين ، فذاك ينطبق حقا على حال تركيا وسوريا بالنسبة الى الاسكندرون او حال امتنا وايران بالنسبة الى عربستان فقد تقبل امة بمهادنة امة مجاورة على رغم خلافات الارض بينهما لمرحلة يفرض فيها ميزان القوى من جديد اثاره على المشكلة . فالامم التي تستعيد حيويتها لا بد ان تعدل حدودها القومية لمصلحة هذا النمو المجتمعي . تلك قاعدة اصيلة تحكم علاقات المتجاورين في كل زمان . وهي تنطبق على مثل برست ليتوفيسك ولينين والمانيا كما تنطبق على مثل الالزاس واللورين . ولكن اسرائيل ليست المانيا ولا فرنسا ولا تركيا ولا ايران . كل هذه دول لشعوب اصيلة في ارضها ، فاذا اصطدمت بجيرانها ، فانها قبل توسعها وصدامها موجودة في اوطان قومية قائمة . واسرائيل تحاول دوما ان تختصر المشكلة بمشكلة حدود مع جيرانها ، مع ان المشكلة هي مشكلة وجود هذا الكيان العنصري الاستيطاني الاستعماري الهجين من الاساس .

واذا لم تكن المشكلة مشكلة حدود بين جيران ، فهي بالاحرى ليست مشكلة الخلاف على رقعة نظام في بلد كما هي الحال في كوريا وفيتنام والصين والمانيا فاسرائيل ليست كوريا

الجنوبية او الشمالية ولا المانيا الشرقية او الغربية ، لانها ليست جزءا من وطننا ولا من شعبنا بل هي حربة مغروسة في جمسنا ، وهي سرطان يتآكل هذا الجسم .

ان مقارنات غسان تويني وامثلته لا تنطبق على مثل اسرائيل التي هي اساسا كيان مصطنع عدواني لا يمكن التعايش معه والقبول به الا بتخلي الثورة عن حقيقتها . والمطروح في الحل السلمي ، التسليم بحدود آمنة لهذا الكيان وقبول التعايش معه .

ـ ٢ ـ

ان الثورة قد ترضى بأقل الارض شرط الا يقف في وجه انطلاقتها لتحرير بقية الارض حد فاصل او عهد مانع او تنازل عن حق اصيل .

الانظمة قد تستعمل الاحراج للكيان العدواني ومناورات الديبلوماسية بلعبة او باخرى ، لكن الثورة متى تنازلت عن شبر واحد ، وعن حق واحد ، تكون قد فقدت مبرر وجودها واستمرارها .

من هنا ان ما ذهب اليه احمد بهاء الدين من « اقتراح دولة فلسطين » في ١٩٦٨ والذي يردده اليوم الكثيرون ، لا يمكن ان يدافع عنه على اساس ما قاله بهاء الدين يومها من مقارنة مع ما حصل في فيتنام حيث قامت الثورة الوطنية في فيتنام الشمالية « ولكن الوطن الناقص الذي لم يتمكن من كسب حقه كاملا لم يحل نفسه بل دعم وجوده وجعل من نفسه قاعدة لتحرير الجزء المستعمر المغتصب » (ص ١٤ من كتاب « اقتراح دولة فلسطين ») .

ذلك ان دولة فلسطين « الوطنية الثورية » هذه التي دعا الى قيامها احمد بهاء الدين لا يمكن تصور قيامها من ضمن الحل السلمي وبقرار دولي . فدولة فيتنام الثورة في الشمال قامت على فوهات بنادق الثوار ، ولما لم تستطع تحرير الوطن كله دفعة واحدة ، انصرفت الى بناء النواة الثورية وخططت للجولة التالية . ولم تلبث ان اوقدت شعلة الثورة في الجنوب التي لما يزل لهبها متأججا . وفارق كبير بين دولة جهيض تولد في احضان قابلات الحل السلمي من روجز الى كيسنجر الى الون ، ودولة تولد على جزء من الوطن على براكين الثورة التي لا تحصر ولا تتوارى خلف « حدود آمنة » او تخوم عازلة او قوات طوارىء دولية .

والاكيد ان المقارنة لاتقوم . وان دولة فلسطين في جزء من فلسطين على اساس التعايش مع اسرائيل هي الصورة الاغلب المطروحة في المحافل العربية والدولية . وهي ابعد ما تكون عن مثال فيتنام الثوري . ومتى توضح المنطلق زال الاحراج والتحرج . ذلك ان ذهاب غزه والضفة الغربية الى هذا النظام او ذاك من الانظمة القائمة في بلادنا ليس المشكلة الاولى بالنسبة الى الثورة ، وهي المفروض ان تضع في استراتيجيتها تغيير هذا الوضع في سياق نضالها . وهل يختلف وضع الدولة الفلسطينية التي يهيىء لها مؤتمر السلام عن النظام الاردني من حيث انه سيراد ومنها بالذات ان تكون حارسا لأمن اسرائيل وحدودها الآمنة ، « وكابحا للتطلعات الفلسطينية والعربية » ؟

ان فيتنام الشمالية اشترطت انسحاب اميركا من كل الارض الفيتنامية حتى من الجنوب المحتل ، وارتضت لبرهة تكتيكية بقاء نظام سايغون على امل تغييره وهو الذي قد لا يختلف عن نظام عمان ، ولكنها رفضت بقاء جندي اجنبي محتل واحد في اي شبر من ارض فيتنام .

ثانيا : ان التعايش المطلوب هو مع اسرائيل ، اي مع الكيان العنصري العدواني . ومعنى ذلك ليس فقط التخلي عن جزء من الارض ، بل التخلي عن النضال ضد هذا الكيان العدواني الذي لا يمكن بطبيعة وجوده ان يقوم تعايش معه الا على اساس انهزامنا على كل صعيد . ان قيامه يعني الاغتصاب والتوسع والامبريالية والسيطرة الاقتصادية والتغلغل الاخطبوطي في كل مرافقنا واخيرا الاستعمار الاستيطاني . ان الانظمة قد تقبل في معادلة القوى ان تتعايش ، لكن الثورة اذا قبلت بمثل هذا التعايش تنقض ذاتها ، تزول .

ثالثا : ان الانظمة في سبيل استعادة الاراضي التي سلخت عن كياناتها في ٥ حزيران ١٩٦٧ تواجه عرض تصفية القضية ، وهي تريد ان تحمل معها المقاومة على اساس القبول برقعة من الارض الفلسطينية تضيق اوتتسع ، الى مائدة المفاوضات لتشترك في تصفية القضية تحت شعار « الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني » .

فهل تقبل المقاومة التي عابت على الانظمة لعبة الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧ ان تشترك معها في القواعد نفسها في نحر ذاتها والقبول بالدوران في الفلك نفسه ؟

رابعا : ان المقاومة قد ربحت في مؤتمر اللاانحياز أرضا دولية جديدة وادين الكيان الصهيوني امام العالم كله بارادة اكثرية شعوبه على انه كيان عدواني مثل جنوب افريقيا وروديسيا لا يمكن التعايش معه والقبول باستمراره .وعلى شعبنا وثورته المسلحة الاستمرار في الحوار مع الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي لتبديد صورة طشقند كمثال لما يزمع حصوله في الشرق الأوسط . ففي طشقند تم برعاية الاتحاد السوفياتي تعايش سلمي بين كيانين اصيلين في ارض شبه جزيرة الهند . اما اسرائيل فليس الهند ولا باكستان ، بل هي استعمار استيطاني على ارضنا لا يمكن التعايش معه . ولا يعني ذلك تعصبا عنصريا بل هو رفض للتعصب العنصري الذي يمثله الكيان الصهيوني بأبشع صوره ، ورفض للاغتصاب والعدوان .

خامسا : ان تصفية القضية على اساس التعايش مع « الوطن القومي اليهودي » هي ، كما قلنا مرارا من قبل ، قبول متأخر خمسين عاما بوعد بلفور الاستعماري . ان الثورة مفروض ان تعود الى تراث النضال القومي الاساسي · فلقد رفض المؤتمر السوري الكبير ١٩٢٠ الهجرة الصهيونية ومزاعم الوطن القومي اليهودي معبرا عن ارادة الامة كلها في دعوته الى « استقلال بلادنا السورية التي منها فلسطين ، بحدودها الطبيعية استقلالا تاما لا شائبة فيه ، مبنيا على الاساس المدني النيابي وحفظ حق الاقلية ورفض مزاعم الصهيونيين جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود او محل هجرة لهم » .

ان قرار المؤتمر السوري الكبير وضع القضية في محورها الطبيعي : ذلك ان سايكس ــ بيكو جزأت بلادنا تمهيدا لتهويد فلسطين بعد سلخها او عزلها عن الوطن الام . وهذا ما تم على مدى خمسين عاما من التجزئة القومية التي اثبتت الكيانات المنغلقة على نفسها ، الغارقة في مشاغلها الجزئية الذاتية عن القضية ــ الام ، حتى اصبحت اراضي هذه الكيانات بديلا عن فلسطين في المساومات الدولية . ان المقاومة ولدت ، في وضع التجزئة الكياني الذي ساد بلادنا منذ سايكس ــ بيكو ، فلسطينية ، ولكنها بانطلاقها من حق الشعب في الارض كانت تصديا وتحديا للامر المفعول والراهن .

الخميرة القومية الثورية

ولقد كان التأكيد على حقوق الشعب الفلسطيني ، وفلسطينية الثورة ، في اعماقه البعيدة ، رفضا لما افرزته التجزئة الكيانية من وصايات الكيانات والانظمة على حق الشعب في الارض ، لا انشاء كيانية جديدة تقبل بالامر الراهن المفعول وتتعايش معه .

من هنا أن الثورة الفلسطينية ، اذا حصرت نفسها في فلسطينيتها تحولت في الاخير الى كيانية جديدة تضيع في هاجس القطاع والضفة كما ضاعت الانظمة في هاجس الاراضي المحتلة بعد الخامس من حزيران .

الثورة الفلسطينية مفروض أن تكون الخميرة القومية الثورية الممتدة بطبيعة رفضها الثوري وكفاحها المسلح في جسم كل المجتمع القومي المحيط بفلسطين متفاعلة مع الحركات القومية الثورية لتثوير المجتمع حتى يصبح مده هو الذي يسترد فلسطين كلها وينهي جزرنا القومي الذي تمثل في نصف قرن من التجزئة والهزائم .

ولقد كان هذا هو الحافز الاول لنشوء الحركات الثورية القومية العاملة على تحقيق وحدة محيط فلسطين القومي وانتمائها العربي ، المناضلة بمبادئها ونظامها الجديدين لتحقيق ما فات المؤتمر السوري الكبير تحقيقه من نهضة المجتمع ووحدته القومية ونظامه الجديد . كما كان هذا هو الحافز على وعي الثورة الفلسطينية خلال النضال والممارسة للبعدين الاستراتيجي والمجتمعي لفلسطين على مدى بيئتنا الطبيعية وعالمها العربي .

ان العلة في مسألة فلسطين هي عزلها عن المصير العربي العام في وقت طغت منذ العشرينات تناقضات الكيانات على وحدة المصير القومي في وجه العدو الصهيوني . « ان عارضة على الناقورة اقامت حدا سياسيا بين منطقة الاحتلال الفرنسي ومنطقة الاحتلال البريطاني لم تحل اجتماعيا بين اللبنانيين والفلسطينيين المتشابكين في الحياة القومية ، ولكنها حالت سياسيا ، من دون انطلاق حيوية اللبنانيين نحو مقاومة « مشروع الوطن القومي اليهودي » .

هكذا يقول سعادة في ١٨ شباط ١٩٤٩ . ذلك انه منذ العشرينات حارب الفلسطينيون وحدهم مرارا ، وفي الحرب الاخيرة لم توضع خطة قومية موحدة بعيدة المدى ، ولم تشتعل الجبهات المحيطة بفلسطين كلها ضمن خطة حربية واحدة . فمن لبى نداء المعركة لباه ساعة اندلاع القتال وتحكمت النخوة والفروسية لا التخطيط القومي البعيد المدى باندفاع الجيوش وتواجد القوات . وبقي قسم غير ضئيل من شعبنا وحدودنا مع العدو معطلا عن المعركة والاشتراك فيها اما لعلة في النظام واما لتراخي الوعي القومي بالمصير الواحد لدى قطاعات من الشعب استمدت وجودها من التجزئة ولم تفهم وحدة المصير والشعب والارض . الم تبق جبهة الاردن الطويلة صامتة في حرب ٦ تشرين وهي التي لا تشكل عمقا جغرافيا متداخلا في فلسطين فحسب بل عمقا شعبيا كان من شأنه لو عبىء وهيء ان يفجر داخل دولة العدو ثورة شعبنا الاسير المسلحة في الارض المغتصبة ضد الاحتلال الصهيوني .

ثم أليس من سهازل القدر ومفارقات الزمان ، ان تريد ، وقت السلم ، الطبقة الراسمالية اللبنانية أراضي الشام مسلكا حرا لتجارة الترانزيت ، حتى اذا اقفلت الحدود قامت الدنيا ولم تقعد بحجة ان دمشق تعق الاخوة القومية بقفلها الحدود في وجه تجارة الترانزيت ، ولكن يوم تتعرض الاراضي السورية كلها للاجتياح الاسرائيلي لا يزيد ما يجمعه الراسماليون اللبنانيون في

مجموعهم عن مئتي الف ليرة لبنانية ، وهو مبلغ تخجل به موائد القمار في بعض القصور .

هذه الاوضاع هي المسؤولة عن الهزيمة في الماضي وعن عدم تصعيد حرب التحرير في الحاضر .

ان الثورة ، هي تخمير المجتمع حتى يثور على هذه الاوضاع التي عزلت فاعلياته وجزأت قدراته ، واكدت الخطة الاستعمارية المتجلية في سايكس – بيكو في أن يصبح الكيان فوق الوطن ، وان يتلاشى المصير القومي الواحد في طمس الذاتيات الكيانية المتناقضة امام العدو .

ان الثورة مدعوة الى اختيار البديل الاصعب ، الذي قد يعرضها لمواجهة اشد الاخطار في تشبثها بالموقف المبدئي الثوري القومي الصامد ، ذلك أن دورها هو دور الشعلة التي تضيء أمام شعبنا كله مصيره الواحد وسط التجزئة القومية وحلول قبول احصنة طروادة . وهو دور رسولي وككل دور رسولي يفرض التبعات الخطيرة .

ان الثورة مدعوة الى أن تبتعد عن العشاء السري الذي يسبق الصلب ، ان مائدة مفاوضات السلام هي الطريق الى الجلجلة بالنسبة الى الثورة ، واذا شاءت حضورها فلتكن نذيرا بالحق لا قبولا بنصف الباطل على حساب نصف الحق : لتطرح حلا واحدا : تصفية الكيان الصهيوني طريقا لحل المشكلة اليهودية ، على صعيد العالم ، حلا انسانيا ، لا تصفية القضية الفلسطينية طريقا لبلوغ « حقوق الشعب الفلسطيني المشروعة » ضمن تسوية تقوم ضد هذه الحقوق وعلى اشلائها !

II- مع الثورة في الامم المتحدة : ـ(١)

[مظلة لكفاحها لا وصولا الى جنيف]

كان انجازا سليما ، من ضمن الاوضاع الراهنة ، فصل مسألة فلسطين الاساسية كحق قومي في تقرير المصير لشعبنا على أرضه عن مسألة تصفية عدوان حزيران ١٩٦٧ وملابساتها الدولية . ولكن الذي نرجوه هو أن يكون الفصل ، على الصعيد الحقوقي ، كاملا ، بمعنى أن ينفصل أي طرح للمسألة الفلسطينية انفصالا كليا عن مناخ قرارات التسوية المطروحة سواء في ١٩٦٧ ـ القرار ٢٤٢ أو في ١٩٤٧ قرار التقسيم الشهير . فقضية التحرير القومي لا يجوز أن تتفيأ أية صيغة تعايش مع الاغتصاب ، هذه هي القاعدة التي نفهم في ضوئها فصل المسألة الفلسطينية كمسألة حق تقرير مصير عن مسائل تسويات الحدود الامنة مع العدو في القرار ٢٤٢ أو سواه من قرارات التسوية الدولية .

ذلك أن القرار ٢٤٢ لم يتجاهل الفلسطينيين كشعب فحسب فقد نص على ان مسألتهم مسألة لاجئين ، بل ذهب الى أبعد من ذلك بكثير . فهو يدعو الى مصالحة وعد بلفور بعد أن قامت اسرائيل بقوة الاغتصاب . وهو يطلب من شعبنا القبول بهذا الوعد الاستعماري وانهاء « جميع الادعاءات » ضده : أي أن حقوقنا القومية تصبح « ادعاءات مفروض أن تنهى ، وادعاءات العدو الصهيوني تصبح حقوقا يجب أن تصان بالاعتراف « بحقه في العيش بسلام ضمن حدود مأمونة ومعترف بها وحرة من التهديد أو أعمال القوة » تقوم على أشلاء أرضنا وحقنا القومي وتشريد شعبنا .

ولقد كان هذا النص في القرار ٢٤٢ المعيار والمقياس الذي صيغت على أساسه بصورة نافرة عبارات بيان تل ابيب المشترك بين نيكسون ورابين حول هدر دم شعبنا وسحق ثورتنا ووصفها « بالمرتزقة والمخربين » لانها تتعرض لحدود العدو الامنة التي يجب ان تبقى حسب القرار ٢٤٢ « حرة من التهديد أو أعمال القوة » .

ان بيان تل ابيب هو تجسيد فعلي للقرار ٢٤٢ . فاذا كان من قبح وظلم وامتهان فانه نابع من القرار ٢٤٢ الذي يعتبر بيان تل ابيب الاميركي ـ الصهيوني نتيجة منطقية له وحصيلة لمنطلقاته . هذا في معسكر الاعداء .

أما في جبهة الاشقاء فلقد كان القبول في البلاغات والبيانات الاميركية ـ المصرية الاخيرة منذ زيارة نيكسون للقاهرة الى زيارة اسماعيل فهمي لواشنطن ـ « حق كل دولة في الوجود » استحياء ولو خجولا ، لنص القرار ٢٤٢ . من هنا كان الخروج على القرار ٢٤٢ طريق الثورة التي لا تقبل الاجهاض . ذلك ان القرار ٢٤٢ ينقل المؤامرة الصهيونية الاستعمارية من وعد استعماري في بلفور الى تعهد دولي صادر عن الامم المتحدة . انه اضفاء الشرعية الدولية على الاغتصاب ونزع المشروعية عن الحقوق القومية للشعوب الحرة وذلك خلافا لميثاق الامم المتحدة نفسها الذي يقوم على احترام حق تقرير المصير لشعوب العالم كله .

فبمحصلة الخمسين عاما الفاصلة بين بلفور (١٩١٧) والقرار ٢٤٢ (١٩٦٧) لم يعد الغموض يكتنف كيان « الوطن القومي اليهودي » بل أصبحت حقوقنا القومية ، على الصعيد

---

(١) « الوطن » الكويتية ١٥ ـ ٩ ـ ١٩٧٤

الدولي ، هي التي يكتنفها الغموض . ولم يعد « الوطن القومي اليهودي » هو الذي تتطلب اقامته العناء والجهد ، فقد قام واغتصب واحتل ، بل أصبح النضال هو لاقامة « الوطن الفلسطيني » على جزء من فلسطين ، تلبية لما يسمى في اللغة الديبلوماسية الرسمية « بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني » وهي التي يفسرها قول السيد اسماعيل فهمي وزير الخارجية المصرية بالتصريح التالي : « انه يمكن لاسرائيل أن تعيش كدولة من دول الشرق الاوسط وتعيش معها كدولة علمانية أو بجوارها دولة فلسطين . ويمكن بذلك أن ينال الشعب الفلسطيني كيانا سياسيا يسهم ايجابيا كما فعل في الماضي دائما في معارك التقدم والتطور في المنطقة » (الاهرام ـ ٣١ أيار ١٩٧٤) . فالكيان الفلسطيني ، هنا ، ليس بديلا عن اسرائيل ، بل هو على أساس التعايش معها بسلام لانه كما قال السيد فهمي : « اذا كانت اسرائيل والعالم الخارجي يرغبان حقيقة في اقامة سلام عادل فلا مفر من خلق وطن فلسطيني » . وعلى هذا الاساس لا تذهب مصر الى جنيف الا والفلسطينيون معها ، لاقامة كيانهم المتعايش مع اسرائيل ، حسب منطوق القرار ٢٤٢ ولو معدلا فقرة « اللاجئين » « بالشعب الفلسطيني وحقوقه المشروعة » .

المنزلق الخطير هو تحويل الثورة عن رسالة التحرير الى أن تصبح جزءا من الركود الكياني العام في المنطقة . أن تتفيأ الثورة التي قامت لترفض كل ارث تصريح بلفور أوضاع سيكس ـ بيكو ونتائج بلفور . وعلى هذا كان مفهوم الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني المطروح في ظل تسوية جنيف نموذجا عن محاولات تدجين الثورة واحتوائها . لان جنيف لن تفرز أرضا محررة بالكفاح المسلح بل كيانا يدخل في الركود الكياني العام المتصالح أو المتعايش سلما مع العدو .

هذا هو منطق ١٩٦٧ . وقد يرى البعض أن نقض ١٩٦٧ يكون بالعودة الى ١٩٤٧ . وأصحاب هذا النهج يرون أن العودة الى ١٩٤٧ وقرار التقسيم يحرج العدو من جهتين : أولا : كما يقول الدكتور منذر عنبتاوي في كتابه « ملحق خاص بالوضع القانوني لموقف الدول الاخرى من الحرب الفلسطينية » : « ان قبول اسرائيل في المنظمة الدولية في ١١ ـ ٥ ـ ١٩٤٩ كان قبولا موصوفا استذكرت الجمعية العامة في قرار القبول هذا ... قرارها الخاص بتأكيد حق اللاجئين الفلسطينيين بالعودة الى بلادهم الصادر ١١ ـ ١٢ ـ ١٩٤٨ .. وان عدم امتثال اسرائيل للتحفظات الواردة في قرار قبولها من شأنه في رأينا أن يحيل عضويتها الموصوفة الى عضوية غير قانونية » مع وجاهة هذا الرأي الا أنه يبقى في حدود « قضية اللاجئين » وهو تسليم مبدئي بالفقرة الواردة في القرار ٢٤٢ عن « ايجاد حل عادل لمشكلة اللاجئين » . انه انحدار بالقضية من علاقة الشعب بالارض حسب مبادىء السيادة القومية وتقرير المصير الى التسليم بأنها قضية لاجئين !

ثانيا . تقول الحجة الثانية بالعودة الى قرار ١٩٤٧ أنه يجرد اسرائيل من مساحات واسعة من الارض ويعطيها رقعة صغيرة بالنسبة لتوسعها منذ ١٩٤٨ الى ١٩٦٧ . ذلك أن قرار ١٩٤٧ يجردها من الجليل والنقب ومدن فلسطينية هامة مثل حيفا وعكا . وان في هذا مكاسب اقليمية لا تقاس لشعبنا وخسائر للعدو لا تعوض . واخيرا ان قرار التقسيم قد اعترف بكيان فلسطيني الى جانب الكيان اليهودي .

ولكن مقابل هذه « المكاسب » هناك تسليم منا بمشروعية الاغتصاب مهما تقلصت رقعة الارض في حصته . وقبول « بحق » الاغتصاب مواز للحق القومي في الارض التي يتقاسمها

الطرفان بموجب هذا القرار ، صاحب الحق القومي والمغتصب الدخيل . الفارق بين قرارات ١٩٤٧ و ١٩٦٧ كمي وليس نوعيا . ثم أن قرار ١٩٤٧ يقيم بين الكيانين الفلسطيني واليهودي وحدة اقتصادية تكون توسعا في سياسة « الجسور المفتوحة » وعبارة للانتاج الصهيوني والرساميل الصهيونية الى كل العالم العربي .

ان الافتراق الاساسي عن قرارات ١٩٤٧ و ١٩٦٧ هو في وعينا لان حق تقرير المصير لشعبنا لا يجوز أن يقطر الى قرارات تجهض هذا الحق بفرض قبوله بالاغتصاب وكيانه العدواني والتعايش معه . ان حق تقرير المصير يعني ممارسة كامل السيادة القومية على كل أرضنا . ترتفع في وجــه هذه القاعدة اعتراضات تقول أن هذا غير ممكن لا في موازين القوى الراهنة ولا بالنسبة للمجتمع الدولي وقراراته .

أولا : ان تمرحل النضال الثوري تكون بتحديد أهداف تكتيكية لكل مرحلة مع التمسك الكلي بالاستراتيجية الاساسية للثورة . وان التكتكة التي تخرج عن هذه القاعدة تصبح استراتيجية بديل عن استراتيجية الثورة . ان ثورة فيتنام لم تنتصر دفعة واحدة وهي تعطينا أروع الامثلة على الصمود الطويل لعقدين أو ثلاثة من الزمن . وان تحرير جزء من فلسطين هو هدف تكتيكي منشود لان تحرير كامل فلسطين لن يكون الا بعد حرب قومية طويلة الامد وعلى جسور من التضحيات والالام الكبرى . ولكن تحرير جزء من فلسطين لا يجوز أن يكون لحساب التخلي بصورة من الصور عن الهدف الاستراتيجي الاخير في تحرير كامل الارض المحتلة . لقد تمسكت ثورة فيتنام في كل المفاوضات والاتفاقات من جنيف الى باريس بثلاث قواعد أساسية : أولا : الاصرار على وحدة الوطن الفيتنامي مع القبول بمرحلة توحيده . ثانيا : الاصرار على جلاء القوات الاجنبية المحتلة . ثالثا : استمرار الكفاح المسلح .

ثانيا : بالنسبة للمجتمع الدولي مفروض درس القرارات الدولية درسا ديناميا مقارنا يأخذ بالاعتبار المتغيرات الدولية منذ ١٩٤٧ لصالح حقنا القومي في فلسطين . ان تبدل تركيب المجموعة الدولية هو لصالح الغاء قرار ١٩٤٧ وقرار ١٩٤٩ بقبول اسرائيل في الامم المتحدة من قبل أكثرية أوروبية اميركية استعمارية . ان القرارات الدولية كلها تخضع لميزان القوى والمصالح . وان عالم ١٩٧٤ هو غير عالم ١٩٤٧ أو حتى عالم ١٩٦٧ . ان افريقيا واسيا والعالم الثالث وعالم عدم الانحياز كلها لم تكن موجودة في ١٩٤٧ الا في ١٢ دولة ساندت حقنا ورفضت التقسيم . واليوم الاكثرية ثلثي الامم المتحدة هي من هذه المجموعة .

وقد أدانت هذه المجموعة الدولية الكبرى التي ولدت أكثرها في حروب التحرير القومية طوال ربع القرن المنصرم ، أدانت كلها الكيان الصهيوني في قمة عدم الانحياز المنعقدة في الجزائر في أيلول ١٩٧٣ واعتبرته كيانا استيطانيا استعماريا . كما أن قرارات الامم المتحدة في ١٩٧٠ و ١٩٧١ هي في هذا الاتجاه :

في ضوء هذا الواقع الدولي الجديد اقترحنا أن يتحرك وفد الثورة من ضمن المرتكزات الاساسية التالية :

١ ــ ميثاق الامم المتحدة في الفقرة ٢ والمادة ١٤ الذي ينص على حق تقرير المصير للشعوب والذي جاء قرار التقسيم ١٩٤٧ ناقضا له . بينما جاء قرار الامم المتحدة في ٨ كانون اول ١٩٧٠ ناسخا لقرار ١٩٤٧ ومستوحيا الميثاق اذ ينص على :

« ١ ــ تعترف (الامم المتحدة) لشعب فلسطين بالتساوي في الحقوق وبحق تقرير

المصير ، وفقا لميثاق الامم المتحدة » .

« ٢ ــ وتعلن أن الاحترام التام لحقوق شعب فلسطين غير قابلة للتصرف وهو عنصر لا غنى عنه في اقامة سلم عادل ودائم في الشرق الاوسط » . وتأكد هذا القرار بالقرار رقم ٢٧٨٧ الصادر في ٦ كانون أول ١٩٧١ .

ولقد أدان القرار ٢٦٤٩ الصادر عن الامم المتحدة بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني ١٩٧٠ « تلك الحكومات التي تنكر حق تقرير المصير على الشعوب المعترف بها بذلك الحق ، وخصوصا شعوب افريقيا الجنوبية وفلسطين » .

فاستنادا الى الميثاق ، لا الى القرارات المخالفة له كقرار ١٩٤٧ أو قرار ١٩٦٧ ، واستنادا الى عودة الامم المتحدة بأكثريتها الاسيوية ــ الافريقية الى روح الميثاق في قرارات ١٩٧٠ و ١٩٧١ يكون طرح المسألة الفلسطينية وادانة الكيان الاستيطاني الاستعماري الصهيوني .

٢ ــ في ١٩٦٠ صدر عن الامم المتحدة قرار تصفية والغاء الاستعمار بكل أشكاله وذلك بناء على اقتراح الاتحاد السوفياتي برئاسة السيد نيكيتا خروشوف . وهذا القرار الدولي الخطير يعتبر ناسخا لما قبله ولا سيما لقرار ١٩٤٩ بقبول اسرائيل في عضوية الامم المتحدة . ذلك أنه في ضوء قمة الجزائر لدول عدم الانحياز والممثلة لنحو ٨٠ دولة وصف الكيان الصهيوني ، بما يستحق ، من أنه كيان استيطاني استعماري .

ومنطق الثورة مفروض أن يجمع بين هذه الوثائق ليؤكد شمول قرار ١٩٦٠ بتصفية الاستعمار بكل أشكاله للكيان الصهيوني الاستعماري الاستيطاني . في ضوء هذا الاستطراد المنطقي نجد أن قرارات الامم المتحدة لا سيما الصادرة بعد ١٩٤٧ وبعد ١٩٦٧ قد نسخت والغت قرارات تكريس الاغتصاب الصهيوني وأدانت الكيان الاستعماري الاستيطاني .

وأخيرا فان الثورة اذ تذهب الى الامم المتحدة مفروض أن تنتزع المظلة الدولية لاستمرارها ، لا المصعد الذي يرفعها الى جنيف . لتحفظ العناية الثورة ولتكلل مهمة وفدها الى الامم المتحدة بالنجاح على طريق النصر الاخير .

III تحطيم ميزان القوى الراهن

حتى ننهض من مطبات التسوية الى استراتيجية التحرير(١)

الى اين وصلت المسألة الفلسطينية وهي التي طرح أمرها على مجلس الامن في قراره الاخير ؟

مراجع منظمة التحرير الفلسطينية تشير الى الانتصارات الديبلوماسية على صعيد الجمعية العامة للامم المتحدة في القرارات الثلاثة الاخيرة التي أكدت مشروعية النضال الفلسطيني واستهدافاته الوطنية في الاستقلال والسيادة والعودة كما أدانت الصهيونية كحركة تمييز عنصري معادية للانسانية .

وتشير مراجع المنظمة كذلك الى تحول موقف الاتحاد السوفياتي من تبني القرار ٢٤٢ أساسا لبحث الحل الى تبنيه في مذكرته الى الولايات المتحدة وفي محادثات موسكو الاخيرة مع الاخ أبو عمار للقرار رقم ٣٢٣٦ أساسا لبحث المشكلة الفلسطينية . والقرار رقم ٣٢٣٦ المتخذ في ٢٢ ــ ١ ــ ١٩٧٤ ينص على « ١) تأكيد الحقوق الثابتة لشعب فلسطين في وطنه بما في ذلك : (أ) حق ممارسة تقرير المصير دون أي تدخل خارجي . (ب) حق الاستقلال الوطني والسيادة . (ج) حق الفلسطينيين الذين طردوا من ديارهم وممتلكاتهم منذ ١٩٤٧ بالعودة اليها وتدعو الى عودتهم في أقرب وقت ممكن » . وترى مراجع المنظمة أن هذاالتحول عن قرار ٢٤٢ الى قرار ٣٢٣٦ الذي يعترف أن فلسطين هي « وطن » الشعب الفلسطيني وحقه بالسيادة والاستقلال الوطني هي قفزة كبرى في العلاقات السوفياتية ــ الفلسطينية .

الا أن الرافضين يرون أن هذه القرارات كلها هي « فاكونات » في قطار التسوية . وان الموافقة الاميركية على قرار مجلس الامن الاخير ببحث مسألة الشرق الاوسط والمسألة الفلسطينية صعدت باروميتر التسوية .

وان مسألة السيادة والكيان حسبما هو مطروح دوليا لا يخرج عن جزء من فلسطين يشتمل على الضفة والقطاع الداخلة في مشروع « ازالة اثار عدوان » حزيران ١٩٦٧ دون التعرض للكيان الصهيوني أصلا .

ولكن المراقبين يقولون بأن الموافقة الاميركية على قرار مجلس الامن اتجهت نحو دمشق أكثر من اتجاهها نحو منظمة التحرير ولا سيما بعد المعارضة الاميركية الاخيرة لحضور المنظمة مجلس الامن .

ولقد جاء تصريح الرئيس الاسد « للتايم » حول تفضيله بحث التسوية في مجلس الامن على انعقاد مؤتمر جنيف قبل أيام من قرار مجلس الامن الموافق لهذه الرغبة يشكل أكثر من مصادفة زمنية .

وفي بيروت بينما كان الدكتور جورج حبش يصعد حملته على التسوية ويحذر منظمة التحرير من الذهاب الى جنيف وذلك في معرض ترحيبه ببادرة رئيس الحزب السوري القومي الاجتماعي في الدعوة الى وحدة المقاومة الفلسطينية على اساس برنامج لرفض الحلول

---

(١) « صباح الخير » ١٨ ــ ٨ ــ ١٩٧٥

الاستسلامية ، كان الاخ أبو عمار يعود من موسكو في ظل بلاغات تتحدث عن السلم بينما المناخ مناخ حرب . فالمخابرة التي التقطها جهاز الامن اللبناني بين ابو عمار وقيادته في بيروت دارت حول المدد السوفياتي العسكري لفتح ومنظمة التحرير في كفاحها ضد العدو الصهيوني . ولم يكن هم ابو عمار في الحصول على المدد العسكري للكفاح المسلح وحده المؤشر الحربي بل كذلك اعتبار السوفيات ان المسعى لعقد محادثات السلام على غير القرار ٢٤٢ سيلقى الطريق المسدود اسرائيليا واميركيا . ومعروف ان منظمة التحرير لا تقبل بالقرار ٢٤٢ اساسا لمؤتمر جنيف .

ويتساءل المراقبون ، ودعاة وحدة المقاومة ، ونحن منهم ، علام الاستمرار في الخلاف بين المنظمة وجبهة الرفض طالما سلة التسوية فارغة ؟ ولماذا لا تثمر هذه الانتصارات الديبلوماسية ، للتحرير الكامل بدل مكسب اقامة الكيان الفلسطيني المحدود والذي لا يمكن ان يقبل به الطرف الاخر الا بشروط التعايش والاعتراف ؟ اليس في قرار ادانة الصهيونية مظلة دولية للنضال المتجه نحو ازالة اسرائيل ككيان العنصرية الصهيونية ؟ اليست وحدة المقاومة هي مصدر قوتها وتشتتها مصدر ضعفها ؟

الا ان مراجع منظمة التحرير تجيب بانها في استهدافها تحرير كامل التراب الفلسطيني لا تستطيع تجاهل امرين (اولا) ان ميزان القوى الدولي الراهن لا يسمح حاليا باكثر من تحرير الضفة والقطاع واقامة كيان فلسطيني عليهما وحتى هذا يستدعي نضالا صعبا سواء لجهة قنص هذا الكيان دون الوقوع في شروط العدو لجهة الاعتراف والتفاوض والصلح ، او لجهة التصدي لمحاولات تجيير الضفة والقطاع للاردن . وثانيا ، ان منظمة التحرير عبر رفضها العلني للتسوية تكون قد اسهمت في عملية تجيير الضفة والقطاع للنظام الاردني وهو ما يرغب به الاميركيون والاسرائيليون .

الم يقل كيسنجر ان اميركا اخطات لانها لم تحقق فك ارتباط على « الجبهة الاردنية » بعد فك الارتباط الاول على الجبهة المصرية بدل الاصغاء لتوسلات السادات في عقد اتفاقية سيناء ؟ !

منطق منظمة التحرير يبدو سليما طالما انه ينطلق من ضمن الوضع الراهن . لان كل الانطلاق من ضمن الاوضاع الراهنة لا يجد منطقا افضل .

الا اننا في الحزب السوري القومي الاجتماعي نطرح المعادلة من زاوية مختلفة . فقد طرحنا دوما وجوب تحطيم ميزان القوى الراهن ، ميزان التجزئة والضعف لمصلحة ميزان قوى جديد يقوم على اساس الوحدة القتالية مصدر القوة ومنطلق التحرير . المنطق الكياني لا يمكن ان يصل الى ابعد من تحسين شروط التسوية . تحميل الفلسطينيين عبء السقوط في التسوية ينبع عند كل الاطراف القومية من ازدواجية غريبة ومقيتة : من جهة تقول هذه الاطراف : المسألة الفلسطينية ليست مسألة كيانية ليست « مسألة قطرية » لا يجوز لمنظمة التحرير ولا لكل المقاومة ان تتصرف بها .

ومن جهة ثانية تترك هذه الاطراف القومية المقاومة الفلسطينية وحدها في ساح الكفاح المسلح . تريدها ان تتحمل مسؤولية الحرب ولكنها تعيب عليها نتائج مسؤولية السلم .

هذا المنطق كله بحاجة الى نسف . الدوران ضمن اوضاع التجزئة ، ضمن ميزان القوى الراهن لا يفرز الا التسوية الباطلة . كسر الحلقة هو المطلوب. المطلوب هو الانطلاق باستراتيجية التحرير من استراتيجية العمل للوحدة القتالية التي وحدها محك وطنية وقومية الانظمة والمنظمات .

IV-القرار ٢٤٢ و« العقدة الفلسطينية »(١)

هذا العنوان استوحيناه من عناوين الاخبار في هذا الاسبوع ، بحيث بدا وكان مسيرة الحل السلمي على اساس القرار ٢٤٢ توقفت امام العقدة الفلسطينية لجهة ان القرار ذكر الفلسطينيين كلاجئين بينما هم خلال السنوات الاخيرة قد فرضوا وجودهم دوليا وبتاييد عربي كتسعب له « حقوق وطنية مشروعة » في اقامة دولة . وان البحث لتذليل هذه العقدة . والحل الكارتري كما صرح الرئيس كارتر ، هو ان تعترف منظمة التحرير الفلسطينية بالقرار ٢٤٢ ثم تطلب تعديله فينظر بالامر . اما حل الوسيط العربي السعودي او المصري فهو ان يقر الجانب الاميركي مبدا التعديل ثم يجري البحث . واصحاب المساعي الحميدة ساعون لتذليل هذه العقبة بصورة او بأخرى !

غير ان المشكلة في راينا هي ابعد من ذلك ، ونقول اخطر ، بحيث ان مسألة القرار ٢٤٢ هي جزء من كل ولا يمكن اخذها بالتجريد ومنفردة عن المقدمات التي آلت لصدور القرار او النتائج المترتبة على تطبيقه وحتى تعديله .

اولا : فالقرار ٢٤٢ يتضمن وجهي المسالة الفلسطينية : الاغتصاب والتشريد . فاللاجئون المشردون اصبحوا كذلك نتيجة الاغتصاب . ولا يمكن بحث مسالة « اللاجئين » التي هي النتيجة بمعزل عن السبب الذي هو الاغتصاب . وطالما الاغتصاب قائم فالمشكلة ستبقى . واسرائيل دولة يهودية خالصة وتريد ان تحافظ على طابعها الصهيوني ، ولذلك غير وارد بالنسبة لها حتى عودة « اللاجئين » كلاجئين ناهيك « بالحقوق الوطنية » . من هنا ان المشكلة جذرية اسرائيل تطلب الاعتراف والتفاعل معها حتى تقبل باي « تنازل » . كل قطعة ارض عندها تقابلها (قطعة سلام) والسلام هو السلام الاسرائيلي .

ثانيا : القرار ٢٤٢ صدر في اعقاب هزيمة حزيران . وكل قرار سياسي او وضع حقوقي يكون عادة ترجمة لميزان القوى . ومن الثابت ان وضع حزيران ١٩٦٧ هو المتضمن في بنود القرار ٢٤٢ ولكن هل ما زال العرب في وضع حزيران ١٩٦٧ ، حتى يستمر التعامل مع هذا القرار ؟

منذ حزيران ١٩٦٧ تحققت الامور التالية :

١ ـ حرب تشرين ١٩٧٣ التي ازالت الوضع النفسي عربيا وعالميا الذي ساد في ١٩٦٧ .

ب ـ بروز المقاومة الفلسطينية بالكفاح المسلح في الارض المحتلة ثم بالاعتراف الدولي .

ج ـ سلاح النفط العربي الذي تزايدت قيمته الى حد اعتماد الولايات المتحدة بصورة اساسية وملموسة على استمرار تدفقه ضمانا لآلتها الصناعية .

د ـ انتصار ثورات في العالم الثالث على الامبريالية وتعدل ميزان القوى العالمي : ثوار فيتنام ، وكمبوديا ، وغينيا بيساو ، والموزامبيق وانغولا واضطرار اميركا الى الانسحاب من فيتنام والالتزام بعد كل الذي احدثته حرب فيتنام من اثار داخلية بعدم ارسال جيوشها الى اي مكان في العالم كل هذه الوقائع هل تركت بصماتها على القرار ٢٤٢ ؟

الحاصل هو ان التصلب الاسرائيلي هو الذي انعكس في معادلة السلام الاميركية . وان « الليونة » العربية جعلت شروط مناحيم بيغن هي نفسها شروط فانس . حتى القرار ٢٤٢

---

(١) « صباح الخير » ١٤ ـ ٨ ـ ١٩٧٧

رفضت اميركا تعديله تعديلا جزئيا سعى اليه الوسطاء العرب مع ان هذا التعديل لا يمس جوهره الذي يقوم على قبول انهاء حالة الحرب مع اسرائيل وضمان حدودها الامنة .

طبعا « يمكن القول باننا حققنا نصرا ديبلوماسيا لان المرونة العربية والفلسطينية قابلها تعنت اسرائيلي وبذلك انكشفت « نيات اسرائيل العدوانية » للمجتمع الدولي ، كانما يهم العاهرة ان يتندر الناس بسوء سلوكها ؟ من هنا ان طريق المعالجة في راينا مختلف في المنطلق .

ثالثا : اما المنطلق فهو قوتنا والتي بدونها لا قيمة للقرارات الدولية بالنسبة لنا بل قيمتها بالنسبة للذين يعكسون قوتهم على ميزانها . ان القوة القومية والعربية غير مترجمة دوليا .

ان الخيار الوحيد المطروح امام العرب حالياً هو القبول بالسلم الاميركي الامبريالي اي بالسلم الاسرائيلي ، والتنافس المطلوب هو على تحسين شروط هذا السلم الامبريالي الصهيوني من ضمن الدوران في فلكه واطاره . من هنا ان المنطلق في رأينا هو عكس هذه المقولة . فليس المطلوب الحصول على تحسين شروط السلم الامبريالي الاسرائيلي المنطلق هو في بناء قوتنا لتفرض وزنها على القرارات الدولية .

وشروط قوتنا هي هذه :

١ ــ اذا كانت تجزئة محيط فلسطين الطبيعي بعد الحرب العالمية الاولى قد ادت تدريجيا وبصورة مضطردة الى تهويد فلسطين فانه من الجريمة القومية ان نبقى محافظين على اوضاع ضعفنا التي ألت الى تهويد فلسطين بل ان الوحدة هي منطلق التحرير ولا بد خاصة بعد نكبات المقاومة مع الكيان والاوضاع الكيانية ان تكون الوحدة هي طريق التحرير . ان وحدة الهلال الخصيب مطلب قومي مصيري ، تزول امامه كل التناقضات الثانوية . ولسنا نستطيع ان نتصور لعبة الانظمة وتناقضاتها تكون فوق مصير الوطن !

٢ ــ ان الجبهة العربية مفروض ان لا تكون اطارا يصار تجييره للنفوذ الامبريالي في افريقيا واسيا بل مفروض ان تكون لهذه الجبهة مشكلة اولى هي مشكلة تعبئة القوى الدولية لدعم حقنا القومي في فلسطين فنحارب حروب العرب ضد اعدائهم القوميين لا حروب اميركا ضد العرب انفسهم اوبعضهم ضد بعضهم الاخر . ان مقولة الحرب العربية ــ العربية مفروض ان تسقط مرة والى الابد في سبيل الحرب العربية المضادة للامبريالية والصهيونية .

٣ ــ ان الموارد العربية وفي طليعتها النفط مفروض ان يستخدم كسلاح استراتيجي للمعركة ، سواء بالضغط على اميركا لتعديل سياستها من اسرائيل او بانماء العالم العربي ، وخاصة دول المواجهة العربية فيكون شكل القوة العربية هو الذي يترجم في القرارات الدولية لا رهن هو الذي يراهن عليه لنيل رضى السادة الامبرياليين .

٤ ــ اوسع التضامن العربي ــ الاسيوي ــ الافريقي واذا امكن الاوروبي بحيث تشعر اميركا انها احدى اطراف المعادلة ــ وربما اهمها ــ ولكن قطعا ليست كلها . ومع تعزيز العلاقات السوفياتية والاشتراكية لاحداث التوازن المطلوب ولمصلحة الخط التحرري .

٥ ــ ان المقاومة الفلسطينية هي طليعة حرب التحرير التي تصان وتعزز على اساس هذه المقولة ولكن الارض القومية لا يمكن التفريط بشبر واحد منها وليس لاحد لا منظمة التحرير ولا اي نظام حق التصرف باي جزء من الارض القومية . ان العقدة ليست فلسطينية حتى يصار الى تغيير وصف الفلسطينيين من لاجئين الى اصحاب الحق بدولة على جزء من فلسطين ، ان العقدة هي عقدة قومية ، عقدة التحرير مع الاغتصاب .

الباب الثالث : حرب وجود لا حرب حدود : الابعاد والمضامين

مجموعة دراسات تناقش اطروحات استسلامية

١٩٧٤ ــ ١٩٧٧

١ ــ الفصل السادس : الرد على شارل مالك ٢٣ ــ ٢٦ أيلول ١٩٧٤

٢ ــ الفصل السابع : المسألة الفلسطينية على المفترق الخطير ٤ ــ ١٢ ــ ١٩٧٤

٣ ــ الفصل الثامن : حرب وجود لا حرب حدود ــ فكر ــ ١٩٧٥

٤ ــ الفصل التاسع : جنيف ومواقف الاطراف والطريق المسدود ــ ١٩٧٧

مدخل : حرب وجود لا حرب حدود

الابعاد والمضامين

مجموعة دراسات

يمكن اعتبار هذا الباب بفصوله الاربعة انه يحمل موضوعة الكتاب الاساسية فهو اولا يناقش بدايات الطرح التمهيدي للخطوة الساداتية والممهد لاسقاط الحاجز التاريخي القومي بين شعبنا في نضاله لتحرير أرضه ، والعدو الصهيوني المغتصب للارض والمستبيح الحقوق القومية الثابتة لشعبنا والمتآمر على مصيرنا القومي كله .

يكتب شارل مالك « مقامته » الشهيرة في هذا الاتجاه في النهار في ١٩٧٤ مبشرا بسلام يعقبه ازدهار يتفاعل فيه الاسرائيليون واللبنانيون والفلسطينيون والاردنيون والشاميون(١) . وفي ١٩٧٥ يصدر كتاب « بعد ان تسكت المدافع » لمحمد سيد أحمد في مصر من زاوية اخرى ، ماركسوية، هذه المرة مبررة ومستبشرة ببزوغ السلام المنشود واندماج اسرائيل بالمنطقة وحلول تناقضات طبقية عند ذاك بدل التناقضات القومية .

ويرد المؤلف على الكاتبين مؤكدا جوهرية التناقض الاساسي بين حروب التحرير القومية والاستيطان الاستعماري في أوسع المقارنات مع حروب التحرير القومية في العالم ، مؤكدا مقولة الكتاب كله من أن هذه الحرب هي « حرب وجود لا حرب حدود » .

والى جانب هذين البحثين محاضرة المؤلف في كلية العلوم في الجامعة اللبنانية التي ألقاها حول « المسألة الفلسطينية على مفترق خطير » ١٩٧٤ ودراسة « لفكر » حول طبيعة السلام الاستسلامي وطريق جنيف المسدود ١٩٧٧ .

طابع هدا الباب هو طابع الدراسات المتناولة اصول المسائل بالتحليل والمتوصلة دوما الى خلاصة تمثل المقولة الاساسية لا تعايش بين الحق القومي والاغتصاب ولا تعاط خارج اطار حرب التحرير القومية الشعبية التي حققت في المنتصف الاخير من القرن العشرين اعظم الانتصارات في العالم الثالث بينما يراد لشعبنا غير هذا المصير التعايش مع الاغتصاب ، والخضوع للاغتصاب !

وتشتمل هذه الدراسات على طروحات نظرية حول طبيعة هذا الصراع ان لجهة القبض عى طابع المرحلة عالميا حيث تتداعى قلاع الاستيطان الاستعماري بينما تجري محاولة فرض التعايش معه في منطقتنا أو لجهة تحليل طابع هذا الاستيطان الاستعماري وحقيقته . وتمتاز

---

(١) هو ما ردده الحسن الثاني ومناحيم بيغن في ١٩٧٧

هذه الدراسات بوعي لدور الامبريالية وطبيعتها لا من زاوية تنظيرية فحسب بل بتحليل عواملها الاقتصابية على الصعيدين العالمي والقومي واظهار بشاعة استغلالها للشعوب وحقيقة تحالفها مع الصهيونية العالمية . وفي هذه الدراسات كما في الباب الاخير حول استسلام السادات والرد على الاستسلام شمول في تحليل المصالح الامبريالية ومخططاتها تفصيليا ، خاصة في عالم النفط . وهو ما نفع المؤلف الى وضع كتاب عنه على حدة بعنوان « النفط وفلسطين »

الفصل السادس

ايلول ١٩٧٤ :

الرد على اطروحات الدكتور مالك حول الاندماج باميركا واسرائيل

الدكتور شارل مالك عقل سياسي كبير وصاحب ثقافة واسعة . ولكن اخطر ما يكتب هو في السياسة الدولية اذ علينا مراقبة مؤشرات الضوء الاخضر الاتي من بعيد عبر البحار ، وتلمس معالم السياسة الاميركية التي يفهمها جيدا ويعبر عنها جيدا ، ويعرف ، ما يقول اقطابها الذين تربطه بهم اوثق الصلات .

ويأتي مقال الدكتور مالك المسهب عن « نيكسون وفورد والسياسة الاميركية » والمنشور في ١ ـ ٩ ـ ١٩٧٤ في « النهار » على صفحتين وبعض الصفحة في وقت لم يكن اسوأ منه على سمعة اميركا في العالم وفي منطقتنا . فمن فضيحة ووترغيت الى مأساة قبرص وانسحاب اليونان من الحلف الاطلسي والعداء لاميركا الذي وصل الى حد مصرع السفير في نيقوسيا ، ومن اشتداد الرفض للسياسة الاميركية التي اكدت في بيان تل ابيب دعمها لاسرائيل غير المحدود وهدرها دماء ابناء شعبنا في المخيمات وتصميمها على سحق ثورته التي وصفتها « بالمرتزقة » و « المخربين » ، وفي وقت ترتبك فيه الانظمة التي راهنت على نيكسون بعد ذهابه وتربع خلفاء له في البيت الابيض معروفون بصلاتهم الحميمة بالمنظمة الصهيونية .

وسط هذه الدوامة من الاحداث كان توقيت المقال وكأنه مرافعة مدروسة في الدفاع عن اميركا نظاما ورئيسا وسياسة تذكرنا بمقارعة الدكتور شارل مالك في مطلع الخمسينات لجاكوب ماليك مندوب الاتحاد السوفياتي في الامم المتحدة دفاعا عن اميركا و « العالم الحر » . فالدكتور شارل مالك منذ اكثر من ربع قرن ، وهو بعد سفير للبنان في واشنطن يتولى هذه المهمة على اعلى المستويات الدولية .

وليسمح لنا الدكتور مالك ان تستوقفنا الملاحظات التالية على مقاله :

اولا : الدكتور مالك في مناخ الطلاسم والاسرار يرفع ووترغيت من الوحلة الى الهالة ولكنه يسقط في التناقض الذاتي .

يعدد الدكتور مالك اخطاء نيكسون الا واحدة وهي خداع الكونغرس والشعب في شن حرب فعلية غير معلنة على شعب كمبوديا وجرائم فيتنام . فهذه لا يذكرها الدكتور مالك لان « العدالة الاميركية » التي اقتصت من نيكسون على « جرائمه »لم تجد في « قتل شعب امن » كما يقول جبران خليل جبران في « المواكب » جريمة تستحق العقاب ، بل هي « جريمة تغتفر » .

ولكن الدكتور مالك بعد تعداده لكل اخطاء نيكسون واعترافه ان « بعضها بالطبع خطايا مميتة » يتساءل في صيغة الجمع « كثيرون يتساءلون هل تبرر هذه الاخطاء ، وحتى هذه الخطايا ، الضجة الهائلة التي اثارتها حوله الصحافة ووكالات الاذاعة والتي ادت الى انشاء

محاكم خاصة ، والى اقامة لجان في الكونغرس ، للتحقيق حوله وحول معاونيه بتهم جنائية » .

ويأخذ الدكتور مالك في طرح اسئلة التشكيك حول حقيقة المسألة كقوله « ما هو سبب العداوة العنيفة بينه وبين الصحافة ووكالات الاعلام ، والى متى ترقى هذه العداوة ؟ » ويتابع التساؤل نفسه حول سبب العداوة الحادة بين نيكسون نفسه وبين الجامعات الكبرى وسائر المؤسسات ويقودنا الدكتور مالك رويدا الى ان في الامر سرا خطيرا دفينا . « سر لا يمت الى مصلحته الشخصية ومصلحة معاونيه فحسب ، بل يتجاوزها الى الخير العام والامن القومي ، سر قد يعرفه أعداؤه تماما أو قد لا يعرفونه ، ومع ذلك لن يبوح ، لا هو ولا هم ، به في المستقبل في أية حال ؟ على غرابة هذا الشيء فأنا لا أستغربه » ، هذه احدى الايحاءات التي يحيط بها الدكتور مالك قضية ووترغيت فيرفعها من الوحلة الى الهالة ، ومن تخبط الانانية الى الغيرية المضيئة بحب البلاد وأمنها القومي ، ومن مثالب الانحدار الى مناقب السمو . ويختم تساؤلاته وايحاءاته بخيار واضح . يقول الدكتور مالك :

« فاما ان يكون نيكسون أكبر مخادع في التاريخ ، كي يبقى في الواجهة السياسية الاميركية بهذا الشكل الرائع أطول مدة في تاريخ أميركا ــ وهذا ليس بالمعقول ، نظرا ، على الاقل ، الى انجازاته الايجابية الهائلة التي يقر له بها أعداؤه قبل مؤيديه .

« أو أن الشعب الاميركي أكثر الشعوب سذاجة وانخداعا ــ وهذا ليس بالمعقول كذلك ، بسبب الحرية التامة التي يتمتع بها ومستواه الثقافي الرفيع .

« أو أن ثمة خطأ أو خللا أساسيا في النظام الديمقراطي السياسي الاميركي ذاته ، خطأ يسمح بهذا المشهد الغريب .

« أو أن يكون في الامر سر دفين رهيب لم يعرف بعد ، وقد لا يعرف بكامله على الاطلاق .

« الخيار بين هذه الامكانات الاربع فقط ، وأنا اخترت الامكان الرابع ، وفي سبيل التفتيش الحثيث الصارم عن هذا السر الدفين سردت تساؤلاتي أعلاه »

لماذا الامكان الرابع ؟

يتضح بجلاء لا يقبل الشك ، اولا ، ان الدكتور مالك وقد وجد الامكانات الثلاث من أصل أربع تسيء الى أميركا ، فاختار الامكان الرابع الذي يضفي هالة السر على أحداثها والذي هو أبعد هذه الامكانات عن التحقيق الموضوعي والتثبت والاثبات . وأكثرها بعدا ، ففي المجهول عالمه ، عالم الطلاسم والالغاز والاسرار . برهانه الفرضية وواقعه التجريد ودليله الاصرار على عدم قبول الادلة .

ويتضح بجلاء أيضا أن الدكتور مالك جزم بأنه من غير المعقول أن يكون نيكسون مخادعا أو أن يكون الشعب الاميركي مخدوعا ولكنه ازاء الامكانية الثالثة أن يكون ثمة خطأ أو خلل أساسي في النظام الاميركي لم يجزم بشيء ولكنه رفض الاخذ بهذه الامكانية دون دليل وفضل الامكان الرابع الذي هو مجرد تساؤلات وفرضيات لا تقوم على أساس .

والغريب انه في هذا الامكان الرابع ينفي الدكتور مالك ان يكون نيكسون قد كان ضحية الصهاينة أو شركات البترول أو السوفيات أو العرب . فلماذا اذن يكتم السر الذي يتناول مصير بلاده وأمنها القومي كما افترض الدكتور مالك في محاولته اضفاء هيبة تاريخية على مأساة

المستر نيكسون ؟ يقول الدكتور مالك ان نيكسون قد يكون ضحية الصراع المصيري الدائر في أميركا والذي يتناول « هذا الصراع المصيري كل مظاهر الحياة الاميركية ، في الفن والادب ، في الدين والعقل ، في العائلة وفي النظرة الى الجنس ، في التنظيم الاجتماعي ، وفي السياسة ، وبكامل مظاهره ، يدور حول طبيعة الانسان ومصيره » . مثل هذا الصراع ألا يدل في شموله على أن نظام الحياة الاميركية ومن ضمنه النظام السياسي مطروح على المشرحة ؟

ان لنا كلمة ووجهة نظر أخرى في حقيقة هذا الصراع ومقدار شمول أو قصور تحليل الدكتور مالك عن الاحاطة بحقيقته وجوانبه . ولكن في هذا المجال بالذات نتساءل وقد لف الدكتور مالك مسألة المستر نيكسون بغموض الاسرار المستعصية على الكشف وجعلها فوق التحليل الموضوعي وطرح سلسلة من الفرضيات حولها بحيث باتت أرضا حراما على كل تحليل لان السر باق دفين في صدر المستر نيكسون حسب فرضيات الدكتور مالك ، نتساءل ومن ضمن ما طرح الدكتور مالك نفسه :

اسرار وطلاسم ام مشكلة نظام ؟

هل المشكلة مشكلة اسرار وطلاسم أو مشكلة نظام ؟ الدكتور مالك يريدنا أن نأخذ « بالامكان الرابع » : « ان يكون في الامر سر دفين رهيب لم يعرف بعد وقد لا يعرف بكامله على الاطلاق » ومع ذلك هو يرى أن اولى نتائج « ظاهرة نيكسون » ، « صمود النظام الاميركي السياسي في وجه هذه الازمة المحنة ، التي تعتبر أعنف أزمة داخلية اجتازها هذا النظام في تاريخه » . ويمضي الى القول : « خسارة نيكسون نصر لاميركا بمعنى ان نظامها برهن بذلك على مناعة واستقرار هائلين » ويمضي الى القول أكثر « فقد برهنت ظاهرة نيكسون ان الرئيس لا يستطيع أن يضع نفسه فوق الكونغرس ولا فوق القانون ، أي انه لا يستطيع أن يتعدى صلاحياته الدستورية ويتحدى السلطتين الاخريين في ما هو في نطاق صلاحياتهما » .

وقبل ذلك كان الدكتور مالك قد قال وهو يتحدث عن « الصراع المصيري في اميركا » : « أي دور لعب مذهب هذا في القضاء عليه ؟ هل تألب وقضى عليه آخر الامر الديمقراطيون العقائديون الذين يؤمنون بأولوية المجتمع ، وبالتقدمية اللامحدودة ، وبالتالي بنجاعة الفكرة ، وبالمركزية ، أم هل تألب وقضى عليه آخر الامر الجناح الجمهوري المتطرف الذي يؤمن بأولوية الحرية والانسان والتراث . وبالتالي باللامركزية أكثر منها ؟ أم هل اشترك الاثنان في القضاء عليه ، في اتفاق ضمني « وبتعمد ووعي تأمين ، كل بالطبع من ناحيته وكل بقصده الخاص ؟ »

لقد وقع الدكتور مالك في التناقض الذاتي الذي يسقط كل منطلقات دفاعه عن النظام الاميركي ، فمجرد طرح هذه التساؤلات من قبله دليل على تشكيكه في أن يكون ما حصل انتصار للنظام الاميركي لان ما يرسمه في هذه الصور هو مؤامرة كواليسية تجري بتواطؤ فئات سياسية للخلاص من نيكسون والاطاحة به بسبب مذهبه السياسي والاجتماعي المزعوم . وهذه صورة تسقط ديمقراطية النظام لتجعلنا نعيش في مناخ انقلابات القصور في الدول الاتوقراطية وأجواء التصفيات السياسية بسبب المعتقد السياسي والاجتماعي ، في الدول التوتاليتارية التي يرفضها الدكتور مالك ، وبالتالي تظهر ان أشكال الديمقراطية الاميركية تخفي مضمونا مخالفا في جوهره لهذه الاشكال الليبرالية فان تتضافر قوى سياسية للاطاحة برئيس الجمهورية لحلافها العقائدي معه ودون أن يكون مدانا بجرائم تستحق في نظر القانون وحده هذا العقاب ، دليل على ان النظام الاميركي يعاني خللا أساسيا أنكره في البدء الدكتور مالك عند بحثه في

العموميات والمبدئيات ولكنه بالنتيجة سلم به مداورة بالتقسيط والتفصيل . ان من حق الفئات السياسية في النظام الديمقراطي الاطاحة بالرئيس ، ولكن دستوريا ، ووفق القانون أو في انتخاب عام ، وليس بالمؤامرات الكواليسية التي تسخر القانون للخلاص من الخصم السياسي ؟

هل نيكسون شهيد ؟

فهل نيكسون شهيد معتقده السياسي الاجتماعي ، كما يطرح الدكتور مالك ذلك على سبيل الفرضية ؟ اذن ، والحالة هذه ، لا تكون ظاهرته اذا صحت فرضية الدكتور مالك ، دليل انتصار الدستور والقانون اي الديمقراطية التي « برهنت ظاهرة نيكسون » كما يريدنا أن نسلم الدكتور مالك « ان الرئيس لا يستطيع أن يضع نفسه فوق الكونغرس ولا فوق القانون » فهل انتصر النظام الاميركي بالدستور والقانون على نيكسون الذي وضع نفسه فوقهما أم أن نيكسون سقط شهيد مؤامرة كواليسية من الديمقراطيين أو الجمهوريين أو كليهما معا كما يتساءل الدكتور مالك ، نتيجة مذهبه السياسي والاجتماعي ، وعلى حساب الدستور والنظام الديمقراطي ، هنا التناقض الذاتي يقع فيه الدكتور مالك !

النقطة الثانية :

ثانيا : هل أزمة النظام الاميركي هي صراع « ايديولوجي » بين الجمهوريين والديمقراطيين أم أزمة الاجتهادات والتناقضات الاجتماعية وتخلف الصورة الليبرالية عن تحديات العصر الحديث .

يخيل لمن يطلع على تحليل الدكتور مالك ان المسرح كبير ولكن الممثلين الذين اختارهم لا يملأونه . ذلك أن صورة وجود « صراع مصيري في أميركا » ، « يتناول كل مظاهر الحياة الاميركية » وهو « بين التقليدية الاميركية المحافظة والتقدمية اللا محدودة » في الفن والادب والدين والعقل والعائلة والنظرة الى الجنس ، والتنظيم الاجتماعي ، لدليل على ان قيما تتساقط في كل جوانب الحياة الاميركية السياسية والاقتصادية والاجتماعية قيما تتساقط وتجارب تفرز حاجات جديدة فينشأ فراغ نفسي ومادي في الانسان والنظام معا . ان الازمة في حقيقتها وشمولها هي في انطفاء الثورة الليبرالية عن الاشعاع في الربع الاخير من القرن العشرين وتخلفها عن المرحلة نظاما اقتصاديا وقيما اجتماعية وعلاقات سياسية . ونتيجة ذلك كله تناقض دور أميركا ازاء نفسها وازاء العالم . وانطوى عصر الرواد والحريات ليطلع عصر الامبريالية والتوسع العالمي . وأميركا البيضاء تلهث تحت وطأة ثورة الزنوج في سبيل المواطنة الكاملة واسقاط مجتمع الاسياد البيض والعبيد السود . وأميركا الرأسمالية يتآكلها سرطان التضخم النقدي والمضاربات وهبوط مؤشرات دوجونز وارتفاع سعر الفائدة المصرفية وتزايد البطالة وهبوط الانتاج حتى لم تعد تنفع معها الحلول الكينزية الترقيعية ولا نيوديل روزفلت الذي عبر بها أزمة ١٩٢٩ دون ان يكون الحل الجذري لازمة النظام وتناقضاته . فالرأسمالية الفردية التي صاحبت الثورة الصناعية في بناء اقتصاد اميركي متوسع في مطلع القرن الماضي واتسمت يومها بالريادة الفردية والحافز الشخصي أصبحت اليوم بعد تضخم مؤسساتها تسحق مجموع الشعب في أخطبوطها الاحتكاري وتفرز البطالة المتزايدة والتضخم المالي والفوضى

الاقتصادية . وليس هذا رأينا نحن فحسب ، بل رأي مجلة « التايم » كبرى مجلات اميركا التي وجدت في آخر تحقيق احصائي نشرته في ٢٦ آب ١٩٧٤ نسبة الذين هم في حالة بؤس اقتصادي في الولايات المتحدة بفعل تفاقم التضخم المالي ارتفعت من ٢٣ بالمئة في أيار الماضي الى ٢٨ بالمئة في تموز (أي خلال شهرين فقط) وان نسبة المتأثرين سلبيا من التضخم المالي وارتفاع غلاء المعيشة وان لم ينحدروا بعد الى حالة البؤس الكاملة ، ولكنهم في طريق الانحدار كما يدل تصاعد نسبة البؤس الاقتصادي ، ارتفعت هي أيضا الى ٣٩ بالمئة من مجموع الشعب الاميركي ، وبالنتيجة فان مجموع المتضررين من حالة التضخم المالي وغلاء المعيشة تبلغ ٦٧ بالمئة من مجموع الشعب الاميركي . وان اقل من الثلث يتنعمون ــ ولو بنسب متفاوتة ــ بالوضع القائم بينما يتضرر منه أكثر من الثلثين .

والى جانب البؤس الاقتصادي ، تقول « التايم » ، ان الرفض الاجتماعي يتصاعد بالنسبة نفسها . يقابل هذه الاحصاءات ارتفاع أرباح المصارف وشركات البترول والشركات الاميركية الكبرى المتعددة الجنسيات كالجنرال موتورز فورد وجنرال الكتريك وسواها الى نسب خيالية تبلغ بلايين الدولارات . وبروز ما يمكن وصفه « بالعشائر الاقتصادية » التي تمثل الواجهة السياسية في اميركا كآل كندي وروكفلر وسواهما . فبيوت الاحتكار المالي تكدس الثروات بينما الشعب ينحدر في السلم . ولولم يكن الشأن الاقتصادي خطيرا ، وليس ثانويا ، كما يريد أن يصوره الدكتور مالك لماركز جيرالد فورد رئيس الولايات المتحدة الجديد عليه واعتبر التضخم المالي عدو أميركا الأول ودعا الى مؤتمر قمة اقتصادي في هذا الشهر لمعالجة وضعه الخطير ، ولكن المراقبين لا يعتقدون ان معالجات فورد ستفيد في وضع الحلول الجذرية لانها من ضمن دائرة النظام الرأسمالي المفرغة .

وليس البؤس الاقتصادي ، على أهميته ، وحده هو المشكلة في تخلف الثورة الليبرالية ، بل هو جانب خطير منها اذ هناك انهيار مجموعة القيم التي نهضت على أساسها أميركا . وأميركا القيم القديمة تموت في الجامعات وبين الشباب الرافض الذي رسم الدكتور مالك نفسه صورة لرفضه بقوله . « هم ثائرون على النظام العائشين في ظله ، لان هذا النظام ، من حيث القيم الخلقية ، فاسد ، ومعهم كل حق في أن يعتبروه نظاما فاسدا . فهو نظام على شيء كثير من الدجل والنفاق ، ينادي بقيم الاباء والاجداد دون أن يطبقها في الحياة . وهناك فراغ نفسي وعقلي وروحي قاتل في هذا النظام » . (الدكتور مالك ــ في « القضايا المعاصرة » ــ عدد تموز ١٩٦٩) .

اروع تناقض روحي نفسي

ولعل اروع تناقض روحي نفسي عانى منه شباب اميركا في رفضهم لخداع النظام وفريسته قد تجسد في رفض قطاع واسع منهم لحرب فيتنام لا في التظاهرات الصاخبة ضد خوضها فحسب بل في رفض الانخراط في صفوف الجيش الاميركي الى حد تحمل الادانة بالخيانة القومية لتخلف هذا الشباب عن واجب الجندية . لقد واجه شباب اميركا الرافض أزمة مزقت كيانه فبعد ان تعلم في الجامعات ان بلاده ودستورها قد ولدا في ١٧٧٦ في لهب حرب تحرير قومية ضد الاستعمار البريطاني ، دعته المؤسسة العسكرية والسياسية الاميركية في الربع الاخير من القرن العشرين وبعد اندلاع مئات حروب التحرير في العالم ضد الاستعمار القديم ، الى خوض حرب امبريالية ضد شعب فيتنام . فبين تراث الحريات السابق وتراث القمع الامبريالي الراهن تمزق وجدان شباب اميركا الرافض وادرك مسألتين لا يريد ادراكهما الدكتور

مالك ، هما أولا : ان الحرية نسبية عند اميركا وانها لا تساوي المجتمعات الاخرى بها في حق تقرير المصير . ثانيا : ان النظام الليبرالي الرأسمالي تحول بعامل التضخم والتوسع الذاتيين الى نظام امبريالي قمعي ضد الشعوب .

واذا كان الدكتور مالك لا يرى الا الفضائل في الحياة الاميركية لانه على اتصال وثيق كما يردد دائما مع اقطاب طبقتها الحاكمة فان شباب اميركا الرافض لا يشاركه هذا الرأي ، وهو يعيش تمزقه الاليم ضد الحالة الراهنة

لقد ادرك سعادة قبل ربع قرن ، وفي ١٩٤٨ أزمة نظام الحياة الاميركية عندما تحدث عن الثورة الاميركية التي تجاوزها العصر « بعد ان حققت تلك الثورة ما حققت لم يعد الاميركان يشعرون بنظرة المجموع ، بنظرة المجتمع الى الكون والحياة ، لان اميركا بعد استقلالها وجدت نفسها جسما عظيما جدا كبيرا هائلا بثروته المادية ... وهي مع هذا الغنى على بعد كبير عن اي مجموع اخر يمكن ان يكون عدوا مزاحما على الخيرات والبلاد » ..

« في الحرب الاخيرة لم نجد مبدأ واحدا اقتصاديا ــ اجتماعيا ــ روحيا أو غير ذلك فاعلا من الناحية الاميركية يحتاج اليه العالم وتحتاج اليه الانسانية في سيرها . أما الديمقراطية التي ناضلت اميركا لاجلها ، فليست مبدأ اميركانيا ولم تضف اميركا اليه شيئا من ذاتها غير التراخي » (ص ١٠٤ « المحاضرات العشر ») .

ويقول سعادة في ١٩٤٣ « ان والديمكراتية اسم تنطوي تحته اشكال عديدة وكل شكل منها له خصائص سياسية وادارية تعطي نتائج تختلف عن التي يعطيها شكل آخر . والديمكراتية التي خبرتها الشعوب المتمدنة حتى اليوم لم تتمكن من حل الاضاليل الاجتماعية ــ الاقتصادية التي نشأت مع تقدم عهد الالة وارتقاء التخصص في الاعمال وتحديدها » و « عبثا حاول الديمكراتيون الضرب على وتر الديمكراتية لانهاض الهمم وبعث النشاط في النفوس . لان الشعوب كانت متخمة من الديمكراتية الرأسمالية التي اصبحت كابوس العامل والفلاح » . « مما لا شك فيه ان المحافظين الاقطاعيين والرأسماليين في بريطانيا والرأسماليين في الولايات المتحدة لا يعجبهم تبديل الديمكراتية في اشكالها المعروفة التي سهلت لهم الوصول الى ثرواتهم الفاحشة من اسهل الطرق » .
ص ١٢ ــ ١٣)

الفردوس المنشود

هذا التحليل للتناقضات الاقتصادية التي تعيشها الليبرالية الرأسمالية في اميركا والتي كتب عنها سعادة في الاربعينات والتي تفاقمت تفاقما واسعا في السبعينات بشهادة المسؤولين ورجال الاختصاص الاميركيين انفسهم لم يعرها الدكتور مالك ادنى اهتمام حين دعانا ويدعونا الى طريقة الحياة الاميركية والى فردوسها المنشود ونعيمها المفقود . ولكن المفارقة الكبرى هي انه رغم اغفال الدكتور مالك لدور الاقتصاد واثره على الحياة السياسية واعتباره ثانويا يعود الى تفسير « تطور السلطة التنفيذية على حساب السلطة الاشتراعية » في الولايات المتحدة بانه « لم يأت اعتباطا » بل « اقتضته ظروف المواصلات العالمية الحديثة وسرعة تطور الشعوب والتكنولوجيا الحديثة » وهكذا سقط مبدأ فصل السلطات الذي اخذته اميركا عن مونتسيكيو ومنظري القرن الثامن عشر بفعل تطور الشروط والظروف الاجتماعية الاقتصادية في القرن العشرين !

ثالثا : أميركا المعروضة في التحليل المالكي هي حضارة وقيم وتقدم ورعاية أبوية للشعوب والامبريالية الاميركية تعبير ومفهوم محرمان عند الدكتور مالك .

من يطالع بتدقيق دور أميركا في العالم كما يعرضه الدكتور مالك يتماثل أمامه دور المهندس الاعظم لخير الانسان في كل مكان ودور الرعاية الابوية للشعوب : وكأنما اميركا هي في العلاقات الدولية تؤدي حسب تحليل الدكتور مالك ضمنا ، دور المهندس الاعظم عز جلاله وتعالت قدرته في رعاية الكون والانسان والقيم في كل مكان .

١ ــ أميـركـا والعالـــم العـــربي

فبصدد مصر يقول الدكتور مالك : « وفي رايي ان اهم نتيجة تمخضت عنها حرب تشرين هي المصالحة بين مصر واميركا واعادة الثقة المتبادلة والتعاون بين البلدين » والدكتور مالك يبارك ذلك لانه يعتبر هذه العلاقة تقوية لمصر « وكل ما شانه تقوية مصر واسعادها يعود بالخير العميم على البلدان العربية الاخرى ، وعلينا في لبنان على وجه التخصيص » . طبعا عندما كان اسعاد مصر وتقويتها في الخمسينات والستينات في التعاون مع الاتحاد السوفياتي والتسلح منه وبناء السد العالي لم يكن يعود ذلك « بالخير العميم على البلدان العربية والاخرى وعلينا في لبنان على وجه التخصيص » . ذلك ان مفتاح السعادة وسرها وأكسيرها محصورة كلها بيد اميركا فالمقياس ليس سعادة مصر بل من يسعدها !

ويقول الدكتور مالك : « بالطبع اميركا تساعد مصر بشتى ضروب المساعدات الاقتصادية والمالية والفنية والمعيشية ، وحتى الدفاعية . (كما تفعل مثلا في مساعداتها الدفاعية مع السعودية والاردن) في حال عزوف الاتحاد السوفياتي عن مدها بما تحتاج اليه من اسلحة » تفعل ذلك « لاسباب عدة ، منها حاجة مصر الملحة الى هذه المساعدات ، واَهميتها الاستراتيجية والمكانة القيادية التي تحتلها في العالم العربي ، والحؤول دون احتكار الاتحاد السوفياتي لها ، والامل في ان لدى مصر من الحنكة والليونة والاعتدال مايمكنها من قيادة العالم العربي ، بالتعاون مع الولايات المتحدة بالطبع ، الى حل سلمي مرض للجميع للقضية الفلسطينية » . هل ذكر الدكتور مالك سببا ماديا واحدا وراء حوافز المساعدات الاميركية لمصر ؟ لقد نسي توسعات الراسمال الاميركي عبر عشرات الشركات في سوق من اكبر الاسواق الاستهلاكية في المشرق العربي كان محروما منه هذا الراسمال طوال عشرين عاما وعاد اليه بقوة اليوم وبتوافر يد عاملة رخيصة تمكن الراسمالية الاميركية من جني ارباح طائلة في عمليات انتاجها مما يعود بفوائد مادية كبرى على ميزان المدفوعات الاميركي . اما « الحل السلمي المرضي للجميع » فمقطور حسب تعبير الدكتور مالك نفسه في فقرة اخرى من مقاله الى هذه القاعدة الذهبية: « فكل اتفاق او تفاهم مع اية دولة عربية ، وكل مساعدة ، وكل مساعدة لها ، من اي نوع كانت ... تاخذ دائما في الاعتبار امن اسرائيل وسلامتها ومناعتها » الذي في حال تهددها « لا يمكن ان تقف اميركا مكتوفة الايدي ، سياسيا وديبلوماسيا واقتصاديا ودفاعيا ، وحتى في الحالة القصوى في امر التدخل العسكري غير المباشر . » فالسلام هو سلام

تدجين العالم العربي ضمن مصلحة الامن الاسرائيلي الاميركي الامبريالي .

واميركا التي تعمل « لاسعاد مصر » حسب تعبير الدكتور مالك تحتل السعودية في سياستها مركزا خاصا والى ماذايعود هذا المركز الخاص طالما ان الدكتور مالك قال في مطلع مقاله ان الشؤون الاقتصادية ثانوية ، انن يجب البدء بالمعنويات فيقول : « يعود هذا المركز الخاص ، اولا وقبل كل شيء الى الصداقة التقليدية بين كبار الاميركيين وآل سعود بدءاً بعبد العزيز العظيم واستكمالا بالملك فيصل واخوته الذين حافظوا باخلاص على حرارة هذه الصداقة خلال ثلاثين سنة في وجه امتحانات لا تحصى » . (١)

نسال الدكتور مالك الم يحافظ الماريشال شان تشاي شيك على « الصداقة التقليدية » مع اميركا « خلال ثلاثين سنة في وجه امتحانات لا تحصى » حتى اذا قضت مصلحة المصالحة مع العملاق الصيني رفعت اميركا يديها وغسلتهما بيلاطسيا من « دم هذا الصديق » ؟ ولو ان تيوان تزخر « بالبترول السعودي وبالاستثمارات البترولية الضخمة » التي جعلها الدكتور مالك اسبابا ثانوية بعد الصداقة التقليدية التي جاءت « اولا وقبل كل شيء » هل كانت اميركا تخلت عن تشان كي تشيك بهذه السهولة ؟ ان المستر سايمون وزير الخزانة الاميركي عندما جاء يتسول بلايين الدولارات من السعودية لشراء سندات الخزانة الاميركية دعما للدولار لم يكن يفكر بالقيم التقليدية التي يتداول الدكتور مالك بنقدها النادر في محاولة اقناع العقل العربي بان علاقة اميركا بالعرب هي علاقة الفروسية والنخوة والشيم ومكارم الاخلاق . ولا كان سادة البيت الابيض ورجال الاقتصاد اليهود المتغلغلين في الراسمالية الاميركية يهجسون بهذه القيم عندما ضغطوا بكل قوتهم لخفض اسعار النفط العربي لمصلحة ميزان المدفوعات الاميركي وكادوا في مزادات الكويت وابو ظبي ينجحون ثم خططوا للمزاد السعودي الذي لم يبصر النور بفضل تضامن منظمة اوبيك ضد المؤامرة الاميركية الاقتصادية الامبريالية التي تصدر التضخم النقدي الى العالم وتريد ان تبتاع سلعه بابخس الاثمان .

ويتابع الدكتور مالك فيقول: « تعتبر اميركا استقرار الاردن دعامة من دعائم الاستقرار في الشرق الاوسط . ذلك لان تركيب الشرق كله يتغير اذا حصل انهيار او تغيير اساسي في الأردن » . اي استقرار واي تركيب يتغير اذا حصل انهيار او تغيير اساسي في الاردن ؟ ولماذا في المطلقات يا دكتور ؟ ان شمعون يبرز افصح في ايلول وبعد مقال الدكتور مالك ، عن الاستقرار المنشود حين تمنى انتصار الملك حسين على منظمة التحرير الفلسطينية لانه « حينئذ سيكون في وسعنا التفاهم مع الطرف الغالب ، وامل في ان يكون هذا الطرف الملك حسين . وعلينا حينئذ ان نتفاهم معه لكي نصل الى اقرار سلام حقيقي » هذا هو « الاستقرار المنشود » في الشرق الاوسط الذي يمر على قلم الدكتور مالك بصيغة الغائب حين يقول : « وفي نظر الكثيرين ان التوفيق بين الاردن واسرائيل ليس بالامر المستحيل او حتى بالامر العسير » . « واني ارى انه ما دامت السعودية واسرائيل واميركا ، لاسباب مختلفة ، لا ترضى بزوال الاردن فلا بد من اتفاق الفلسطينيين مع الملك حسين في شأن مصيرهم » ولماذا ؟ « خصوصا ان حسين قد فاز على ما يظهر بتأييد فورد له في زيارته الاخيرة لاميركا » المطلق دائما ما تريده اميركا ... واسرائيل ! اما الشعوب وثوراتها فارادتها مشطوبة ...

---

(١)ـ تجلت هذه الصداقة باغتيال الملك فيصل .

٢ ـ ثروات العرب « والقيم » الأميركية

ان العرب في نظر الدكتور مالك ، ملومون، لانهم مقصرون في « النفاذ الى عقل اميركا وقلبها » . واذا كان من مادية تدان فهي مادية العرب باعتمادهم على ثرواتهم الطبيعية لا مادية اميركا في نهب هذه الثروات . يقول الدكتور مالك انه بعد استعادة الكونغرس سلطانه بذهاب نيكسون اصبحت المشكلة «في النفاذ الى قلب الكونغرس وعقله ، وهو الذي يتحسس تحسسا مرهفا جدا ازاء ناخبيه ، وبالتالي النفاذ الى قلب الشعب الاميركي وعقله في شتى مؤسساته » . ويتابع الدكتور مالك بعد تبيانه اهمية هذا التحدي وتعقيده قائلا : « ولا يكفي للاستجابة الى هذا التحدي ان يملك العرب ثروة هارون وقارون ، لان القلوب والعقول لا ينفذ اليها بمجرد وجود مصلحة مشتركة ، ولا بمجرد الثروة ، ولان الثروة لم تنبع من جهد العرب الفكري والصناعي الذاتي المستنبط ، بل جمعوها من حاجة العالم المتصنع الى بترولهم ، فاذا استغنى هذا العالم عن هذه الحاجة ـ وهذا ما هو جاد الان في تحقيقه ـ جفت مصادر ثروتهم » .

يحس من يقرأ فقرات الدكتور مالك حول ثروات العرب البترولية ومسألة النفاذ الى عقل اميركا وقلبها بمادية العرب ازاء روحانية اميركا التي لم نخاطبها بعد بلغة الروح والقيم والعلم والحضارة حسب تقييم الدكتور مالك ، ولكن أهل العار في امتلاك الثروات الطبيعية ام في نهبها ، وقصة شركات النفط مع شعوبنا العربية ـ عفوا نسينا ان الدكتور مالك لا يقيم للاقتصاد وزنا اساسيا ـ هي قصة سلخ جلود البشر وامتصاص دماء الشعوب . حين رفعت الدول المنتجة اسعار نفطها لمواجهة موجة التضخم النقدي المصدرة من اميركا الى العالم ، تضاعفت أرباح الشركات ، ومعظمها اميركية بنسب وصلت بعضها الى ٣٠٠ و٧٠٠ بالمئة في مطلع ١٩٧٤ .

أما القول « ان الثروة لم تنبع من جهد العرب الفكري والصناعي الذاتي المستنبط بل جمعوها من حاجة العالم المتصنّع الى بترولهم » فيقتضي ثلاث ملاحظات :

١ ـ ان تخلف العرب عن « الجهد الذاتي الفكري والصناعي المستنبط » كان الحليف الذي ما انفك عنه الاستعمار الاوروبي أولا والامبريالية الاميركية بعد ذلك . فلولا هذا التخلف لما امتصت شركات الاستعمار دم العرب ونهبت ثرواتهم . وهي هذه « الصداقة التقليدية » التي ربطت بين عواصم الغرب وأشد الحكام رجعية في العالم العربي تثبيتا لتخلف الشعوب وتسهيلا لنهب خيراتها في غفلة من محاسبة الشعوب وحركاتها الثورية المقموعة .

٢ ـ هل كتب على العرب وسائر شعوب العالم النامي ان يبقوا مجرد مصدرين لمواد أولية تحتاجها دول الغرب المصنع ؟ وما قول الدكتور مالك في حركة التصنيع الواسعة التي تقدم عليها البلدان العربية اليست دليلا على أنهم هم أيضا يحاولون ان « لا تجف مصادر ثرواتهم » كما حذر الدكتور مالك « اذا استغنى هذا العالم عن هذه الحاجة » ، بل ما قوله في اصرار اميركا والعالم الصناعي الراسمالي على العرب ان يرفعوا معدل انتاجهم لتلبية حاجاتهم الصناعية الاستهلاكية تقابلها دعوة بعض العرب الى خفض الانتاج حتى لا تجف هذه الثروة وتنضب في زمن التضخم النقدي الذي يتاكل « ثروة هارون وقارون » اذا بقيت دولارات أو جنيهات معرضة للخفض كلما عن للصوص الامبريالية نهب العالم من جديد ، ومع ذلك ، ورغم كل الضجيج في اوساط الاحتكارات العالمية عن امكان الاستغناء عن النفط العربي ، فان برنامج الاكتفاء الذاتي في الطاقة الذي طرحه نيكسون لـ ١٩٨٠ قد أعلن مؤخرا العزوف عنه لعدم واقعيته .

٣ ــ وبين العرب ، لبنان لا يملك نفطا ولكنه على حد تعبير الدكتور مالك في حديثه عن « اميركا ولبنان » « يستضيف » « مؤسسات اميركية اقتصادية وثقافية وانسانية » ويصونها « سماح الطبع اللبناني وانفتاحه » . لعل الدكتور مالك نسي او تناسى هجمة المصارف الاميركية ــ التي لم تراع اصول الضيافة ــ على امتلاك معظم المصارف اللبنانية وتحول ــ كما قال الوزير عساف وزير الصناعة والنفط ــ نحو ٨٠ بالمئة من الودائع من المصارف الوطنية الى المصارف الاجنبية وفي طليعتها المصارف الاميركية ، هل هذا يدخل في اطار الضيافة اللبنانية السمحاء ؟ ولعل الدكتور مالك يذكر ان الجامعة الاميركية وهي المؤسسة الثقافية الاميركية الكبرى شكت في العام الماضي من عجز في موازنتها بينما هرع السفير الاميركي الى تسديد العجز الذي شكت منه شركة التامين الاميركية عند اضراب موظفيها . فأميركا « شركة التأمين » التي تعود بأموال اللبنانيين الى ميزان المدفوعات الاميركي هي التي تعني السفير لا أميركا الجامعة والثقافة . ورغم ذلك يدعونا الدكتور مالك الى الصلات الروحية والعقلية « للنفاذ الى قلب اميركا وعقلها » .

التفاعل الحضاري في ظل مظلة الامبريالية :

يبقى أمر خطير في هذا التفاعل الذي يدعونا اليه الدكتور مالك مع اميركا ويجعله دون حدود فيصل حتى الى ربات المنازل فضلا عن الجيش والعمال والفلاحين والعلماء والادباء والطلاب والفنانين والصناعيين وأساتذة الجامعات ورجال الدين ، هل يقبل بأن يجري مثله وعلى منواله بين هؤلاء جميعا من شعبنا والاتحاد السوفياتي ، وهو القائل في مقاله « ولأن اميركا أحد العملاقين الاكبرين في العالم ــ ولا يجوز لنا إلا أن نكون على علاقة ودية صافية مع كليهما » ويقول الدكتور مالك في حديثه عن الصراعات العالمية في الشرق الاوسط : « ــ غرب الغرب (أعني العالم السوفياتي) ، ذلك لأن الاتحاد السوفياتي جزء لا يتجزأ من الغرب » . وهذه الفكرة مأخوذة من ارنولد توينبي في كتابه « دراسة للتاريخ » ملخص « سمرفيل » الجزء الأول ص ٢٣٩ ــ ٢٤٠ ، و٢٧ ، و٢٦٩ و٣٩٤ ومفادها ان روسيا باعتناقها عقيدة غربية هي الماركسية قد دخلت كجزء لا يتجزأ من هذا الغرب مع دور متميز لها فيه . فمن منطلقات الدكتور مالك نفسه الذي يساوي في الظاهر في علاقتنا الودية مع العملاقين والذين يعتبر الاتحاد السوفياتي جزءا لا يتجزأ من الغرب اتباعا للنظرية التوينبية للحضارات ، نسأله هل يقبل باطلاق التفاعل على المستوى نفسه الذي يقترح مع الولايات المتحدة ، بيننا وبين الاتحاد السوفياتي ؟

قد يقول الدكتور مالك ولكن مثل هذا التفاعل دون حدود بين شعبنا والشعب السوفياتي المعقدن قد يؤدي الى «تشيع» بلادنا . ان هذه الامكانية واردة دوما لا سيما في ظل نظام فاسد يقوم على التحالف الاقطاعي الرسمالي الطائفي كذلك الذي يقوم في لبنان . أما في ظل النظام التقدمي الثوري الذي يكون في مستوى العصر والمرتكز الى ارادة شعبية حرة ، حرة من العوز والفقر والاستغلال والكبت بكل صنوفه المادية والروحية ، فان التفاعل يجري بين انداد لا بين اتباع وأسياد .

ان « أمركة » شعبنا امر نرفضه على كل صعدان الاستعمار الثقافي والاقتصادي والحربي . اننا نرفض الانعزال عن العالم ولكننا نطلب ونعمل في سبيل وعي ذاتيتنا وانتصار حقيقتنا نحن وقيمنا الخاصة ومشاركة مجتمعنا المجتمعات الأخرى مشاركة انسانية متكافئة ، وذلك بعد تحقيق تجربتنا الثورية الخاصة ببلادنا وظروفها القومية الاجتماعية حتى

نتفاعل مع العالم كله بعد ذلك من موقع القوة والثقة بالنفس والمناعة الذاتية فتكون صلتنا به وبشعوبه صلة تفاعل لا انفعال وصلة تبادل خبرات وخيرات لا تبعية ولا انبهار ولا استغلال .

غرباء عن العالم

ويرى ان « النفاذ الناجع الى العقول والقلوب ياتي بالتجانس الفكري والحضاري ولا يبنى بالسحر بين ليلة وضحاها ، بل يستغرق عشرات السنين ، واحيانا يستغرق اجيالا وقرونا ، من التاثير والثقة المتبادلين ، ومن التفاعل والتفاهم والتعاون ، ليس فقط بين افراد معدودين حتى ولو كانوا في ارفع مراكز السلطة بل بين مختلف مؤسسات الشعبين » وهو يدعو على هذا الاساس الى ان « يتفاعل العلماء والادباء والفلاسفة واساتذة الجامعات الطلابية والفنانون الصناعيون والفلاحون والعمال ورجال الدين وربات المنازل ومؤسسات الجيش ومؤسسات الحكومة بعضهم مع بعض بين الشعبين .. على اساس محترم ... والى ان يصبح هكذا يبقى العرب غرباء عن العالم ... » .

ليسمح لنا الدكتور مالك مناقشة هذا الطرح بالبنود الرئيسية التالية :

١ ـ الكونغرس وعقله ووجدانه . اي عقل ووجدان يريدنا ان نكسب الدكتور مالك طالما أكثرية الكونغرس منحازة إلى اسرائيل الى حد اصرارها على الربط بين هجرة اليهود السوفيات واتفاقية الدولة الاكثر رعاية ؟ أم في تصديقها الحماسي لبلايين الدولارات من الاسلحة المتطورة للعدو الصهيوني ابان حرب تشرين وما بعده ؟ ان في الكونغرس صهاينة أكثر من رابين ومائير ، من تخاطب وجدانهم وعقلهم ؟ وما الذي جعلهم صهاينة ؟ أقول لك عوامل عديدة ، اسمح لي تعداد اهمها :

اولا : ما تتمتع به الصهيونية من وجود راسمالي واعلامي ضخم في قلب اميركا جعلها جزءا لا يتجزأ من تركيبة الامبريالية الاميركية .

ثانيا : اصوات اليهود الاميركيين .

ثالثا : اطمئنان الكونغرس والسياسة الاميركية عموما الى ان العرب لن يتحولوا الى فيتنام جديدة ضد اميركا بحيث يحشرونها بين الخيارات الصعبة : اما اسرائيل او الصداقة العربية ، والصيغة التي يبشرنا بها الدكتور مالك هي « امكان التوفيق بين العرب واسرائيل » ... ؟ اذ يقول : « تتحكم في فكر اميركا رؤية صادقة بان يوما سياتي تعيش فيه اسرائيل والعرب في جوار سلمي هنيء متفاعل امين » . وفي سبيل ذلك تحصل اسرائيل على كل الاسلحة والاعتدة والمساعدات الاقتصادية . اما العرب فعليهم حسب وصية الدكتور مالك ان يبذلوا كل الجهود حتى تلك التي لا يملكونها الآن ولو استمرت عقودا وربما قرونا للنفاذ الى عقل وقلب اميركا ، من اجل ماذا ؟ من اجل ان تسمح لهم بالتعايش « السلمي الهنيء المتفاعل الامين » مع اسرائيل ! اليس في ذلك منة لا تقاس بمقياس ولا تحد بحد ، ان يقبل الحمل في ملكوت الذئب الذي افترس ارضه وشعبه ؟

كيف نؤثر على الكونغرس :

يبقى كيف يكون التاثير على الكونغرس : الوصول الى قلبه وعقله ؟ كيف نواجه النفوذ الراسمالي الصهيوني المسيطر على مؤسسات كثيرة ؟ الدكتور مالك يقول الشان الاقتصادي

ثانوي واداة وفرع . مطلوب منا ان نحارب نفوذ الراسمال الصهيوني بالروحانيات ، بالنفاذ الى القلب والعقل، اي قلب واي عقل ، قلب المجتمع الراسمالي الذي لا يفعل فيه الا النفوذ الاقتصادي الاقوى ، وعقل الحاسبات في عصر الالكترونيات !

ان الدكتور مالك يتجاهل العلاقة العضوية بين الامبريالية والصهيونية وكأنما النفوذ الصهيوني في اميركا مصدره النفاذ الى القلب والعقل على صعيد اكاديمي مجرد ! كيف نواجه قوة الناخبين اليهود التي نظمتها الحركة الصهيونية حركة ضاغطة في قلب المجتمع الاميركي ؟ لعل الدكتور مالك يقبض على السر الخطير ، فهو يتحدث في مكان اخر من المقال عند تطرقه لعلاقات « اميركا ولبنان » الى « وجود ما يقرب من المليون اميركي متحدر من اصل لبناني في الولايات المتحدة ساهموا جميعا مساهمة بارزة في شتى حقول النشاط الانساني الاميركي — في العلم والفكر والادب والفن والاقتصاد والسياسة والمهن الحرة ، وفي الدفاع عن اميركا والاستشهاد في سبيلها اثناء الحرب » هؤلاء بشهادة الدكتور مالك قوة عظيمة ويجب ان تكون مؤثرة وهي قوة تنطبق عليها مواصفات الدكتور مالك في النفاذ الى عقل اميركا وقلبها اذ انها اسهمت بشهادته اسهاما بارزا في شتى حقول النشاط الانساني في اميركا « وتفاعلت التفاعل الكامل مع المجتمع الاميركي » الذي يطلب منا جميعا ان نؤديه في العالم العربي حتى ندخل الفردوس الاميركي المنشود . ولكن ما قيمة هذا المليون من الاميركين اللبنانيين في ميزان النضال للمسألة الفلسطينية ؟ صفر كبير يا حضرة الدكتور . رغم ان الدكتور مالك كان سفير لبنان في واشنطن عدة سنوات ، وكان طويل القامة والباع في الامم المتحدة .

وهو في خاتمة مقاله هذا يتحدث عن « كيانية قضية الفلسطينيين » الى حد يستمطر الدموع السخية من الماقي فيقول : « وما لم يشعر الاميركيون والعرب والاسرائيليون بخجل عميق من انفسهم كبشر طالما ان الفلسطينيين معذبون مشردون بائسون يائسون ، فكلنا كذبة وكلنا منافقون » . هل قال هذا القول للمليون اميركي من اصل لبناني . هل جاهد بينهم لتعبئتهم للمسألة الفلسطينية قوة ضاغطة وهو في قلب واشنطن سفير دولة عربية ؟ كانت الجالية اللبنانية تتسابق من الغرب الى الشرق في الولايات المتحدة لاقامة مآدب التكريم للدكتور شارل مالك فهل صرف ادنى جهد لتنويرها بالمسألة الفلسطينية وتعبئتها في سبيل الدفاع عنها ؟ نشك في ذلك كثيرا ، بل نجزم ان العكس هو الحاصل لان النتائج خير برهان واسطع دليل .

ليسمح لنا الدكتور مالك ان نردد بصدده ما قاله هو في مقاله متوجها الى لبنان « اترك جانبا نقدك للغير حول تقصيرهم في سبيلهم ، وانعكف على نقد نفسك حول تقصيرك انت في سبيل نفسك وفي سبيلهم » . وليسمح لنا ايضا ان نقول له وهو الذي ملأ الدنيا في ايار الدامي من العام الماضي تبجحا بما اسهم به في الامم المتحدة في سبيل فلسطين ان نردد ما قاله في نقده للديبلوماسية العربية عموما ، وهو منها ، : « ان يخاطب مسؤول عربي زميلا له في واشنطن ويتفاوض ويتفق معه رسميا حول هذه او تلك من الشؤون المتبادلة ، امر ضروري . ان يقف هذا او ذاك من المسؤولين او المبعوثين العرب في الامم المتحدة في نيويورك ، او في الجامعات والنوادي الاميركية ، او في الاذاعة والتلفزيون الاميركيين ، ويتكلم عن القضية الفلسطينية وعن شكاوى العرب من السياسة الاميركية ، امر ضروري ايضا . لكن اقتصار هذه الاتصالات والمخاطبات على الندب والنحيب والتذمر والانتقاد والشكوى ، وعلى السياسة الامنية ، وعلى ما يسمى « المصالح المشتركة » فحسب ، ليس من شانه على الاطلاق ان ينفذ الى العقل والقلب الاميركيين » .

اتراهـا جاهلـة ؟

ماذا فعل الدكتور مالك اكثر من ذلك في اميركا ؟

ويصدد الكونغرس أيضا ، ويصدد كل المؤسسات الاميركية التي يدعونا الدكتور مالك الى النفاذ الى عقلها وقلبها اتراها تجهل ما تشكل الحركة الصهيونية من وجود مناف لكل القوانين والقواعد الاميركية نفسها ام انها تعرف وتقبل بنحر قوانينها هي بالذات في سبيل مصلحة الصهيونية المسيطرة ؟

لو أن المسألة مسألة نوعية واعلام ، مسألة جهل ومعرفة ، مسألة قلب وعقل لكان كلام الدكتور مالك عظات ولا ابلغ ، وارشادات ولا أحكم ، وتوصيات تقع في محلها وتنزل في مقامها لكن الامر مختلف جدا وادهى ما في الامر ان الدكتور مالك يعرف ذلك اكثر من اي انسان غيره .

ففي ١٩٦٨ وجهت وزارة العدل الاميركية اتهاما للوكالة اليهودية ــ قسم اميركا لخرقها قانون تسجيل العملاء الاجانب الصادر في ١٩٣٨ والذي ينظم نشاطات الوكالات والمؤسسات الاجنبية داخل الولايات المتحدة . وذلك في اعقاب التظاهرة الصهيونية التي استمرت يومين في واشنطن . وبعد ان ثبت ان الوكالة اليهودية نظمت ومولت هذه التظاهرة . وكان تحقيق سابق لمجلس الشيوخ قد أظهر عام ١٩٦٣ صلات منظم التظاهرة « كنين » بالصهيونية العالمية كملاحق لقضاياها . وانتقل الاتهام الى دور الوكالة اليهودية ومهامها في الولايات المتحدة فاتضح ان هذا الدور كان في الظاهر القيام بتبرعات تحت ستار « الغوث اليهودي » وكانت معفاة من الضرائب باعتبارها في الاصل توزع على الفقراء . ولكن المعلومات المتجمعة لدى وزارة العدل اثبتت ان الوكالة اليهودية تقدم هذه الاموال للحكومة الاسرائيلية لتنفقها بدورها على كل شيء الا الفقراء . ولقد استطاعت الوكالة اليهودية ان ترسل لاسرائيل خلال العقدين الاولين من قيامها اي منذ ١٩٤٧ اربع مليارات دولار من التبرعات ، وبعد حرب ١٩٦٧ استمرت مئات ملايين الدولارات بالتدفق الى اسرائيل . وبعد حرب تشرين ١٩٧٣ طاف بنحاس سابير وزير المال الاسرائيلي في الولايات المتحدة فامن مبالغ كبرى من الوكالة اليهودية . وهي اموال اميركية معفاة من الضرائب على أساس انها تنفق على الخير ولكنها تنفق على العدوان . وهكذا طوي الاتهام والتحقيق واستمرت الوكالة اليهودية تنهش الرأسمالية الاميركية بملايينها المرسلة الى دولة العدو .

ثم هناك القانون الاستثنائي الخاص الذي اتاح للاميركيين الاحتفاظ بجنسيتين : اسرائيلية وأميركية والمحاربة في جيش العدو الاسرائيلي دون خسارة جنسيتهم الاميركية ، وهو تشريع ينقض روح الدستور الاميركي وكل قوانين الهجرة الاميركية لمصلحة اسرائيل .

هذا الكونغرس اين عقله واين قلبه ، واميركا التي فقدت عقلها وقلبها بالمس الاسرائيلي هل يجري حوارها السلمي الهادىء الذي يدعونا اليه الدكتور مالك حتى يشعرنا بتقصيرنا الفاضح في الحوار حيث ان « وضع الندى في موضع السيف مضر كوضع السيف في موضع الندى ! » .

قطـــاع محـصـور

ولعله من المفيد ان نذكر الدكتور مالك أنه عندما يتحدث عن « الصداقة التقليدية بين اميركا ولبنان » ويعزوها أول ما يعزوها الى « مثل ونظم متجانسة في الحياة السياسية طابعها

الحرية والانسان » ، انما يتكلم عن قطاع محصور من اللبنانيين يتمتعون بمستوى من المعيشة لائق او يعيشون الحرية في الترف الفكري الجامعي .

لعل لبنان هذا الذي يدور في خلده هو لبنان رأس بيروت ــ الجامعة الاميركية أو لبنان المتن ــ طريق بكفيا ــ الرابية ، ولكنه حتما ليس لبنان الجنوب حيث لكل مئة ألف نسمة ٣٨ طبيبا و١٦ ممرضة ومركزان للهاتف تفيد منهما ٤٨ قرية (« النهار » في ٤ ــ ١١ ــ ١٩٧٣) وحيث ثلث الأراضي فقط مزروعة وحيث استغلال الريجي والاقطاع يسحق الفلاح والمزارع الذي يواجه نارين : نار العدو الاسرائيلي ونار الاستغلال الداخلي وكلاهما يتآمر على تهجيره من أرضه ، وهو حتما لا يتكلم عن البقاع حيث بلغت موجة النقمة العارمة على هذه « المثل والنظم المتجانسة في الحياة السياسية » التي « طابعها الانسان والحرية » حد الانفجار المسلح والتظاهرات المعادية للحكم التي ضمت عشرات الوف المواطنين في هذا الربيع بالذات ، وهو دون ريب لا يتكلم عن عكار حيث يحكم الاقطاع المسلح لا برقاب العباد فحسب بل بأرواحهم التي تجري تصفيتها بجرائم لا تقل عن جرائم استعباد الفلاح واستغلال الأرض وخيراتها ، وهو بكل تأكيد يتكلم عن الحمرا والاشرفية واحياء بيروت القليلة المترفة ولا يتكلم عما يسميه رفيقنا حضرة رئيس الحزب الدكتور عبد الله سعاده « بزنار الفقر » المحيط بقصور بيروت والممتد من برج حمود والكرنتينا الى الشياح والشامل معظم ضواحي بيروت وبعض احيائها الفقيرة والذي يضم مئات ألوف المنبوذين المقتلعين من قراهم والباحثين عن لقمة العيش وسط موجة الغلاء والاحتكار في المدينة . انه لا يتكلم عن « المليون منبوذ » الذي كتب سعيد تقي الدين آخر وأروع مسرحياته عنهم . الم تشهد زحفهم على شارع الحمرا يوم العيد وقد تحضرت الدولة بدوريات مكثفة من الشرطة لقمع تحركهم وهم يدوسون شوارع أفخم احياء بيروت المترفة ببطونهم الجائعة وعيونهم الحائرة قبل أن يدوسوها باقدامهم شبه الحافية ؟ والدكتور مالك حتما لا يتكلم عن الطلاب تضربهم أقفية البنادق والسياط في شوارع مدن لبنان لأنهم يطالبون بجامعة وطنية في المستوى العصري ويرفضون ارستقراطية العلم بالاقساط الغالية في المعاهد الخاصة والاجنبية . وهو دونما ريب لا يتكلم عن شهداء معامل غندور وغيرهم من العمال الرافضين بقاء التحكم الرأسمالي بحقوق العامل البديهية في المادة ٥٠ والقانون ٣٤ ، وهو بكل تأكيد ، لا يتحدث عن حكم اقطاب الاقطاع ودكاكين الطائفية واستمرار وزراء ١٩٤٣ في وزارات ١٩٧٤ ! وغير ذلك كثير !

وثنيات السبت ضد الانسان

لبنان القيم والنظم الحديثة هو خيال في ذهن الدكتور مالك وليس الواقع المؤلم المتجسد الذي لا يناضل فقط الثوار العقائديون التقدميون لتبديله بل حتى بعض رجال الدين المتحررين من وثنية الحرف ومصالح الطبقة المسيطرة الحاكمة القائمة على التحالف الاقطاعي ــ الرأسمالي ــ الطائفي والمناضلين في سبيل سعادة الانسان وحريته .

وهل نسينا صيحة المطران غريغوار حداد : « ان الواقع الذي يرزح تحته الانسان فردا وجماعات ومجتمعات في لبنان وفي البلاد العربية الأخرى ، هو واقع التخلف والظلم والاستغلال والعبودية على أنواعها ، والوعي لهذا الواقع ، والرفض له ، والتجمع لأجل محاربته والوصول الى التنمية والعدالة والحرية للجميع » . « ان هذا معناه ان في المجتمع من يريدون التغيير ، وهم عادة الاكثرية .. الصامتة غالب الاحيان .. ومن لا يريد التغيير ، لأن ذلك قد يضر بمصلحتهم أو امتيازاتهم » .

وعندما يتحدث الدكتور مالك عن « الحرية والانسان » في المطلق والتعميم لا يلامس الحقيقة التي يتحدث عنها المطران حداد حين ترتفع صيحته في وجوب « خدمة الانسان ، كل انسان وكل الانسان » وانه اذا كانت حتى الكنيسة « في بنيانها وقوانينها وأنظمتها وطقوسها ... لا تخدم الانسان ، كل انسان ، وكل الانسان فالمطلوب هو التغيير في هذا السبيل ، مهما تكن لذلك من نتائج على الذين يمنعون هذا التغيير » . فالحقيقة المحورية هي الانسان . والمسيح اصلا جاء من أجل الانسان ، وكانت أحب القابه « ابن الانسان » والسبت عنده كان للانسان لا العكس . ولكن الوثنية الدينية كالوثنية السياسية والوثنية الاقتصادية تفصل بين المطلق وبين الانسان ، وترفع المطلق على حساب الانسان مع أن الوصيتين متلازمتان بحيث أنه دون محبة القريب ودون الفعل من أجل « اخوتي هؤلاء الصغار » لا يمكن محبة الله . الوثنية الدينية والسياسية والاقتصادية ارادت من المطلقات المسلوخة عن الانسان وخيره وسعادته وتقدمه وعدالته ان تكون الحاجز للتقدم والمعرقل للعدل الاجتماعي الاقتصادي والعازل للقيم عن الانسان . الوثنية الفلسفية السياسية تتحدث كما يفعل الدكتور مالك عن « الحرية والانسان » في المطلق بينما واقع الانسان « في لبنان والبلاد العربية الاخرى » كما يقول المطران حداد هو « واقع التخلف والظلم والاستغلال والعبودية على انواعها » والوثنية الاقتصادية تتحدث عن « النظام الحر » الذي يرزح تحته اكثر الشعب معانيا البؤس والضياع والفقر وعدم الاستقرار والانحدار في سلم مستوى المعيشة يوما بعد يوم مدفوعا بعصا الغلاء والاحتكار الغليظة الى القاع .

و « الوثنية السياسية » تتحدث عن الديمقراطية لتعني أوليغارشية حكم الاقطاع و الـ ٤ بالمئة وتحالف العائلات المالكة سعيدا في لبنان وقمع باقي الشعب .

و « الوثنية الدينية » تتحدث عن الله مسلوخا عن الانسان عكس ما قصد الدين الصحيح ، ليصبح الايمان به عز جلاله ، مشروطا بالتنازل عن النضال في سبيل التغيير والتقدم مرهونا لاستقرار الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لمصلحة الطبقة الحاكمة . الوثنية بكل اشكالها ليست في سبيل الانسان والحرية كقيمتين اجتماعيتين منفصلتين عن المجتمع والحياة وضد المجتمع والحياة .

ولقد كان اعظم ما حقق سعاده في المدرسة القومية الاجتماعية تشديده على هذه الحقيقة وادراكه ان جوهر الدين الصحيح وكل رسالة اجتماعية هو الانسان وخيره وسعادته وسموه .

هذا عن الوثنيات الفلسفية والسياسية والاقتصادية والدينية داخل المجتمعات اما على الصعيد العالمي فالامبريالية تبتزنا بدفاعها عن «العالم الحر » الذي من ضمنه المستعمرات والبلاد المنهوبة الخاضعة لنفوذ الامبريالية وسلطانها السياسي والاقتصادي . وعندما يتحدث الدكتور مالك عن دور اميركا في العالم يتحدث عنه بكل شفافية وكأنها تحتضن العالم برعاية ابوية ولا احسن . فبصدد « العالم الثالث اخشى ان اميركا ستشد حزامها بحيث لا تقدر على مساعدة هذا العالم بنسبة حاجته الى المساعدة » . وايضا : « ومن علاقة اميركا الحميمة واثرها البارز في كندا وفي كل بلدان اميركا اللاتينية حيث الجاليات اللبنانية » .

اما عن العلاقة بين اوروبا واميركا « فالمشكلة هنا ان سوء تفاهم حصل بين اوروبا والوزير كيسنجر وان القادة الاوروبيين المحنكين لا يرتاحون اليه واحداث قبرص الاخيرة لم تساعد على تقريبه من البعض منهم » . والدكتور مالك لا يعرف « بوجود اي تصادم او تعارض اساسي بين مصالح اميركا ومصالح الصين الجوهرية » ولكن « ثمة مجالات للاصطدام في

اوروبا والشرق الاوسط » والاسلحة النووية مع الاتحاد السوفياتي . واميركا متساهلة من ضمن رعايتها للكون ، « اذ تقر اميركا بوجود مصالح دفاعية مشروعة للاتحاد السوفياتي في الشرق الأوسط ، نظرا الى متاخمة هذه المنطقة للعالم السوفياتي ، ولذلك تقبل بعدم اقامة اية قاعدة عسكرية في العالم العربي وفي اسرائيل من شأنها ان تهدد امن الاتحاد السوفياتي . لكنها لا تفسر هذه العناية السوفياتية المشروعة بالشرق الاوسط بانها تبرر اما سيطرة السوفيات على الشرق الاوسط ، او المداخلة في شؤونه الداخلية ، اوتشييعه ، اوتهديد مصالح اميركا المشروعة فيه ، او ابعاد اميركا عنه » .

واميركا « لا يمكن ان تقبل بان تسيطر قوة من خارج الشرق الاوسط على الشرق الاوسط ، وذلك لاسباب استراتيجية واقتصادية وسياسية » . واميركا في كل ذلك تتصرف من موقع قيمي عال . اليست سياستها « تجاه لبنان السياسة الودية ، المتفهمة ، المقدرة ، المؤيدة ، المؤمنة باستقلال لبنان وحريته وبقيمته الانسانية و معانيه » .

اليس مسعاها في سبيل الحل السلمي مبعثه قيم انسانية عالية كما يصورها لنا الدكتور مالك فهي « تعمل في سبيل ذلك اليوم ـ تصبح فيه اسرائيل جزءا عضويا من حياة الشرق الاوسط متفاعلة متعاملة مع الاجزاء الاخرى كلها بشكل طبيعي سلمي ، في شتى حقول التفاعل والتعامل » فتسهم « في انمائه الاقتصادي » و « تتعاون معه في عطاء حضاري جديد لهذه البقعة المقدسة الغالية من العالم » . فيتم السلام « الكامل » او « التام » الذي نص عليه خطاب الرئيس فورد امام الكونغرس . ويأتي اليوم الذي « تعيش فيه اسرائيل والعرب في جوار سلمي هنيء متفاعل امين » . اليست مقاصد اميركا من هذا السلم كما يصورها الدكتور مالك مقاصد سامية اذ تزود العالم العربي بطاقة اسرائيل على « انمائه الاقتصادي » وعلى « عطاء حضاري جديد لهذه البقعة المقدسة الغالية من العالم » ويقوم « جوار سلمي هنيء متفاعل امين » ؟

ولنأخذ هذه النقاط بندا بندا :

أميركا والعالم الثالث : المساعدات الاميركية لهذا العالم اسطورة كبرى . فقسم كبيرمنها اسلحة لاسرائيل والانظمة العميلة لها في سايغون وجنوبي شرقي آسيا وبعض الانظمة العربية الموالية للامبريالية الاميركية .

مجاعات العالم والترف الاميركي :

اما على الصعيد الاقتصادي فيكفي ان نعلم حسبما تقول مصادر اميركية ان ميزان المدفوعات الاميركي يرتكز بالدرجة الاولى على ارباح بيع موسم الحبوب الاميركي في العالم والذي تقدر بـ ٨ مليار دولار سنويا ، وان اكثر من نصف هذه الارباح تجنى من الدول الاسيوية . ويكفي ان نعلم بالمقابل ان المجاعات تجتاح آسيا وافريقيا وان في رأس اسبابها حاجة الارض الى الاسمدة والمبيدات التي يتعذر الحصول على كميات منها بسبب ارتفاع اسعارها الجنوني بينما يحصل على معظم كمياتها المزارع الاميركي الذي يخزن حبوبه حتى تعلو اسعارها ولو زادت المجاعات ليجني اقصى اسعار السوق وفق قانون العرض والطلب الرأسمالي الذي يتحول الى مقصلة الشعوب الفقيرة في القارات النامية (راجع اعداد « الاكونومست » في نيسان و « الفايننشل تايمز » في اب و « اليواس نيوز » في نيسان وايار ١٩٧٤) .

ويكفي ان نعلم انه وسط المجاعات في افريقيا واسيا ترتفع صيحة بالاعتراض المحقة (راجع خطاب الرئيس بومدين في دورة الامم المتحدة للتنمية الاقتصادية في ٩ نيسان) ضد ما تستهلكه الحيوانات الاليفة من مواد غذائية في الولايات المتحدة والتي يبلغ عددها ٣٥٠ مليون قطة وكلب (حسب احصاءات « التايم » و «النيوزويك») ، والتي بالامكان اعالة عشرات ملايين الجياع في العالم لو حول نصف ما تستهلكه الى آسيا وافريقيا .

علاقة أميركا « الحميمة » واثرها البارز في اميركا اللاتينية : يشعر اللبنانيـون عند قراءة هذه الفقرة من مقال الدكتور مالك ان رعاية اميركا الابوية تحيط بهم حيث تتواجد جالياتهم في اميركا اللاتينية . فما هي طبيعة هذه العلاقة الاميركية الحميمة باميركا اللاتينية ؟ يقول وليام كولبي مدير وكالة المخابرات المركزية (سي اي اي) في تصريح له امام لجنة من الكونغرس في جلسة سرية في نيسان الماضي كشف النقاب عنها بعد استقالة نيكسون ، ان حكومة نيكسون سمحت بانفاق نحو ١٠ ملايين دولار على اوجه نشاط وكالة المخابرات المركزية في تشيلي في الفترة من عام ١٩٧٠ الى ١٩٧٣ ضد حكومة الرئيس الليندي المنتخب من الشعب التشيلي لاسقاطه .

وقد نشرت هذا النبأ صحيفتا « نيويورك تايمز » و « الواشنطن بوست » في ١٨ ايلول الجاري واكده الرئيس فورد فيما بعد .

يقول تحقيق اجرته لجنة دولية ضمت رجال قانون من اسوج وعدد من الدول المحايدة ان الطغمة العسكرية الموالية لاميركا التي اطاحت بالرئيس الليندي قد قتلت في معسكرات الاعتقال او في الشارع ٣٠ الف مواطن تشيلي ، وهذه الحكومة العسكرية الفاشية عندما اقامت ذكرى استلامها السلطة قبل ايام قاطع عدد من السفراء احتفالها من بينهم حتى سفير بريطانيا الدولة الاستعمارية المعروفة ، عدا الدول الاشتراكية ودول العالم الثالث بينما حضر السفير الاميركي راعي الحكم الجديد .

وهذه العلاقة الاميركية الحميمة هي علاقة شركة التلفون والتلغراف (اي تي تي) الرهيبة في استغلالها وجرائم قمعها وشركة احتكار السكر الكوبي التي اطاح بسلطاتها الرئيس فيدل كاسترو وثورته الظافرة في كوبا وهي علاقة الهيمنة الاقتصادية والاستراتيجية التي تمارسها الولايات المتحدة ضد شعوب اميركا اللاتينية الى حد انه لم يكن لدى اكثر هذه الحكومات الا الشكوى من هذه « العلاقة الحميمة » وطلب استبدالها بعلاقة اكثر انسانية وعدلا عند لقائها بالمسؤولين الا ميركيين الذين زاروهم من روجرز الى كيسنجر او عند زيارتهم هم الى البيت الابيض .

لقد ازدادت هذه العلاقة « حميمية » الى حد الشكوى والتذمر عند المسؤولين الرسميين والثورة والكفاح المسلح عند الشعوب وحركاتها التقدمية الرافضة .

وعلى صعيد العالم الثالث اجمالا : الصورة الزاهية في كلام الدكتور مالك عن علاقة تقوم على المساعدات واعتذار عن تناقصها بسبب شد الحزام هذه السنة . ولكن هذه ليست الصورة الموضوعية لعلاقة اميركا بالعالم الثالث . الصورة الواقعية تمتد من التشيلي الى فيتنام وكمبوديا مرورا بقبرص واليونان والعصيان الكردي في العراق والقمع البربري لثورة ظفار وتطويق اليمن الديمقراطية .

ان اميركا ــ ام الحريات والديمقراطيات ــ تساند الحكم العسكري في كل مكان ضد

حريات الشعوب وحقها في تقرير المصير . اليست من المفارقات المذهلة ان اميركا وقفت مع العسكر ضد الحكم الديمقراطي المنتخب من الشعب في التشيلي واليونان ؟ اليس من الحقائق التي ترد انه لولا اميركا لما استمر حكم ثيو القمعي في فيتنام وهو الذي يعارضه ويرفضه البوذيون والكاثوليك قبل الشيوعيين ؟ أليس من الحقائق الثابتة ان الحكم العميل في كمبوديا مرفوض من اكثرية الشعب الساحقة وان أميركا خاضت حربا خفية خدعت فيها اجهزتها العسكرية الكونغرس نفسه ؟ والدولة الديمقراطية راعية الحريات وسعادة الشعوب الا تهرب السلاح الثقيل لحركة العصيان الكردية فتثير الحروب الاهلية لشق الكيان العراقي وضد الحكم العراقي التقدمي الذي امم شركات النفط فأضر بمصالح الامبريالية الاميركية التي اخذت تصدر احدث مدفعية اميركية (١٢٢ ملم) الى حركة البرزاني العنصرية الانفصالية (عدد « الحوادث » ٦ ايلول ١٩٧٤) . الا يقاتل جيشان من « الجيوش الحليفة » لاميركا هما الجيش الايراني والاردني ضد ثورة شعبية في جبال ظفار في الجزيرة العربية دعما لسلطان عمان ؟

ألم تدعم اميركا تسلط العسكر في قبرص حتى قال شعب قبرص رأيه الدامي في سياسة اميركا على أبواب سفارتها في نيقوسيا ؟

هذه الصورة الواقعية لتحركات الامبريالية الاميركية وضحاياها كيف يمكن طمسها او اغفال جانب واحد من جوانبها دون الاساءة الى الحقيقة ، كل الحقيقة ؟

اميركا والاتحاد السوفياتي والصين

يحدثنا الدكتور مالك عن كرم اميركا وسعادتها اذ تعترف للاتحاد السوفياتي بمصالح دفاعية مشروعة عند حدوده الجنوبية في الشرق الاوسط . ولكن الغريب ان هذه المصالح يترجمها الدكتور مالك « بعدم اقامة اية قاعدة عسكرية في العالم العربي واسرائيل من شأنها ان تهدد امن الاتحاد السوفياتي » ، وسلفا نقول ليس من حاجة لاقامة قواعد في اسرائيل طالما انها كلها ترسانة حربية اميركية . ولكن لماذا حصر عدم اقامة القواعد بهذه المنطقة مع انها ليست محاذية للاتحاد السوفياتي ولا هي كل الشرق الاوسط اذ هناك ايران وتركيا واليونان وقبرص ؟ اليس في اليونان قواعد اطلسية واميركية موجهة ضد الاتحاد السوفياتي ، اليس في تركيا كذلك ؟ او ليس في قبرص قاعدة بريطانية وكانت اميركا تطمح لو استتب لانقلاباتها الامر ان تقيم كاراجا نوويا لغواصاتها ؟ ولم هذا التسلح الواسع لايران الذي يجعلها في مستوى احدث الجيوش واضخمها عتادا ؟ ضد العرب ام ضد السوفيات . هذا التسليح الوفير ، ام ضد كليهما ؟

ويقول الدكتور مالك : « ولكنها (اي اميركا) لا تفسر هذه العناية السوفياتية المشروعة بالشرق الاوسط بانها تبرر اما سيطرة السوفيات على الشرق الاوسط ، او المداخلة في شؤونه الداخلية ، او تشييعه ، او تهديد مصالح اميركا المشروعة فيه ، او ابعاد اميركا عنه » ، ثم ما هي القوة من خارج الشرق الاوسط التي لا تقبل اميركا بسيطرتها على الشرق الاوسط ، كما يقول الدكتور مالك ؟

— أوليست أميركا قوة من خارج الشرق الأوسط ؟ فلماذا نقبل بسيطرتها ؟ أوليس نفوذها الاقتصادي والاستراتيجي يهيمن على عدد من الدول العربية ؟ وهل اسرائيل ، الهجرة الاستيطانية الاستعمارية المصدرة من خارج الشرق الاوسط والمدعومة بالقوة الحربية والاقتصادية الاميركية ، قوة من خارج الشرق الاو سط ام من داخله في معيار السياسة

الاميركية التي تريد فرض هذا السرطان على جسد شعبنا وأرضنا؟.

اوليس دعم اميركا للملك حسين ضد منظمة التحرير الفلسطينية وضد ارادة الشعب في ضفتي الاردن تدخلا في شؤوننا القومية والداخلية ؟ وهل افلات ايران على الخليج العربي قوة عسكرية غازية مبرر ومقبول بينما ثورة شعبية على ارض ظفار تعتبر تشييعا وتدخلا سوفياتيا وسيطرة على المنطقة؟ وهل نظام اليمن الديمقراطية التقدمي الذي انبثق من ثورة قومية ضد الاستعمار البريطاني وثورة اجتماعية ضد الاقطاع والتخلف يدان على اساس تفكيره الاقتصادي الاجتماعي بينما مساندة السلاطين والشيوخ والملوك الدائرين في فلك اميركا يعتبر دفاعا عن « العالم الحر » ؟!

التناقضات الاوروبية ـ الاميركية ابعد من « سوء تفاهم مع كيسنجر »

ابهذه البساطة يصور الدكتور مالك التناقضات الاوروبية الاميركية المعاصرة على انها مجرد « سوء تفاهم مع كيسنجر » ؟ الم يقرأ مقالات « الفاينشل تايمز » المطولة عن « امبريالية الدولار » يوم اهتزت عملات اوروبا من فيض سوق اليورو دولار وعدم خضوعها للرقابة الاوروبية ويوم اسفرت اجتماعات لجنة العشرة ولجنة العشرين التابعة لصندوق النقد الدولي عن هيمنة اميركية على حياة اوروبا المالية والاقتصادية وكان يومها يمثل اميركا المستر شولتز وزير المال الاميركي لا المستر كيسنجر وزير الخارجية ؟ الم يتابع الدكتور مالك مفاوضات دورة طوكيو للتجارة العالمية واصطدام اوروبا بالولايات المتحدة حول التعرفات الجمركية التي تريد واشنطن رفعها في اوروبا لمصلحة صادراتها من المواد الزراعية والغذائية التي اذا ما اغرقت اسواق اوروبا تصدعت حياة الريف الاوروبي وانهارت طبقة المزارعين والفلاحين في كل اوروبا ؟

الم يتابع الحوار الطويل المضني على الصيغة الاطلسية بين تشدد اميركا في ربط المسائل الاقتصادية بالمسائل الدفاعية كانما اتخذت من مظلتها النووية في اوروبا اداة ترهيب وترغيب لاخضاع القارة الاوروبية لمصالحها الاقتصادية والتجارية متوعدة بسحب مظلتها النووية من المانيا اذا لم ترضخ اوروبا لتلك المصالح ؟ وهل ننسى نقمة اميركا على اوروبا بلسان رئيس الولايات المتحدة ووزير خارجيته يوم شرعت في حوارها مع العرب بعد حرب تشرين ؟ كل ذلك يتجاهله الدكتور مالك ، تبقى نقطة واحدة . مرجعنا فيها الدكتور مالك نفسه وقرائتنا عليها حرب تشرين .

يقول الدكتور مالك انه « امر ثابت ايا كان رجل البيت الابيض » ضمان سلامة اسرائيل بل ورفض اضعافها « حتى في الحالة القصوى في امر التدخل العسكري غير المباشر » .

وهذا اذن ، يتخطى باعتراف الدكتور مالك « سوء التفاهم » مع كيسنجر او غيره ! وهذا فعلا ما حصل في حرب تشرين بل تجاوز « التدخل العسكري غير المباشر » الى الاستنفار النووي الاميركي وكادت تقع مواجهة عالمية من اجل اسرائيل . يومها احتجت الدول الاوروبية لان « الحليفة » الاميركية لم تستشر زميلاتها في الحلف الاطلسي في وقت كان موقف اوروبا المعتمدة اكثر على النفط العربي آخذاً بالتمايز عن انحياز اميركا المسلح لاسرائيل . هذا التناقض ، كما هو واضح ابعد بكثير من « سوء تفاهم مع كيسنجر » كما حاول الدكتور مالك تبسيط الامور . ولقد كان هو شاهدنا على خطأ تعبيره ان لم يكن على خطأ تقديره .

ضد الامبريالية وليس ضد الشعب الاميركي

بعد هذا العرض لمختلف الجوانب التي طرحها الدكتور مالك لهيمنة اميركا العالمية والتي اعتبرها نفوذاً وعلاقات حميمة ومصالح ، ورعاية للشعوب ، ونعتبرها الامبريالية الاميركية المحاولة بسط سلطانها الاقتصادي والحربي والاستراتيجي حتى على حلفائها في اوروبا فكيف باعدائها في كل مكان ، نجد ان نحدد موقفنا الواضح الصريح : فنحن كثوريين ضد الامبريالية الاميركية من منطلق قومي وعلى اساس مطامعها العدوانية ضد الشعوب وضد شعبنا بالذات وعلى اساس تحالفها العضوي مع الصهيونية العالمية والكيان الاسرائيلي العدو . نحن ضد وجودها في مختلف وجوهه ضد استعمارها الاقتصادي واستراتجيتها الحربية وضد استعمارها الثقافي ، ولكننا كثوريين ، وكقوميين اجتماعيين على وجه التحديد ، لسنا ضد الشعب الاميركي العظيم ولا ضد اي شعب حر في العالم . ونحن ندعو الى التفاعل مع هذا الشعب وكل الشعوب ، ولكن من ضمن منطق ثورتنا القومية وليس على اساس ثقافة الاستعمار ومسلمات الصهيونية والامبريالية التي نرفضها . نحن لسنا شوفينيين بل نؤمن بالتفاعل الانساني . ونحن نجد ان الثورة يجب ان تتوجه الى قطاعات واسعة من الشعب الاميركي ، الى طلابه الرافضين الامبريالية ، الى مثقفيه الاحرار ، الى اقلياته المضغوطة وفي طليعتهم الزنوج ، الى عماله الذين اخذ النظام الاحتكاري يخرجهم من مصانعهم تحت ضغط تناقضاته الاخيرة . الى هؤلاء جميعا يجب ان يتوجه اعلام الثورة ولن يكون توجهه نزهة لان المؤسسة الامبريالية بكل تفرعاتها الاقتصادية والعسكرية والثقافية ستواجه اعلامنا مواجهة شرسة ولكن لن يصعد اعلامنا الا فعلنا ، الا تصاعد الكفاح المسلح في فلسطين الا نضالنا ضد المصالح الامبريالية في كل مكان . هكذا استطاعت ثورة فيتنام ان تؤلب شباب اميركا الرافض معها .

الدعوة الى الاندماج باسرائيل

حتى لا نكتفي بالاجتهاد مهما تدعم بالقرائن سبيلا للاثبات نورد النصوص الواضحة التي تؤكد من كلام الدكتور مالك انه يحلم باندماج اسرائيل في المنطقة اندماجا عضويا فعالا ، فهو يقول في خاتمة مقاله مدليا برأيه الشخصي وتحت الفقرة الختامية بعنوان : « الجسر الارضي العظيم » ... « ان المصير الحقيقي هو مصير هذه الشعوب الخمسة . الحقيقة الاخيرة هي ان السوريين واللبنانيين الاردنيين والفلسطينيين والاسرائيليين متروكون في نهاية النهايات لانفسهم فقط كي يتخبطوا ويتفاعلوا في ما بينهم من اجل تقرير مصيرهم ومصير هذا الجسر » . وفي الاخير مهما انصبت عليهم في رأي الدكتور مالك من اهتمامات خارجية « لكن المصير مصيرهم وليس مصير غيرهم ، وهم وحدهم في النهاية المعنيون ، انه اغرب واعظم جسر ارضي في العالم ، من حيث مركزه وعراقته واهميته ومغزاه ومعناه وعطاؤه والمصير . كيف توجد وتتعايش وتتفاعل وتتعامل شعوب هذا الجسر بعضها مع بعض ؟ اي نظم تؤلف بعضها مع بعض ؟ في التطورات المقبلة ، كيف يحافظ على اكبركم وكيف يضحي بادناكم من القيم ؟ أين الانسان والحرية والعقل والحق في هذه التطورات ؟ اين المحبة ؟ برغم المرارات والمآسي والآلام التي نشهد ونعاني ، هل نحن قادمون في النهاية ، وراء هذه المآسي والالام وبعدها ومن خلالها . **على اعظم ازدهار وعطاء حضاري** عرفه هذا الجسر في التاريخ ، كل هذا هو عينه ما يتمخض عنه القدر الان » .

قد قرر الدكتور مالك في هذا العرض لتقييمه الشخصي اولا ان مصير « السوريين

واللبنانيين والاردنيين والفلسطينيين » مرتبط عضويا وكليا « بمصير الاسرائيليين » لا لجهة حرب التحرير القومية بل باعتبار هذه « الشعوب الخمسة » « هم وحدهم في النهاية المعنيون » وطرح لا انتصار شعبنا بشامه ولبنانه واردنه وفلسطينه على العدو الاسرائيلي بل كيف « توجد وتتعايش وتتفاعل وتتعامل شعوب هذا الجسر بعضها مع بعض » وهل « وراء المآسي والالام وبها ومن خلالها » « نحن قادمون على اعظم ازدهار وعطاء حضاري عرفه هذا الجسر في التاريخ »كل ذلك مشدودا الى سؤال « اين المحبة ... برغم المرارات والمآسي والالام التي نشهد ونعاني ... »

وكان قد قدم لذلك بفقرة « الصراعات العشر » التي جعل فيها صراع « اسرائيل والعرب » وصراع « الاسرائيليين والفلسطينيين » احدى الصراعات العشر التي منها « المفارقات والخلافات المحلية الاقليمية بين الدول العربية وفي كل واحدة منها » بحيث يطمس التناقض الاساسي بين شعبنا وعالمه العربي ضد العدو الصهيوني الامبريالي ليصبح احدى صراعات المنطقة والتي من بينها حسب تصنيف الدكتور مالك : « الانقفال على النفس والانفتاح على العالم . ثمة فارق اساسي كبير بين المنقفلين المتزمتين الخائفين المتكفئين، والمفتشين الواثقين الفرحين المنفتحين على الخير والحق والنور » .

والدكتور مالك بانفتاحه على « دمج اسرائيل بمحيطها ، تواجدها وتعايشها وتفاعلها وتعاملها معه بشكل طبيعي » هو من « الواثقين الفرحين المنفتحين على الخير والحق النور » ! وكان رأي الدكتور مالك في الاندماج الاسرائيلي هو رأي قديم وسابق لمقاله الاخير . ولقد قلنا في مقدمة هذا البحث انه عندما يكتب الدكتور مالك في السياسة الدولية فعلينا تلمس الضوء الاخضر الاتي من بعيد . من عبر البحار .

فقبل اربع سنوات في عدد تموز ١٩٦٩ من مجلة « القضايا المعاصرة » بعنوان (« شارل مالك عن قضايا الشرق والغرب . حوار خاص « بالقضايا المعاصرة ») .

يقول الدكتور مالك حول الموضوع نفسه : « فتوصلنا الى تسوية عادلة تأخذ بعين الاعتبار حقوق العرب بكاملها ، وتعطي للعرب واليهود في آن واحد طمأنينة واملا ورجاء » قيل هذا الكلام . في ١٩٦٩ ولم يكن يقال بالتفصيل والاسهاب اللذين بات يقال فيهما الان بعد قبول الانظمة العربية بالحل السلمي ورغبتها في انعقاد محادثات جنيف . وطبعا ان هذا التعايش كما هو واضح للمستقبل . « فانا اتطلع الى مستقبل زاهر ، منتج ، مفرح مخير في الشرق الادنى . ولا مثيل له في كل تاريخه » . انها العبارات نفسها التي يسبقها نعوتا اطرائية على السياسة الاميركية الرامية الى دمج اسرائيل في المنطقة لتسهم في « الانماء الاقتصادي » و « العطاء الحضاري » ، طبعا الكلام « للقضايا المعاصرة » من كلام الدكتور مالك هو على اساس بقاء الكيان الاسرائيلي وتوقف الحروب ضده اذ يقول في الحديث نفسه : « والعقل البشري لا يستطيع ان يتصور حربا دائمة الى الابد . الحرب عاجلا ام آجلا ، تنتهي اما بالقضاء على هذه الجهة او تلك او باجراء تسوية . انا لا أرى الان كيف سيقضي العرب على اسرائيل ، او كيف ستقضي اسرائيل على العرب ، لا اليوم ولا غير اليوم » ويتابع : « لذلك انا افترض يوما ما حصول ما يسمى بتسوية عادلة . ومن ضمن هذه التسوية يجب ان يحصل تطور اساسي ، واشدد على كلمة اساسي ، في التفكير العربي بالنسبة لذاته ولقوانينه ولعقليته ولروحيته ، ثم بالنسبة الى علاقته مع اسرائيل . كذلك حصول تطور اساسي في اسرائيل والحركة

الصهيونية بالنسبة الى ذاتها والى روحها والى سياستها مع ذاتها اولا ، ثم مع العالم العربي . انا اتطلع الى حصول هذا ... » .

فما يعرضه الدكتور مالك على انه السياسة الاميركية بالنسبة لاندماج اسرائيل في المنطقة هو ما ردده قبل سنوات خمس على انه رأيه الشخصي . والواقع انه يصعب الفصل بين رأي الدكتور مالك الشخصي والسياسة الاميركية لانهما ، كما يبدو من استعراض هذه النصوص ، اقنومان في جسد واحد !

والدكتور مالك الذي يتفجع بوجدان دام على « كيانية قضية الفلسطينيين » وكيف « اقتلعوا من تربتهم وشردوا وعذبوا وحكموا بحد السيف » الى حد انه يقول « امام كبتهم مرارتهم وثورتهم اشعر اني انا مسببها » « فمجرد وجودهم في حالهم المشردة يتحدى انسانيتي انا ويتحدى انسانية كل انسان » يساوي بين هؤلاء الذين « اقتلعوا من تربتهم وشردوا » وبين الذين اقتلعوهم من تربتهم وشردوهم في « الحق » عندما يقول في الفقرة نفسها عن الفلسطينيين « لهم كرامتهم وحقهم في الحياة الحرة الكريمة ، كأي لبناني واي سوري واي اردني واي مصري واي عربي ... » و « وأي اسرائيلي واي انسان اخر » . نفهم ان يكون الفلسطيني متساويا مع اي سوري او عربي ولكن لا نفهم كيف يساويه في « الحياة الحرة الكريمة » « باي اسرائيلي » !

بل ماذا ابقى عمليا في جعبته الدكتور مالك للذين « اقتلعوا وشردوا » ـ عدا تفجعه العاطفي ـ عندما يقول : « غير اني ارى انه ما دامت السعودية واسرائيل واميركا ، لاسباب مختلفة، لا ترضى بزوال الاردن، فلا بد من اتفاق الفلسطينيين مع الملك حسين في شأن مصيرهم ، خصوصا ان حسين قد فاز ، على ما يظهر ، بتاييد فورد له في زيارته الاخيرة لاميركا » .

فاذا طرحنا العواطف جانبا وقد هدرت كالسيل في بيان الدكتور مالك عند تعبيره عن مشاعره الفياضة بالنسبة للفلسطينيين ، وجئنا الى رايه وتحليله بشان مصير فلسطين نجد هذا المصير عنده منقسما بين اسرائيل والنظام الاردني هكذا يصح قوله : « وما لم يشعر الاميركيون والعرب والاسرائيليون بخجل من انفسهم كبشر طالما ان الفلسطينيين معذبون مشردون بائسون يائسون ، فكلنا كذبة وكلنا منافقون » .

ولعل ابلغ دليل على « كيانية قضية الفلسطينيين » و « لبنانية قضية الفلسطينيين » بحيث يخاطب لبنان قائلا « اتدري يا لبنان ان مصيرك ارتبط نهائيا بمصير الفلسطينيين ؟ لا انت تستطيع بعد ولا هم يستطيعون حل هذا الارتباط » ، لعل ابلغ دليل على مقدار ايمان الدكتور مالك بهذا الارتباط المصيري بين لبنان ومصير الفلسطينيين قوله في فقرة سابقة حول « اميركا ولبنان » ان « العلاقة الودية عبر السنين بين الشعبين وبين مختلف الحكام والممثلين الاميركيين واللبنانيين عاشت في اجواء صافية » « من عدم عبور اية غيمة عكرت في الاعماق هذه العلاقة ، مع اختلاف مهم في ظروف عدة بين سياسة البلدين في ما يمس فلسطين وغيرها من القضايا العربية » . اي ان الاختلاف حول ما يمس فلسطين وغيرها من القضايا العربية لم يبلغ بين لبنان المرتبط ـ حسب كلام الدكتور مالك نفسه ـ مصيريا بفلسطين، « حد عبور اية غيمة عكرت في الاعماق صفو هذه العلاقة » مع اميركا حامية اسرائيل وداعمة عدوانها على فلسطين وبيئتها القومية وعالمها العربي !

ان الدكتور مالك في كل هذا يجيب على الدكتور مالك . والاستشهاد بنصوص منه لتبيان مصداقية نصوصه الاخرى كان واجب الدراسة الموضوعية .

باستطاعتنا الان ان نقيم ما يريد الدكتور مالك المعبر عن السياسة الاميركية :

اولا . ان لبنان مع الفلسطينيين ، شرط ان يتفاهموا مع الملك حسين واسرائيل ويقبلوا باندماجهم في الكيان الاردني على جزء من فلسطين ويقبلوا من جهة ثانية لا ببقاء اسرائيل فحسب بل بالتفاعل والتعامل معها دولة ذات سيادة وذات رسالة في المنطقة هي « الانماء الاقتصادي » و « العطاء الحضاري » في « جوار سلمي هنيء متفاعل امين » . ولكن لبنان ، حسب بيان السفارة الاميركية في بيروت في ١٩٧٠ لن يكون مع الفلسطينيين في حرب التحرير لانه عندها يعرض سلامته للخطر ويكون الفدائيون مسؤولين عن هذا الخطر لا اسرائيل التي شردت شعبنا في الجنوب. واميركا كما يقول الدكتور مالك « غير مستعدة بقبول اضعاف اسرائيل او تهديد وجودها » ، « ايا كانت اسباب هذا التهديد والاضعاف » . وحتى تبقى العلاقات بين لبنان واميركا جيدة دون «عبور اية غيمة تعكر في الاعماق صفو هذه العلاقة » مفروض ان يتمايز موقف لبنان عن موقف اميركا على الصعيد الاعلامي والعاطفي ولكن دون السماح بحصول تناقض اساسي يمس هذه الاستراتيجية « الثابته ايا كان سيد البيت الابيض » .

ثانيا : ان على العرب مهمتين دونهما لا أمل لهما بشيء : ان يندمجوا بأميركا مجتمعا واقتصادا وعلما وفنا حتى يستطيعوا « النفاذ الى عقل أميركا وقلبها » وان تندمج بهم اسرائيل فلا « تعزل بشكل مصطنع عن محيطها » بل يجري « دمجها وتعايشها وتفاعلها وتعاملها معه بشكل طبيعي وهضمه لها» ، ويعني هذا استسلام العرب للامبريالية الاميركية في اسواقهم واقتصادهم وتقنيتهم وثقافتهم وسلاحهم وحياتهم بكل وجوهها . كما يعني رفع كل الحواجز من وجه اسرائيل فتسقط القطيعة العربية الاقتصادية والثقافية فضلا عن السلم العسكري . وتصبح السلع الاسرائيلية وتجار الاراضي والعقارات الاسرائيليون وسماسرة الشركات الاسرائيلية احرارا في التبختر على ساحة البرج أو في قلب القاهرة أو أمام مسجد أمية وساحة المرجة تماما كما يفعلون برجس اغتصابهم في الارض المحتلة . هذا معنى « التفاعل السلمي الهنيء الهادىء الامين والاندماج الكلي » في المنطقة والانماء الاقتصادي الذي يدعو له الدكتور مالك ، وتدعو له السياسة الاميركية .

ثالثا · من بين كل العرب يسمي الدكتور مالك شعوب سورية الطبيعية على أنها المدعوة أولا وقبل كل شيء لأن تشكل « الجسر الأرضي العظيم » ، مع اسرائيل الى التفاعل والتعامل حتى نقدم « في النهاية وراء هذه المآسي والآلام وبعدها ومن خلالها ، على أعظم ازدهار وعطاء حضاري عرفه هذا الجسر في التاريخ » كما يقول الدكتور مالك .

هذه الاهداف الثلاثة يدعو لها الدكتور مالك وتدعو لها السياسة الاميركية . فلنر مخاطرها المصيرية على وجودنا كأمة ولنحدد مصالحنا :

اولا : ان هذه السياسة التي يفاخر بها الدكتور مالك كحل لمشلكة الحروب . وكطريق الازدهار والحضارة للعالم العربي هي حل مخالف لروح العصر ومسرى التاريخ ومطامح الشعوب الحرة فضلا عن تناقضها الاساسي مع حقنا القومي الكامل في فلسطين

ان كلام الدكتور مالك ياتي في الوقت الذي يلفظ الاستيطان الاستعماري انفاسه في افريقيا فتزول المستوطنات من الجزائر على لهب الثورة الجزائرية المظفرة وتنهار حركة

المستوطنين البيض الاستعماريين في الموزامبيق بعد انهيارها في غينيابيساو وهي في طريق التصفية في انغولا . اتنتصر حروب التحرير ضد الاستيطان الاستعماري في افريقيا ليبرر متفلسفونا وكهنة المنطق عندنا لا الابقاء على اخطر هجرة استيطانية استعمارية فحسب على ارضنا المحتلة بل اعطاءها دور « الانماء الاقتصادي » و « العطاء الحضاري » في منطقتنا ؟ انه كلام مخالف لمسيرة الشعوب والتاريخ والعصر . انه منطق روديسيا وجنوبي افريقيا واسرائيل ، اخر قلاع الرجعة الاستعمارية الاستيطانية في وجه مد الشعوب الحرة الثوري .

ثانيا : ان « الانماء الاقتصادي » الذي يتحدث عنه الدكتور مالك يعني الهيمنة الاقتصادية الاسرائيلية المدعومة براسمال عالمي متوسع وتقنية متقدمة وشركات عالمية اخطبوطية على اقتصادنا القومي الخارج من التخلف وئيدا الى التطور والنمو : يعني قتل هذا الاقتصاد ونهب موارده . وان « العطاء الحضاري » والاسهام فيه يعني قبول شعبنا والشعوب العربية بتواجد كيان عنصري ثيوقراطي رجعي يقوم على الفرز العنصري الديني وفكرة « الشعب المختار » نموذجا لفكرة الاوطان الدينية القومية التي يروج لها الاستعمار واسرائيل لتفتيت وحدة شعبنا الى وطن قومي كردي ووطن قومي مسيحي ووطن قومي علوي تكون المبرر الاستعماري لتسلل حصان طروادة ـ العدو كيان اسرائيل العنصري الديني الى داخل وجودنا القومي سرطانا يتآكل الجسد ويفتته .

ان حرب التحرير القومية ضد اسرائيل تعني عدا تحرير الارض والانسان ، وهذا حق مقدس من حقوق تقرير المصير القومي الذي نص عليه ميثاق الامم المتحدة ، تعني عدا ذلك رفض شعبنا رفضا حضاريا متقدما لفكرة الاوطان العنصرية الدينية في تمسكه بوحدة المجتمع القومي على اسس علمانية متحررة تقدمية كما تعني رفض الاستيطان الاستعماري الذي يحل جماعات اتت من اقاصي المعمورة بحد السيف محل الشعب الاصيل صاحب الارض .

ان حرب التحرير القومية ضد اسرائيل هي وحدها المعبر الذي لا طريق سواه الى دورها الحضاري كأمة راقية ضد غزوة عنصرية ابشع من الغزو النازي لاوروبا ، وضد استيطان استعماري ابشع من استيطان الاوروبيين المستعمرين لجنوبي افريقيا او الموزامبيق او الجزائر .

ثالثا : ان الدكتور مالك الغيور على لبنان يقدم لبنان لقمة سائغة الى اسرائيل لو تم هذا الاندماج الاسرائيلي في المنطقة وسقطت القطيعة الاقتصادية للكيان الصهيوني . الا فليسمع الدكتور مالك ما تقوله دراسة اعدها الجيش اللبناني ومؤسسة الدراسات الفلسطينية حول هذا الموضوع في « الفصل الثاني ـ الباب الرابع عن كتاب « القضية الفلسطينية والخطر الصهيوني » والفصل المشار اليه يبين بشكل واضح وموضوعي خطر الصهيونية على لبنان ، وخطر التعايش السلمي مع اسرائيل على انه يكون الاشد فتكا بلبنان . وقد اعادت نشر هذا الفصل « اللجان الوطنية في زغرتا لدعم جنوب لبنان » . تبين هذه الدراسة في فقرة : « اضرار واخطار اسرائيل على اقتصاد لبنان « ان لبنان هو الدولة العربية الوحيدة التي استفادت من القطيعة مع اسرائيل اذ انتقلت تجارة الترانزيت ما بين الغرب من جهة والاردن والعراق من جهة اخرى من الموانىء الفلسطينية وميناء حيفا اساسا الى بيروت كما انتقل تصدير النفط العراقي من حيفا الى طرابلس واستفاد تجار ومزارعو الحمضيات اللبنانية اذ حلت الحمضيات اللبنانية جزئيا محل الحمضيات

الفلسطينية في الاسواق العربية وانه « لولا المقاطعة العربية لاسرائيل لما نمت نشاطات اعادة التصدير والنقل والنشاطات المصرفية والسياحية والتربوية والطبية والفنية التي تشكل العامود الفقري لقطاع الخدمات المهيمن على الاقتصاد اللبناني والتي تصدر الى الاقطار العربية اذ ان المؤسسات الاسرائيلية من شركات نقل ومؤسسات مالية وسياحية وتجارية هي الاكثر تطورا من المؤسسات اللبنانية والمماثلة كما تتمتع بدعم الرأسمال الصهيوني خاصة والغربي » .

« لذلك فمن المؤكد ان المقاطعة العربية لاسرائيل قد سهلت لمختلف قطاعات الاقتصاد اللبناني عملية النمو ولعب دور وسيط بين المنطقة العربية المشرقية والغرب . هذا الدور الذي كانت اسرائيل قد انتزعته منه بكل سهولة لولا المقاطعة » (ص ٢٠ ــ ٢١)

صحيح ان الدكتور مالك لا يحب الاقتصاد ويعتبره شأنا ثانويا ، ولكن اذا سقنا من هذه الدراسة المشتركة بين الجيش اللبناني ومؤسسة الدراسات الفلسطينية حقائق عن « الانماء الاقتصادي » الذي يتوسم ان تؤديه اسرائيل للمنطقة والذي من شانه تقويض اقتصاد لبنان ، وبالتالي تهجير اللبنانيين او خضوعهم للاستعمار الاسرائيلي في حالة استعباد لم يسبق لها مثيل .

اما على صعيد البيئة القومية والعالم العربي فتقول الدراسة المشار اليها اعلاه :

« بالنظر لما تلحقه المقاطعة باقتصادها من خسائر سعت اسرائيل الى فك هذا الحصار او خرقه بشتى الاساليب ، منها فتح طريق بحري من ايلات الى البحر الاحمر وافريقيا واسيا الجنوبية والشرقية كنتيجة لعدوان ١٩٥٦ . والى جانب اهدافها الاستعمارية الاستيطانية فان لها اهدافا استعمارية من النوع الكلاسيكي تعلن عنها كانها مشاريع « للتعاون الاقليمي » او « لعقلنة استغلال موارد المنطقة » او غيرها من المظاهر البراقة « وهي تعتبرها ذات اهمية حيوية بالنسبة لها لتحصل على درجة اعلى من الاستغلال والنمو » .

عجيب كيف ان هذا الوصف للخطط الاسرائيلية الاعلامية في اظهار مخططاتها الاستعمارية على انها « للتعاون الاقليمي » ولعقلنة « استغلال موارد المنطقة » ينطبق على فكرة « الانماء الاقتصادي » و« الازدهار الحضاري » المطروحتين في مقال الدكتور مالك . وتفصل الدراسة مناحي هذا « البرنامج الاستعماري الاقتصادي » كما عبر عنه الاقتصاديان الاسرائيليان ميكايل شفر وشاوول زرجي بالنقاط التالية :

« ١ ــ استيراد اسرائيل لعدد من المواد الخام العربية المتوفرة باسعار رخيصة بالنسبة لاسعار هذه المواد الخام المستوردة حاليا الى اسرائيل او المنتجة فيها

٢ ــ جلب القوى العاملة العربية الرخيصة الى اسرائيل لان كلفة قوة العمل الاسرائيلية مرتفعة بالنسبة لكلفة قوة العمل العربية .

٣ ــ تصدير الرساميل الاسرائيلية الى البلدان العربية لان « انتاج الراسمال » هي اكثر ارتفاعا في الاقطار العربية منها في اسرائيل بسبب سعة الاسواق العربية ورخص قوة العمل والمواد الاولية في اقطارنا .

٤ ــ تصدير السلع الصناعية الاسرائيلية الى البلدان العربية »

وتتابع الدراسة « من الواضح ان هذا البرنامج يهدف الى جعل اسرائيل قطب المنطقة

الاقتصادي وجعل الاقطار العربية مستعمرات لاسرائيل . اذ ان المستعمرات والبلدان المتخلفة اجمالا تزود الدول الصناعية المستعمرة بالمواد الخام الرخيصة وبالقوى العاملة الرخيصة ... والدول الصناعية المستعمرة تصدر الرساميل الى مستعمراتها او الدول المتخلفة الواقعة تحت نفوذها لتستغل فيها الموارد الطبيعية والقوى العاملة والاسواق ... » (ص ٢٢ ــ ٢٣) .

تلكم هي الحقائق في التعايش مع اسرائيل والتعامل معها خدمة للسلم الاسرائيلي الاستعماري ومطامعه ومخططاته اما منطق « الفرح » و« المحبة » و« العطاء الحضاري » و « التفاعل الامين الهنيء » فمسكنات كلامية للمريض وهو يحتضر ، الا وقى الله شعبنا من صناعة الكلام التي تسقط امام صناعة الاقتصاد ، ومن جدليات المنطق المجرد التي تتهاوى امام الحقائق الاجتماعية . ومن تبريرات الخضوع للأمر المقبول التي تعني استسلامنا لعدونا القومي الطامع بارضنا ومواردها والمتآمر على شعبنا وقضية حياته ومصيره وكيانه .

اننا نبشر الدكتور مالك ومن يرى رايه ان الشباب الطليعي في امتنا وعالمنا العربي يرفض هذا المنطق والمصير . وهو لا يرى الا حرب التحرير القومية طريقا للسلام الحقيقي ، سلام الحرية لا استسلام العبودية . انه منطق الاحرار في كل عصر . ولو اصغى واشنطن لمنطق تبرير بقاء « الشراكة » مع بريطانيا في ظل استعمارها واستغلالها شركة الشاي الشهيرة لكانت اميركا ولاية من ولايات التاج بدل ان تكون اكبر امة في العالم اليوم . ولو اصغى ماو لمنطق الافادة من حضارة الاستعمار لكانت الصين تيوان اخرى مكبرة يسهل للضمانات الخارجية ان تتركها كما يترك بالون فارغ كبير في الهواء فاما يسقط او يتفجر. ولكن الصين اليوم بقيادة ثورتها تتبوأ مركز المشاركة في صنع مصير العالم مع القوتين الاعظم . ولو سمع ثوار الجزائر لمنطق البقاء ضمن الشراكة مع ام الحريات وناشرة الحضارات فرنسا لكانوا مستعمرة تلبس رادنكوت الاستقلال الشكلي بدل ان تصبح الجزائر قوة متحركة عربيا وافريقيا تبني احدى اهم قواعد التقدم والنمو الصناعي في جنوبي المتوسط . ولو سمع هذا المنطق وعمل به ثوار فيتنام لكانوا كلهم نظام سايغون العميلَ لا ثورة من امجد ثورات العصر .

حروب التحرير القوميـــــة :

ان مقولة الخمسينات التي كان بارعا في طرحها الدكتور مالك ابان الحرب الباردة بين المعسكرين والتي تقول بتصنيف العالم الى « عالم حر » هو عالم الرأسمالية ومستعمراتها ، وعالم المعسكر الاشتراكي قد سقطت الى الابد . اسقطتها **التجارب العملية وحروب التحرير القومية ومنهامواجهتنا مع اسرائيل ، على مدى ربع قرن وعلى مساحة ثلاث قارات .**

ان حرب التحرير القومية هي الظاهرة المعاصرة المستقطبة للتحرك الثوري في العالم . و « العالم الحر » ليس واحدا بل ينقسم الى الدول الاستعمارية الكبرى وعلى رأسها زعيمة الامبريالية العالمية الولايات المتحدة والى العالم المسحوق الثائر الذي سطا على موارده لص الامبريالية فسرقها وذئبها الشرس فشرد شعوبها او استعبدها بانيابه الحداد الناهشة انسانية الانسان .

ولقد فرضت حروب التحرير القومية كظاهرة ثورية نفسها على العصر والعالم ، فادركت احزاب شيوعية ، كما في فيتنام والصين ان شرط فعلها الثوري هو التأقلم قوميا . وكان ان قادت حروب التحرير القومية في بلدانها بعد خوضها هي نفسها عملية جديدة اندمجت فيها بهذا الواقع الحي الجديد الذي بدل من منطلقاتها واطروحاتها لتلائم هذا الواقع الجديد المركب

ان منطق الدكتور مالك واطروحاته هو وامثاله من الاكاديميين المتفيئين هياكل الاكاديميات الغربية وثقافتها لم يعد يسري ولا يفسر الظاهرات . وهو اعجز من مناقشة حركات الشعوب من زاوية « العالم الحر » الذي هو بالنسبة لها عالم الاستعمار الغربي وحلفائه الاقطاعيين والرأسماليين المسؤولين عن حالة التخلف والظلم الاجتماعي والاستعباد القومي . ان هذه الحركات التي تأقلمت قوميا لم يعد بامكان الدكتور مالك وامثاله من الاكاديميين خوض نقاش تجريدي معها في الماركسية والليبرالية بمقياس الكتب والاطروحات الغربية ، لانها اندمجت في واقع حي جديد ، هو واقع حروب التحرير القومية . ووحده الفكر القومي الثوري الذي يحلل هذه الظاهرات ويعطيها ابعادها هو الذي يرسم البديل للثورة من ضمن ظاهرة حرب التحرير القومية ومصلحة انتصارها . اما كهنة الهيكل القديم المتداعي وثقافاته فمحرومون حتى نعمة هذه الشهادة ومن شرف هذا الانتماء .

ان الصراع بين الصين واميركا كان في الاساس وقبل كل شيء اخر صراعا قوميا ضد تدخل اميركا في شأن صيني داخلي باحتضانها الجزيرة الفالتة ـ تيوان ـ من قبضة البر الصيني وارادة شعبه وثورته وتهديدها سلامة « الامة الصينية العظيمة » كما يصف ماو شعبه وبلاده . ويوم تخلت اميركا عن تيوان وانسحبت من فيتنام حلت اكثر من مشكلة في طريق عودة العلاقات الصينية ـ الاميركية الى طبيعتها . انطلاقا من المطلق المعتم تدوخ في الغيبيات وتمحي التخوم بين العبودية والحرية ، ولكن انطلاقا من الواقع الاجتماعي تتوضح الرؤية : انها حروب الشعوب ضد مستغليها ومستعبديها .

ان ثوار بلادنا يرفضون منطق التبرير للبقاء في « شراكة الاتباع مع الاسياد » وينقضون شراكة العبودية مع المستعمرين صهاينة وامبرياليين في سبيل ارض محررة وانسان حر . وان شعبنا الذي دعوته للمصير المتفاعل المشترك مع اسرائيل يرفض هذه الدعوة لانه يريد مصير العز والكرامة لا مصير الذل ، ويعرف ان وحدته القومية وحدها طريق التحرير في حربه المصيرية ضد الكيان اليهودي الاستيطاني الاستعماري .

وبعد ان استشهد سعادة على رمل بيروت وهاجس فلسطين يملك فؤاده ، وبعد ان هز وجدان اللبنانيين مصرع كمال ناصر وغسان كنفاني ويوسف النجار وكمال عدوان في قلب عاصمتهم برصاص العدو الصهيوني ومصرع مئات اللبنانيين والفلسطينيين الذين امتزجت دماؤهم في الجنوب اللبناني وكل مكان ، وبعد ان هزتهم بطولات الجولان السورية والعربية حتى اعادت الى نفوسهم نشوة ميلسون ، تشع عليهم اليوم قدوة المطران كبوجي المضيئة الذي رفض الفريسية المتباكية من بعيد ، ليعيد الى الصيام حرمته وقدسيته ، وللالام بهاءها في جلجلة الشهادة للحق ، وهو يواجه جلادي المسيح ومغتصبي ارضه وبلاده برفض قومي انوف .

ان قدوة المطران كبوجي هي التي شعت وستشع اكثر على اللبنانيين من قلب القدس مؤكدة ارتباطهم بمصير الفلسطينيين ارتباط المصير لا الشفقة الفريسية على المشردين بل المشاركة الفعلية في تحرير الارض المقدسة من رجس العدو الصهيوني .

ان قدوة المطران كبوجي هي التي ستنتصر لا قدوة الفريسيين والصدوقيين الذين ينفخون في نار الفتنة مليشيات طائفية نموذجا للبنان الغد في القرون الوسطى ونزاعاتها الدينية العنصرية والى ممالك الصليبيين المنقرضة .

ان التاريخ يصنعه المؤمنون ببلادهم حتى الاستشهاد لا المبهورون بعمالقة الاستعمار !

الفصل السابع

المسألة الفلسطينية على المفترق الخطير(١)

تجتاز المسألة الفلسطينية منعطفا خطيرا يكاد يوصلها الى المفترق الخطير . وبعد قمة الوفاق في فلادفستوك وما صدر عنها من دعوة الى التعجيل في عقد مؤتمر جنيف ، بات المطروح اليوم مفاضلة بين امرين كلاهما مر : فمن جهة صيغة اتفاقات فك الارتباط والحلول الثنائية والمفردة ، وهي الصيغة الكيسنجرية لكسب الوقت في معركة البترول لمصلحة الامبريالية . ومن جهة ثانية ، جنيف ، التي لا يعزل عنها احد والتي تقود الى التسوية على حساب حقنا القومي المقدس .

الحل السلمي هو المطروح على الصعيد الدولي ونحن نرفضه وندعو الى تصعيد رفضه بكل الوسائل . فما هي الخلفيات الدولية والقومية والعربية العاملة له ؟ وما هي طريق المجابهة والانقاذ والصمود ؟

اولا ـ مفهوم الحرب والسلم من زاوية نظر الامبريالية :

قال جيرالد فورد في ٢٣ ايلول في خطابه الشهير في ديترويت في مؤتمر الطاقة العالمي ان الحرب تقع نتيجة الصراع على المواد الاولية . ولم ينتبه رئيس الولايات المتحدة الاميركية الى انه بذلك اسقط ورقة التين عن وجه التنين ، فسلم بأن الحرب الامبريالية هي مجرد ظاهرة اقتصادية للسيطرة على موارد الشعوب . وهكذا بجملة واحدة ذهب رئيس الولايات المتحدة بآلاف الاطنان من الورق التي دبجت عليها الامبريالية مبررات حروبها السابقة من فيتنام حتى تشيلي ، موهمة العالم بأنها انما خاضت حروبها دفاعا عن الديمقراطية وعن العالم الحر وعن حريات الشعوب ، فاذا هذا كله يسقط ليؤكد جيرالد فورد بأن الحرب تقع للسيطرة على المواد الاولية .

وفي تقرير لجنة الكونغرس الاميركي في تشرين الماضي ان المسؤول عن التضخم النقدي في العالم الصناعي المتقدم ليس العرب واسعار النفط كما تروج ابواق الامبريالية بل ان هذا المسؤول عن التضخم المالي والنكسات الاقتصادية في العالم الصناعي وحسب تقرير الكونغرس : هي الشركات التجارية الاحتكارية الاميركية الكبرى ، التي بلغت ارباحها من ارتفاع اسعار النفط وغيره بلايين الدولارات . الشركات ضاعفت ارباحها بينما القوة الشرائية عند المواطن الاميركي العادي تتضاءل ، وهذا هو الخلل الاساسي في النظام الامبريالي الرأسمالي . وهذا الوضع تريد ان توظفه الامبريالية ضد شعوب العالم النامي فكلما ازدادت أرباح شركاتها وضعفت القوة الشرائية عند مواطنيها حاولت ان تزيد في نهب مواردنا الاولية وان تحصل عليها بأبخس الاثمان . من هنا شكل ارتفاع اسعار النفط تحديا لمخططها الجشع

---

(١) محاضرة القيت في كلية العلوم ـ الجامعة اللبنانية ٤ ـ ١٢ ـ ١٩٧٤ . ونشرت في سلسلة محاضرات قومية اجتماعية .

فهددت بالحرب في سبيل احتلال منابعه . وان احتلال منابع النفط هي القضية المطروحة اليوم للدرس على مستويات استراتيجية الامبريالية العليا .

الحرب الامبريالية خلعت عنها براقع الدفاع عن العالم الحر المزعوم . ولقد سقطت تلك البراقع من قبل في فيتنام حيث قمع الشعب بقذائف الاميركيين ، وحاولت منعه من حق تقرير المصير . وفي تشيلي حيث اجهضت تجربة ديمقراطية تقدمية ، لمصلحة القمع العسكري الذي اكتشف بأن ملايين دولارات وكالة المخابرات الاميركية المركزية كانت وراءه .

ولكن الامبريالية بترجمتها الحرب كظاهرة صراع على الموارد تسقط عاملا اساسيا خارج الترجمة الاقتصادية . عاملا فرض نفسه على العصر الحديث ، هو عامل فعل الانسان في وجه التكنولوجيا ، عامل انتصار الثورات المتخلفة شعوبها تكنولوجيا العامرة قلوب ابنائها بالايمان بشعبها وقضيته العادلة . من ثورة الجزائر المجيدة الى ثورة فيتنام الى ثورات غينيا ـ بيساو والموزامبيق حيث انتصر الانسان الثائر المسلح بالوعي العقائدي والثوري على تكنولوجيا آلة الصناعة الامبريالية .

وكان سعادة قد اعلن في سنة ١٩٤٩ في نداء الاول من ايار الى المنتجين صناعة وغلالا وفكرا : « ان انعدام الوعي القومي في شعبنا أفقدنا معظم مواردنا الاولية الهامة ، فهناك بترول الموصل ـ منطقة الجزيرة ، وبترول النقب السوري ، وهناك أملاح بحر الميت التي وضع اليهود أيديهم عليها ، وهناك اراضي كيليكيا والاسكندرون وفلسطين الخصبة التي انتزعت من السيادة السورية » .

هكذا قال سعادة ، في وجه الحرب الامبريالية التي تريد نهب موارد الشعوب ، اعلن سعادة مقولة الوعي الثوري المفجرة حرب التحرير القومية ضد السيطرة الامبريالية على الموارد والارض . لم ينف العامل الاقتصادي الموضوعي ولكنه اكمله بالوعي القومي الذاتي من ضمن فلسفة التفاعل الموحد الجامع للقوى الانسانية في منهجه المدرحي المؤمن بتكامل العوامل المادية ـ النفسية والمؤمن بالانسان الثائر في وجه القوة الامبريالية المتعسفة الغاصبة .

ان حرب الشعب في سبيل موارده هي غير حرب الاحتكار الامبريالي في سبيل نهب موارد الشعوب .

ان الامبريالية تدعو الى الحل السلمي في منطقتنا وفي بؤر العالم الثورية ولكنها على الصعيد الكوني تدعو الى الحرب ، فكيف هذا التناقض بين شبح الحرب تتجلبب به الامبريالية وبين الحل السلمي تطرحه في وجه الشعوب الثائرة .

لا تناقض : فالامبريالية تحارب في سبيل السيطرة على موارد الشعوب ، وتريد الحل السلمي لاخماد ثورة الشعوب ضدها ، الحل السلمي هو الافيون المدرخ الذي تطلقه الامبريالية في وجه الشعوب فتستعبدها لالة حربها وطغيانها وتعسفها . انه الاستعمار الذي يريد ان يبقينا في المستنقع ، مستنقع حكم الاقطاع والرأسمال والتخلف مع الاستعباد الخارجي والاغتصاب والعدوان

الحل السلمي في فلسطين ـ يعني ان يتعايش جسمنا القومي مع السرطان الذي يتاكله ، مع الكيان الصهيوني الاستعماري الاستيطاني وتامين هذا الكيان على حدوده وقبوله كامر واقع مفعول . واكثر من ذلك كما اوضح الدكتور شارل مالك في شرحه السياسة

الاميركية وهو العليم بها ، الخبير بخفاياها ، فقال بالحرف الواحد بأن هذه السياسة تدعونا الى القبول « بدمج اسرائيل بمحيطها وتواجدها وتعايشها وتفاعلها وتعاملها معه بشكل طبيعي وهضمه لها كدولة ذات سيادة ومساهمتها في انمائه الاقتصادي وتعاونها معه في عطاء حضاري جديد لهذه البقعة المقدسة الغالية من العالم » .

ومعنى هذا الكلام المزخرف المعسول ان ننفتح اقتصاديا على اسرائيل لنخضع مواردنا واقتصادنا في كل سورية الطبيعية والعالم العربي لاخطبوط السيطرة الرأسمالية الصهيونية وصناعتها وتكنولوجيتها ومصارفها فيكون نهب مواردنا على نطاق اوسع مما هو حاصل اليوم ويصبح شعبنا عمالا بأجور بخسة في آلة الصناعة الصهيونية الامبريالية، فنصبح والحالة هذه مسبيين في بعض ارضنا ونقبل بالتنازل عن بعض ارضنا الآخر لعدونا ليقيم فيها بؤرته السرطانية الممتدة على الجسم كله . ان رفضنا للحل السلمي ليس رفضا للسلام بل رفضا للاغتصاب والعدوان اللذين لا يصلحان اساسا مقبولا للسلام الكريم بين الشعوب الحرة . « ان النهضة القومية الاجتماعية لا ترفض السلام » . « اننا لا نريد الاعتداء على احد ولكننا نأبى ان نكون طعاما لامم اخرى . اننا نريد حقوقنا كاملة ونريد مساواتنا مع المصارعين ، لنشترك في اقامة السلام الذي نرضى به » . (سعادة) « حق الصراع هو حق التقدم » (شروح في العقيدة ص ١٦٢ ــ ١٦٨) .

واسرائيل هي ذراع الامبريالية الضارب الى جانب كونها عميله المباشر فكل تخطيط لاحتلال منابع النفط تدخل اسرائيل في استراتيجيته . بالامس دخلت في استراتيجية غزوة قناة السويس مع الاستعمار البريطاني والفرنسي واليوم هي داخلة في استراتيجية احتلال منابع النفط مع الامبريالية الاميركية .

ثانيا ــ تزاوج الامبريالية والصهيونية :

التزاوج واضح بينهما : من يقرأ كتاب « كيسنجر » للمؤلفين الاميركيين مارفين كالب وبرنارد كالب مرافقي الوزير الاميركي الصحفيين : يقرأ في فصل بعنوان على « شفير الاردن » ص ٢٠٠ ــ ٢١٥ ، كيف كان كيسنجر ينسق مع رابين في مذبحة ايلول ١٩٧٠ وبناء ، كما يقول الكتاب الاميركي بالنص ، لطلب النظام الاردني نفسه لان يضرب الطيران الاسرائيلي المدرعات السورية في اربد مقابل مظلة نووية اميركية تحمي كيان اسرائيل .

وفي حرب تشرين ١٩٧٣ استنفرت اميركا سلاحها النووي والقت بكل اسلحتها وثقلها في الميدان لمصلحة اسرائيل . ومؤخرا عندما اعلن الجنرال براون رئيس الاركان تبرمه من سيطرة اليهود على الكونغرس والمصارف والصحافة في اميركا وقد كادوا يفرغون مستودعات البنتاغون من قطع الغيار والاسلحة الجديدة يدعمون بها جيش اسرائيل ، قامت القيامة وعنّفه رئيسه فورد لان لا فصل بين اميركا واسرائيل . وفي هذا المجال لا بد من اسقاط دعوة تحييد اميركا في هذا الصراع المصيري التي تتجلى باستقبال « العزيز هنري » الذي يحل في رأي بعض الانظمة في « بيته وبين اهله وعشيرته » .

ان المصالح الاميركية تبدأ بالانفصال عن المصالح الصهيونية في حالة وحيدة عند تأميمها اوضربها . قطع النفط العربي الجزئي عن اميركا جعل الجنرال براون يخرج عن صمته ويتكلم . ولو كان القطع مستمرا وكاملا وشاملا ولو كانت في بلدان النفط كلها انظمة وطنية تقدمية ، ولو جرى تأميم المرافق الاميركية والسيطرة عليها في العالم العربي لبدأت اميركا تعي

ان مصالحها تتناقض مع مصالح الصهيونية ، تماما كما بدأت فرنسا تعي ذلك بعد حرب الجزائر وبعد التطورات الاخيرةولومن باب مصالحها الخاصة . ولكن لماذا نطلب من اميركا ان تتناقض مع اسرائيل طالما كلما اغدقت عليها سلاحا متطورا وهبات مالية بمئات ملايين الدولارات ودعما سياسيا لا حدود له كلما تهافتت انظمتنا على اميركا .

بعد حرب تشرين لم تنفتح اسواق عربية على الرأسمال الاميركي فحسب بل ان اميركا رغم ارتفاع اسعار النفط وندبها ونواحها على ما تدفعه من فاتورة النفط المرتفعة ، تحسن ميزانها التجاري من الصادر والوارد مع العالم العربي لصلحتها . ففي عام ١٩٧٣ كما تقول احصاءات وزارة التجارة الاميركية الاخيرة ، كانت اميركا تستورد من العالم العربي ما قيمته (واكثر ما تستورده من النفط) ٥٠٣ ملايين دولار وتصدر اليه ٨١٦ مليون دولار وبلغت صادراتها اليه ١٤٧٥ مليون دولار اي زادت صادراتها الى العالم العربي ٦٠٠ مليون دولار في سنة واحدة وزاد رجحان الميزان لمصلحتها ٥٠٠ مليون دولار .

فكيف ننتظر ، والحالة هذه ، انفكاك الامبريالية الاميركية عن الصهيونية ؟ ولا يمكن ان تغيب عن بالنا اطلاقا التحركات الاخيرة على طرفي البحر الابيض المتوسط فعندما قام الحكم الشعبي التقدمي في البرتغال ولم يعد بامكان اميركا استخدام قواعدها في جزر البرتغال لشحن الاسلحة الى اسرائيل كما فعلت في حرب تشرين ، تحركت الاستراتيجية الاميركية وضربت في قبرص محاولة اقامة الحكم العسكري العميل الذي يحول قبرص الى قاعدة نووية اميركية لمصلحة حزام الامن المحيط باسرائيل . ولا يخفاني ان أذكر في هذا المجال ان الحركة القومية الاجتماعية استشرفت اهمية قبرص في استراتيجيتنا القومية كما في التعاليم القومية الاجتماعية التي اكدت عدم امكان عزل قبرص عن معركة المصير القومي الواحد ومضاعفاتها ، وجاءت الاحداث مصداقا لهذه الرؤية فمنها انطلق غزو السويس في ١٩٥٦ وفيها كان سيجري انزال ايلول ١٩٧٠ ومؤخرا ارادوها حزاما واقيا لاسرائيل .

ثالثا ـ التعايش السلمي والاتحاد السوفياتي :

ان الاتحاد السوفياتي يقف في طليعة جبهة الاصدقاء في تأييده ودعمه لجبهتنا العربية في صراعها ضد اسرائيل والامبريالية . وهذا الموقف بدأ منذ سنة ١٩٥٦ ولا يمكن الا ان نتوجه الى الاتحاد السوفياتي ومنظومة الدول الاشتراكية لدعمها عالمنا العربي بالسلاح والتأييد بكل شكر وثناء .

ولكن الاتحاد السوفياتي يقع في خطأ كبير عندما يسحب مفهومه للتعايش السلمي في العالم والذي جعله في طشقند عام ١٩٦٥ يسعى للتوفيق بين الهند والباكستان كما جعله في سياسة الوفاق الدولي يصل الى الانفراج والتعاون الاقتصادي مع اميركا مجنبا العالم الحرب النووية هاجسه الاكبر ، عندما يسحب هذا المفهوم للتعايش السلمي بين شعوب حرة تتساوى في حق الوجود على حربنا التحريرية في فلسطين ، ذلك لان لا تعايش سلمي بين حق التحرير والاغتصاب .

هل رضي الاتحاد السوفياتي بالتعايش مع الغزو النازي الذي اجتاحه عام ١٩٤٣ ؟ ان اعظم ملاحم التاريخ السوفياتي المعاصر هو زحف الجيش الاحمر على برلين ليدك النازية في قلب عاصمتها ويحرر اوروبا كلها من آلتها العسكرية واستعمارها العرقي والاقتصادي .

والصهيونية اشد هولا من النازية . النازية كانت نظاما عنصريا وامبريالية متوسعة

فاذا انهارت سلمت المانيا الشعب والارض ، أما الصهيونية فسرطان طفيلي أتى بجماعات غريبة عن ارضنا وشعبنا وأقامها على أرضنا بالاحتيال والدعم الاستعماريين في زمن الانتداب والقمع العدواني العسكري فيما بعد مشردا شعبنا مقتلعا انساننا من جذوره وترابه في اقبح غزوة استيطانية استعمارية في العالم . ان استمرار الاتحاد السوفياتي في تأكيد حق كل دول المنطقة في الشرق الاوسط بالبقاء وتأييده لجنيف والحل السلمي يعني انه يساوي بين النازية الصهيونية وحق شعبنا الحر في الوجود . وهو موقف ندرك من جهة ثانية حراجته بالنسبة للاتحاد السوفياتي وندرك ان الملوم الاول فيه انما هي الانظمة العربية المستسلمة التي قبلت بالحل السلمي وتعاملت مع الاتحاد السوفياتي على هذا الاساس . ولكن الاتحاد السوفياتي دولة ثورية ومن حق ثورتنا القومية ان تخاطبه بهذا المقياس والمعيار مصححة الصورة داعية اياه الى تعديل الموقف لمصلحة حق شعبنا الكامل في ارضه كلها .

واذا كانت الهجرة اليهودية الاستيطانية الاستعمارية تشكل خطرا مصيريا وجوديا على شعبنا وارضنا فانها تشكل طعنا اساسيا للاتحاد السوفياتي نفسه ، طعنا في نظامه وفي كيانه الوطني . ان هجرة اليهود السوفيات تقدم المدد البشري للعدو الصهيوني المحتل ولكنها تقدم في الوقت نفسه تحديا خطيرا للكيان السوفياتي لانها لاول مرة تسجل محاولة أمبريالية لتفكيك اقلياته عن كيانه الوطني على اساس الاستجابة لدعوة عنصرية تيوقراطية رجعية بحيث استقطبت الصهيونية عشرات الالوف من المواطنين السوفيات الذين لم يستطع وطن الاشتراكية الاول بعد خمسين عاما من التجربة ان يشفيهم من عقدهم العنصرية فهزهم نفير الصهيونية اكثر مما شدهم ولاء المواطنية للارض السوفياتية او للنظام السوفياتي . وهذا مكسب كبير للامبريالية . **ان مصلحة الاتحاد السوفياتي ومصلحتنا القومية المشتركة في محاربة هذا التاكل في الكيان السوفياتي والحيلولة دون هجرة الهيود السوفيات الى ارضنا ، صيانة لشعبنا وحقه في ارضه وصيانة للكيان الوطني للاتحاد السوفياتي من مؤامرة تفكيكه وتهجير اقلياته .**

رابعا ـ اليسار الاوربي المتصهين :

ان احزاب الدولية الثانية الوسطية التي استطابت التسويات وخرجت عن خط الثورة تستضيف غولدا مئير كلما قامت ازمة في الشرق الاوسط . وهذا ما كررت فعله منذ ايام قليلة عندما وقف المستر هارولد ولسن رئيس حكومة بريطانيا يتباهى في خطابه لعجوز اسرائيل انه رفض القبول بما طلبه اليه الفدائيون الذين اختطفوا الطائرة البريطانية الى تونس من ان يعلن مسؤولية بريطانيا عن جريمة قيام اسرائيل . ولسن الاشتراكي البريطاني لا يعتبر قيام اسرائيل العنصرية التيوقراطية المعتدية جريمة . لا يعتبر تشريد شعب او اخضاعه للارهاب والاستعباد في ارضه جريمة .

اليسار الاوروبي في الدولية الثانية متصهين. حكومات هولندا والدانمرك الاشتراكية الديمقراطية ابان حرب تشرين انحازت في مواقفها الى العدو الصهيوني . ذلك لان هذا اليسار يقتصر في تصوره على نظام الدولة في بلاده ، ولكنه ليس جذريا ضد الامبريالية في كل مكان ، وهو يحبو على حضن الصهيونية المتظهرة بالديمقراطية والاشتراكية والمخفية عنصرية عرقية ثيوقراطية مجرمة. انها ديمقراطية وقف على مجتمع الاسياد دون العبيد والمقتلعين من ارضهم .

الا ان الثورة القومية عندنا مع ادانتها لهذا اليسار الاوروبي المتصهين ، مدعوة الى التخطيط الستراتيجي البعيد المدى لفك هذا اليسار عن بؤرة التصهين[1] وذلك بافهامه ان مصلحته في التغيير الاجتماعي في اوروبا مرتبطة بانهيار النظام الامبريالي الرأسمالي . ان حربنا التحريرية تسهم اسهاما فاصلا في هذا الاتجاه . ان ملايين النفط تصب في خزائن الرأسمالية العالمية اما لان معظم انظمة النفط مرتبطة بالامبريالية العالمية او لان انظمة النفط القليلة التقدمية الوطنية كنظام العراق مثلا ، يجد في الرأسمالية الاوروبية على النمط الديغولي مثلا ، مواقف اقرب الى حقنا القومي من اليسار الاوروبي المتصهين . فالمطلوب هو ان يجذر هذا اليسار الاوروبي تأييده لحقنا القومي . والمطلوب منا نحن ان تتصاعد الثورة لتخليص النفط وكل مواردنا الطبيعية من قبضة الشركات الاحتكارية الاميركية ومن انظمة الاقطاع والتخلف ، وقيام انظمة تقدمية وطنية في ممالك النفط نفسها ، لا ترتبط بالاقتصاد الامبريالي وتهلع عليه فتمده بمليارات الدولارات دعما للخزانة الاميركية او الارصدة السترلينية .

اننا نريد ان يتحول النفط من سلعة تجارية تضايق المستهلك في المجتمعات الغربية الى سلاح استراتيجي مربوط بمعركة حرب التحرير . بهذا نادى سعادة منذ ١٩٤٩ عندما قال « البترول سلاح انترنسيوني لم يستخدم بعد » ، **ان التغيير الاجتماعي في اوروبا مربوط بانتصار ثورتنا القومية ، هذه هي المقولة التي يجب طرحها على اليسار الاوروبي لعزله عن اسرائيل ولنتخذ مما حدث في البرتغال مثلا** ، ان حرب التحرير القومية في مستعمرات البرتغال الافريقية التي لم تساوم على حقها القومي واستمرت ثلاث عشرة سنة في حربها التحريرية لم تحرر شعوبها في افريقيا فقط بل اسقطت النظام الفاشي في البرتغال نفسها فحررت شعب البرتغال ونشرت اليسار في قلب المجتمع البرتغالي . **وان حربنا التحريرية اذا لم تسقط في افخاخ التسوية الدولية واستمرت متصاعدة من شانها ان تفعل ما فعلته ثورات غينيا بيساو والموزانبيق فتسقط الانظمة الرأسمالية في قلب مجتمعات اوروبا لمصلحة هذا اليسار لو وعى العلاقة العضوية بين انتصار حقنا القومي وبين مصلحة التغيير الاجتماعي في قلب المجتمعات الرأسمالية في اوروبا .**

خامسا ـ العالم الثالث :

في اسيا بلدان تجوع : في اسيا ، الهند وبنغلادش والباكستان ، شعوب شبه القارة الهندية على شفير المجاعة . مئات الالوف يموتون كل اسبوع والملايين مهددة بالمجاعة . والامبريالية ، جزار الشعوب ، **هي** المسؤولة الاولى عن هذه المجاعات بالنهب الامبريالي المستمر اكثر من مئة سنة لموارد هذه الشعوب وابقائها في التخلف والفقر والحكم المتخلف وباستمرار مجزرة النهب الامبريالي اليوم . تصوروا أن اميركا تربح ٢٤ مليار دولار من تجارة الحبوب بينما ٧٠٠ مليون انسان في العالم الثالث مهددون بالمجاعة لان رغيف الخبز ينقصهم. تصوروا ان حقول الغولف في اميركا متخمة بالاسمدة الكيميائية وان حقول الهند مفتقرة لهذه الاسمدة لانتاج الارز والحنطة والحبوب . تصوروا ان آرل بوتز وزير الزراعة الاميركي يقول في مؤتمر الغذاء العالمي المنعقد مؤخرا في روما ، « ادفع اولا لتحصل على القمح » . « لا يمكن ان نجرد المزارع الاميركي من حافز الربح » . تصوروا ان بوتز يلوم العالم الثالث على المجاعة لان هذا العالم حسب رأي بوتز انفق على التصنيع وكان عليه ان يكتفي بالانفاق على الزراعة . انها دموع التماسيح تذرف لا حزنا على جياع العالم الثالث وفقرائه بل ليبقى هذا العالم سوقا استهلاكيا لسلع العالم الرأسمالي. هذا هو منطق جزار الامبريالية .

---

[1] منذ ١٩٧٥ بدأ مثل هذا الحوار عبر مؤتمرات اشتراكيي المتوسط ، وتصاعد في فيينا ١٩٧٩ .

مع هذا كله ومع تحميل العالم الامبريالي الرأسمالي ، وعلى رأسه الولايات المتحدة الاميركية ، مسؤولية نهب الشعوب ، ولكن ماذا فعل العرب بملياراتهم النفطية لاغاثة آسيا المعانية آلام المجاعات وهي التي تقف معهم المواقف الثورية ؟ وهل من الحق والانصاف تثمير ٢٥ مليار دولار في العالم الصناعي الرأسمالي المتقدم من عائدات النفط وعدم تخصيص مليار واحد لانقاذ آسيا من نكبتها ؟ .

وافريقيا القارة البطلة التي ضربت بكل تغلغل الاخطبوط الاسرائيلي الاقتصادي فيها عرض البحر وهبت كلها تناصرنا في حرب تشرين ووقفت معنا في الامم المتحدة ، تطلب قبل اشهر من دول النفط ٤٠٠ مليون دولار فتعطيها ٢٠٠ وتساومها على المئتين الاخرى بينما تثمر اربعة الاف مليون دولار نفطية في سندات الخزانة الاميركية ، كرمى لعيني المستر سايمون والاقتصاد الامبريالي عدو الشعوب .

تلك نماذج عن ثروة النفط متى كانت في ايدي من ارتبطوا بنظام الامبريالية العالمية وشبكة مصالحها . انهم يسودون وجوهنا ازاء العالم الثالث وشعوبه المصارعة . ان العالم الثالث محتقر ومهمل من الرأسمالية العربية المتحالفة مع الامبريالية العالمية . ان لقاء الثورات في العالم الثالث وثورتنا القومية منها لا يمكن ان يتم في ظل اوضاع الرأسمالية والاقطاع . وافريقيا ايها الاصدقاء فوق هذا كله ، تقدم لنا النموذج الامثل على حروب التحرير القومية ضد الاستعمار الاستيطاني .

اليس من المفارقة الكبرى انه في عصر احتضار الاستعمار الاستيطاني في افريقيابدءأمن ثورة الجزائر البطلة ، ثورة المليون شهيد التي أطاحت بدولة المستوطنين المستعمرين ، لمصلحة السيادة القومية الكاملة على ارض الجزائر الى ثورات غينيا بيساو والموزامبيق وانغولا التي لم تقبل بأقل من السيادة القومية الكاملة على ارض وطنها واعتبرت المستوطنين ، المستعمرين البرتغاليين اجانب في آخر قراراتها الثورية ، اليس من المفارقات المدمية للقلوب الممزقة للوجدان **ان شعوب افريقيا البطلة وثوراتها التحريرية اعطتنا النموذج الحي على كيفية تصفية الاستعمار الاستيطاني بينما انظمتنا تقبل بالتعايش السلمي مع اعتى نماذجه واكثرها عدوانا وبربرية وهمجية** ؟ الاستيطان الاستعماري الاوروبي في افريقيا اراد استعباد الشعوب في أرضها فرفضته ثوراتها التحريرية والاستيطان الاستعماري الصهيوني يريد اقتلاع الشعب من الارض فنقبل التعايش السلمي معه !

سادساً ـ حربنا التحريرية القومية والمنعطف الخطير :

من عرضنا لكل الجبهات الخارجية نجد ان الموقف الفاصل هو موقفنا نحن كشعب وثورة في تغيير الموازين بل قلبها لمصلحة التحرير وان اخطر ما يواجه حربنا التحريرية هو محاولة انتزاع موافقة ممن يمثلها بالقبول بصيغ التسوية المختلفة . وحتى تتسنى لنا شمولية الرؤية لا بد من العودة الى الجذور .

نحن لو طالعنا تصريح بلفور في ١٩١٧ وقرار مجلس الامن ٢٤٢ في عام ١٩٦٧ ، والفاصل الزمني بينهما نصف قرن ، لوجدنا المعاني نفسها تتكرر : في الاول اعلان الاستعمار للوطن القومي اليهودي ، وفي الثاني بعد خمسين سنة الطلب الينا ان نسلم بوجود هذا الوطن القومي اليهودي . في الاول تحديد لشعبنا سلبي بالنسبة للهجرة اليهودية الاستيطانية بأن هذا الشعب « فئات غير يهودية » وفي الثاني تحديد سلبي ايضا لشعبنا على انه مجموعة من

اللاجئين تنتظر حلا عادلا لمشكلتها . ولكن لماذا تحقق الوعد الاستعماري ولماذا بعد خمسين سنة تتكرر كلمات بلفور في القرار ٢٤٢ ؟

نعود الى شباط ١٩٢٥ عندما دعا سعادة الى قيام خطة نظامية دقيقة في وجه الخطة النظامية الصهيونية التي اذا لم تجابه بخطة قومية معاكسة فان اجراءاتها ستسير الى النجاح .

الوعد الامبريالي الصهيوني ارتكز الى ما سبقه ، الى تجزئة وطننا في اتفاقية سايكس ـ بيكو . التهويد اشترط عزل فلسطين عن بيئتها القومية . والامة رفضت التجزئة ورفضت التهويد عند اعلانهما ولكنها كانت خارجة من دهليز العثمانيين ومستنقعهم تتلمس طريقها كمن يخرج من الظلام فلا يبصر الطريق بوضوح . كانت الامة رازحة تحت حكم الاقطاع والتخلف ، اعلنت ارادتها القومية ولكنها افتقرت الى الخطة النظامية الدقيقة . اعلنت في مؤتمرات دمشق في ١٩١٩ و ١٩٢٠ رفضها التجزئة والتهويد ولكن ميسلون كانت خاتمة العز القومي المفتقر الى الحزب الثوري والى الحركة العقائدية الشعبية المنظمة ، ومع سقوط يوسف العظمة وصحبه الابطال في ميسلون ثبت الاستعمار التجزئة تمهيدا للتهويد .

ولاننا منذ ذلك الحين نسينا ١٩١٦ ونسينا التجزئة التي مزقت وطننا ، عشنا في حبوس التجزئة الكيانية وتناقضاتها . انتصرت مرحلة الهزائم من ١٩١٧ الى ١٩٤٧ الى ١٩٦٧ .

ان جيل العشرينات لم يمثل حركة ثورية ولذلك سقط ولكنه على الاقل اكد رفض التجزئة والتهويد فاستمر رفضه مشعلا نضاليا لشعبنا وان سقطت الايدي التي كان مفروضا ان تحمله . وكان استشهاد ميسلون ثروة معنوية لشعبنا ، نجدد بها الكفاح الذي فات جيل ميسلون تجديده . ولو ان جيل ميسلون ساوم كما يساومون اليوم لكانت انتهت القضية من زمان .

ان ١٩٦٧ تعلن بوضوح ان تأخر انفجار حرب التحرير القومية كان بسبب انتصار اوضاع التجزئة القومية .

ولكن الاخطر في ١٩٦٧ انه بينما رفض جيل العشرينات المصالحة مع الاستعمار والتهويد فان الانظمة قبلت التهويد لجزء من الارض ثمنا لاستعادة بعض الارض .

في ١٩٦٧ قبلت الانظمة ولكن الرفض كان هو الاقوى لانه كان ظاهرة شعبية مسلحة . وانبثقت المقاومة تقول « لا » فتحمل البندقية وتمضي في الكفاح المسلح لتحرير كامل التراب القومي المغتصب فاستقطبت الآمال وتألب حولها الشعب .

المقاومة كانت ظاهرة فذة لانه بسقوط الانظمة تصدت طليعة شعبية مسلحة تؤكد ثلاث حقائق :

- رفض مشاعية القضية ووصاية الانظمة العربية عليها ، وبالتالي ارجاع القضية للشعب المقاتل بالذات .
- تأكيد الكفاح المسلح طريقا للتحرير .
- تأكيد رفض التسوية مع الاغتصاب وخوض القتال حتى التحرير الكامل .

لكن المقاومة من ضمن الوضع العام السائد في المنطقة انبثقت متجلببة بالكيانية ، فاقتصرت على الفلسطينيين دون باقي شعبنا وأكدت خلال اصرارها على الهوية الوطنية ، هوية الفلسطينيين في وجه الاغتصاب والطمس والملاشاة القومية التي شنتها الامبريالية واسرائيل .

وجابهت المقاومة بالممارسة مؤامرات الكيانات عليها من الاردن الى لبنان وتعرضت للتصفية الجسدية مرارا في مذابح ايلول ١٩٧٠ ومحاولات ايار السوداء في لبنان ١٩٧٣ ولم تستطع الحركات الوحدوية القومية ان تحقق التحامها الكامل بالمقاومة فتعطيها من فكرها وامتدادها الشعبي عمقا مجتمعيا وتمارس معها الكفاح القومي المسلح ليتحول المجتمع كله الى خزان ثوري هادر يسقط الاغتصاب ومؤامرة التصفية الامبريالية .

فتأكد للمقاومة ترابط بيئتنا القومية بالسلب اي بالكيانية المتآمرة عليها والانظمة المحيطة بفلسطين والمستميتة في سبيل سلامتها الكيانية التي بلغت حد الخيانة القومية الى قمع المقاومة ومنعها ولم تؤكد للمقاومة وحدة بيئتنا بالايجاب اي بمد الوحدة والنضال القوميين المتصاعدين .

ان التعاطف الشعبي مع المقاومة في لبنان كان اضعف الايمان . في احسن حالاته ، حركة جماهيرية لمنع تصفيتها وليس منطلقا ثوريا قوميا لتصعيدها ، **ان الصيغة التي طرحتها الاحزاب والقوى التقدمية في لبنان لتحديد صلتها بالمقاومة الفلسطينية ، هي صيغة تحالف حركتين منفصلتين ، لكل منهما استراتيجيتها الخاصة** : الحركة الشعبية التقدمية لها نضالها المطلبي شبه المعزول عن النضال القومي ، وحركة المقاومة لها نضالها المسلح الخاص بفئة من شعبنا . **ان هذه الصيغة في رأينا تقصر عن مفهومنا للستراتيجية الثورية المتكاملة التي لا تفصل بين النضال على جبهة النظام الرجعي العميل والنضال القومي المسلح ، بل تكون لها استراتيجيتها القومية الاجتماعية الواحدة المتعددة في اشكال النضال والواحدة في الغاية والاهداف والستراتيجية(١) .**

اما في باقي الكيانات ، وقد عرضنا لمؤامرة النظام الأردني العميل الدامية على المقاومة ، فقد كان منتظرا من الحكم الوحدوي التقدمي في كل من الشام والعراق ان يقيم دولة الوحدة التي وحدها تصون المقاومة بل وتحول دورها من نضال قائم بذاته الى دور الطليعة لحرب تحرير قومية يشترك فيها مجتمعنا كله ، وتعكس عملية سايكس ــ بيكو فيبدأ بلفور ١٩١٧ بالسقوط آخذا معه جيل الهزائم من ١٩٤٧ الى ١٩٦٧ لمصلحة تصاعد الثورة القومية باتجاه التحرير الكامل .

في ظل هذا الوضع المتناقض كيانيا قامت حرب تشرين التي لا نغفل مزاياها العديدة ولكننا ندرك محدوديتها في الوقت نفسه . وكانت النتيجة الصافعة ان ما كان يقال خفرا بعد هزيمة حزيران عن قبول مبادرة روجرز فيلقى الرفض العريض بات يقال خيلاء وتباهيا بعد حرب تشرين على انه الواقعية الموضوعية والسياسة البعيدة النظر من تبني كيسنجر وسياسته الى الانفتاح على الامبريالية الى جعل النضال في سبيل التسوية قمة النضالات .

وكأنما الخروج من وهدة الهزيمة كان جواز سفر الاستسلام بدل ان يكون على طريق التحرير والثورة .

---

(١) كان هذا استشرافا لوحدة الخندق القومي الذي ولد في وجه المؤامرة بعد عام تقريبا في ١٩٧٥ .

والذي حصل على صعيد الانظمة يمكن فهمه وتفسيره على انه نقص في ثورية بعضها وارتباط بعضها الآخر بالامبريالية وسوقها ومصالحها .

ولكن المفترق الخطير الذي بدأ بعد حرب تشرين هو ابعد من سقوط الانظمة في فخ التسوية لان ذلك كان يفتح طريق الثورة ولا يغلقها ، المفترق الخطير هو ان المقاومة واجهت هي نفسها المأزق الذي كنا نفكر انه شاغل الانظمة ومشكلتها ، وانها منزهة عن الخوض فيه : مأزق الثمن لعدم عزلتها عن التسوية .

ان الاجماع العربي الرسمي المنعقد على الاعتراف بشرعية منظمة التحرير كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني في مؤتمر الرباط ، لم يحصل في مناخ الاعداد لحرب التحرير بل في مناخ قبول معظم هذه الانظمة بالحل السلمي . اننا نفهم قيمة المكسب ودور التكتيك في تحقيقه ولكن ما هي ضمانات تنزيهه عما هو محيط به من مناخ عام في المنطقة ؟

ان منظمة التحرير الفلسطينية لا تستطيع التنكر للكفاح المسلح حتى التحرير الكامل وتبقى محافظة على شرعيتها ، ذلك ان منظمة التحرير اصلا اقامتها قبل ١٩٦٧ الانظمة العربية ولكن قيادتها السابقة ـ قيادة احمد الشقيري ـ سقطت عندما شق الكفاح المسلح طريقه من ساح المعركة **الى قيادتها فتاكد مرة والى الابد ان لا منظمة تحرير دون كفاح مسلح .**

ان الانتصارات الديبلوماسية والاعلامية الكبرى التي حققتها منظمة التحرير على صعيد الامم المتحدة بتأكيد وجودنا كشعب له حق تقرير المصير والسيادة على أرضه وليس كمجموعة لاجئين ، مفروض ان توظف لمصلحة الثورة حتى التحرير الكامل . فلا يكون انتصار المقاومة السياسي في الامم المتحدة ما كانت حرب تشرين بالنسبة للانظمة ، جواز سفر الى جنيف ، بل يكون اضفاء الشرعية الدولية على الثورة التي لا تلقي البنادق الا بالتحرير .

ان حرصنا على وحدة المقاومة لا يضاهيه الا حرصنا على التزامها بخط الصمود في وجه الحل السلمي واستمرار الثورة حتى التحرير الكامل .

ان ما يقلقنا هو ما يلوح بالافق من قبول بقرار ١٩٤٧ بديلا عن ١٩٦٧ كأنما المسألة مسألة رقعة الاغتصاب لا مبدئية وجوده وكأنما نسينا ما ينص عليه قرار ١٩٤٧ من اقامة وحدة اقتصادية بين كيان الاغتصاب وباقي فلسطين . وهذا ما تريده الامبريالية والصهيونية فترفع القطيعة الاقتصادية عن العدو حتى يتسنى له برأسماله وتكنولوجيته وشبكة مصارفه العالمية ان يستعبدنا حسب قدرة البوا (Boa) الصهيونية على هضمنا قطعة قطعة ، لا مدى الهلال الخصيب فقط ، بل حتى آخر أطراف العالم العربي .

في هذه المرحلة الخطيرة لا نكتفي بأن نتوجه الى المقاومة بل نتوجه الى القوى القومية الوحدوية في وطننا . ان مهمتها ان تلتحم بالثورة فلا تبقى المقاومة فلسطينية فقط ، بل تكون قومية على صعيد الوطن كله وعربية في جبهة الصمود على مدى العالم العربي كله .

اننا لا نستطيع ان نغفل فعل النفط العربي في معركة فلسطين وثقله في تغيير الموازين الدولية لمصلحة قضيتنا القومية ، ولا فعله الاوسع متى قامت المؤسسات الاقتصادية الصالحة والانظمة الوطنية التقدمية في بلدان النفط العربي في تصعيد حركة الانماء على مدى العالم العربي وتمتين الروابط المادية بين اقطاره . كما اننا لا نستطيع ان ننسى الوف

الشهداء العرب الذين ماتوا في حروب فلسطين سواء المغاربة الاشقاء في الجولان او شهداء الجيش المصري الشقيق في سيناء والسويس اذ ليس اقوى من رابطة الدم والفداء في تمتين العلائق بين الشعوب وبناء المصير المشترك .

وفي زمن يطرح فيه الامن الأوروبي والوحدة الاقتصادية الاوروبية لا يمكن الا ان نعمل من ضمن مفهوم الجبهة العربية وعلائقها النامية لتحقيق الامن العربي والتكامل الاقتصادي العربي .

ولكن ذلك كله يبقى مفتقرا الى حلقة مركزية اساسية اذا فقدت يصيب جسم العالم العربي الشلل في عاموده الفقري ، الا وهي الوحدات الطبيعية لدورات الحياة والعمران الممزقة في العالم العربي . ان وحدتنا القومية في سورية الطبيعية عدا توافر شروطها الموضوعية في الدورة الاجتماعية الاقتصادية الواحدة على وحدة الارض والحياة فان حربنا المصيرية تجعلها ضرورة الضرورات وحتمية الحتميات لان تمزيق سورية الطبيعية كان شرطا لتهويد فلسطين . والمفارقة الكبرى ان هذه الوحدة لم تحظ باهتمام بنيها رغم انها الطريق الوحيد للتحرير كما انها المقيل لعثرات اقتصادنا ونزيف حياتنا في التناقضات الكيانية المستشرية ، بينما تتجه مصر بوعي لم يتراجع في كل المراحل والحقبات الى تحقيق مطلبها القومي الدائم في وحدة وادي النيل فتقيم التكامل الاقتصادي والسياسي والعسكري مع السودان كما ترفع اقطار المغرب العربي الكبير شعار انتمائها اليه في دساتيرها على اختلاف انظمة الحكم فيها وتعلن ايمانها بوحدته .

ان حرب التحرير القومية لا يمكن ان تستظل التناقضات الكيانية ولا انعدام التخطيط على صعيد الجبهة العربية بل هي تطرح صيغا وعلائق في مستوى التحديات المصيرية .

انه صراع المصير الذي لا يجوز ان تهدر فيه دماء الوف شهدائنا الذين ماتوا في سبيل الانسان العزيز السيد على كل الارض ، في استمرار حجزنا في اقفاص الكيانية المتناقضة والحساسيات الجزئية المريضة وبهلوانيات الدبلوماسية الدولية الغرارة . هذا هو دور القوى الوحدوية القومي في هذه المرحلة ومهمتها المركزية ان تناضل في سبيل وحدات قومية طبيعية وفي سبيل جبهة عربية رافضة .

ونتوجه الى القوى التقدمية في بلادنا التي تنظر الى افق عالمي لنقول : أيمكن ان تقبلي لبلادك بأقل مما حققت ثورة فيتنام ؟ ألم تشترط ثورة فيتنام في كل المداولات والابحاث وحدة الوطن الفيتنامي الطبيعي وسيادة شعبه على كامل ترابه القومي ؟ ألم تشترط جلاء جميع القوات الاجنبية ؟ ألم تستمر ثورتها لدك النظام العميل في سايغون حتى بعد جلاء القوات الاميركية عن فيتنام ؟ فلماذا يمكن ان يقبل لشعبنا غير هذا المصير ، لماذا عليه انْ يتعايش سلميا لا مع نظام عميل بل مع اخطبوط استعماري استيطاني امبريالي رهيب ؟ وهل يجوز ان يكون مصيرنا اقل من مصير ثوار غينيا بيساو والموزامبيق في تصفية الهجرة الاستيطانية الاستعمارية وكيانها كله ؟

وهل قبل معلم الهند غاندي بأقل من جلاء الجيوش الاستعمارية عن كامل ارض الهند ؟ وهل قبلت الهند بغير الانتصار الكامل في بنغلادش ، فراهن معها حليفها الاتحاد السوفياتي حتى الانتصار ولم يطلب منها انصاف الحلول والتوقف في نصف الطريق لان ارادة الشعوب الحرة هي التي تملي بنود التحالف المشترك واهدافه .

والى القوى التقدمية في لبنان نقول ، وفي هذه المرحلة بالذات : ان الجنوب المواجه العدو الاسرائيلي وسيطرة الاقطاع والاستغلال هو بؤرة العمل الثوري وهو الذي تتلاقى فيه بشكل نمونجي نضالات شعبنا القومية الاجتماعية ، فليس قمع مزارعي التبغ ، كما اعلنا سابقا مرارا ، مفجرا لنضال مطلبي جزئي محدود لتحسين اوضاعهم ورفع اجورهم بل لنضال قومي اجتماعي شامل ضد مؤامرة السحق المادي الاستغلالي لانساننا المنتج تمهيدا لتهجيره واقتلاعه من ارضه فتخلو الارض للعدو القومي الطامع بالارض والمتآمر مع استعبادنا الداخلي على الانسان في ارضه .

ومثل هذا المخبر الثوري لا يمكن ان يقبل ترف التنافس على مقعد في النبطية بل يفرض جبهة صامدة متماسكة ثورية تقدمية لكل احزاب وقوى التغيير تتوجه الى شعبنا المسحوق من حكم الاقطاع والاستغلال الرأسمالي لتحوله الى مهام المجابهة القومية الاجتماعية الشاملة ضد عدونا القومي وضد الاستعباد الداخلي المتحالف معه في آن واحد .

ان حرب الشعب القومية تؤمن انه لا يمكن للشعب الراسف بقيود الاستغلال ان يحارب . لذلك لا بد من كسر هذه القيود وتحرير الشعب من الاستغلال كجزء لا يتجزأ من حرب التحرير ، تحرير الارض ومواردها من العدو القومي وتحرير الانسان وانتاجه من العدو الداخلي في حكم الاستغلال الفئوي والفردي .

« ان هذه الاقطاعات كثيرا ما يكون عليها مئات والوف الفلاحين يعيشون عيشا مزريا في حالة من الرق يرثى لها ، وليست الحالة التي هم عليها غير انسانية فحسب ، بل هي منافية لسلامة الدولة بابقائها قسما كبيرا من الشعب العامل والمحارب في حالة مستضعفة ، وخيمة العاقبة على سلامة الامة والوطن ، فضلا عن ابقائها قسما كبيرا من ثروة الامة في حوزتها وفي حالة سيئة من الاستعمال . ان الحزب السوري القومي الاجتماعي لا يستطيع السكوت على هذه الحالة » . (سعادة المحاضرات العشر — ص ١٢٤) .

لقد اعلن سعادة الاقطاعيين والرأسماليين اعداء الامة المتحالفين مع الارادات الاجنبية وحمل الاستعباد الداخلي المتخذ الاقطاعية والرأسمالية واسطة وشكلا ، مسؤولية فقدان ارضنا القومية في كيليكيا والاسكندرون وفلسطين ، اي جريمة التآمر على المصير القومي كله ، ورفض سعادة مهادنته او مهادنة الاستعباد الخارجي لان الصراع سيستمر كما قال سعادة الى ان تسحق احدى القوتين الاخرى (سعادة الاول من اذار ١٠٢) .

هذه هي حربنا وهذا هو صراعنا .

المرحلة عصيبة ولكن افاقها اوسع من ان تحد لانها افاق الشعب العظيم الذي ما اذا وعى مصيره واخذ قضية حياته بين يديه صنع التاريخ ، « ان فيكم قوة لو فعلت لغيرت وجه التاريخ » !

لكل سؤال جواب

ما هو رأيكم وموقفكم من السلطة الوطنية ؟

ما هي السلطة الوطنية على جزء من ارض فلسطين ؟ فلنكن صريحين وواقعيين : اذا كانت هذه السلطة تنطلق من حرب تحرير فمرحى بها . اما اذا كانت هذه السلطة ــ ونسميها هذا الكيان الفلسطيني ــ ستكون نتيجة مساومات في مؤتمر جنيف ، فان مؤتمر جنيف مقيد بالقرار رقم ٢٤٢ الذي يفرض التعايش مع اسرائيل وتأمينها على حدود آمنة . فهل نريد اقامة دولة للاجئين في جزء من فلسطين ، ام نواة للثورة في جزء من فلسطين . نحن مع نواة للثورة في جزء من فلسطين . ونرفض كل كيان مقيد بالتعايش مع العدو .

ورب سائل يقول ان ميزان القوى الراهن يجعل ضربا من الخيال طرح موضوع تحرير فلسطين كلها دفعة واحدة . فلهؤلاء نقول اننا نعلم كل ذلك ، وفي حرب التحرير يمكن ان تحرر في مرحلة اولى اقل من الضفة الغربية ، ولكن هذا الذي يحرر على اساس حرب التحرير يكون منطلقا لاستمرار التحرير حتى يشمل كل التراب القومي المغتصب . اما ان يغرنا اتساع رقعة الارض ويعمينا عن منزلق التعايش مع العدو كما تطرح بعض القيادات داعية الى اعتماد قرار ١٩٤٧ على اساس انه يعطينا الجليل ــ واكثر المشردين الفلسطينيين في لبنان هم من الجليل ــ فان الثمن يكون ، حسب قرار ١٩٤٧ التعايش مع اسرائيل وقبول الكيان الاستعماري الاستيطاني . وفي حديث اخير لموشى دايان انه اذا بقيت تل ابيب فقط وفك الحصار الاقتصادي عنها وجرى التعايش السلمي معها ، فهذا يؤمن استقرارها وسيطرتها .

السؤال المفروض طرحه هو حول كيفية الحصول على هذه السلطة الوطنية : عن طريق حرب التحرير او مقيدة بالقرارات الدولية التي تفرض حق جميع دول المنطقة ، بما فيها دولة الاغتصاب الصهيوني ، بالبقاء . هذا هو السؤال .

ونحن نفهم من ناحية اخرى الموقف الحرج الذي تواجهه المقاومة الفلسطينية والذي يواجهه هذا الجزء من شعبنا الغالي على قلب كل قومي ، نحن نعرف كم لاقوا من الاضطهاد ومن التصفيات الجسدية على ايدي الانظمة . ونحن نعرف ان في دويخة الحل السلمي لا بد ان ترتكب مجازر اخرى ، ولا بد ان يهيء انفسهم الرافضون لان يكونوا ضحايا وشهداء اذا استمروا في رفضهم وجسدوا هذا الرفض عمليا . ولكن علينا الاختيار الصعب بين منطقين : اما منطق اللجوء واما منطق الثورة . اذا كنا نخشى على مصير اللاجئين فعندها علينا الا نعزل انفسنا عن التسوية لانهم سيتعرضون ربما لتصفية جسدية . اما اذا كنا نؤمن بمنطق الثورة ، فالثورة لا تضع هذا في الحساب ، وحتى لا يكون الامر مقصورا على الفلسطينيين ، ولاننا نؤمن بقومية حرب التحرير توجهت في كلمتي الى الاحزاب والقوى الوحدوية القومية بان واجبها القومي هو الالتحام مع المقاومة في رفض الحل السلمي والصمود في وجه مؤامراته والممارسة العملية للكفاح المسلح .

نحن لا نقول ان على الفلسطينيين ان يصمدوا وحدهم ، بينما اللبنانيون يتبخترون في شارع الحمراء . نحن نقول بالتحام ابناء كل شعبنا بالثورة . ولذلك قلنا بان من اضعف الايمان تواجد استراتيجيتين واحدة للقوى التقدمية وواحدة للكفاح المسلح . وقلنا بوجوب قيام استراتيجية واحدة تضرب الاقطاع وسيطرة الرأسمال وتواجه مؤامرات الحل السلمي والعدو القومي .

اما موضوع ميزان القوى العالمي فلا يؤخذ بحساب الثورات الا من ناحية مرحلية الثورة وليس من ناحية مرحلية الاستسلام . علينا ان نميز نوعيا بين الحالتين : مرحلية الثورة ، ان اضرب ثم اختفي ثم اضرب حتى الوقت المناسب ولكنني لا اقبل ولا مرة بصك الاستسلام .

وعن الاسئلة التي تتعلق بتقدمية الحزب وموقفه من قيام الجبهة الوطنية التقدمية اجاب :

اعتقد انني لم استشهد بمنطلق غير اقوال سعادة فهل وجدتم في اقوال سعادة منحى يمينيا سواء لجهة الصراع القومي ضد الاوضاع الراهنة كلها ام لجهة مضمونه الاجتماعي في رفضه النظام الرأسمالي الاقطاعي وضرورة دكه كجزء من الثورة القومية الاجتماعية ؟

اما مواقف الاحزاب التي تخضع احيانا لبعض الانخسافات عن مبدئيتها الثورية ، فمن منكم بلا خطيئة فليرجمنا بحجر .

ان التعاليم السورية القومية الاجتماعية لم تتغير، لكن ممارستها في بعض المراحل كانت ناقصة وخاطئة . ان الانطلاق من التعاليم السورية القومية الاجتماعية وتأكيداتها ، منطلق كل ثوريتنا وكل عقيدتنا ، هو الخط الصحيح .

نحن نقول لبعض التقدميين الذين يشككون بحزبنا : **اننا لا نستورد التقدمية من خارج تعاليم انطون سعادة . اننا نؤمن ان تعاليم انطون سعادة هي قمة الثورية والتقدمية .**

لقد سمعتموني في محاضرتي اقول بان اهداف ثورتنا القومية الاجتماعية اسقاط انظمة الاستغلال الرأسمالي والاقطاعي . لن هذا لا نفعله كرمى لاحد من القوى التقدمية ، ولا نفعله تأثرا بعقائد لها احترامنا ولها فعلها في العالم كالماركسية اللينينية ، **بل نفعله انطلاقا من نظرة الانسان المجتمع التي قال بها سعادة إذ لا يمكن ونحن ننطلق من الانسان المجتمع ان نقبل بسيطرة الفرد على الرأسمال والاقتصاد .** اننا ننطلق من ايماننا بان الاقطاع والرأسمال بسيطرته على الشعب يحيده عن معركة المصير القومي لانه يجعله راسفا في قيود الاستغلال . من هنا ندعو الى اسقاط انظمة الاستغلال الفردي والفئوي وقيام سيطرة المجتمع على وسائل الانتاج .

اننا ننطلق من ايماننا بحرب التحرير القومية التي لا يمكن الا ان تضرب التحالف الرأسمالي والاقطاعي مع الاستعباد الخارجي ، من ايماننا بوحدة المعركة ضد الاستعباد الخارجي والداخلي .

ان الجبهة الوطنية التقدمية هي ضرورة وطنية مشتركة تلتقي عليها الاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية على اساس منهج عمل مشترك . وهي ليست بديلا عن الحزب ولا يمكن ان تكون بديلا عنه . ومن هذا المنطلق فكل حزب يعتبر عقيدته هي الافضل والاكمل دون ان ينتقص هذا من اللقاء الجبهوي على النقاط المشتركة . ومن ضمن هذا الاحترام المتبادل اهلا بالجبهة الوطنية التقدمية الواحدة . اما اذا شئتم ان نبدل عقائدنا حتى تقبلوا العلاقة معنا ، فانكم ترتكبون جريمة بحق اليسار والتقدمية لانكم تجعلون الذاتية الحزبية فوق المصلحة المشتركة في مواجهة العدو القومي المشترك .

الفصل الثامن

حرب وجود لا حرب حدود (١)

الغريب المستهجن المستنكر هو مجرد صدور كتاب محمد سيد احمد « بعد ان تسكت المدافع » في بيروت والسماح له بالرواج في العالم العربي وفيه الدعوة السافرة الى التعامل مع اسرائيل بل « والتكامل » معها ، الامر الذي يشكل من الناحية القومية والناحية الحقوقية خيانة سافرة بكل معنى الكلمة . غير ان هذا الغريب والمستهجن والمستنكر يستظل مناخا رسميا وغير رسمي من الهزيمة والاستسلام في العالم العربي يحاول التلطي به لارتكاب خيانته الموصوفة .

ذلك ان الانظمة المستسلمة القابلة بالتعايش مع اسرائيل على اساس القرار ٢٤٢ والتي يقول احد رؤسائها ان اسرائيل في حدود ١٩٦٧ حقيقة لا يقوى على تبديلها ولا يريد تبديلها ، هي التي اوجدت التربة التي تفرخ فيها نبتات ككتاب محمد سيد احمد وتستظل فيها صرعات الخيانة هذه تحت ستار « الواقعية » « والمعقولية » . وفي لبنان بالذات حيث ارتكبت مجزرة عين الرمانة صوبت بنادق الفتنة الى ظهر المقاومة فاتى انتقام اسرائيل من الثورة بواسطة يهود الداخل اكثر مما تقوى هي على ذلك بجيوشها وقواتها الخاصة وفرش الى حين بساط « الوحدة الوطنية » الكاذبة فوق الجريمة والمجرمين لتميع الموقف وتصبح ضرورات هذه الوحدة الوطنية المزيفة ملحاحة في تشكيل حكومة تهدئة تضم المحرضين على هذه الجرائم ، وتفهم الحرية على انها حرية القتل الجماعي والابادات العنصرية الطائفية ، في مثل هذه الفوضى من القيم والاصول ، يصبح كتاب محمد سيد احمد جزءا لا يتجزأ من مناخ المجزرة التي تصبح اقتتالا ، والخيانة القومية التي لا غنى « للوحدة الوطنية » عن عناصرها لتكتمل معادلتها !

وقبل سنة خرج الدكتور شارل مالك باطروحة حول المسألة الفلسطينية عبر تحليله للسياسة الاميركية خلص فيها الى مستقبل لا يقتصر موقف العالم العربي من اسرائيل على التعايش بل يتجاوزه الى اعتباره جزءا عضويا منه متفاعلا معه مما لا يخرج عن دعوة الكاتب المصري الراهنة .وكان لنا رد على ذاك الطرح المالكي (شارل مالك استاذ الفكر الغربي طرح الموضوع من منبر القيم الحضارية الغربية مضمونها ، على غرار الوحدة الوطنية التقليدية في لبنان التي تحتضن المجرمين ، تحتضن السرطان الاسرائيلي) .

نحن الان امام مجتهد آخر في قضية التفاعل مع اسرائيل يغلف دعوته هذه بتحليلات وان

---

(١) صدرت هذه الدراسة في العدد الاول من « فكر » ١٩٧٥ مع المقدمة التالية «ليست هذه الدراسة ردا على كتاب فحسب بل هي محاكمة للمناخ اللاوطني الاستسلامي الذي انتشر في اعقاب قبول بعض الانظمة بمبدأ التعايش والتفاعل السلمي مع دولة العدو والذي لولاه لما كان صدركتاب محمد سيد احمد « بعد ان تسكت المدافع » ولما كان سمح له بالانتشار تحت ستار انه معالجة « واقعية » للاوضاع . دراسة رئيس الحزب السوري القومي الاجتماعي انعام رعد التي ننشرها بنصها الكامل في « فكر » هي رد على كل هذا المناخ الاستسلامي وادانة لمقولاته وحججه ودعوة الى حرب التحرير القومية الشعبية ومستلزماتها العملية في الوحدة القومية » .

التقت في الاخير مع الدعوة المالكية من حيث النتائج الا انها « اكثر عصرنة » لانها مزوقة شكلا « بمنهج تقدمي » « اشتراكي علمي » .

بين الفصل الاول من كتاب « بعد ان تسكت المدافع » ورد المؤلف على « الحوادث » في العدد ٩٧٠ (١٣ حزيران ١٩٧٥) تحت شعار ان رأيه استهدف للاجتزاء وانه لم يدع الى دور وظيفي لاسرائيل في المنطقة بل « الى اذابة الكيان الصهيوني » على حد قوله . بين هذا وذاك محاولة من المؤلف محمد سيد احمد للخروج من التناقض الحاصل بين ردود الفعل ضد اطروحته وبين هذه الاطروحة بالذات القائلة ·

« يجدر بنا مع ذلك ان نتساءل ... بعد الانتهاء من انجاز التسوية في الشرق الاوسط ، اي بعد حلول « السلام القائم على العدل » الذي يزيل اسباب النزاع الاصيلة ، هل في مقدور اسرائيل ان تنهض « بدور وظيفي » في اطار العالم العربي ، شبيه بذلك الذي سعت اليه حيال افريقيا ؟ » .

فمحمد سيد احمد مؤمن « بسلام قائم على العدل » يزيل على حد قوله « اسباب النزاع الاصيلة » وتبقى بعده اسرائيل في المنطقة ، بمعنى ان وجودها ليس من اسباب النزاع الاصيلة وليس متنافيا مع « العدل » ! ولكنه ، ازاء موجة الوعي القومي العارمة الرافضة الكيان الصهيوني في المنطقة ، يدغدغ المشاعر بان هذا الكيان سيزول خلال السلم والتفاعل بالتناقضات الجديدة بعد ان تعذر زواله بالحرب . هذا هو السراب الذي يدعونا اليه المؤلف حتى ان شخوص ابصارنا الى وهجه في الرمال البعيدة ينسينا فداحة وهول الدعوة الى التعايش والتعامل مع اسرائيل والتي كان من المستنكر المستهجن السماح بمجرد اطلاقها في كتاب في العالم العربي لولم يكن مناخ الاستسلام الذي اشاعته الانظمة القابلة بالتعايش مع اسرائيل هو الذي اوجد التربة التي تفرخ فيها نبتات ككتاب محمد سيد احمد وتستظل فيئها بحيث تصبح هذه الصرعات في ظل استسلام الانظمة توصف على انها « عقلانية جريئة » بدل ان توصف ، من منطلق الحق القومي لشعبنا ، انها دعوة الى الاستسلام والهزيمة .

ولا يتسترن محمد سيد احمد بسرده الامر على انه يروي ما تراه بعض الدوائر العربية او غيرها وليس رأيه الشخصي ، ذلك انه هو بالذات يقول : « اوجه « التكامل » هذه ــ اذا ما كتب لها ان تتحقق ــ لن تتحقق بالقطع دفعة واحدة . بل ربما تكون دواعي الامن هي المدخل الى انجازها . فان كل تدابير « الامن » التي جرى تصورها الى الان لتثبيت التسوية عبارة عن « روادع سلبية » كمناطق منزوعة السلاح او قوات طوارىء دولي ، تفصل بين الاطراف المتنازعة . ولم يجر الى الآن التفكير في ابتكار « حوافز ايجابية » لتعزيز مصلحة هذه الاطراف في عدم اللجوء مرة اخرى الى الحرب » .

الى هنا السرد نابع من المؤلف . ثم يضيف بعد ان تبنى منطلق البحث بالقول : « ومن ابرز هذه الحوافز في منطق دوائر عديدة ، هو ان يقام ــ مثلا ــ « حزام » ــ من التصنيع الثقيل الى جانبي خطوط المواجهة ، بامل ان يكون ذلك رادعا للاطراف جميعها في تعريض هذا البناء الصناعي المجزي للدمار » .

وبعد ان يتكلم المؤلف عن هذه المشاريع بالتفصيل وبينها البتروكيماويات ، وبينها ما « يلبي حاجة دول المنطقة الى التخفيف من حدة تركزها السكاني وحاجتها الى استثمار صحرائها كاقامة محطات نووية لازالة ملوحة البحر وتغذية الصحراء بمياه ري عذبة » ، بعد ان يستفيض في تصوير فوائد هذه المشاريع يقول : وهذا رأيه بالذات · « وتوسع رقعة الارض

وعلى هذا الاساس قال سعادة بأننا جبهة العالم العربي وسيفه وترسه .

سعادة تنبه منذ تاسيس الحزب الى اهمية الجبهة العربية المعادية للاستعمار . وكما اقترنت الوحدة القومية عنده بالتحرير في زمن مواجهة الاستيطان الاستعماري ، فقد اقترنت الجبهة العربية في زمن التصدي للامبريالية بأن « تكون سداً ضد المطامع الاجنبية الاستعمارية وقوة يكون لها وزن كبير في اقرار المسائل السياسية الكبرى » (من غاية الحزب السوري القومي الاجتماعي ـ المحاضرات العشر ص ١٧٩)

وعلى هذه القاعدة تناقض مفهوم سعادة في تحديده للغرض من قيام الجبهة العربية مع مفهوم التضامن العربي الذي طرحته الانظمة الرجعية دون تحديد المضمون والغاية التحررية والذي قام في معظم الحالات على أساس التضامن مع الامبريالية والذي بات بعد رحلة السادات الى القدس المحتلة تضامناً مع الصهيونية .

الجبهة العربية عند سعادة موجب وجودها في عصر مجابهة الامبريالية والصهيونية أن « تكون سداً ضد المطامع الاجنبية الاستعمارية » **اي جبهة معادية للاستعمار .**

هذا المفهوم الواضح المحدد يناقض على طول الخط مفهوم الملوك والرؤساء العرب في التضامن العربي ولو مع الاستعمار ولو مع الصهيونية . لأن الجبهة العربية في مفهوم سعادة هي جبهة معادية للاستعمار والصهيونية .

لقد ادرك سعادة عداء الامبريالية لحركة التحرر القومي على كل صعيد ودعا الى التصدي « لنظام الطبقات الانترنسيوني » الذي تفرزه الامبريالية والذي تقبع في اسفله الامم المقهورة والمضغوطة وليس أمامها الا حرب التحرير القومية . ووعى بادراك ثوري متقدم صلة الرحم بين « الاستعباد الداخلي » « والاستعباد الخارجي » ، بين « الرأسمالي والاقطاعي المحليين والاقطاع والرأسمالية الانترنسيونيين » . وأعلن حرب أمته وحزبه على الاستعماريين البريطاني والفرنسي زمن الانتداب ، ثم على الامبريالية الاميركية التي تركز مصالحها النفطية في المنطقة وتبيع فلسطين للصهاينة .

ولكنه أدرك وهو يدعو لذلك كله ، طابع صراع أمتنا المميز ، لأنها لا تصارع الامبريالية وحدها وامتداداتها الرجعية الرأسمالية والاقطاعية ، كما تواجه كل الشعوب ، بل أن امتنا تواجه المشروع الصهيوني الاستيطاني الاستعماري المدعوم من الامبريالية ، وادرك بمنهجه المدرحي المتكامل ، انه بينما التصدي للامبريالية يفرض التصدي لامتداداتها الاقتصادية والسياسية والرأسمالية والاقطاعية داخل المجتمع ، فان التصدي للصهيونية يفترض التصدي لعملية الصهينة التي تحاول الصهيونية ، زرعها داخل مجتمعنا بالرهان على مخلفات عصر الانحطاط الثقافية والروحية والسياسية والتحالف معها لسلخ الاقليات الدينية عن وحدة المجتمع والمصير القومي ، وأدرك ان التصدي للصهينة مختلف عن التصدي للاقطاع والرأسمالية ، لأنه تصد لعصر الانحطاط ورواسبه الثقافية والروحية وضياع الهوية القومية وطغيان مفاهيم التجزئة القومية والتمزق الاجتماعي .

وكان ان وعى ، وعياً رائداً ، خطورة تحالف أخر ، غير تحالف الاقطاع المحلي والرأسمال المحلي مع الاستعمار العالمي . وهو ما وعته كل الحركات الثورية والتقدمية المعاصرة ، ذلك أن سعادة الى جانب وعيه هذا التحالف ، وعى وعلم وحذر من تحالف آخر مختلف نوعا عن تحالف المصالح المادية بين الرأسمالية والامبريالية ، هو « تحالف يهود الخارج مع يهود الداخل » الذي ينتج تفجير عقد عصر الانحطاط واستغلالها . وركز على دور

الانعزالية المنسلخة عن المجتمع القومي في ما بات يعرف من بعده بعملية الصهينة التي شاع استخدامها في ادبيات الحركة الوطنية في السبعينات . وكأنما كل ما استشرف سعادة في الاربعينات يتحقق على أرض الصراع في لبنان بعد ثلاثين عاما .

وهذه نقطة مركزية لا يمكن المرور بها مروراً عابراً . فوعي سعادة المبكر والرائد للجانب الروحي من المعادلة المادية ـ الروحية للمضمون الاجتماعي لحركة التحرر القومي ووعيه لخصوصية الصراع القومي ضد الصهيونية ، ولخصوصية الاستغلال الاستعماري والصهيوني لمشكلة الاقليات وحملته على الانعزالية في الاربعينات الى تبينه خطورة التحالف بين يهود الخارج ويهود الداخل وانتشار حزبه في الوسط المسيحي انتشاراً جماهيرياً شكل عقبة انسانية صدامية في وجه تقسيم لبنان ، كل هذه المزايا النظرية والميدانية تعطي الحزب السوري القومي الاجتماعي طابع الفرادة والتميز في مواجهة المؤامرة على الساحة اللبنانية خاصة والساحة القومية عامة . وتطرح تحدياً جدياً على كل الطروحات التي لم تستوعب الظاهرة الانعزالية وعلاقتها بالموضوع القومي والمشكلة الطائفية وكيفية اختراق الغيتو الطائفي ، وصياغة العلاقة العضوية بين القومي والاجتماعي ، والمادي والروحي في شمولية المنهج والتحليل .

ولقد وعى حزب سعادة بعد استشهاده المقولة الاولى الوحدة القومية القتالية ضد الغزوة الاستيطانية الاستعمارية الصهيونية التي تتناول وجود الامة السورية . ففي كل تراث الحزب السوري القومي الاجتماعي ومواقفه ونضاله على مدى خمسة وأربعين عاما استمر الحزب متمسكا بضراوة بدعوته الوحدوية وبعدائه للصهيونية واغتصابها فلسطين .

الا ان الحزب لم يتمسك بالمقولة الثانية في بعض مراحله في الخمسينات فتوهم كما في البيان السياسي في ١٩٥٥ بأن بالامكان المضي في محاربة الصهيونية مع مهادنة الامبريالية ، أي نفس دعوة محمد حسنين هيكل ، في صيغة « تحييد اميركا » . فدعا الحزب يومها الى التحالف مع الغرب على أساس تصفية استعماره وقواعده ويتوهم امكان فصله عن اسرائيل . وكان هذا خطأ كبيرا وسلوكا طوباويا لم يفهم العلاقة العضوية بين الامبريالية والصهيونية . ونحن نقول بأن هذا السلوك كان نقضا لمفهوم سعادة للجبهة العربية المعادية للاستعمار ، لمقولة سعادة في التضامن العربي القائم على تكوين « سد منيع ضد المطامع الاجنبية الاستعمارية . » وهذا السلوك **توهم ان الاستعمار يمكن ان يتنازل عن امتيازاته بغير حرب التحرير .**

على محك سعادة وثوريته نمارس النقد الذاتي ، ونقول أن موقع الحزب السوري القومي الاجتماعي في هدي استراتجيته العربية الواضحة المحددة من قبل سعادة في غاية الحزب كان في طليعة حركة التحرر العربية لا بالتناقض معها بأي حال عند تصديها للاحلاف الاجنبية ونضالها بقيادة عبد الناصر ضد النفوذ الاستعماري في المنطقة .

نقول هذا لا تملقا لحركة التحرر العربي بل انطلاقا من مفهوم سعادة الرائد للجبهة العربية المعادية للاستعمار والذي رسم لحزبه موقعا متقدما في حركة التحرر العربي .

ولقد وعى سعادة منذ ١٩٣٢ الترابط الكامل بين الصهيونية والامبريالية حين كتب مقاله المبكر ضد اتفاقية التابلاين وكل الامتيازات النفطية الامبريالية في ١٩٤٩ « البترول سلاح انترنسيوني لم يستخدم بعد » فقال « ومعروف ان تصلب اليهود تجاه الدول السورية

والعربية الاخرى مستند الى تأييد حكومة الولايات لها . ومعروف ان اتفاقية التابلاين تهم الحكومة الاميركانية . فيتضح من مجرد تصديق اتفاقية التابلاين الاميركانية اننا لم نستعمل هذا السلاح البترولي للحد من تأييد الولايات المتحدة لليهود في لوزان وفلسطين والامم المتحدة وتركنا الولايات المتحدة تستمر في تأييدها لليهود وجازيناها بتصديق اتفاقية خاصة حساسة هامة تهمها جداً لمستقبل العمليات الحربية المقبلة . » (مراحل المسألة الفلسطينية ص ١٢٨) .

ان ادراك سعادة للعلاقة التحالفية بين الصهيونية والامبريالية خاصة في موضوع النفط ، المفصل الاساسي في هذه العلاقة ، يقدم كذلك في الجانب الآخر ، المعاكس من المعادلة ، دعوة الى عضوية العلاقة في التحالف بين سورية وعالمها العربي ضد هذا الحلف الشيطاني الصهيوني الامبريالي فيقول « وتجب الاشارة الى ان هذا الموقف الحازم الذي انتظرناه من الموقف السوري كان يجب ان يدعمه موقف موحد الغاية والوسيلة في جميع الدول السورية وان يكون وراءه بالتالي تعاون بين سورية كلها من جهة والدول العربية ، وثيق ، يسد في وجه الديبلوماسية الأجنبية منافذ الضغط والتهويل والمساومة . » (المصدر نفسه ص ١٢٩)

هذه هي الترجمة العملية لمفهوم الجبهة العربية في مواجهة التحالف الامبريالي الصهيوني في موضوع النفط ، وهذا هو الاستشراف العملي « لاويبك عربية » لجبهة نفطية عربية تقوم على « تعاون وثيق يسد في وجه الديبلوماسية الاجنبية منافذ الضغط والتهويل والمساومة » وتستخدم النفط في سبيل فلسطين .

فالجبهة العربية ، في منظور سعادة ، في غاية الحزب ، المستهدف قيامها في زمن الصراع ضد الامبريالية والصهيونية « انْ تكون سداً في وجه المطامع الاجنبية الاستعمارية » هي في الترجمة العملية الميدانية ، جبهة في وجه مخططات الاستعمار الصهيوني للعالم العربي وفي وجه الامبريالية ومصالحها النفطية والحربية المتحالفة مع الصهيونية .

هذا هو اطار العمل العربي المشترك ، الجبهوي ضد الاستعمار . الصهيوني والامبريالي المستهدف المنطقة العربية ككل . ولكن للجبهة العربية عدا عملها المشترك المتصدي للاستعمار ، للامبريالية ، للسيطرة الاقتصادية والحربية ، عملا مشتركا في دعم كل أطرافها ، وأحد أطرافها بالتخصيص ، الامة السورية العربية في صراع الموت والحياة ضد الغزوة الاستيطانية الاستعمارية الصهيونية المستهدفة وجود هذه الامة بالذات ، المستهدفة سورية الطبيعية كلها انطلاقاً من فلسطين والتي تقترن فيها مقولة الوحدة بالتحرير بحيث انه بدون الوحدة لا يتحقق التحرير ، وبدون الوحدة يتحقق العكس انتصار المشروع الصهيوني الذي يعني فناء المجتمع القومي في سورية الطبيعية وانتشار الاستيطان الاستعماري الصهيوني على مدى البيئة السورية الطبيعية انطلاقا من فلسطين .

هنا كما ادنا موقف الخمسينات للحزب السوري القومي الاجتماعي حين تخلى عن مقولة الجبهة العربية المعادية للاستعمار فتناقض مع منطلق من أهم منطلقات سعادة ، ندين كل السياسات العربية التي تناقضت مع هذه المقولة الاولى ' مقولة الوحدة السورية في الهلال الخصيب منطلقاً للتحرير ، لان كل السياسات العربية التي حاربت الوحدة السورية ، قصداً أو دون قصد ، كانت عمليا تعرقل عملية تحرير فلسطين ، وتسهل للمشروع الصهيوني مواجهة مجموعة التناقضات الكيانية في الجبهة السورية الطبيعية والانتصار عليها وبها ، اي بتناقضاتها ، وبخاصة بعد ان زالت المبررات والذرائع التي كانت تتخوف من وقوع الوحدة في

فخ انظمة مرتبطة بالاستعمار كالنظام الهاشمي في العراق وقيام حكم وطني بديل عنه وبقاء التجزئة تحت شعارات ومبررات لا يمكن ان تثبت على محك مجابهة الخطر المصيري .

ومن مراجعة مراحل هذا النضال في سبيل وحدة الهلال الخصيب نجد أن الانظمة العربية المعادية فعلا للاستعمار والامبريالية هي التي عادت فدعمت قيام وحدة الهلال الخصيب ، قيام الجبهة الشرقية كحد ادنى .

الخطة القومية التوحيدية الدقيقة المعاكسة للمشروع الصهيوني في تفتيت مجتمعنا القومي

خطة الصهيونية بالنسبة لسورية الطبيعية تعتمد الى جانب التوسع الحربي التفكيك الداخلي لمجتمعنا القومي بهدف خلق الاوطان العنصرية الطائفية المتحالفة مع اسرائيل والدائرة في فلكها حتى يزول الوجود القومي لمصلحة عمليات تفتيت المجتمع القومي وافنائه بسرطان التآكل الداخلي .

هذا الذي تكلم الناس عنه كثيراً بعد احداث لبنان وابانها في ١٩٧٥ و ١٩٧٦ و٧٧و٧٨ . قال سعادة فيه في ١٩٤٨ ، وفي مقاله هذا بالذات : « غريبة هي في هذا الصدد ، أعمال العقلية الانعزالية في لبنان المؤسسة في تفكير الدولة الدينية . فهناك ترحيب هائل بغفلته بقيام الدولة اليهودية الى جانب الدولة المسيحية التي لا تزال تزداد افكار الفئة الرجعية الانعزالية وتتردد في احلامها . انه ترحيب الباحث عن صفته بكل قوته ! »

ويتابع سعادة « ان لبنان هو أقرب الدول السورية الى مطامع اليهود ، والدعاوة الصهيونية تعمل كل ما في وسعها لايجاد شقة واسعة بينه وبين الدول السورية الاخرى . فقد لاحظ الساسة اليهود نجاح سياسة الاحتلال الاجنبي في تغذية فكرة الدولة الدينية لتتمكن من البلاد ، وأخذوا يسلكون طرق تلك السياسة في دعاوتهم في محطتهم الاذاعية في تل أبيب وبواسطة دعاتهم المنبثين ونشراتهم . »

ان سعادة متنبه كليا الى مخطط صهينة لبنان وسورية كلها ، مخطط تفتيت المجتمع القومي وافنائه في ظل السيطرة الصهيونية .

هكذا بكلمات قليلة مكتنزة اعمق المعاني ، وبمقال واحد يرسم سعادة ملامح الصورة الكاملة لحقيقة الصراع المصيري مع الوجود الصهيوني وامتداداته .

وهذا الوعي الثوري الرائد هو الذي عبر عنه سعادة في شرحه للعقيدة القومية الاجتماعية ومضامينها واستهدافاتها في ارساء مفهوم الوحدة القومية على مضمون الوحدة الاجتماعية أجمل وأوضح وأشمل **تعبير في تأكيده مبدأ وحدة المجتمع** القومي في وجه عملية تجزئته الى وحدات طائفية أو عشائرية متناقضة.

يقول سعادة . « امة واحدة ــ مجتمع واحد . فوحدة المجتمع هي قاعدة وحدة المصالح ووحدة المصالح هي وحدة الحياة . وعدم الوحدة الاجتماعية ينفي المصلحة العامة الواحدة التي لا يمكن التعويض عنها بأية ترضيات وقتية . »

« ان قاعدة الامة الواحدة في المجتمع الواحد هي القاعدة الصحيحة للوجود القومي . لا يمكن ان تكون امة واحدة اذا لم يكن هنالك مجتمع واحد ، أي اذا لم تكن الهيئة الاجتماعية

واحدة . فاذا حصلت تجزئة في المجتمع تعرضت الامة لخطر الانحلال النهائي والاضمحلال . فصحة الامة وتقدمها لا يكونان الا في مجتمع واحد . فالحركة القومية الاجتماعية تقيم بهذا المبدأ وما يتعلق به حربا عنيفة مميتة على عوامل تجزئة المجتمع الى مجتمعات والامة الى أمم — هذه العوامل التي تجعل من كل طائفة دينية ومن كل عشيرة أو طبقة مجتمعا قائما بنفسه وأمة منفصلة عن الطوائف والعشائر أو الطبقات الاخرى .

« لا يمكن للامة الواحدة ان تتجه في التاريخ اتجاها واحدا بعقليات متباينة أو متنافرة . هذا أمر مستحيل ... »

ويدين سعادة بعنف « جميع البهلوانيين السياسيين » الذين « يحاولون التوفيق بين تناقض المجتمع في كيانه والوحدة القومية ، لأنهم لن يستطيعوا النجاح في انقاذ المجتمع من مصير الفناء الذي يصير اليه أو من اكسابه قوة الوحدة والانطلاق »

ان سعادة يرى ان عملية تفتت المجتمع القومي الى وحدات اجتماعية متناقضة تقوده الى « مصير الفناء » . وهذا هو المفصل . وهنا تتدخل الخطة الصهيونية الامبريالية لدفع عملية تفتيت المجتمع القومي الى وحدات مرضية تتآكله . سعادة يركز على التآكل الطائفي ، اخطر انواع هذ التآكل .

ويقول « الامة في أساسها الحقيقي هي وحدة حياة فاذا لم تكن وحدة حياة لم تكن أمة حقيقية .

« متى كانت المصالح مصالح محمديين ومصالح مسيحيين ومصالح دروز ، أو مصالح سنيين ومصالح شيعيين ومصالح علويين ومصالح اسماعيليين ، أو مصالح موارنة ومصالح روم كاثوليك ومصالح ارثوذكس ومصالح افروتسطنت .. ، لم تكن هنالك مصالح قومية واحدة . ولا يمكن توحيد شعور الشعب واندفاعه وراء أية حملة باسم الامة أو الوطن تقوم بها طائفة واحدة ، مهما كانت كبيرة ، فلم يمكن قط تحويل أية حركة استقلالية قامت بها طائفة معينة الى حركة شعبية في طول البلاد وعرضها » . (سعادة — المحاضرات العشر ص ١٠٠) .

سعادة يرفض المضمون الطائفي للشأن القومي ويعتبره عاملا مفسخا ، عامل تناقض ذاتي ، عامل ابعاد جماعات عن القضية القومية ، ولأن الصراع القومي هو صراع شمولي مفروض ان يعني الامة كلها ولأنه « لا يمكن توحيد شعور الشعب واندفاعه وراء أية حملة باسم الامة او الوطن تقوم بها طائفة واحدة » بحيث ان الطائفية تعاكس تحديات المرحلة المصيرية القومية التي تفرض توحيد شعور الشعب واندفاعه وراء الحملة باسم الامة والوطن ، لذلك لا بد من النضال لاعطاء الشأن القومي مفهوم الوحدة الاجتماعية الذي تضمحل فيه « العصبيات المتنافرة والعلاقات السلبية وتنشأ العصبية القومية الصحيحة التي تتكفل بانهاض الامة » « في الوحدة الاجتماعية تزول الحزبيات الدينية وآثارها السيئة وتضمحل الاحقاد وتحل المحبة والتسامح القوميان محلها ويفسح المجال للتعاون الاقتصادي والشعور القومي الموحد وتنتفي مسهلات دخول الارادات الاجنبية في شؤون امتنا الداخلية . » فكما أن الوحدة القومية مقترنة بالتحرير في زمن مجابهة الاستيطان الاستعماري الصهيوني ، وكما أن الجبهة العربية مقترنة بمعاداة الاستعمار في زمن المطامع الامبريالية ، فان الوحدة الاجتماعية كمضمون للوحدة القومية مقترنة بفصل الدين عن الدولة والعلمنة في مجتمع تتعدد طوائفه ونزعاته وذلك لازالة فتيل « الحزبيات الدينية وآثارها السيئة » وأحقادها ولكي « تنتفي

مسهلات دخول الارادات الاجنبية في شؤون امتنا الداخلية . »

ان مقولات سعادة في الوحدة القومية والوحدة الاجتماعية ليست في المطلق ، من حيث الزمان والمكان، ليست في التجريد. انها مقولات الوحدة القومية الاجتماعية في زمن مجابهة « الخطة الصهيونية النظامية الدقيقة » المستهدفة تفكيك مجتمعنا القومي وتصعيد تناقضاته على طريق اندثاره لمصلحة المشروع الصهيوني الاستيطاني الاستعماري الافنائي لوجودنا .

المبادىء للشعوب قال سعادة ، والمبادىء القومية الاجتماعية هي طريق انقاذ الشعب السوري في زمن المجابهة المصيرية . انها عملية توحيده في وجه مخطط تفتيته . انها الخطة النظامية القومية الدقيقة المعاكسة لعملية تفتيت مجتمعنا القومي وتمزيقه .

والصراع المصيري يدور على الشعب والارض . ولذلك كانت عقيدة توحيد الشعب تقوم على وحدة الارض . وهذا الشعب الموحد هو الذي يدافع عن الارض الواحدة . وهي عقيدة مناقضة للمشروع الصهيوني الاستيطاني الاستعماري الذي يريد الارض بدون الشعب بتفكيكه الى مجموعات متناقضة بينما العقيدة السورية القومية الاجتماعية تمركز ولاء الشعب على الارض لتقيم هذا الوثاق الابدي بين الشعب والارض في وجه عملية فسخ الشعب عن أرضه لتهجيره منها أو سلبها منه .

« وان الترابط بين الامة والوطن هو المبدأ الوحيد الذي تتم به وحدة الحياة . ولذلك لا يمكن تصور متحد انساني اجتماعي من غير بيئة تتم فيها وحدة الحياة والاشتراك في مقوماتها ومصالحها وأهدافها وتمكن من نشوء الشخصية الاجتماعية التي هي شخصية المتحد ــ شخصية الأمة .» (سعادة ــ « المحاضرات العشر » ــ ص ٦٣) .

« ان سورية الوطن هي عنصر أساسي في القومية السورية كل سوري قومي اجتماعي يجب ان يعرف حدود وطنه ويبقي صورة بلاده الجميلة ماثلة لعينيه . ليجدر به أن يكون سوريا قوميا اجتماعيا صحيحا . »

« ولكي يقدر السوري القومي الاجتماعي ان يحفظ حقوقه وحقوق ذريته في هذا الوطن الجميل ، يجب عليه ان يفهم جيداً وحدة امته ووحدة حقوقها ووحدة الوطن وعدم قابلية تجزئته » . (سعادة ــ المحاضرات العشر ــ ص ٩٨) .

من هنا نستطيع ان نفهم كل شغف سعادة بموضوعة الارض والبيئة الطبيعية ، ليس لأنها علمياً ، تشكل الاطار الوحيد لقيام المجتمع ونشوئه وتفاعله ، كما حدد ذلك في « نشوء الامم » ، واستنفار العصبية القومية فحسب ، بل لأنها عملياً تشكل مركز الاستقطاب في الولاء في زمن عراك المصير القومي . وعلى هذا الاساس قال سعادة في وجه عصر الانحطاط والتفسخ الاجتماعي على أساس تعدد الطوائف «اقتتالنا على السماء افقدنا الارض » ليعود فيشد الانتباه ويستفز الولاء للجامع الموحد الارض الواحدة للشعب الواحد .

ولكن عقيدة الشعب الواحد في الارض الواحدة ، او كما يقول سعادة « ان الترابط بين الامة والوطن هو المبدأ الوحيد الذي تتم به وحدة الحياة » لا تقع في كابوس الحتمية الجغرافية ، فالارض ضرورية لنشوء المجتمع وهي حاضنة نموه وتفاعله ، وهي اطار استمرار حياته

وتاريخه ولكن « البيئة تقدم للامم الامكانية لا الحتمية » .

(سعادة ــ « المحاضرات العشر » ــ ص ٨١)

وجوهر الامة هو في وحدة حياتها التي تقدم الارض لها الاطار المادي ولكن الانسان وفاعليته فيها وبخاصة تفاعله مع موارد بيئته الاقتصادية هي جوهر « الدورة الاجتماعية الاقتصادية » التي اعتبرها اساس الوجود القومي .

والحرب في الاخير ، حرب الشعب دفاعاً عن الارض ومواردها في سبيل استمرار الحياة الانسانية الراقية عليها وعدم فنائها أمام مشروع يستهدف هذا الغرض .

ولأن سعادة امتلك الوعي الثوري الكامل للمرحلة ولمخطط الانقاذ القومي وقاد الصراع بهذا الاتجاه المستوعب استراتيجية العدو بكل ابعادها والمصمم على مواجهتها بالخطة النظامية القومية الدقيقة المعاكسة ، بالوحدة القومية الاجتماعية ، وحدة سورية الطبيعية كنواة للجبهة العربية المعادية للاستعمار ، ووحدة المجتمع القومي بخلاصه من التفسخ الداخلي في وجه عملية زرع الاوطان الطائفية ــ العنصرية في كيانه التي «تريد أن تحيط المسيحيين والطائفة المارونية خاصة بنطاق العداء والكره ثم ترميهم في أحضان دولة اسرائيل لانقاذهم من المحمديين الذين لا يمكن العيش معهم » ، « كان من المحتمل ذلك لولا وجود الحركة القومية الاجتماعية ورسوخ تعاليمها القائلة بالدولة القومية ، لا بالدولة الدينية ، في نفوس عشرات ألوف العاملين اليوم بايمان لانقاذ الامة والوطن من الرجعية ومصير الرجعة .» (المصدر نفسه « الدول السورية تستفيق » لسعادة)

لان سعادة امتلك الوعي الثوري الكامل للمرحلة وقاد الصراع بهذا الاتجاه « للرجعة الانعزالية » التي « تصر على العمل بكل قواها على جمع قوى الطائفية وتكتيلها حول فكرة الدولة الدينيةالقائمة على « التفاهم » مع اعداء لبنان أو « التعاقد » معهم على نجاحهم في بناء « اسرائيل » وضم لبنان الى أملاكها » . (المصدر نفسه لسعادة) .

لأن سعادة قال بالوحدة السورية طريقاً للتحرير ، ولأنه أدرك ان الصراع مع اليهود هو صراع الحياة أو الموت ، لأنه يتناول « وجود الامة السورية وحياتها » ولأنه ادرك المخطط الصهيوني في تفسيخ مجتمعنا الى تآكل طائفي عنصري ولأنه تصدى لذلك كله ، كانت المؤامرة على حياته وحزبه .

وكانت الجميزة الاولى في ١٩٤٩ التي استشهد فيها سعادة .

كما كانت الجميزة الثانية في ١٩٧٥ في عين الرمانة تشعل فتيل المؤامرة على المقاومة والحركة الوطنية . وحين تكشف الوثائق الدولية لاحقاً ان حسني الزعيم أتت به أميركا لتوقيع اتفاقيتي التابلايــن والهدنة مع اليهود وحين يتدخل فاروق مصر مع حسني الزعيم طالباً تسليم سعادة الى جلاديه تتضح صورة المؤامرة الامبريالية الرجعية على سعادة .

يقول القائد المناضل كمال جنبلاط في استجوابه الشهير عن استشهاد سعادة ملخصاً الدور القومي الذي كان يؤديه سعادة والذي استهدفته المؤامرة :

« يتوفر لسعادة ان يبرز بمظهر جديد بعد أن فشلت الحكومات العربية في القيام بواجبها في الحرب المسرحية التي شنتها على اسرائيل فاستأنف رئيس القوميين نشاطاً بارزاً ، ونشر المقالات والابحاث وتكررت الاجتماعات الخاصة والعامة وانفتحت بعض الصحف لنشر آرائه

ومناقشتها ... وفي الواقع اخذت رغبات الشعوب العربية تتجه اتجاهاً يرمي الى تحقيق وحدة الهلال الخصيب ، وقد أصبح بعد محنة فلسطين المشروع القومي الوحيد الذي يضمن توازن الكفة مع اسرائيل الحديثة والذي يكفل بالتالي انقاذ فلسطين ... هي قاعدة تاريخية حاسمة تبرز منذ أقدم احقاب المدنية ان شعوب الهلال الخصيب تنزع دائماً للوحدة كلما تحسست بالخطر الأجنبي يداهمها وأي خطر كتغلغل النفوذ الأجنبي من جديد على يد احتكاراته وشركاته وعماله الوطنيين وقيام اسرائيل بين ظهرانينا . »

ويتابع القائد الشهيد كمال جنبلاط استجوابه للحكومة اللبنانية فيقول : « وفي الواقع وفي نظر كل من اطلع على خفايا الامور ، لقد تدخلت بعض الدول الاجنبية المعروفة في قضية سعادة وضغطت بحيث ان أكثر الأعمال الاعتباطية التي صدرت عن الحكومة اللبنانية بهذا الشأن ازاء الحزب القومي ومن ضمنها المحاكمة والقضاء على سعادة وبعض اتباعه بهذه السرعة وبهذا الشكل قد تمت بناء على توصيات وتدخلات وتأثيرات دول أجنبية وعربية معروفة ... »

هكذا يبدو واضحاً ان المؤامرة الامبريالية الصهيونية استهدفت ضرب الدعوة الى الوحدة مقرونة بالتحرير ، استهدفت التصدي ليهود الخارج والداخل معاً .

الاسلوب العلمي في استقراء اي حدث من وزن استشهاد سعادة هو الذي يعود الى وثائق المرحلة : وثائق العدو ، شهادات الاصدقاء ، ما صدر عن صاحب السيرة نفسه . فاذا ما تطابقت هذه كلها يمكن استخلاص النتيجة الموضوعية . في اواسط السبعينات صدر كتاب «لعبة الامم» لمايلز غوبلاند من المخابرات الاميركية، وفيه تأكيد لعلاقة حسني الزعيم بالمخابرات الاميركية التي جاءت به لتحقيق غرضين : توقيع اتفاقية التابلاين وتوقيع الهدنة مع العدو الصهيوني . وكان سعادة قد عارض الاتفاقيتين بشدة فكتب عن البترول « سلاح انترنسيوني لم يستخدم بعد » رابطاً لأول مرة وقبل ثلاثين سنة ، بين النفط وفلسطين محرضاً على عدم توقيع اتفاقية التابلاين طالما اميركا منحازة للصهاينة . كما عارض انهاء القتال ضد العدو ودعا الى الكفاح المسلح وأعلن ان حزبه يعد نفسه لهذا الغرض . وكان سعادة كما يقول الاستاذ عصام نعمان، يمثل وحزبه حتى استشهاده، وقبل تشوء الحركة الوطنية في لبنان، الحركة الوطنية المعادية للاستعمار والاقطاع والصهيونية . وقد شهد القائد المناضل كمال جنبلاط في استجوابه عن سعادة بهذا المعنى فأكد ان سعادة واجه مؤامرة استعمارية أجنبية وهو يتصدى لها .

في ضوء هذا الاستقراء طرحنا في « البناء » في عدد ٨ تموز ١٩٧١ ثم في مناسبة الاول من آذار ١٩٧٥ في « البناء » وبعنوان « الامبريالية قتلت سعادة لأنه تصدى لاحتكاراتها النفطية » التحليل المستند الى شهادات العدو والصديق ووثائق من صاحب السيرة تثبت ان استشهاد سعادة كان لتصديه المبكر للمخططات الامبريالية والصهيونية في المنطقة . ومن هنا كان ربطنا بين «الجميزة الأولى» التي افتعلتها الكتائب ضد سعادة ، و « الجميزة الثانية » التي كانوا أداتها في ١٩٧٥ ضد المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية (راجع بيان ٨ تموز ١٩٧٥) .

ان هذا التحليل لحدث كبير كاستشهاد سعادة المرتبط بغايات النضال ومواقعه هو الذي ينهي الكلام الرومانسي عن « غدر » حسني الزعيم « ومؤامرة » الحكم اللبناني ، فالحكم الرجعي اللبناني والشامي والانعزالية اللبنانية وفاروق وكل الرجعية العربية انما هي ادوات عند الامبريالية والصهيونية ، وعدم وعي الترابط بين الرجعية العميلة والامبريالية هو الذي

مسخ معنى الاستشهاد الرائع في كتابات الخمسينات . فالرجعية اعجز عن اصدار قرار التصفية الجسدية بدون أمر عمليات امبريالي تخضع له . والمؤامرة بهذه الابعاد امبريالية ــ صهيونية أدواتها الرجعية المحلية

ان الامبريالية قتلت سعادة في ١٩٤٩ مفتتحة مرحلة طويلة من تصفية القادة الثوار في العالم الثالث على مدى ثلاثين عاماً منذ ذلك الحين وكان سعادة أولهم ورائدهم في التصدي للامبريالية على رأس حركة التحرر القومي .

ولقد كان سعادة أخطر هؤلاء لأنه ربط بين النفط وفلسطين قبل ثلاثين عاماً وقد رأينا هلع الرجعية والامبريالية من هذا الربط في السبعينات .

كما دعا الى الكفاح المسلح ضد الاغتصاب الصهيوني نهجا وحيداً رافضا التسوية . ثم وهذا هو الأخطر تصدى بتعاليم حزبه وانتشاره لمشكلة الاقليات الطائفية التي راهن على تفجيرها المخطط الصهيوني الامبريالي ، فعطل فتيلها أمداً طويلا واستشرف وحدة الهلال الخصيب كرد استراتجي موضوعي قومي على المخطط الصهيوني الامبريالي في اطار جبهة عربية معادية للاستعمار .

وبعد استشهاد سعادة تميزت المرحلة الممتدة ما بعد نكبة ١٩٤٨ واستشهاد سعادة حتى ١٩٧٨ بالمعالم الرئيسية التالية ·

بعد نكبة ١٩٤٨ ارتفعت أصوات تطالب بوحدة الهلال الخصيب تماماً كما لهجت الالسن بالجبهة الشرقية بعد نكبة ١٩٦٧ وظهر ، كم كان قيامها ضروريا في حرب جرى خوضها من مواقع التجزئة والتناقض على مدى الهلال الخصيب . وتماما كما ارتفعت الاصوات مطالبة بوحدة بغداد ودمشق بعد نكبة ١٩٧٧ التي تسببها السادات . باللقاء مع العدو على طريق اخراج مصر من الصراع .

٢ ــ انه رغم ذلك كله فعلى مدى ثلاثين عاما بقي الثابت الذي لا يتبدل ولا يتحول في كل التقلبات التي حصلت هو طابع الجفاء والتناقض بين بغداد ودمشق أيا كان نظام الحكم فيهما حتى حقق البعث مؤخراً الخطوة الوحدوية التاريخية .

٣ ــ ان السياسة الامبريالية الصهيونية كانت قطعا ضد الوحدة كما يعبر عن ذلك كيسنجر في اكثر من مناسبة وأقطاب الصهاينة . كما ان بعض السياسات العربية كانت ضد هذه الوحدة وبصورة بارزة السياسة السعودية .

٤ ــ ان السياسة المصرية كانت ضد وحدة الهلال الخصيب حتى ١٩٦٧ مع تمايز الموقع والمنطلق بين العهد الملكي البائد وعهد ثورة عبد الناصر التحررية .

٥ ــ انه بعد ١٩٦٧ وقضت قيادة عبد الناصر بقوة مع الوحدات الطبيعية وبخاصة مع الجبهة الشرقية .

٦ ــ ان معيار أية سياسة عربية ومدى التزامها بتحرير فلسطين والتضامن الجبهوي العربي المعادي للصهيونية والاستعمار هي في دعمها وحدة الهلال الخصيب بدءاً من قيام محور بغداد ودمشق وكذلك معيار أية سياسة دولية وسعيها لمصلحة بلادنا .

٧ ــ ان اقتران الوحدة بالتحرير واقترانها بانقاذ فلسطين هي المقولة التي تحك على اساسها المواقف القومية .

الفصل الرابع والعشرون :

منذ سيكس ـ بيكو لعنة التجزئة في الهلال الخصيب

صيحة الوحدة بعد ١٩٤٨ وثابت القطيعة والانفصال

١ ـ بعد نكبة ١٩٤٨ ارتفعت أصوات عدد من المفكرين الوطنيين تطالب بوحدة الهلال الخصيب وتعتبرها محور الصمود القومي . وكان أبرز هؤلاء الدكتور نبيه أمين فارس والدكتور نقولا زيادة من اساتذة الجامعة الاميركية الذين عرفوا بطرحهم القومي والفلسطيني في تلك المرحلة .

كما اعتبرها ساطع الحصري « خطوة لا ضرر منها » على الوحدة العربية الشاملة التي دعا لها . وركز عليها نبيه أمين فارس واعتبرها الخطوة العملية والاساسية على طريق الوحدة العربية التي تصورها مثل فيدرالية الولايات المتحدة العربية وتكون وحدة الهلال الخصيب نواتها (راجع « العرب الأحياء » و « هذا العالم العربي » و « دراسات عربية » لنبيه أمين فارس) .

ولكن الدعوة الى تحقيق وحدة الهلال الخصيب لم تكن بالحاح الحاجة المصيرية كما أدى الى عرقلة تحقيقها في ذلك الزمن تضافر عاملين على الأقل .

أ ـ سياسة المحاور التي كانت تتبعها بعض العواصم العربية مخضعة مصالح حياة الشعوب العربية لتنافس عشائري أو محلي مناقض لهذه المصالح الحيوية أو انطلاقا من فكر رومانسي توهم بأن تحقيق وحدة الهلال الخصيب ممكن أن يحول دون تحقيق الوحدة العربيةالابعد كأنما الوحدة العربية رهن ببناء اوضاع التجزئة في بيئات العالم العربي .

الا انه حين يقارن الدارس بين هذا الطرح لوحدة الهلال الخصيب الذي شاع في تلك المرحلة تحسسا بآثار نكبة ١٩٤٨ وبين الطرح المشابه لوحدة الجبهة الشرقية الذي شاع تحسسا بنكبة ١٩٦٧ والطرح الداعي الى وحدة بغداد ودمشق الذي شاع بعد نكبة السادات في ١٩٧٧ ، يدرك بوضوح حقيقة هذه الوحدة الطبيعية التي لا تجري مشاهدتها كاملة الا حين تنهار الحجب المصطنعة في نيران النكبات التي تأكل كل زيف التجزئة وتظهر الاشياء على حقيقتها .

صيحة الانقاذ دوما كانت تتجه الى وحدة الهلال الخصيب ولكن رغم ذلك بقيت وحدة الهلال الخصيب ـ وهذه هي المفارقة الكبرى ـ الضالة المنشودة والسراب المرتجى والعنقاء التي لا تتجسد في وجود . النكبة وخشبة الانقاذ ولكن تبقى دون تحقيق طوال تلك المدة ؟

هنا لا بد من متابعة عدد من الاسباب والعوامل التي جعلت هذه المفارقة ممكنة بل جعلتها تبدو ـ وهي مفارقة ـ كأنها القاعدة الطبيعية التي لا تزول .

٢ ـ ان استعراضا سريعا لاعذار عدم قيام هذه الوحدة يظهر تساقط تلك الاعذار ووهنها .

في ٧ أب ١٩٧١ حاولنا ان نقيم مرحلة نصف قرن مما وصفناه في رئيسية كتبناها في « البناء » « الشكل الثابت الوحيد للمتغيرات » ، اي مسألة الجفاء والتناقض المستمرين بين بغداد ودمشق :

«رغم كل العهود المتبدلة والحالات المتغيرة . « لا يستطيع المراقب المدقق اذا عاد بالتأمل الى مدى الخمسين سنة الماضية منذ سيكس ـ بيكو تجزئة بلادنا وفق مصالح المستعمر الا ان يدهش لظاهرة لازمت العلاقات بين دمشق وبغداد منذ انفراط المؤتمر السوري الكبير في آذار ١٩٢٠ الذي يشكل نداؤه بوحدة العراق والشام أخر وقفة رسمية ـ شعبية في وجه التجزئة والانفصال .

لقد تتابعت عهود وقامت انظمة وتشكلت وزارات في كلا القطرين من يمينها الى يسارها ، وجو الجفاء المشحون بالقطيعة والبغضاء هو الجو السائد والموجه والمسير لانظمة الحكم المتعاقبة ، هو الشكل الثابت الوحيد في المتغيرات والمتحولات السياسية على اختلاف اسمائها وتنوع الوانها وانقلاباتها . »

هذا « الثابت الوحيد » هو الذي نحاول استعراض مراحله هنا مع اعذاره المتغيرة في كل مرحلة لنجد كم هو مصطنع وضع الجفاء والتناقض بين طرفي الهلال الخصيب .

حين كان الكيانان في ظل انتدابين مختلفين كان تناقض الانتداب الفرنسي والبريطاني المبرر الكبير لجو الجفاء على صعيد الحكومات الشكلية التي ينصبها الانتداب وذلك بالرغم من ان الاتجاهات الشعبية كانت ترفع رايات اتحاد الكيانين شعارات للنضال السياسي القومي .

وفي فترة طرحت الحكومات الدائرة في فلك الاستعمار مشاريع الاتحاد كان مشروع سورية الكبرى نسخة الملك عبد الله ومشروع الهلال الخصيب المجوف ـ بدون لبنان وفلسطين ـ الذي عرف بمشروع نوري السعيد . وارتباط لمرحلة المشروعات بالدمغة الانكليزية .ولكن الثابت ان المشروعين كانا لامتصاص المد الوحدوي الشعبي وحرفه عن اتجاهه بحيث تصبح الوحدة مكروهة لاقترانها بالتيجان والعروش . ذلك انه لو كان الانكليز جادين بالوحدة لحملوا الاردن والعراق على الاتحاد واسرة مالكة واحدة تتربع على العرشين وفي ظل الحكم البريطاني . ولكن الاستعمار يحسب الحسابات ولا يريد ان يضع البيض كله في سلة واحدة فلو اطاح انقلاب يقوم به جيش موحد بالاسرة المالكة لقامت جمهورية ثورية تمتد الى حدود فلسطين ، والاردن مفروض أن يبقى ـ لا جزءا من اتحاد ـ بل دولة عازلة بين فلسطين وعمق البيئة السورية العربية المحيطة بفلسطين .

وقام الحكم الوطني في الشام في ١٩٤٥ فاتخذ من تناقض النظامين الملكي والجمهوري مبررا لسياسة القطيعة متذرعا انه يتصدى لمطامع العروش وللسياسة الاستعمارية بينما كانت المفارقة العجيبة ان سنده الكبير في هذا الموقف الاستقلالي التحرري والجمهوري هما العرشان المصري والسعودي الاشد تخلفا وخضوعا للنفوذ الاجنبي . وكانت المصالح البريطانية في فترة الاربعينات ومطلع الخمسينات هي هي النافذة فعلا في شتى اقطار العالم العربي وفي الشام بالذات .

وسقط الحكم الجمهوري الذي كان توالى على رأسه القوتلي والاتاسي وتوالت الانقلابات

العسكرية في دمشق . ولكن الثابت الذي أمسك بكل التحولات هو ثابت القطيعة والعداء بين دمشق وبغداد .

ففي العهد الجمهوري البرلماني رفع شعار الحفاظ على الديمقراطية الجمهورية ومن بعد رفع شعار الحفاظ على الجمهورية وقد سقط حكم البرلمان وقام حكم الفرد الانقلابي . وقالت دمشق القوتلي كما قالت دمشق الشيشكلي من بعد انها حريصة على نظامها الجمهوري في وجه مطامع العروش والتيجان الهاشمية . ولكن المفارقة الكبرى هي ان عضد القوتلي كان فاروق وعضد الشيشكلي من بعد كان السعودية وكلاهما حكم ملكي رجعي .

وحين تغيرت الصورة بعد ١٤ تموز ١٩٥٨ وقامت الجمهورية في العراق لم يسقط ثابت القطيعة والعداء نتيجة زوال تناقض النظامين الملكي والجمهوري بل سرعان ما عاد هذا الثابت يؤكد نفسه باشكال جديدة في صراع بين التقدمية الاوسع والأقل وبين « الشعوبية » و « العروبة » .

وسقط حكم قاسم « الشعوبي » وقام حكم البعث في كل من دمشق وبغداد في ١٩٦٣ . ولم يعد من المنطق ان يبقى ثابت القطيعة والتناقض في ظل حكم الحزب الواحد . وقامت مباحثات الوحدة الثلاثية بين العراق والشام ومصر وحين تعثرت ان تكون ثلاثية بمصر توقع الناس جميعا ان تكون ثنائية بين العراق والشام .

ولكن سرعان ما خابت التوقعات . وصدر بعد حين كتاب « التجربة المرة » للاستاذ منيف الرزاز ، فاذا التعليل لعدم قيام وحدتهما ان الخشية انصبت على ان يؤدي قيام هذه الوحدة الى اعتبارها تمحورا ضد مصر خاصة ، وضد الوحدة العربية الكبرى عامة ، اي ان وحدة ممكنة ومتكاملة ارجئت حتى تتم وحدة اكثر تعقيدا وكأنما التمحور ، هذا الذي تطيروا منه ، انما هو شيء خارج ارادة الحاكمين الذين بامكانهم الغاءه اذا شاؤوا ويفرضونه اذا ارادوا . فليس التمحور التناقضي مع مصر أمرا نابعا من الوحدة بحد ذاتها .

وهذا المنطق في وضع حجر على وحدة بغداد ودمشق من الحاكم نفسه انتقل لقيام حكم عارف في العراق الى نص دستوري غريب قضى بالعمل للوحدة العربية بدءا من الاتحاد مع القاهرة بحيث سجل صراحة تثبيت القطيعة واستبعاد الوحدة مع دمشق .

ولو قامت الوحدة بين دمشق وبغداد في ١٩٦٣ لكانت الجبهة الشرقية قامت قبل نكبة حزيران ولغيرت الكثير الكثير من نتائج الحرب . ولكن الثابت السياسي القابع خلف كل التغيرات والتحولات قضى بالاحجام عن الوحدة ثم قضى أن يأتي حاكم في بغداد ينص في الدستور على استبعاد الوحدة .

وكانت ازمة فيما بعد انعكست سلبيا على وحدة بغداد ودمشق .

وهكذا تحصل التحولات وكلها تدور في فلك الثابت الذي لا يتحول : القطيعة والانفصال بين كيانين توأمين متكاملين . وكل حكم يأتي يعطي « المبرر التاريخي » لعدم الوحدة في وقت يقتضي المبرر التاريخي الحقيقي ، مبرر مواجهة اسرائيل ، اتحادهما لا تباعدهما .

في أول آذار ١٩٧٠ توجهنا الى دمشق وبغداد بنداء الوحدة التالي[1] : « نقف بألم

---

(١) نشرت الصحف البيروتية يومها هذا الخطاب الذي القي في أول آذار ١٩٧٠ في بيروت .

وحسرة امام استمرار الكيانية في بيئة الهلال الخصيب . اننا نطرح امام الحزب الوحدوي الذي يحكم الشام والعراق اليوم هذا التحدي المصيري : كيف يكون حزباً وحدوياً ولا يحقق وحدة شعبنا ووحدة أرضنا في مواجهة العدو الصهيوني في مرحلة من أخطر مراحل تاريخنا .

« نحن نقول لهذا الحزب الوحدوي بمحبة تنطلق من حوار متجاوز حدود التنافس الحزبي الضيقة من احقاد وخصومات ، نقول لهذا الحزب الوحدوي بكل ايجابية وموضوعية : انت في ظرف تاريخي تحيق بالامة فيه أشد الاخطار هولا ، ويوضع مصيرها كله على المحك ، فاما ان تقدم على خطوة توحيد جبهتها الشرقية وقد تربعت في كيانين من أكبر كياناتها فتصيب مكسباً حزبياً كبيراً لك وتحقق للامة مجداً قومياً واما ان تسقط في التجربة التاريخية ، فتكون مأساة للامة ومأساة لك . »

لقد دعا الحزب السوري القومي الاجتماعي لوحدة بغداد ودمشق في مختلف المراحل والعهود وسنعالج دعوته لها بالنسبة للناصرية في الفقرة الخاصة بموقف عبد الناصر من الوحدة . أما بالنسبة لهذه المرحلة بالذات في ١٩٧٠ فقد كان في تصور هذه الدعوة انها تشكل ، عدا فوائدها القومية الكبرى بالنسبة لمجابهة العدو الصهيوني واعادة تركيب المعادلة القومية بعد هزيمة حزيران فهي تقدم ايجابيتين اضافيتين اعربت عنهما رئيسية «البناء» التي كتبنا فيها هذا التحليل « مظلة حقيقية للمقاومة تحولها الى طليعة حرب التحرير عن طريق تحولهما (أي بغداد ودمشق) باتجاه المجتمع القومي الى مجتمع كفاح مسلح . »

وهذا كان في أول آذار ١٩٧٠ وقبل أشهر من حدوث مجازر أيلول ١٩٧١ في عمان . وكان تقديرنا انه بدل ان تكون المقاومة بين فكي النظام الاردني حين رفضها مبادرة روجزر تصبح مدعمة بوحدة قومية ثورية في الهلال الخصيب تشكل عمقها الاستراتيجي الوحدوي كما ان هذه الوحدة تكون محور التصدي القومي للعدو الاسرائيلي لا مجموعات المقاومة المحاصرة من النظام الاردني . (٢) نقول في التحليل إن قيام الجبهة الشرقية القتالية هو البديل العملي عن موقف مصر من الحل السلمي والا بقي « الطعن بموقف مصر من الحل السلمي شعارات لا تفي بالحاجات الاساسية والضرورات القومية . ما هو البديل عن الحل السلمي ودعاته ؟ أليس هو قيام مجتمع الحرب الموحد على مدى الجبهة الشرقية يساند ويوجه الجبهة القومية باتجاه الصمود الحربي ؟ أوليس الكيانان المؤهلان لهذه الخطوة هما الشام والعراق ؟ ولكن أين الشام والعراق من ذلك كله ، انهما يقيمان « مجتمع الحرب » بينهما لا بهما ! وخلصنا مقالنا ذلك بالقول « ان ظاهرة التباعد والجفاء المستمرة بين دمشق وبغداد على مدى خمسين سنة توحي بأن الاصابع الدولية التي لعبت لعبة الماضي لم تزل فاعلة في نشر تناقضات الحاضر بصورة أو بأخرى . وان الرد الاقوى على مخططات الاستعمار التي جزأت بلادنا تمهيداً للتهويد هو الوحدة . »

لقد كان تفجعنا على عدم قيام الوحدة ومناشدتنا القيادات الوطنية الحاكمة لتحقيقها هو الطابع المميز لكل اعلام ونضالات الحزب السوري القومي الاجتماعي . وفي ٨ اذار ١٩٧٤ قال الرئيس الاسد « فلسطين هي الجزء الاساسي من جنوب سوريا واننا مصممون على تحريرها » فكتبنا في « النهار » في ١٤ آذار مقالا نحيي فيه الرئيس الاسد بعنوان « كلام ذو وزن تاريخي ينتظر صيغة التحقيق العملي » جاء فيه ما يلي .

كلام ذو وزن تاريخي ينتظر صيغة التحقيق العملي

« فلسطين هي الجزء الاساسي من جنوب سوريا واننا مصممون على تحريرها ».
الرئيس الاسد في ٨ آذار ١٩٧٤ .

«ليلة القى الرئيس حافظ الاسد خطابه في الثامن من آذار طالعت متتبع الاذاعات العالمية ولا سيما الاستعمارية منها ملاحظتان ملفتتان للانتباه ، الاولى سكوت هذه الاذاعات عند تلخيصها لأهم ما ورد في خطاب الرئيس الاسد عن هذه العبارة الاساسية ومحاولتها طمسها . وثانيتها أن هذه العبارة أخذت أبعادها الاعلامية في صحافة الوطن في اليوم الثاني فظهرت عناوين رئيسية على الصفحات الاولى في صحف بيروت ودمشق وبغداد والكويت.... »

« فالرئيس حافظ الاسد لم يقل ما قال لمجرد الرد على غولدا مئير بل كان يعود بالقضية الى أساسها الذي لا تعالج الا باعتماده وحده منطلقا ومعيارا ونظاما سليما . وهو الاساس الذي لا ترغب الدوائر الاستعمارية والصهيونية في الانطلاق منه لأنه يكشف « الخطيئة الاصلية » خطيئة التجزئة التي اوصلت الى التهويد كما انه يحدد طريق الانقاذ الأوحد الذي لا طريق سواه . الوحدة التي تقود الى التحرير ، بل الوحدة المقترنة بالتحرير ، وعلى طريق هذه الوحدة يكتسب اعلان الرئيس حافظ الاسد كل ابعاده النضالية المسؤولة · فاعلانه عن التصاق فلسطين بسوريا التصاق الجزء بالكل ، هو الذي يلقي عليه واجب التحرير . فليست فلسطين ، بعد « قطراً شقيقاً » أو « جاراً ملهوفا » بل هي جزء من كل ، في وطن واحد وأرض واحدة وشعب واحد . ومتى أصبح الكلام المسؤول في هذا الوزن التاريخي فلا بد ان يتخذ صيغة التحقيق العملي .

« ان وحدة بغداد ودمشق هي النواة الصالحة الصلبة لتحرير جنوب سوريا « فلسطين » من الاحتلال الصهيوني ، ولتحرير كل الوطن من أنظمة التجزئة والعمالة والمتناقضات الكيانية ، وللانطلاق نحو توحيد العرب في كيان يكون في مستوى الاتحادات الاقليمية المعاصرة ويمكنهم من اداء دورهم التاريخي في العصر الحديث على صعيد مجابهة الامبريالية وبناء قوتهم الاقتصادية والعسكرية القادرة على قيادة العالم الثائر في ثلاث قارات . »

وفي ٢٠ أيلول ١٩٧٥ شرفتني وفود الجبهة العربية المشاركة في الثورة الفلسطينية ابان انعقاد مؤتمرها في دمشق وزيارتها لقاعدة الضمير الجوية التابعة للطيران العربي السوري ان القي كلمة وسط حشد من نسور الجو السوريين وبحضور قائد الطيران العربي السوري اللواء ناجي جميل .

وكانت لحظات تاريخية ان التقي نسور بلادي وقلت في كلمتي(١)

« ان حربنا مع العدو ليست حرب حدود . انها حرب وجود ..
انه حرب الحق القومي ، حرب الوجود القومي ... وفي هذه الحرب المصيرية الكبرى التي تستمر فيها الجولات حتى ينتصر الحق القومي ويزهق باطل الاغتصاب لا يمكن لحدود ان تكون موانع دون وحدة الامة ، وحدة جهادها وعراكها ومواردها ، وحدة قواتها .

---

(١) « صباح الخير » ٣/١١/١٩٧٥ .

من هنا انها ليست حرب الفلسطينيين وحدهم ، ومن هنا ان ما نخوضه في لبنان اليوم هو معركة تثبيت هذه الحقيقة ان الحدود الكيانية لا يمكن ان تكون ضد المصير القومي الواحد …

اننا قد شهدنا اليوم براعم الأمل تنمو بيوم النصر ، فتحية لكم يا نسور الجو ضباطا وضباط صف وقيادة على هذا الانجاز الكبير …

« ان قطار وحدة المصير القومي قد بدأت سفرته الى الهدف ، وان اليوم الذي لا يعود نسور الجو المنطلقين من الشام وحدهم ، بل ينضم اليهم نسور العراق ونسور كل الامة ، هو اليوم الذي يحدد ويقرب يوم النصر ، يوم التحرير » .

لقد كان هذا هو نداؤنا الدائم . وكانت مرحلة التمزق الكبير التي كادت تدفن الامل الكبير فعلا مد التناقضات بين الكيانين التوأم سنوات عجاف من القطيعة .

ولكن الاصالة تنتصر في النفوس ، والتحدي الايجابي الذي توجهنا به قبل سنوات للحزب الوحدوي القومي اثبت في ساعة الخطر الفاصل يوم ماد، كل شي بعد ان انحازت مصر السادات الى معسكر الاعداء ، اثبت حزب البعث العربي الاشتراكي بقيادته في دمشق وبغداد انه على مستوى التحدي التاريخي ، وانه قادر ان يتجاوز كل السلبيات ويعتبرها ثانوية ساعة يكون المصير القومي في خطر ، وانه يتصدى لثابت القطيعة التاريخي الذي دعمت استمراريته الاصابع الدولية فيسقطه ويقيم ميثاق العمل القومي على طريق الوحدة الكاملة .

الموقف الامبريالي الصهيوني المعادي للوحدة

الموقف الامبريالي الصهيوني معاد للوحدة لأنه أساسا تآمر عليها منذ مطلع القرن حيث عقد اتفاقية سيكس – بيكو بموافقة وايزمن كما يقول في مذكراته . وكان هم الصهاينة ان تكون فلسطين في ظل انتداب الدولة التي اقتطعتهم بعد سنة من عقد اتفاقية سيكس بيكو ، وفي وعد بلفور ، فلسطين لاقامة « الوطن القومي اليهودي » الاستيطاني الاستعماري على أرضها . وكان همهم كما يقول وايزمن سلخ فلسطين عن محيطها حتى يسهل اتمام المشروع الصهيوني .

كانت هذه هي المرحلة الاولى من المشروع الصهيوني على ان تكون المراحل التالية الاستيلاء على كل محيط فلسطين الطبيعي .

اما الاستعمار البريطاني فقد كان يريد من اسرائيل عازلا بين المشرق العربي والسويس التي تشكل شريان المواصلات الاساسي الى امبرلطوريتـه في الهند والشرق الاقصى .

ويوم ورثت امريكا التركة الاستعمارية في العالم وبدأت امتيازات احتكاراتها النفطية تغزو الجزيرة العربية والخليج العربي اعتبرت الدور نفسه الذي وظفت له اسرائيل بالنسبة لطريق الهند قد انتقل الى طريق امبراطورية النفط الاميركية في الجزيرة العربية .

وكانت وحدة الهلال الخصيب هي المقتل بالنسبة لكل المخطط الامبريالي منذ المؤتمر السوري الكبير الذي أدان وعد بلفور واعتبر فلسطين سورية الجنوبية التي لا يجوز سلخها عن الوطن الام . ثم كانت ميسلون وأطيح بالارادة السورية المنتفضة على مفاعيل اتفاقية سيكس – بيكو .

ورغم أن مشروعي الملك عبد الله ونوري السعيد حول « سوريا الكبرى » و « الهلال

الخصيب » المجوف كانا مشروعين يطلقهما عميلان للاستعمار البريطاني وقد حاولا الانطلاق في الوحدة من مراعاة الوضع الراهن فقبلا باستثناء فلسطين او جزء منها من الاتحاد لتكون في ظل سيادة يهودية ولبنان ليكون وطنا مسيحيا أوله وضع خاص على أن يرتبط هذان الكيانان بعلاقة ما بدولة الوحدة الا ان المشروعين رغم كل ما حملا من تشويه للوحدة لم يتحققا حتى على صعيد الاتحاد الاردني ـ العراقي طوال ربع قرن من السيطرة البريطانية على البلدين . ولم يبرز الاتحاد الاردني ـ العراقي الى الوجود الا كرد فعل على قيام الجمهورية العربية المتحدة في ١٩٥٨ أي بعد انطلاق المسيرة الوحدوية المضادة ولم يكن بالتالي فعلا ولا تحقيقاً ولو مجتزأ لمشروعي سوريا الكبرى والهلال الخصيب اللذين طرحا في الاربعينات دون تحقيق .

مما يشير بوضوح الى عدم جدية هذين المشروعين طالما أن اتحاد الاردن والعراق الواقعين تحت الانتداب البريطاني لم يتحقق طوال تلك المدة الطويلة . من هنا ان المشروعين كانا لامتصاص تيار الوحدة واجهاضه بعد تشويهه وربطه بعجلة الاستعمار والاقطاع .

أما السياسة الاميركية فبعد قيام مصالحها الامبريالية في المنطقة وتحالفها العضوي مع الدولة اليهودية أخذت تناصب وحدة سورية الطبيعية العداء . وكان البيان الاميركي ـ البريطاني ـ الفرنسي في ١٩٥٠ أول وثيقة بين ركائز الاستعمار الثلاثة يتعهدبالحفاظعلى الاوضاع الراهنة في الشرق الاوسط على حالها اي على وجود الكيان الصهيوني وأوضاع التجزئة .

وانقلبت السياسة الاميركية من مبادىء ولسن في ١٩١٩ الى مبادىء التوسع الامبريالي في الاربعينات المتحالف مع الوجود الصهيوني والمسير بالمصالح الاستراتيجية والنفطية الاحتكارية. في ظل مبادىء ويلسون تشكل لجنة كينغ ـ كراين المشهورة التي جاءت الى البلاد السورية كما يظهر انطونيوس في « يقظة العرب »تستفتي الناس حول مصيرهم وتضع تقريرها لمؤتمر السلام في ١٩١٩ بأن أكثرية شعبنا مع الوحدة السورية . وينقض الاستعماران البريطاني والفرنسي ضد تقرير لجنة كينغ ـ كراني الاميركية . (راجع انطونيوس ـ يقظة العرب) . ولكن بعد أن أصبحت أميركا زعيمة الامبريالية العالمية يكشف كيسنجر في احداث الاردن في ١٩٧٠ عن هلع حلفاء الصهاينة من تدخل الجيش السوري في الاردن لأن أية وحدة سورية في نظرهم كانت ستؤدي الى رمي اسرائيل بالبحر ' (راجع كتاب « كيسنجر » الأخوين كالب ص ١٩٢) .

السياسة السعودية المناوئة للوحدة

في كل الظروف والعهود والاحوال كانت السياسة السعودية ثابتة في معاداتها لوحدة الهلال الخصيب . في المرحلة الاولى كان عداؤها يبرر بأنه نابع من خشية البيت السعودي من أن تقوى شوكة الهاشميين في الهلال الخصيب فيطمحون باستعادة ملكهم في الحجاز .

ولكن تبين ان هذا كان بعض السبب ولم يكن السبب كله . ذلك ان الخشية انتقلت لاحقا من الهاشميين الى خصومهم وبات النظام الهاشمي في الاردن حليفا للسعوديين ضد رياح الوحدة البعثية سواء معه أو بدونه .

وبات النظام الهاشمي حليفا بمعنى ان يكون عازلا بين السعودية ورياح التغيير التي قد تهب من دمشق أو بغداد .

فاتضح ان الوحدة هي التي يناصبها السعوديون العداء وليس العرش الهاشمي الذي يمكن ان يصبح حليفا لهم اذا بقي خارج اطارها .

فالسبب الاساسي الثابت الذي يجعل السعودية تناهض وحدة الهلال الخصيب سواء أكانت في ظل الهاشميين أو في ظل خصومهم الثوريين انما يعود الى السبب نفسه الذي يجعل اميركا حريصة على مقاومة قيام وحدة بيئتنا الطبيعية - النفط العربي . فاذا كانت أميركا تحرص على ان لا تقوم دولة الوحدة كدولة معترضة في الهلال الخصيب على طريق مصالحها النفطية في الجزيرة العربية فان السعودية وهي المصدر الرئيسي للنفط المرتبط عضويا بشبكة العلاقات الامبريالية ومصالحها تجد أن دولة الوحدة في الهلال الخصيب تشكل من هذه الزاوية بالذات خطراً على مصالح النظام وطبقته الحاكمة المستفيدة من هذه العلاقات والمتحالفة معها .

والسعودية لا تقبل برياح التغيير ان تهب من دمشق أو بغداد أيا كان الحكم والتوجيه طالما انه في اتجاه تشكيل محور اعتراضي .

ففي ١٩٥٨ ولم تكن علاقات عبد الناصر بأميركا قد تدهورت الى الحد الذي بلغته بعد ١٩٦٧ . وكان حكم أيزنهاور الذي وقف من مسألة الانسحاب الاسرائيلي ـ الفرنسي ـ البريطاني من القناة وغزة موقفا ايجابيا ، وقامت الجمهورية العربية المتحدة وسط أنباء تقول انها تستوعب المد الشيوعي في الشام ، رغم ذلك كانت مؤامرة سعود على الوحدة في مستهلها . وفي ١٩٧٧ بذلت السعودية كل جهدها لابعاد الاردن عن محور دمشق الكونفدرالي .

ان السياسة السعودية تؤدي دوراً مزدوجاً في مناوأة وحدة الهلال الخصيب التي تشكل اعتراضا على المخطط الامبريالي في المنطقة وهو المخطط الذي من ضمنه اقيمت التجزئة ولو تصرفت السعودية بعقلية سياسة الدولة المستشرفة والمتحررة من المخططات الامبريالية ، لكانت تدعم وحدة الهلال الخصيب كقوة حامية لعروبة المنطقة كلها في وجه التمدد الصهيوني وكقوة حليفة لها في الدفاع عن عروبة الخليج والجزيرة ضد التمدد الايراني .

عبد الناصر والوحدة :

كانت السياسة المصرية التقليدية تقوم عربياً ، على محورين : وحدة وادي النيل ومحاربة وحدة الهلال الخصيب . وتميزت السياسة الناصرية في أن حربها ضد وحدة الهلال الخصيب حتى ١٩٦٧ لم تقف ، كما السياسة التقليدية عند حدود مناهضة وحدة الهلال الخصيب ، بل سعى الى وحدة بديل : وحدة دمشق والقاهرة . وكانت الجمهورية العربية المتحدة التي قامت في ١٩٥٨ ـ ١٩٦١ التجسيد العملي لهذا النهج .

حتى ١٩٥٨ كان للناصرية مفهوم الجبهة العربية المعادية للاستعمار بزعامة القاهرة وكانت حرب الاحلاف في الخمسينات هي الملمح الاساسي لهذا النضال الجبهوي العربي . ولكن منذ ١٩٥٨ أصبحت الوحدة مع دمشق هي الجاذب الاقوى للسياسة الناصرية وبدفع سوري في البداية عنيف ثم بعد فشل الوحدة أصبحت الوحدة والانفصال نقطة الجدل والحساسية المشكلة لاهتزاز في الوجدان المشرقي الى أبعد حدود التمزق وارتبطت هيبة القاهرة باستعادة الوحدة واستمرت مصر تحافظ على اسم الجمهورية العربية المتحدة حتى السادات . وكان الانصراف عن وحدة وادي النيل ، المطلب القومي التاريخي ، بعد أن أجمع السودانيون على الاستقلال في ١٩٥٤ .

حين قامت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ ، وفي سلسلة مقالات بعنوان « خلافنا مع عبد الناصر وكيف يحل » ظهرت في آب في « البناء » توجهنا الى الرئيس عبد الناصر بمشروع متكامل كان في رأينا هو الانسب وأشتمل على استباق لعملية الانفصال المؤلمة التي وقعت في أيلول ١٩٦١ وذيولها السلبية . كان اقتراحنا ، انه بعد حصول ثورة العراق وزوال الحاجز الملكي وارتباطات الاحلاف التي حاربها عبد الناصر ، ان يصار الى وضع صيغة علاقات جديدة تستوعب ضرورات الواقع الطبيعي والاجتماعي والاقتصادي مع الحفاظ على الاتجاه الايجابي الجبهوي العربي دون انتكاسات . وخلاصة الاقتراح نصت على استبدال صيغة الوحدة السورية ــ المصرية بصيغة وحدة الهلال الخصيب بشطريه العراقي والشامي الجمهوريين المتحررين ومن ثم ارتباط دولة الهلال الخصيب الموحدة بصيغة اتحادية كونفدرالية مع مصر وتحالف عسكري ــ سياسي مع القاهرة .

ذلك ان صيغة الوحدة بين الشام ومصر كانت في تقديرنا ستعاني مخاضا عسيراً نتيجة ما استشرفنا بفعل عقيدتنا المؤسسة على علم الاجتماع ، من « فجوات اجتماعية اقتصادية » حذر من الوقوع بمثيلها ميثاق الاتحاد الاشتراكي في مصر في ١٩٦٢ وبعد انهيار تلك الوحدة ، والتي هي في رأينا تناقض أفرزه جمع دورتي عمران واجتماع في وحدة شكل سياسي بينما دعوتنا لوحدة بغداد ودمشق كانت تصب في دورة حياة وعمران متكاملة في الهلال الخصيب ترتبط بدورها باتحاد كونفدرالي مع مصر تأكيداً للتضامن العربي وتأطيراً لصلات التحالف في ما يجمع من مصالح اساسية نحرص على انمائها ضمن الصيغ العملية المحتضنة لنموها وتفاعلها .

وكانت في رأينا هي الصيغة التي لو اعتمدت لوفرت نكسة الانفصال . ولكن الوحدة الشامية ــ المصرية استمرت حتى الانفصال وذيوله وما انتج من تراشق وتباعد ، ولم تتحقق الوحدة مع العراق . وقام وحدويو دمشق في ١٩٥٨ بحملات في ١٩٦١ على «الاقليمية المصرية » و « عمليات التمصير » في الوحدة . كما أن هذه الصيغة لو اتبعت لكانت وفرت على البعث حرجه في ١٩٦٣ من أن تكون وحدة بغداد ودمشق تمحوراً ضد مصر اذ كان بالمستطاع ان ترتبط هذه الوحدة بتحالف عسكري ــ سياسي ــ اقتصادي كونفدرالي مع مصر .

في ١٩٦١ سعى الحزب السوري القومي الاجتماعي وبعد انهيار الوحدة المصرية ــ الشامية سعيا ديبلوماسيا متصلا لقيام شكل مْن التنسيق والتكامل بين دول الهلال الخصيب وتنقلت ديبلوماسيته بين عواصم الهلال الخصيب بدءاً من بغداد في هذا الاتجاه . وانهار المسعى بفشل المحاولة الانقلابية التي قام بها الحزب في لبنان في أواخر ١٩٦١ ، وفي ١٩٦٣ وحين عقد اجتماع الرطبة بين قاسم والقدسي طالعني المحقق وأنا في التحقيق: لقد بدأوا يحققون ما سعيتم اليه بعد ان اصبحتم في السجن . ولكن انقلاب البعث في ١٩٦٣ في دمشق ثم في بغداد فتح صفحة جديدة لوحدة يحققها حكم الحزب الواحد ولم تلبث هذه ان انطوت بقيام حكم عارف في بغداد ثم أزمة حزب البعث .

وفي ١٩٦٧ قبل وقوع نكبة حزيران توجهنا عبر رئاسة الحزب المؤقتة في دمشق بمشروع بيان سياسي من السجن عممته منفذية الارجنتين بكراس في نيسان ١٩٦٧ وتضمن في الصفحة ٤٢ ــ ٤٣ منه دعوة لقيام وحدة بغداد ــ دمشق على ان « ترتبط الدولة الاتحادية الجديدة بتحالف عسكري ــ سياسي ومعاهدات اقتصادية متكافئة مع القاهرة ومع أية دولة عربية تؤيد اغراضها التحررية والقومية فضلا عن العلاقات الطبيعية التي تنشأ عن انتمائها الى الجامعة

العربية » كما دعونا الى « تطوير الجامعة العربية لتكون في مستوى الجبهة العربية المتراصة القابلة لاستيعاب التطورات العربية واحتضانها في صيغها الجديدة » . وأكدنا مجدداً مشروعنا السابق لجبهة عربية متحققة ضمنها الوحدات الطبيعية ومرتبطة فيما بينها بعلاقات كونفدرالية .

وفي ١٩٦٧ وقعت نكبة حزيران وما يسمى « بدول الطوق » اي مصر والاردن والشام وعمقها العراق على أكثر ما يكون من التباعد فيما بين دول الهلال الخصيب مع محاولة الاستعاضة العاجلة بالاتفاقات الثنائية المنفردة بين كل من هذه الدول والقاهرة .

لقد كانت صيغة العلاقة مختلة وكانت الجبهة الشرقية مسرحاً للتناقض الشديد . ولم تستطع مصر أن تملأ فراغها. وجابهت مصر النكسة مستفردة وقد غاب ثقل الجبهة الشرقية بتمزقها .

لقد دعونا في أعقاب النكبة في تموز ١٩٦٧ في دراسة بقلم قيس الجردي في ملحق « النهار » نشرت على حلقات ثلاث ١٦ و ٢٣ و ٣٠ تموز الى « وحدة الجبهة الشمالية » وبينا ان عدم وحدتها كان الخلل الاساسي في المعركة . وكان البديل عنها الذي ثبت عدم جدواه ارتباط كل من دول الهلال الخصيب باتفاق ثنائي مع مصر دون ارتباطها معاً في أي حد من التنسيق العسكري وهي المتلاصقة جغرافيا والمشكلة وحدة استراتيجية متكاملة .

هكذا ازهقت الجغرافيا واغتيلت قواعد الاستراتيجية العسكرية في ضوء المعايير السياسية المحض . فحصل الارتباك على الجبهات واسقط تأثير الجبهة ـ المقتل بالنسبة للعدو فاكتوت مصر بلهب المعركة ومرارة الهزيمة وحمل القائد الكبير عبد الناصر أوزار ما كان مفروضاً ان يتحملها، لولا الرومانسية القاتلة في الهلال الخصيب ولولا السياسات العربية التي أغرقت في رمالها المتحركة ولولا تامر الاستعمار على وحدتنا حتى استطاع ان يصورها لابنائها وكأنها الشذوذ الذي يحاذرون ويتطيرون منه بينما هي خشبة الانقاذ للمصير القومي كله ولمصير العالم العربي المشترك .

لقد ورط الفكر الرومانسي الرئيس عبد الناصر في الوحدة المستعجلة غير المرتكزة الى تكامل طبيعي في ١٩٥٨ وحمله نكستها ثم ورطه في الاستراتجيات التي تقود الى الهزيمة في ١٩٦٧ . لقد أساء هذا الاتجاه الرومانسي اساءة كبرى الى العروبة باساءته الى عبد الناصر .

لقد كانت من حوافز الرئيس عبد الناصر في قبول الوحدة مع دمشق في ١٩٥٨ فكرة احكام الطوق على اسرائيل ولكن بانفكاك الوحدة التي لم تعمر بسبب تناقضاتها الداخلية كان لا بد من دعم قيام الثقل الطبيعي لوحدة الهلال الخصيب .

وبعد حزيران ١٩٦٧ بدأت اعادة الحسابات وتبنت مصر رسمياً في ١٩٦٨ موضوعة الجبهة الشرقية وبدأت تطرحها كجزء من استراتجية الصمود .

وفي ١٩٦٩ شهدت ليبيا والسودان انقلابين اعلنا موالاتهما لعبد الناصر ، وان كان الزمن أكد لاحقاً مصداقية الأول الذي تحول الى ثورة وتحول الآخر الى نسخة ساداتية

وحين كان القائد عبد الناصر لم يزل في موقع المسؤولية يمسك بزمام الأمور ولم يكن بعد السودان قد جارى حكم مصر الذي خلف عبد الناصر في انحرافه ، اتجه الرئيس العربي الى حقائق الوحدات الطبيعية من ضمن رابطة العروبة الشاملة فبينما كان يدعو الى قيام الجبهة

الشرقية في الهلال الخصيب اتجه الى وحدة وادي النيل . ففي ٢ كانون الثاني ١٩٧٠ خاطب الرئيس عبد الناصر جماهير الخرطوم قائلا . « أيها الاخوة ، اننا نسير في طريقنا ، لقد قال الاخ اللواء النميري انكم مع اخوتكم في مصر ، الجيش جيش واحد ، والشعب شعب واحد ، وهو هو المعنى الكبير الذي يعبر عن وحدة وادي النيل وعن وحدتنا في مصر والسودان . ان الوحدة التي كانت في الماضي والتي كانوا ينادون بها في الماضي كانت وحدة بين الاقطاع ولا يمكن الزعم بأي حال من الاحوال أن نقبل وحدة بين الاقطاع . انها ستسمى في هذه الاحوال وحدة أو عمل توسعي . اما الوحدة التي ننادي بها اليوم : فهي وحدة الاحرار ، وحدة الثوار ، وحدة العاملين من أجل البناء ، وحدة قوى الشعب العاملة » .

لقد أكد عبد الناصر المضمون التقدمي للوحدة ولكنه انطلق منها كحقيقة اجتماعية فعندما سقط حكم الاقطاع رحب بالوحدة . أما وحدة الهلال الخصيب فقد تبدلت انظمة ومضامين ولكن بقي التعثر يحول دون انجازها .

الا ان الاستراتيجية الناصرية بعد ١٩٦٨ ركزت على وحدة الجبهة الشرقية كتركيزها على وحدة وادي النيل فاتجهت عمليا نحو ملء العمق الاستراتيجي لكل من الجبهتين الشمالية والجنوبية مع ارتباطهما بقيادة مشتركة .

وهو نفسه المشروع الذي دعونا له في الحزب السوري القومي الاجتماعي في كل هذه المرحلة الماضية على غير طائل في التحقيق .

ان وعي وحدة الهلال الخصيب على أساس توحيد الجبهة الشرقية حصل بعد نكبة حزيران من منظار الاستراتيجية العسكرية وضروراتها المصيرية في الصراع مع العدو الاسرائيلي . لقد استفاقت الاستراتيجية العسكرية بعد النكبة على الثغرات الاساسية في بنيانها فوجدت في غياب هذه الوحدة الطبيعية ما يقوض كل مخططاتها .

وهنا نجد أن وعي مصر لهذه الحقيقة في ١٩٦٨ سبق بكثير وعي حكام الهلال الخصيب انفسهم في ذلك الحين . فلقد كان واضحا أن مصر عبد الناصر التي دعت الى توحيد الجبهة الشرقية بعد أن اكتوت في حزيران بنار النكبة الناتجة على الصعيد العسكري الى حد بعيد عن غياب التنسيق الكامل بين دول الهلال الخصيب والذي كان من شأنه لو حصل اقامة جبهة قوية في الشمال تشكل مقتلا للعدو لقرب منطلق قوتها النارية من أهدافه مما يجعلها من جهة تبدل نتائج المعركة تعديلا نوعيا ومن جهة ثانية تحمل عن مصر أعباء كثيرة .

وهكذا أدركت العسكرية المصرية بعد نكبة حزيران ما لم تدركه السياسة المصرية من قبل من أن وحدة الهلال الخصيب هي قوة لمصر لا العكس .

ولقد الحت العسكرية المصرية على ضرورة قيام وحدة الجبهة الشرقية وعملت بعد حزيران ١٩٦٧ وبدءا بالتحديد من ١٩٦٨ على التقريب بين دول الهلال الخصيب المتنابذة وحاولت ان تكبح من طروحات دمشق في تلك المرحلة حول مشروع الوحدة مع مصر والجزائر بدعوتها دمشق الى التنسيق مع العراق .

اولا : لماذا مصر في ١٩٦٨ تصرفت هكذا ؟ لماذا كان خطها من قبل ضد وحدة الهلال الخصيب ؟

نجد الجواب عن السؤال الاول في اتجاه مصر بعد نكبة حزيران ١٩٦٧ الى القتال

المصري ضد العدو الاسرائيلي بعد فراغها من جهة من قتال العدو الامبريالي في معركة السويس والاحلاف وبعد تضخم دور العدو الصهيوني في هزيمة ١٩٦٧ . فبعد حزيران ١٩٦٧ سارعت قيادة عبد الناصر الى بناء القوات المصرية والنظر الى الاوضاع العربية من زاوية استراتجية القتال ضد العدو الاسرائيلي . وفي ضوء استراتجية القتال هذه فرضت الحقائق الطبيعية الموضوعية نفسها على علم الاستراتجيا العسكرية الذي لا يمكن ان يهمل او يسقط العوامل الجغرافية والبشرية والاقتصادية الموضوعية المتكاملة في امتداد الارض وحشد الطاقات عليها . وبالتالي فان استراتجية القتال تفرض العمق الاستراتجي للجبهة ووحدة الهلال الخصيب — الجبهة الشرقية هي وحدة قتالية في ظروف المجابهة مع العدو لا غنى لاية استراتجية صدامية مع العدو عنها كما ان عمق الجبهة المصرية هو في وحدة وادي النيل حتى ليبيا .

كل الاعتبارات تسقط في لهب المعركة وتبرز وحدها الحقائق الموضوعية .

الصراع ضد العدو الصهيوني لا يمكن ان يكون بدون بعث وحدة الهلال الخصيب — الجبهة الشرقية لأن القتال الاساسي ضد المشروع الصهيوني هو انطلاق من محيط فلسطين الطبيعي . وما لم يتوحد هذا المحيط الطبيعي لا يمكن دحر الصهيونية .

وهكذا في الوقت الذي كان عبد الناصر يدعو في الخرطوم الى « وحدة وادي النيل وحدتنا في مصر والسودان » في ٢ كانون الثاني ١٩٧٠ استكمالا لعمق مصر الاستراتجي وجبهتها مع العدو كان يقول الرئيس عبد الناصر أمام مجلس الامة في ٢٠ كانون الثاني ١٩٦٩ أي قبل سنة تقريباً من قوله اعلاه ، حول أهمية قيام وحدة الجبهة الشرقية انطلاقاً من ضرورات المعركة ما يلي :

« أما من الناحية العسكرية فقد بذلنا وما زلنا نبذل كل الجهود من أجل دعم وزيادة فعالية جبهة المواجهة الشرقية مع العدو ، وهي الجبهة التي تشترك فيها قوات العراق وسوريا والاردن لكي تؤدي دورها بالتعاون مع الجبهة المصرية التي تتشرف بأن تجد في خطوطها قوات من الجزائر والسودان . »

« ان الجبهة الشرقية التي يتلاقى عليها عمل هذه القوات العربية الباسلة ذات أهمية استراتجية لا تعوض فضلا عن الوصول بها الى حد التأهب المرجو سوف يعطي لقوى أخرى من قوى النضال العربي نوعا من الحماية المباشرة والمساندة السريعة . »

ان تفكير عبد الناصر في السنوات الثلاث التي عاشها بعد نكبة حزيران ١٩٦٧ — ١٩٧٠ متجه الى « الناحية العسكرية » ، الى حشد طاقات القتال ضد العدو الاسرائيلي ، فالاستراتجية العسكرية هي التي تملي عليه تصوره السياسي . وحدة الجبهة الجنوبية ووحدة الجبهة الشرقية .

والقتال هو ضد العدو الاسرائيلي ومن هنا أهمية الجبهة الشرقية التي يشكل توحدها مقتلا لهذا العدو .

ولقد كانت الجبهة الجنوبية الغربية ، اقدر على الحركة والفعالية حين تفجرت فيها ثورات ناصرية تكاملت من ليبيا الى السودان لتلتقي مع ثورة عبد الناصر في مصر . وبدأت منذ ١٩٦٩ حركة بين القاهرة وطرابلس والخرطوم وكان لقاء طرابلس ثم لقاء الخرطوم ثم لقاء القاهرة تمهيداً لوحدة ثلاثية ترتكز على التكامل الطبيعي والبشري والاستراتجي .

وكان اتجاه عبد الناصر ان ينهض الامر نفسه على مدى الجبهة الشرقية .

ولكن الوضع كان مختلفا . فبعد ان اتجه عبد الناصر الى دعم وحدة الجبهة الشرقية ووحدة وادي النيل ، وحدتي العمق الاستراتجي الطبيعي للمعركة وعلى أساس تصور جديد للعلاقات العربية قدمه في مشروع الى الجامعة العربية يدعو فيه الى قيام نمط من الكونفدرالية المرنة على غرار السوق الاوروبية المشتركة . استمر التفكير في دمشق متجها الى تكرار التجارب السابقة بل والى اعتبار عدم تكرارها هو سبب الكارثة .

لقد أفاد تفكير الرئيس عبد الناصر من نتائج النكبتين نكبة انهيار الوحدة في ١٩٦١ ونكبة حزيران ١٩٦٧ لاعادة نظر جذرية في المسلك الوحدوي باتجاه ارسائه على الحقائق الموضوعية .

بينما جاء خطاب الدكتور نور الدين الاتاسي في ٢٣ تشرين ١٩٦٨ يعتبر بأن أسباب نكبة حزيران ١٩٦٧ انما تعود الى انفكاك الوحدة بين دمشق والقاهرة . فهل حقا نستطيع ان نعيد نكبة حزيران الاخيرة الى يوم انفكاك الوحدة بين مصر والشام في ٢٣ أيلول ١٩٦١ دون أن نفطن الى ان ذلك الحدث سقط بقيام حكم البعث في دمشق وفي بغداد أيضا . وان بعده حصلت المباحثات الثلاثية مع مصر في ١٩٦٣ .

ثم وهذا هو الاهم فعلى الصعيد الدفاعي قام اتفاق دفاع مشترك بين مصر والشام قبل حزيران ١٩٦٧ . ومع ذلك لم يحل دون النكبة لأن الثغرة الاساسية بقيت في عدم انتظام الدفاع المشترك للجبهة الشرقية كوحدة متكاملة .

لقد استمر الحكم في دمشق في عدم التمييز بين ما هو متكامل جغرافيا وبشريا واقتصاديا وبين ما هو علاقة جبهوية عربية . فنشر صلاح جديد في المؤتمر القطري لحزب البعث المنعقد في آذار ١٩٦٩ مشروعي الوحدة اللذين تقدم بهما في تموز ١٩٦٧ ، وهما يدعوان الى وحدة مصر والجزائر والعراق والشام . ومن الواضح أن لا مصر ولا الجزائر كان في وضع قبول الوحدة وان الواقع والمصير يفرضان الشروع في الوحدة مع العراق وقيام محور دمشق ـ بغداد لا سيما بعد ان سقط التحفظ الذي وضع في ١٩٦٣ من أن قيام وحدة الهلال الخصيب تعتبر تمحوراً ضد القاهرة بعد أن دعا الرئيس عبد الناصر نفسه الى قيام الجبهة الشرقية وقيام وحدة وادي النيل استكمالا للعمق الاستراتجي لجبهة المواجهة في الشمال ولجبهة المواجهة في الجنوب .

لقد انفصل تفكير الرئيس عبد الناصر عن الرومانسية في الهلال الخصيب واتجه الاتجاه العملي الوحيد صوب المواجهة مع العدو الاسرائيلي : الوحدات الطبيعية ضمن الجبهة الغربية .

اما لماذا حارب الرئيس عبد الناصر وحدة الهلال الخصيب من قبل . فلأسباب متعددة . أولها أنه كما قال في وحدة وادي النيل « ان الوحدة التي كانت في الماضي والتي كانوا ينادون بها في الماضي كانت وحدة بين الاقطاع ولا يمكن الزعم بأي حال من الأحوال ان نقبل وحدة بين الاقطاع . » ويمكن سحب الشيء نفسه من ضمن الموقف الناصري على وحدة الهلال الخصيب قبل سقوط الاقطاع في العراق في ١٩٥٨ . ولكن بعد ثورة تموز انفتح باب الوحدة فلماذا لم تطبق المقولة الناصرية نفسها . « اما الوحدة التي ننادي بها اليوم ، فهي وحدة الاحرار ، وحدة الثوار ، وحدة العاملين من أجل البناء » .

لنقل هنا ان السبب الثاني حمل رواسب عملية انفكاك الوحدة بين الشام ومصر بحيث بات رد الاعتبار للوحدة انما هو في عودة الشام الى « بيت الطاعة » مع مصر . من هنا احساس

عقدة الذنب الذي حال دون اتمام وحدة بغداد ودمشق في ١٩٦٣ رغم خلافهما مع القاهرة وفرط مباحثات الوحدة الثلاثية. لقد بقي الشعور انه لا يجوز الايغال أكثر من جرح انفصال ١٩٦١ وبات كل وحدوي عروبي يشعر انه مسؤول عن مداراة ذلك الجرح . ومن هنا كان نص دستور عارف في العراق في ١٩٦٤ على البدء بالوحدة مع القاهرة مستبعداً الوحدة مع دمشق . وكان واضحاً ان لا وحدة بين العراق ومصر ولكن بالمقابل استبعدت الوحدة الأقرب حتى لا يتاح للشام زواج خارج بيت الطاعة المصري .

اذا امعنا النظر في تلك المسيرة ، نفهم مسبباتها ، نقدرها ، ولكن هل تكون مصائر الشعوب رهن هذه المركبات والعقد كلها ؟

ولماذا قامت الوحدة أصلا بين دمشق والقاهرة في ١٩٥٨ ؟ لسببين متلازمين . اولهما ان التيار الوحدوي كان أقوى ما يكون في دمشق وهو الذي انفدع الى عبد الناصر وكأنه يحقق حلم التاريخ . كان تياراً جارفا تاريخيا ربي على أماني الوحدة العربية وهو أصلا ، رد على تجزئة الهلال الخصيب في اتفاقية سيكس – بيكو ووجد في مصر عبد الناصر المتحدية الاستعمار المعيدة للعرب كرامتهم الضالة المنشودة . ان التيار الوحدوي في الهلال الخصيب الذي هدر في الخمسينات والذي نشأ منذ نحو مئة سنة كان في الوقت نفسه تياراً قويا ولكنه مقيد بتناقضات التجزئة التي فرضها الاستعمار على بيئة الهلال الخصيب منذ العشرينات . ان صورة الهلال الخصيب المجزأ لم تساعد على تبلور تيار الوحدة حوله ولكنه بقي الينبوع المتجمع لينفجر بزخم يتجاور حدود الوطن الطبيعي الى مدى أوسع .

وثاني هذين السببين ، ان وحدة نضال كانت تشد دمشق الى القاهرة في الموقع المجابه للاحلاف ونفوذ الامبريالية في المنطقة . ولم يكن عبد الناصر قد واجه بعد عدوانا كعدوان حزيران ١٩٦٧ ، عدوانا اسرائيليا يوجه اقسى الضربات لمصر ويدحر سلاحها ويصل الى القناة .

كان عدوان ١٩٥٦ عدوان الامبريالية الذي استظلته اسرائيل . كان عبد الناصر يتحدى الامبراطورية البريطانية في جولة ثانية بعد تأميم القناة . وكان يواجه الاستعماريين البريطاني والفرنسي .... واسرائيل .

وكانت معركة الاحلاف الاستعمارية قد بدأت . وكانت بغداد مركز العمليات بالنسبة لهجمة الاحلاف .

في الخمسينات كان عبد الناصر يخوض الصراع ضد الامبريالية ودور اسرائيل كان في نظره من خلال دورها كجزء من معادلة المعسكر الامبريالي . لم يكن خطرها مجسما كما بدا له بعد حزيران ١٩٦٧ .

والصراع مع الامبريالية كان منطلقه قناة السويس، والوحدة مع دمشق كانت تطويقاً للعراق الهاشمي المتآمر على دمشق ومركز عمليات حلف بغداد .

في ١٩٦٧ اصبح الصراع مع العدو الاسرائيلي هو محور الاستقطاب وأصبحت وحدة العمق الاستراتجي للجبهة هي المحور والضرورة .

صحيح ان لا فصل بين الامبريالية والصهيونية . ولكن نسبة المعادلة اختلفت . في ١٩٥٨ كانت الامبريالية هي الخطر المجسم . في ١٩٦٧ كانت الامبريالية قد طردت خلال العشر سنوات التي انقضت من المنطقة وأصبحت اسرائيل هي الخطر الماحق . وفي الحرب مع اسرائيل

لا بديل عن الوحدات الطبيعية أساسا لاستراتجية المواجهة .

عقل عبد الناصر براغمسي . يؤمن بالتجربة والتجربة أكدت له أن مواجهة العدو الاسرائيلي تقتضي توحيد الجبهة الشرقية ووحدة وادي النيل . كما أن التجربة أكدت له أنه لا يجوز استمرار الانسياق مع النزوع العاطفي للوحدة السائد في الهلال الخصيب مهما كان مخلصاً ومثاليا . وان حقائق الجغرافية والاستراتجية تقول غير ذلك . والتجربة أكدت له ان المعركة لم تعد مع الاقطاع ومع وحدة الاقطاع في بغداد التي كانت في ١٩٥٨ بل أصبحت مع العدو الاسرائيلي في ١٩٦٧ الذي وصل الى القناة واجتاح الاراضي العربية بعد احتلاله كل فلسطين .

من هنا كان تفكير الرئيس عبد الناصر العملي وحدة الجبهة الشرقية ووحدة وادي النيل . الحرب ، الوحدة القتالية ، عمق الجبهات هذه كانت محركات المرحلة . وهو محرك الصراع المصيري ضد العدو الاسرائيلي .

بعد غياب عبد الناصر الاتحاد الثلاثي وبداية حكم السادات

وبعد غياب عبد الناصر قام مشروع الوحدة الثلاثية في اعلان بنغازي وقد انضمت اليه دمشق وخرجت منه السودان . وكان اتحاد الجمهوريات العربية بديلا عن الجمهورية العربية المتحدة صيغة أكثر مرونة . وكان في الاصل وحدة ثلاثية مع السودان وليبيا ، في آخر أيام عبد الناصر ولكن احداث السودان الدامية بعد غياب عبد الناصر أخرجته من الحلبة .

ووجدت دمشق في انضمامها اليه انهاء «لاوجاع » انفكاك الوحدة المصرية السورية النفسانية وبدون الوقوع في عثرات تلك الوحدة ، فضلا عن مسعى دمشق بعد ١٩٧٠ الى ايجاد قيادة مصرية سورية مشتركة لمواجهة التحديات. ولقد سعت دمشق سعيا دؤوبا في سبيل بقاء هذه الصيغة التي أثمرت حرب اكتوبر في ١٩٧٣ ولكنها تعرضت على أيدي السادات للسقوط في ١٩٧٥ بعد اتفاقية سيناء ثم في ١٩٧٧ عند زيارة الاراضي المحتلة وعقد صفقة السلام الاستسلامي مع العدو .

ومن هذه الزاوية كان الاتحاد الثلاثي تجربة ولدت ميتة . ففي ظل سقف هذا الاتحاد نقض السادات مفهوم القيادة المشتركة وخرج على روحها حين وقع اتفاقية سيناء ثم حين ذهب بعد سنتين الى القدس المحتلة . وفي ظل سقف هذا الاتحاد اشتعلت الحرب العربية ـ العربية التي شنها السادات على ليبيا .

وفي مواجهة تحديات الحل السلمي انقسم الاتحاد الى ثلاثة تيارات : تيار مستسلم ، تيار متعاط مع التسوية بحذر ، وتيار رافض . كما أظهر الاتحاد الثلاثي انه ليس بديلا عن الوحدات الطبيعية في مواجهة العدو الاسرائيلي . ففي حرب تشرين كانت مسألة بقاء الجيش العراقي أو عدم بقائه في الجبهة السورية وكل الجدل الذي دار حولها هو المشكلة الاساسية بالنسة لتلك الجبهة . كما ان العدو وصل الى البر المصري وبدون ان تكون كل طاقات عمق الجبهة المصرية في المواجهة .

لقد كان تفكير عبد الناصر في توحيد عمق الجبهتين الشرقية والغربية بقيام وحداتها الطبيعية منبثقا من ضرورات المعركة . ولكن بعده بدأ التأرجح حول المعركة أو اللامعركة ، حول عام الحسم للسلم ام للمجابهة ، وهذا التأرجح هو الذي شل قيام استراتجية واضحة .

وكان الاتحاد الثلاثي على هذا هربا الى الامام من كل هذه التحديات وأكبرها تحدي ليبيا الثورة لجدية الاتجاه الوحدوي ومدى اخلاصه عند السادات والذي سرعان ما ظهر زيفه .

وسنرى كيف ان السادات كان يفكر بالاستيلاء على ليبيا وثرواتها بعد تصفية القضية وعقد الصلح مع العدو بدل الاتحاد معها ، دعماً لعمق الجبهة في المواجهة مع العدو . وكيف أن وحدة وادي النيل مع السودان التي أرادها عبد الناصر وهو يهجس بالحرب عمقا للجبهة المصرية غدت عند السادات دعماً لاتجاه الاستسلام وتأييداً له . فالوحدة تكتسب مضمونها ليس من مجرد تحقيقها بل من الغاية التي يرتبط تحقيقها بها . فقد تكون حاضنة عملية الاستسلام والتعويض عنها وقد تكون حاشدة طاقات المواجهة لحرب الصمود والتحرير . ذلك ان تحقيق الوحدة يقوم على العامل الموضوعي ولكن الوحدة واتجاهها يحدده العامل الذاتي .

الوحدة في مطلق الاحوال أفضل من الانفصال من حيث انها تعيد لسريان الحياة شرايين الاتصال ولكن وجهتها يحددها اتجاه القيمين عليها ولا يحددها مجرد تحققها . الا ان الحرب تتطلب وحدة ما ، كما ان السلم يفرض صيغة أخرى . فماذا كان الاتحاد الثلاثي حين قام في ١٩٧١ ؟

ولعل أغرب ما طرح في ذلك الحين تهليل محمد حسنين هيكل لمشروع الاتحاد الثلاثي هذا الذي بدا وكأنه بديل عن وحدة الجبهة الشرقية ، وهذا فعلا ما حصل لاحقا وظهر ان السادات غير معني بقيام هذه الجبهة ذات القيمة الاستراتيجية البالغة للمعركة وهو الذى أخذ يتجه نحو السلم فالاستسلام ، لقد كان استغرابنا لتهليل محمد حسنين هيكل لأنه في ٤ آب ١٩٦٨ حين أطلق عبد الناصر شعار الجبهة الشرقية للمواجهة كتب محمد حسنين هيكل في « الأهرام » يقول بأن الاستراتيجية العربية باتت أخيرا تقوم على جبهتين عربيتين « جبهة غربية تقف عليها القوات المسلحة المصرية تساندها القوة الجزائرية والقوة السودانية ، ثم جبهة شرقية تقف عليها القوات السورية والأردنية المدعمة بالقوة العراقية في الأردن واحتياطها الكبير في العراق . »

ويرى محمد حسنين هيكل في مقاله ذاك بأن قيام الجبهة الشرقية هو مفتاح القوة للجبهة المحيطة باسرائيل بأجمعها والا فان « أخطر ما في الموضوع أنه بدون قيام الجبهة الشرقية ، ومع الظروف السياسية القائمة في الاردن وطبيعة الاوضاع فيه فانه من المتصور أن يزداد الضغط ... على قلب الجبهة الشرقية » وهو يرى ان « القوى الراغبة في كسر الموقف العربي المتماسك كثيرة ، وأولها اسرائيل مدعمة بكل التأييد الاميركي . »

هذا كان رأيه في ٤ آب ١٩٦٨ فماذا كان رأيه في ١٩٧١ في تحقيق الاتحاد الثلاثي الذي وضع ملف الجبهة الشرقية على الرف ؟

هنا نعود الى ما كتبنا في ٢١ آب ١٩٧١ (١) حول الاتحاد الثلاثي لأن أحداث السنوات التالية أكدت مصداقية معظم تحفظاتنا وتخوفاتنا وملاحظاتنا :

اسئلة امام دول الاتحاد

* الموقف من المقاومة هل هو تكتيك مرحلي أم استراتيجية دائمة ؟
* هل الاتحاد بديل حربي عن الحل السلمي أم وسيلة لتحقيق هذا الحل ؟
* هل يغني قيام الاتحاد عن تحقيق الجبهة الشرقية ودور الشام فيها ؟

---

(١) البناء العدد ١٠٢٣ ــ ٢١ آب ١٩٧١

« جاء المخاض بهذا الاتحاد العربي الجديد وسط آلآم النكبة وتعثراتها وفي وقت تأرجح فيه الوضع في العالم العربي بين قبول الحل السلمي . قيل بأن قيام الاتحاد المذكور . هو لتشكيل ثقل ذي وزن في الكفة العربية من الميزان الدولي لفرض الشروط التي تناسب بعض الدول العربية على طاولة المفاوضات مع أميركا واسرائيل ، وقيل من ثم . بل ان قيام هذا الاتحاد هو البديل الذي لا بد منه في حال تأزم الوضع وفشل الحل السلمي وقيام ضرورات الحرب بهذه الصورة أو تلك .

«وبينما يجتمع رؤساء دول الاتحاد في دمشق تظهر في كبرى صحف القاهرة «الاهرام» مقالة محمد حسنين هيكل حول « الاتحاد والمعركة » يتحدث فيها عن طاقات دول الاتحاد باعتبارها تحتل « نصف الامة العربية » فيرى ان الطاقة المادية لمجتمع هذا الاتحاد هائلة . انتاج صناعي زراعي في مصر يزيد عن خمسة الآف مليون جنيه ، والانتاج الصناعي الزراعي في سوريا يصل الى الف مليون جنيه ، حصيلة البترول الليبي تصل الى الف مليون جنيه ! ثم يتحدث عن نوع البشر المطلوبين لمستوى التحدي الاسرائيلي فيرى بأنه « متوافر بالقدر الكافي كما وكيفا في اطار الاتحاد » .

« ويتحدث عن الناحية الاستراتجية فيرى « ان الاتحاد سيطر استراتجيا على موقع حاسم » وبالنتيجة يخلص الى « الاتحاد على هذا النحو يستطيع بشريا واقتصاديا واستراتجيا ان يحقق حشدا من القوة العسكرية والسياسية تكون له الفاعلية المطلوبة » .

لقد أكدنا أكثر من مرة اننا مع الاتحادية العربية ، وانها من خط سير هذا العصر الذي تفتش فيه مجتمعات أقاليمه المتجانسة عن اقامة الاسر الدولية المترابطة دفاعيا واقتصاديا وسياسيا . واذا كنا نبدي من رأي فانطلاقا من موقع ايجابي ازاء الاتحادية العربية لا سيما في معركة المواجهة مع « اسرائيل » والاستعمار . غير اننا لا نستطيع مهما بلغت فينا الايجابية والتأييد لقيام الاشكال الاتحادية العربية الا ان ننطلق من موقع علمي موضوعي في تحليل الامور وحكها على محك الحقائق لا على محك التمنيات .

«وأول ما يطالعنا في هذ المجال ان القوة الحقيقية لا يمكن ان تكون مجرد تراكم قوى . بل هي التي تنبع من تفاعل متكامل لدورات اقتصادية اجتماعية اهمها ترابط في الجغرافيا وتفاعل تام في شؤون الحياة الى ان تصبح في هذا المستوى .

فلو طرحنا ما قدم السيد هيكل من عوامل القوة في الاتحاد المنشود على محك الواقع لرأينا ان ثمة ثغرات لا بد من مواجهتها قبل القول بأن الاتحاد المذكور « يستطيع بشريا واقتصاديا واستراتجيا » ان يحقق القوة المطلوبة . فمن جهة نجد ان « الانتاج الصناعي الزراعي في سوريا » لا يقاس بمحاصيله بمعزل عن تبيان الوهن الذي يعاني منه هذا الاقتصاد وكل اقتصاد آخر في الهلال الخصيب طالما تسود أوضاع القطيعة والتناقضات الكيانية في البيئة الطبيعية الواحدة التي تشكل بعراقها وشامها وأردنها ولبنانها وكويتها فضلا عن فلسطينها المغتصبة دورة حياة اقتصادية اجتماعية واحدة . ان نمو الاقتصادات الكيانية وفق ما رسم وخطط سايكس ـ بيكو هو من أدهى نتائج التقسيمات الاستعمارية التي تمت في العشرينات . ولقد رأينا النزيف البشري الذي عانت منه هذه الكيانات لا سيما في لبنان حيث أكثر من نصف سكانه بات في دنيا الغربة كما رلينا مأساة اقتصاد الخدمات اللبناني الذي يعاني من تشنجات موسمية لا تفيد معها مسكنات موقوتة كالضمان الاجتماعي أو خفض اسعار الادوية أو رفع بعض الأجور قليلا . فالهجرة تقتلع زهرة شباب لبنان من أرضه لتوزعهم على قارات العالم

الخمس ، ولم تجد في أي من هذه الكيانات خطة علمية عملية لتحويل الاقتصاد من اقتصاد الاستهلاك الى اقتصاد مجتمع الحرب بكل تبعاته ونتائجه . وبينمايحتاج العراق القروض لخطة التنمية ، يفيض عن الكويت دخل وفير من انتاج النفط .

« اما على الصعيدين الاستراتجي والبشري فلا تستطيع ان تقدم خطة مواجهة عربية دون قيام الجبهة الشرقية المتكاملة استراتجيا والمتلاحمة بشرياً والتي هي قبل أي جبهة اخرى منطلق المقاومة إلفلسطينية ومرتكز حرب التحرير القومية ضد « اسرائيل » .

«هذا ما أجمع عليه استراتجيو العالم العربي لا سيما رجال المدرسة العسكرية المصرية انطلاقاً من نكبة حزيران وما طرحت من تحديات ، وهذا ما نادى به الحزب السوري القومي الاجتماعي منذ نشوئه عندما دعا الى قيام وحدة سورية الطبيعية في كل المجالات العسكرية والاقتصادية انطلاقاً من وحدة مجتمعها المتحققة على وحدة أرضها . فهل نطوي الان ما أوصى به رجال الحرب في العالم العربي ونعتبر ان البديل الاستراتيجي عن قيام وحدة الجبهة الشرقية . ودور الشام فيها أساسي ومحوري . هو ان تبقى الشام منعزلة عما حولها لترتبط باتحادات عربية أشمل ، اننا لسنا ضد قيام الاتحادية العربية بل من دعاتها ومناصريها ، ولكننا نراها تستقيم على قواعد أصح اذا ما تحققت على أساس وحدات العالم العربي الطبيعية المرتبطة في ما بينها بصيغة اتحادية أوسع . فالشام التي لا تؤدي دورها القيادي لا هي ولا العراق في الجبهة الشرقية يكون اسهامها العربي محدوداً وجزئيا مهما وسعت رقعة الاتحاد ومهما ترامت أطرافه . ويصبح التغني بدخول هذا الاتحاد وكأنه البديل عن القيام بالتبعات والمسؤوليات المباشرة التي يفرضها بالضرورة بناء مجتمع الحرب على مدى الجبهة الشرقية .

« اننا اذ نتمنى للقائمين بالخطوة الاتحادية كل خير لا نستطيع الا ابداء هذه التحفظات التي تصل الى مستوى الاعتراضات . تفرضها علينا المعركة .ويفرضها الواقع الاجتماعي الانساني . واقع البيئات الطبيعية البشرية الاقتصادية ووجوب الانطلاق من مبدأ تأمين وحدتها .

«ان حقائق الواقع هي التي ينبغي ان توجه السياسات والتحركات وليس أسطع من الحقائق التي تبرزها النكبات وتبلور سطوعها الكوارث القومية الكبرى . نحن لا نتحفظ على الاتحادية والاتحاد ولكننا نعترض في أن يغدو بديلا عن النضال على كل صعيد لتأمين وحدة البيئة الطبيعية وضمان الانطلاق منها . واننا لهذا ندعو الى تدعيم الاتحادية والاتحاد بقيام وحدة وادي النيل بين السودان ومصر وقيام وحدة سورية الطبيعية انطلاقاً من وحدة الشام والعراق.

« الشام وحدها في الاتحاد الجديد . ستقدم امكانيات ضعيفة أين منها ما يمكن ان تقدمه البيئة الطبيعية الواحدة الموحدة .

« ان كل نقص أو تخلف عن تحقيق وحدة وادي النيل والوحدة السورية سيرتد ضعفاً عاماً على جسم الاتحاد الكبير فلا يلبث الا ان تعتري أواصره أوصلب وأوجاع كثيرة .

« يبقى أخيراً موقف الاتحاد من المقاومة الفلسطينية.. واذا كان قد باشر مساعيه بتفهم وضعها الصعب في الاردن . فان على دوله ان تحدد هي أولا استراتيجيتها ازاء الحرب والسلم في المنطقة فلا يكون تدخلها في هذا الشأن من قبيل التكتيك الموقت . أو « مرهما » مسكنا على جراح لما تندمل .

والسؤال المصيري الكبير الذي يواجه دول الاتحاد هو : هل هي في مخطط السلم أم في

مخطط الحرب ؟ وهل حربها اذا كانت ستسلك طريق الحرب هي في الأخير تكتيك موقت ضمن استراتيجية السلم الاوسع بحيث ستكون مناورة ضغط لاستخلاص شروط أفضل من ضمن الحل السلمي المهين ؟ أم انها عزمت بعد ان يئست من المناورات الدولية ـ على حشد الطاقات لحرب التحرير فاعتبرت عن حق ان المقاومة الفلسطينية لها دورها في هذه الحرب ولها موقعها الطبيعي .

« **كل هذه الاسئلة تواجه دول الاتحاد ولا بد ان تجيب عنها بصراحة حتى تكون سياستها تجاه المقاومة واضحة المعالم لا يكتنفها الغموض ولا يلفها الابهام** » .

هذا ما قلناه في ١٩٧١ ولقد اجاب السادات عبر المسيرة وفي نهاية مطافها في ١٩٧٧ برحلته الى الكنيست على اسئلتنا حول الموقف من الحلول السلمية المطروحة وحول مدلول التكتكة بالحرب لغرض تبرير الاستسلام . وقد كان انفراط الاتحاد الثلاثي وولادة ميثاق العمل القومي المشترك بين بغداد ودمشق الجواب العملي على تساؤلنا يبقى ان نعرض للموقف النقيض والبديل ، موقف التصدي والصمود : وحدتنا القتالية والجبهة العربية المعادية للاستعمار والصهيونية .

الفصل الخامس والعشرون :

لقاء الحركة القومية العربية والحركة السورية القومية الاجتماعية حول وحدة الهلال الخصيب والجبهة العربية المعادية للاستعمار :

لساطع الحصري في كتابه « العروبة بين دعاتها ومعارضيها » الصادر في ١٩٥٢ رأي حول ان فكرة الجبهة العربية عند سعادة قابلة لأن تتطور الى الفيدرالية واعتبر ان ذلك يمكن أن يؤدي الى حصول تلاق بين حركة القومية العربية والحركة القومية الاجتماعية (ص ٧١ من كتابه « العروبة بين دعاتها ومعارضيها . »)

والذي يبدو ان هذا التقارب اخذ في الحدوث منذ ١٩٦٧ ولكن خلافا لتوقعات الحصري فان التطور لم يكن وحيد الطرف فيقتصر على فكرة الجبهة العربية القابلة أساسا للتطور باتجاه أي نوع من انواع الاتحادية تبعا لتطور ونمو العلاقات وتشابك المصالح العربية . بل ان التطور ، كما نلحظه هو الذي تمخضت عنه حركة القومية العربية نفسها التي بدأت منذ نكبة ١٩٦٧ تعيد النظر بكيفية تحقيق فكرة الوحدة العربية الشاملة التي حمل رايتها مثاليو الخمسينات ليستبدلوها عمليا في ضوء التحديات المصيرية بصيغة أخرى أكثر استيعابا للواقع الاجتماعي الطبيعي الاستراتجي لا يسقط هدف تحقيق الوحدة الشاملة ولكنه يؤكد على ان هذا الهدف البعيد يمر بالوحدات الطبيعية دون ان تكون نقيضه حتى تحارب منه بل هي اطاره ومسراه العملي للتحقيق .

فقد ارتفع ، بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ لمرحلة ، شعار « وحدة الدول المحيطة باسرائيل » أو « وحدة دول الطوق » ثم استقر على شعار الجبهة الشرقية الذي رفعه عبد الناصر سياسة له في السنتين الاخيرتين من حياته . وحين غاب عبد الناصر انطوى معه شعار الجبهة الشرقية ليعود بعد زيارة السادات الى الاراضي المحتلة فيطرح نفسه مجدداً بضغط الواقع الموضوعي الذي يشتد بروزه وتتضح معالمه النافرة في هبوب اعصار الاحداث فينهار الزيف وتبقى الحقيقة الموضوعية وحدها في وجه الأعصار .

ولقد شهدت الأشهر التي تلت زيارة العار الى القدس تحركا ليبيا وجزائريا جبهويا عربيا دعما لوحدة الهلال الخصيب بمحورها القومي في دمشق وبغداد وهو ما سنعرض له تفصيليا في معنى هذا التحرك وموقعه من الفكر الوحدوي .

والسؤال الذي يبادرنا هو هل رافق اتجاه قيادات العالم العربي الوطنية والتقدمية من عبد الناصر الى القذافي الى بومدين نحو دعم قيام وحدة الهلال الخصيب ـ الجبهة الشرقية ، وفي المستوى نفسه ، تطور في الفكر القومي الوحدوي ، أدرك ان موضوعة الوحدات الطبيعية لا تتناقض مع موضوعة الوحدة العربية بل أن هذه الاخيرة لن تجد لها اطاراً تنطلق منه أفضل من الوحدات الطبيعية ؟

ان الفكر القومي الاجتماعي قد قدم هذه الاطروحة على أساس تأكيد عدم تناقض الوحدة السورية مع الاتحادية العربية واعتبار الاولى منطلقا للثانية ومن ضمن استيعاب لكل الظروف

الموضوعية والشروط المادية النفسية لقيام عملية التكامل هذه .

ولقد جرت محاولات عدة لايضاح التصور القومي الاجتماعي لعملية التكامل هذه بين النضال في سبيل الوحدات الطبيعية وقيام الاتحاد العربي .

ففي « بيان ــ دراسة » المعمم في نيسان ١٩٦٧ في بونس أيرس والذي كنا رفعناه من السجن الى الرئاسة الموقتة لاصداره في بيان سياسي اساسي ، وتحت عنوان « موقف الحركة القومية الاجتماعية من الاتحاد العربي » ورد ما يلي :

« ان الحركة القومية الاجتماعية تعلن تأييدها لمطلب الاتحاد العربي على أن ينطلق من الواقع الاجتماعي ــ الجغرافي ــ الاقتصادي للعالم العربي دون أن يقف في تطوره وتطور صيغه وانطلاقه الوحدوي عند حد أخير الا حدود التطور والنمو البشريين للمجتمعات العربية .

« اننا نتبنى الحركة الاتحادية العربية دون تحفظ . الا اننا لا نستطيع ان نسير بالحركة الاتحادية على أسس رومانسية عاطفية أو ذاتية استبدادية ارادية منعزلة عن الشروط الموضوعية لقيام الاتحاد وديمومته ورسوخ دعائمه وتوطيد أركانه .

« ان النظرة القومية الاجتماعية تقدم ايديولوجية كاملة للعمل الوحدوي والعربي ينطلق من أسسها الفكرية والعقدية في اكتناه جديد لواقع العالم العربي ·

اولا : انها تؤمن بالانسان العامل الفاعل الوحيد القادر على التحقيق والتطوير الى ما لا حدود ولا نهاية . انها تعتبر الانسان (عقلا ومجتمعا) قدرة فاعلة في الطبيعة وهي لا تؤمن بالحتمية الجغرافية أو أية حتمية أخرى .

« الا انها في تقييم الانسان وقدرته لا تستطيع عمليا ان تتغافل عن الشروط الموضوعية التي تتفاعل مع المجتمع الانساني في انشاء الحضارة والعمران وتطويرها . وفي طليعة هذه الشروط الموضوعية ، بل الاساس الذي منه تنبثق كافة المعطيات المادية الاخرى ، هي البيئة الطبيعية .

« ان النظررة القومية الاجتماعية ترفض اعتبار البينة الجغرافية قدرا أو حتمية لا يمكن تخطيه بالجهد الانساني الحضاري ــ العمراني التطوري الا انها لا تستطيع من زاوية موضوعية ان تتغافل عن أهمية البيئة الجغرافية وما تقدمه من معطيات اقتصادية واستراتجية تتحصن فيها الحضارة وينشأ خلالها العمران الانساني. فهي اذن تقيم البيئة الجغرافية في حدود الامكان والتفاعل لا في حدود الحتمية والقدر الذي لا يتطور .

«وهي ترى ان بامكان الانسان انطلاقا من قاعدة « الارض تقدم الامكانات لا الحتميات» ان يتجاوز بيئته ويمد حدود العمران الى ما ورائها. الا ان نلك لا يتم تعسفا، بل ان القدرة البشرية الفاعلة المطورة تتفاعل حتى تصل الى غاياتها الحضارية البعيدة مع امكانات البيئة اولا . وحتى يتمكن الانسان من تجاوز بيئته عليه ان يصل في تفاعله معها الى الكمال والتفوق ، والى مستوى من النضج الايديولوجي الممهد أو المصاحب أو المسير لنضج تكنولوجي يؤدي بالانسان الراقي الى الطموح بعد تحقيق وحدة مجتمعه وتماسكه وبعد سيطرة الانسان ــ المجتمع على بيئته المعنية الى توسيع وتعميق عرى التواصل مع المجتمعات الشقيقة حتى تتحقق معها في ظل هذا النضج الايدو ــ تكني وثبة اتحادية نابعة من تشابك في المصالح الحياتية ، وتواصل في العمران والاجتماع وبالتالي حلول ظروف مادية واجتماعية جديدة لقيام اتحادات

أوسع من حدود المجتمع والبيئة الطبيعية ، ان المجتمع الانساني الذي يطمح الى تجاوز حدود بيئته الطبيعية في انطلاق نحو ما هو أبعد من حدود الامكان الطبيعي هو المجتمع الذي ارتقى من تفاعله مع بيئته الى حد التفوق والنضج الايدو ـ تكني فطمح بتولد مشاعر انسانية جديدة لديه ترتكز الى حضارة مشتركة مع مجتمعات شقيقة والى مد دورة العمران والحياة بينها لتتصل بتفاعل متكامل تحقق اشكالا اتحادية جديدة .

ثانيا : من ضمن هذه النظرة القومية الاجتماعية نحدد حالة التخلف بأنها حصيلة جمود دورة الحياة والعمران في المجتمع أو وهنها نتيجة مجموعة من العوامل كالتمزيق السياسي أو الاجتماعي ، نتيجة الاستعمار المتحالف مع الانحطاط والافقار والرجعة فتنشأ على أنقاض هذه الحالة من وهن دورة الحياة القومية مفاهيم وتقاليد انقسامية في المجتمع الواحد كالطائفية والعشائرية والاقليمية المحلية . وأن عودة المجتمع الى التفاعل الحيوي مع بيئته الجغرافية في ظل مفاهيم فكرية واجتماعية جديدة (ايدولوجية) يولد انطلاقة تحقق تكامل التفاعل بين فئات الشعب وانصهارها في بوتقة المجتمع الواحدة بحيث تزول النزعات العرقية والطائفية والقبلية وتصهر في دورة الحياة المتكاملة مع البيئة وبروز الوعي القومي والفكر الانساني بادراكه أعمق معاني المواطنة بارتباط جذره بالارض القومية والتعرف الى الهوية القومية في دورة الحياة والعمران الواحدة بدل البحث عنها في الاصول السلالية المختلفة أو المجتمعات الطائفية المتنابذة أو التكتلات القبلية أو المحلية .

« من هنا لا يستطيع مجتمع متخلف مشتت الهوية والولاء بين مختلف النزعات الجزئية والانقسامات الاجتماعية ان يسعى عبر تخلفه الاجتماعي والتقني والعمراني الى تجاهل مفاعيل البيئة الطبيعية القوية فيتجاوزها بمطامحه العاطفية الوحدوية . ان مثل هذا المسعى الوحدوي المتفلت من حدود الامكان الطبيعي ينطلق من أسس رومانسية محض .

القومية الاجتماعية تقول ان الاتحاد العربي هو غاية تسعى اليها المجتمعات العربية سالكة طريق استكمال تفاعلها مع بيآتها أولا ثم تطوير واقعها الاجتماعي المتمايز وتمتين الاواصر الحياتية بينها لتكون الاساس الموضوعي الذي يتحقق بالارتكاز عليه قيام ذلك بالاتحاد المنشود . »

وفي رأي هذه الدراسة ان الحركة الاتحادية العربية تمر في ثلاث عمليات متكاملة :

١ ـ « توحيد المجتمع بوعي قومي لدورة الحياة الواحدة تنصهر فيه وتذوب كل الفروقات المجزأة من ضمن البيئة الطبيعية الواحدة » .

٢ ـ « انماء قومي لكل مجتمع عربي وبيئته الطبيعية انطلاقا من قيام أشكال اتحادية تسهل انطلاق دورة الحياة والعمران من ضمن البيئة الواحدة » .

٣ ـ « مرتبة راقية من التفوق في التفاعل بين كل مجتمع عربي وبيئته الطبيعية تظللها صيغ تعاونية عربية (الجبهة العربية) تسهل وتدفع تكامل التفاعل والتلاحم بين المجتمعات العربية وتنبثق عنها صيغ اتحادية متطورة شاملة » .

وعلى هذا الاساس أكدت الدراسة الدعوة الى « قيام وحدة المغرب العربي ووحدة وادي النيل ووحدة الجزيرة العربية ـ فضلا عن وحدة الهلال الخصيب » « واننا ندعو هذه الوحدات أيا كانت أشكالها السياسية والاتحادية الى الارتباط بجبهة عربية تتطور صيغها وأشكال

التعاون المنبثقة عنها تطوراً يخضع لتطورات المجتمعات العربية ونموها ونمو الروابط الحياتية المشتركة التي تشدها . فيكون الاتحاد العربي حصيلة هذا التنوع والتآلف والتلاحم المدرك للحقائق ادراكا موضوعيا مسؤولا . »

منذ ١٩٦٧ حتى ١٩٧٧ ـ عشر سنوات ، لم تقم أية خطوة في هذا الاتجاه وهي لو قامت لكانت قطعت شوطا كبيراً . العقل الذي يرفض أن يمرحل الانجاز أعجز من تحقيق أي انجاز .

ان الموضوعة المقدمة في هذا الطرح ترتكز على مقولة التفاعل والنمو بالتفاعل . بمعنى ان الشرط الأساسي لقدرة الانسان على تطويع بيئته وتجاوز فواصلها ومد دورة عمرانه لتتواصل مع دورات العمران المجاورة انما يكون بنهوض مجتمعه وتوحده والقضاء على التفسخ القبلي والطائفي فبزخم المجتمع الموحد تحدث القفزات الحضارية النوعية الممكنة للانسان من **تطويع بيئته ومد عمرانه . ان تغير « جغرافية المجتمع » هو مفتاح الطموح بتغيير جغرافية البيئة ومفاعيلها .**

ان هذه النظرة ترفض مفهوم الحتمية الجغرافية والوقوف عند قدرية البيئة . ولكنها تقدم المعادلة للتغيير : الانسان المرتقي الموحد القادر ، الانسان ـ المجتمع لا الانسان القبيلة ولا الانسان الطائفة ولا الانسان الفرد .

ان الفكر القومي الاجتماعي الذي حدد على نحو علمي موضوعي في « نشوء الأمم » وكل تراث سعادة الوجود السوري المجتمعي ، الوحدة السورية الطبيعية وعوامل تكونها يطمح في أن تشكل مقولاته أساسا للاتحادية العربية بعد أن عجزت الرومانسية المتجاهلة العوامل المادية والاجتماعية عن تقديم نظرة متكاملة للاتحادية العربية . وهو يعتبر أن نظريته في التفاعل والنمو بالتفاعل على قاعدة الدورة الاجتماعية الاقتصادية وامتداد العمران وتواصله تشكل هذه الاطروحة .

ثم ان هذه النظرة اذ توصل مفهوم الوحدة الطبيعية بمفهوم الوحدة العربية تقدم الاسس التي يمكن ان يعتمدها المجتمع النامي لينطلق من حدود بيئته القومية الى تحقيق التمدد الاقليمي الذي يمد دورة الحياة وتواصلها على مستوى عالم عربي متصل . **وهنا تقدم هذه النظرة أطروحة الانتقال على قاعدة النمو بالتفاعل من المتحد القومي في البيئة الطبيعية الى المتحد الاقليمي لمجموعة متحدات قومية . أي تقدم الاساس الاجتماعي للتطور الوحدوي . الا انها لا تلغي ومنذ الآن قيام أشكال سياسية اتحادية شرط ان لا تتناقض مع الواقع الاجتماعي والطبيعي .** فمنذ ١٩٥٨ كما سبق الاشارة قدمنا وبصورة رسمية باسم الحزب وفي جريدته اقتراحاً للرئيس عبد الناصر بقيام اتحاد كونفدرالي له شكل تحالف عسكري ـ اقتصادي ـ سياسي بين وحدة الهلال الخصيب ومصر لمواجهة تحديات الحرب ضد العدو الاسرائيلي . ولكن اصرارنا كان على المنطلق . وحدة الهلال الخصيب الطبيعية المقيمة لأي شكل من أشكال التعاون والاتحاد مع أي مجتمع عربي .

وفي أيار ١٩٧٠ في محاضرة في النادي الثقافي العربي باسم الحزب السوري القومي الاجتماعي قلنا :

« ان الوحدة العربية تأتي نتيجة نمو المجتمعات العربية ، نمو ترابطها وشراكتها وتواصل عمرانها ، أما العمل لتحقيقها دون توفر الشروط الموضوعية لها فيؤدي الى الدوران على غير محور طبيعي كما جرى حتى الآن .

ان شعوب اوروبا الغربية دون ان تخوض جدلا كلاميا حول الوحدة ، دخلت مرحلة اتحادية فيما بينها انطلاقا من السوق الاوروبية المشتركة وبلوغا الى برلمان أوروبي ، وذلك بفعل ترابط دورات العمران وامتداد تفاعل الحياة بين وجودات مجتمعية لها شخصياتها القومية وعلى أساس أسرة اقليمية حضارية مشتركة نامية متطورة .

ولم يكن ممكنا قبل قرن ، قبل أن تحقق الوحدات الالمانية والايطالية والفرنسية الطبيعية البحث في اتحاد أوروبي شامل .

ان الروابط بين المجتمعات العربية أشد وأقوى على الصعيد التراثي الروحي من تلك التي تشد المجتمعات الاوروبية ولكن التخلف عن تحقيق الوحدة سببه الافتقار الى سلوك الطريق العلمي والعملي الوحيد ، الانطلاق من تواصل العمران لا من تواصل المشاعر .» (« المنطلقات الفكرية والاستراتيجية التورية » ـ ص ١٠٦) .

وهذا الاتجاه الايجابي في الاتحادية العربية ورد في بيان رسمي صدر عن قيادة الحزب بمناسبة ذكرى التأسيس في ١٦ تشرين الثاني ١٩٧١ باسم « اللجنة التنفيذية العليا » والقاه في سينما أورلي الرفيق الدكتور منير خوري بوصفه رئيسا لمجلس العمد .

ووردت فقرة خاصة بنظرة الحزب الى « الاتحادية العربية » جاء فيها

« ان ظاهرة العصر البارزة هي ظاهرة الاتحادات الاقليمية الكبرى والعالم العربي تشده أواصر القربى والربط في وحدة اللسان وما يحمله من تراث فكري ، وفي وحدة الايمان الروحي وما يحمله من وحدة القيم ، وفي الاشتراك في صنع التاريخ في حقبة من أزهر حقبات التاريخ السالف فضلا عن المصالح الاقتصادية والدفاعية والاجتماعية النامية مما يجعله أكثر الاتحادات انسجاما .

ان بروز المارد الامبريالي الاميركي وتآمره علينا وتحدي الصهيونية لوجودنا ، كلها تفرض الاتحادية العربية ضرورة تاريخية لا محيد عنها ونعود فنكرر بأن أعظم ما تستطيع امتنا ان تقدمه الى الاتحادية العربية وأفضل ما تسديه لها في المعركة المصيرية الدائرة هو الجبهة الشرقية الواحدة الموحدة التي تكون منطلق اسهام امتنا في الاتحادية العربية . »

هكذا ربط الفكر القومي الاجتماعي بين انطلاقه من وحدة الهلال الخصيب وموضوعة الاتحادية العربية قدم التوجه الايجابي لتحقيق أي شكل من أشكالها السياسية والعسكرية على قاعدة الانطلاق من وحدة البيئة الطبيعية كما قدم نظريته في تحقيق قاعدتها الاجتماعية على قاعدة النمو بالتفاعل .

فهل استطاع الفكر القومي العربي الوحدوي ان يفعل الشيء نفسه فيوصل مطمح الوحدة العربية الشاملة بمنطلق الوحدات الطبيعية ويفهم ضرورات قيام وحدة الهلال الخصيب ثم يرسي مفهوم الوحدة العربية ـ وهذا هو الاهم ـ على موضوعية تواصل العمران والمصالح الاقتصادية والاجتماعية النامية المشتركة بدل أن يرسيها على مفاهيم الفكر الرومانسي القائمة على بحث الأصل الدموي ووحدة الآلام والآمال واللغة والتاريخ ؟

ان الموضوعة الاساسية للفكر القومي الاجتماعي ، هي الدورة الاجتماعية الاقتصادية ـ وحدة الحياة التي يبحث هذا الفكر عن مدى امتدادها وكيفية امتدادها ليرسي وعيه على حدودها وحدود امكاناتها في الانطلاق والتواصل .

في ٢٦ شباط ١٩٧١ قدم الاستاذ عصام نعمان في « النادي الثقافي العربي » في بيروت محاضرة في الفكر القومي العربي ارتكزت الى محاولة جدية « لاعادة صياغة نظرية الوحدة واقامة دولتها » وطرح فيها الوحدة انطلاقا من مفهوم المصالح الاقتصادية والاجتماعية النامية المشتركة فقال « التنمية الشاملة والتصنيع الثقيل يتطلبان موارد طبيعية ورساميل مالية وانسانية ضخمة وطاقات بشرية منتجة ومتسهلكة على نطاق واسع .

« هذه الشروط اللازمة للخروج من التخلف لا تتوفر الا على مستوى الوطن العربي ولا سبيل الى تجنيدها والافادة منها الا من خلال دولة عربية حديثة . فالوحدة العربية ، في هذا المنظور ليست مجرد حتمية تاريخية تفرضها وحدة اللغة والارض والتاريخ والآمال والمصير بل هي أيضاً وعلى وجه الخصوص ضرورة حياتية تفرضها مستلزمات التنمية الاقتصادية الشاملة والتبادل الخارجي الواسع والمتشابك والنمط السائد في الاقتصاد العالمي النازع الى تجاوز الوحدات الاقتصادية الصغيرة ودمجها في مشروعات عملاقة على مستوى عدة دول أو ربما على مستوى قاري . »

وقد كتبنا في « البناء » في ١٩٧١/٣/١٣ تعليقا طويلا على هذه المحاضرة وأطروحتها أيدنا فيه الاتجاه الى بحث الوحدة انطلاقا من (١) رفض كونها « مجرد حتمية تاريخية تفرضها وحدة اللغة والتاريخ والآمال والمصير » وهو ما ساد الفكر الرومانسي . (٢) ربط الوحدة بمستلزمات التنمية الاقتصادية والتطور الاجتماعي ووضعها في مسار هذا التطور وتحدياته لجهة « النمط السائد في الاقتصاد العالمي والنازع الى تجاوز الوحدات الاقتصادية الصغيرة ودمجها في مشروعات عملاقة على مستوى عدة دول أو ربما على مستوى قاري » بحيث يقيم في هذه المقارنة الاستاذ نعمان مقارنة بين طبيعة الوحدة العربية والنزوع الى توحد عدة أمم على مستوى قاري تحت ضغط الضرورات الى التنمية أو الدفاع عن مصالح مشتركة كما هو حادث في أوروبا الغربية أو سواها .

ونشرنا في تعليقنا المشار اليه اعلاه خلاصة ما وصفناه بالموضوعة القومية الاجتماعية للوحدة والتي سبق ان قدمناها الى المؤتمر القومي الاجتماعي العام المنعقد في ملكارت في كانون أول ١٩٦٩ وهي كما يلي :

١ ــ « ان نظرة سعادة الى المجتمع القومي الى المتحد الاتم هي أنه دورة حياة اجتماعية اقتصادية حصيلة تفاعل الجماعة البشرية مع قطر معين وان الارض تقدم الامكانات لا الاضطراريات لأن الانسان في عملية التفاعل هو العامل الفاعل الايجابي .

وانه انطلاقاً من هذه النظرة الحركية للاجتماع البشري يمكن ان تتطور حدود المتحد بتطور نتائج التفاعل . « فالمجتمع الانساني ليس الانسانية مجتمعة ومن يدري هل يقدر للانسانية ان تصير مجتمعا واحداً في مستقبل العصور ؟؟

٢ ــ ان امكانات التحول من المتحد القومي الى المتحد الانساني الابعد غير ملغاة ولا منفية ولكن متروك للتطور الاجتماعي تقريرها في نتائجه الموضوعية .

٣ ــ أن بين المتحد القومي والمتحد الانساني متحدا وسطا هو المتحد الاقليمي الذي يضم أسرة من الأمم المتقاربة ، المتجانسة التي بينها من الروابط والمصالح ما ليس بينها وبين أمم العالم قاطبة . وسعادة يقول في أن بين مجتمعات العالم العربي « من الروابط والمصالح ما يحتم تعاونها وتساندها » وان صيغ التعاون والتساند هي في اضطراد النمو مع حاجات الحياة .

٤ ــ ان العالم العربي هو احدى هذه العوالم الاقليمية وهو اليوم تقوم بين مجتمعاته مصالح متبادلة ومشتركة ولكن « يجب ان ننتظر الوقت الذي تصير فيه المصالح موحدة اذا امكن ان تصير » . فليس ما يمنع صيرورة هذه المصالح موحدة .

ان حصول ذلك متيسر بصورة أقرب جداً من صيرورة الانسانية مجتمعا واحدا . لان بين مجتمعاته ، كما يقول سعادة من « الروابط والمصالح ما يحتم تعاونها وتساندها » .

٥ ــ ان صيرورة العالم العربي متحداً واحداً أي ذات مصالح موحدة أمر في حدود الامكان انطلاقا من التطور الاجتماعي ونتائجه .

٦ ــ ان الحركة القومية الاجتماعية لا تقف موقف المتفرج على هذا التطور بل تلزم نفسها بخط وحدوي من ضمن الجبهة العربية معتبرة ان الوحدة العربية في هذا الاطار من التطوير الاجتماعي بدل القول بها مخالفة الواقع الاجتماعي الحاصل هي طريق الاتحادية الاسلم .

فالعالم العربي مجموعة مجتمعات شقيقة ، أسرة عربية واحدة ممكن ان تتطور لتصير مجتمعا واحداً. نحن لسنا ضد هذا التطور بل نعمل له انطلاقا من الواقع الاجتماعي لا من الرغبة والعاطفة والخيال .

٧ ــ جاءت تجارب الماضي التي لم تنطلق من الواقع الاجتماعي مخيبة للامال . لان الانفلاش العاطفي لا يؤدي الى نتيجة عملية . والخلاف اذن ليس على وحدة العالم العربي بل على أساليب تحقيقها ومقوماتها . الخلاف اذن مع بعض دعاة الوحدة العربية يجب ان يحصر في هذه النقطة : كيف نحقق وحدة العالم العربي الأمنع والأقوى ؟ . »

هذا ما أوردناه في مناقشة الاستاذ عصام نعمان . والحقيقة كما تشير « البناء » حين نشرها هذه المداخلة فان معظم ما ورد فيها كنت قد تقدمت به الى المؤتمر القومي الاجتماعي العام في كانون أول ١٩٦٩ كدراسة حول نظرتنا الى الوحدة العربية .

وكان الاستاذ نعمان في رده على الاسئلة التي طرحت بعد محاضرته في النادي الثقافي العربي قد أكد انه ليس ضد قيام الوحدات الطبيعية . وفي محاضرة حديثة القاها في « النادي الثقافي العربي » في تاريخ لاحق جداً ، في ١١ تشرين الثاني ١٩٧٧ تحدث الاستاذ نعمان عن الهلال الخصيب كوحدة خاصة . ففي حديثه عن الازمة اللبنانية قال الاستاذ نعمان « والازمة اللبنانية هي سورية من حيث أن قيام الاضطرابات في لبنان وتدخل اسرائيل المطرد من شأنه ان يعرض أمن سورية للخطر فلبنان خاصرة سورية اليسرى وأي خطر فيه يعرض الجسم السوري للخطر . وهذا ما يفرض على الوضع السوري ان يتخذ موقفاً . »

ويتحدث الاستاذ نعمان في المحاضرة نفسها عن « استراتجية اسرائيل الاساسية القائمة على تحويل كل طوائف الهلال الخصيب العربي الى قوميات وبالتالي دول قومية . » (« السفير » في ١٢ تشرين الثاني ١٩٧٧) .

هذا التفكير القومي العربي المدرك ان مطلب الوحدة العربية لا يتعارض مع الوحدات الطبيعية والذي يدرك الابعاد والتحديات لمصيرنا القومي في الهلال الخصيب ، هو التفكير الملتقي مع القومية الاجتماعية في تحليلاتها الوحدوية والعربية .

وليس الفكر الذي لا يمسك بالمرحلة ويبقى في حدوده السابقة غير المستفيدة من كل

التجارب والتحديات . ان علة مدرسة ساطع الحصري انها طربت للمنطق على حساب الوجود وعلم الوجود .

في ٥/١٠/١٩٧٧ كتب الأخ الاستاذ معن بشور في « السفير » وبعنوان « أزمة العمل الوحدوي العربي أو .. الانفصالية الجديدة » مقالا حول وحدة ١٩٥٨ معالجا « موقع الانفصال في أزمة الثورة العربية » . وقد خص الاستاذ بشور ما وصفه « بالمنطق البيئوي .. ما له وما عليه » بأكثر نقاشه النقدي رافضا بالتالي منطق الوحدات الطبيعية معتبرا إياه منطقا مناقضا للوحدة العربية ، متهكما حيث ظن التهكم يجدي على دعوة توحيد البيئات العربية الطبيعية في الهلال الخصيب أو المغرب العربي أو وادي النيل .

وهو في هذا يعود الى تراث مدرسة ساطع الحصري الرومانسية لا سيما في كتابه « الاقليمية بنورها وجذورها » .

يقول الاستاذ بشور في هذه الدعوة بأنها « أكثر من اقليمية وأقل من وحدوية » ،

ويقول « مما لا شك فيه انه لهذا المنطق بعض القوة الظاهرية ، كما انه يلامس بعض الاعتبارات الواقعية لدى بعض الاوساط ، الا ان ضعفه ينكشف أيضا أمام أية جولة سريعة في تاريخ المنطقة كما في تاريخ العالم بأسره . » وهذا موقف ادانة شاملة لدعوتنا تكرم به الاستاذ بشور وساق لتأييد منطقه الحجج التالية (١) اعتبر الاستاذ معن أن « تاريخ المنطقة منذ الفتح العربي على الاقل وحتى معاهدة سايكس – بيكو ودخول الاستعمار الغربي بلادنا ، هو تاريخ الوحدة العربية .»

وفي رأي الاستاذ معن « لم تكن خلافات البيئة الطبيعية ، ولا التمايز الجغرافي هما وراء تراجع الوحدة العربية حين كانت تتراجع ، وانما القوة الخارجية ، والضعف الداخلي وبدايات عصر الانحطاط كانوا السبب » .

اولا : يفصل الاستاذ معن تاريخنا منذ الفتح العربي عن الوف السنين من تاريخنا السابق رغم ان ميثاق الاتحاد الاشتراكي العربي بقيادة عبد الناصر الصادر في ١٩٦٢ أكد دور مصر في المنطقة منذ العصر الفرعوني . أما الاستاذ بشور فلا يريد تأكيد دور سورية في المنطقة منذ العصر السومري أو البابلي حتى لا نقول الاشوري الذي وحد المنطقة كلها بالسيف حتى الاناضول في ظل امبراطورية واحدة مركزها الهلال الخصيب .

ثانيا : يتخذ الاستاذ معن « حتى معاهدة سايكس – بيكو ودخول الاستعمار الغربي بلادنا » محطة حديثة لانهيار الوحدة . وهو لا يذكر ان « بلادنا » التي دخلها الاستعمار الغربي بعد معاهدة سيكس – بيكو المجزئة لها هي الهلال السوري الخصيب ، لا مصر ولا الجزيرة العربية .

ثالثا : الوحدة بين الشام ومصر التي قامت في ظل عصور الخلافة العربية كانت وحدة مركز اكثر منها وحدة اطراف وكان الصراع شديدا على وحدة المركز . وحين انتقلت وحدة المركز في العصر الفاطمي الى القاهرة اختلف كثيرا الاتجاه السياسي للامبراطورية العربية عما كان عندما كانت دمشق أو بغداد هي المركز .

رابعا : بماذا يفسر الاستاذ معن سيطرة صلاح الدين وهو المنطلق من بلاد الشام ، هل تدخل في ما وصفه « بصراعات الحكم » التي حملها مسؤولية انهيار « الوحدة » وهي التي أدت

الى تحقيق « الوحدة » في ظل صلاح الدين ؟

ألم يتعاون الحاكم المصري في تلك الزمن مع الصليبيين فأرسل نور الدين الزنكي حاكم الشام ابن اخيه صلاح الدين الايوبي الى مصر فأسقط الحاكم المصري المتعاون مع الغزاة ، وطرد الصليبيين من الاراضي المصرية وقاد بعدها معركة حطين العظيمة ؟

٢ ـ ينتقل الاستاذ معن بشور الى مسألة « التفاوت والتمايز » في البيئة « والجغرافيا » على حد تعبيره فيتساءل « اذن ماذا يجمع بين صحراء نيفادا في الولايات المتحدة وولاية الاسكا على ابواب المحيط المتجمد الشمالي ، بل وماذا يجمع بين سيبيريا السوفياتية وبين شواطىء البحر الاسود ذات المناخ الجميل المعتدل » .

رحم الله ساطع الحصري ، فهذه مدرسته في المقارنات المنطقية التي لها شكل الحجة التي لا تقارع في سبيل الانفلات من واقع موضوعي ومن حقائق اجتماعية .

لنقلب المعادلة كلها ونقول هل ان الوحدة الجغرافية معرقل لقيام الوحدة ام مساعد لها ؟ بدل سوق الامثلة على امكان وجود تمايز جغرافي مع الوحدة فهل اذا توفر التكامل الجغرافي يكون عاملا سلبيا أم عاملا ايجابيا مساعداً على قيام الوحدة ؟ ولماذا إذن ، يرفض الاستاذ معن وأصحاب المدرسة الفكرية التي ينتمي اليها ، دعم وتسهيل وتأييد قيام الوحدة ضمن الأقرب والممكن ، وكأنما ذلك داحض لافكارهم اذا ما تحقق ، افكارهم التي قامت على رفض « المنطق البيئوي » الى حد التطير من وحدة الهلال الخصيب حتى لا تسفه افكارا حملوها سنين من الدعوة الى الاستهتار بالعامل الطبيعي وسوق الامثلة من أطراف العالم على عدم أهميته وثانوية مقامه بين العوامل ؟

كلا يا استاذ معن ، ليست المدرسة السورية القومية الاجتماعية ، مدرسة الحتم الجغرافي حتى تتساءل « ماذا يجمع بين صحراء نيفادا وولاية الاسكا » وكأنك تبحث عن طبيعة الارض في هذا الاقليم أو ذاك . حتماً ثمة تمايز جغرافي ضمن البيئة الواحدة . ليست البيئة رتابة في كل انحائها . ولكن النظرية القومية الاجتماعية تأخذ البيئة الطبيعية بعين الاعتبار من حيث صلتها بما هو أهم منها الدورة الاجتماعية الاقتصادية . التي تمثل تكامل العمران ووحدة الحياة . هذا هو جوهر الوجود المجتمعي . والذي يجمع بين صحراء نيفادا وولاية الاسكا هو الدورة الاجتماعية الاقتصادية الاميركية القوية المندفعة والتي تصهر وتذيب كل الفروقات الاتنية والقبلية والعرقية في مصهرها . فهل في العالم العربي مثل الدورة الاميركية الحياتية أو مثل الدورة السوفياتية الحياتية ؟

اما السؤال الثالث الذي يطلقه الاستاذ بشور حول التمايز بين مصر والشام والذي يعتبره « لم يزل حتى هذه الساعة غائماً وضبابيا وغير واضح تماماً » . فمعياره الحقيقي هو هذه الدورة الاجتماعية الاقتصادية التي تمثل التكامل في العمران ووحدة الحياة .

هل هي واحدة ومتكاملة وممتدة بين الهلال الخصيب ومصر كما هي بين أطراف الهلال الخصيب نفسها أو بين أطراف وادي النيل وليبيا ؟

هنا الجغرافيا قيمتها في أنها اطار مادي للمجتمع ولكن المجتمع ودورة حياته هما موضوع الدرس والتحليل والتأمل .

وواضح جدا ان التكامل الاقتصادي والاجتماعي من ضمن التكامل الجغرافي هو أقوى بما لا يقاس بين العراق والشام أو بين الشام ولبنان والاردن أو بين الاردن وفلسطين أو بين لبنان وفلسطين منه بين هذه ومصر . ربما لأن صحراء سيناء هي الفاصل التاريخي لامتداد دورة الحياة والعمران وبسبب جاذبية التفاعل بين المجتمع وبيئته ضمن هذه التقسيمات الجغرافية ، دورة تامة لوحدة حياة تامة .

ان مئات الوف العمال من الشام أو فلسطين في لبنان لا مثيل لهم في مصر . بينما مئات ألوف السودانيين في مصر ومئات ألوف المصريين في ليبيا يؤكدون ما معنى دورة الحياة في بيئة طبيعية واحدة .

ان نهر الفرات يسبب مشكلة حياتية اذا ما اختلفت عليه دمشق وبغداد ، لأنه شريان حياة لكليهما . ان مرور النفط الى تركيا من العراق يسبب أثرا موجعا في الشام ، ان اغتصاب اسرائيل لفلسطين يهدد موارد لبنان المائية في الليطاني والحاصباني والوزاني .

ولكن كل شؤون النيل وشجونه أمر مصري ـ سوداني لا يحس مباشرة به سكان الهلال الخصيب الا من زاوية التضامن العربي العام لا من زاوية التكامل الحياتي الاقتصادي المباشر . حسبنا ما كتب مفكر قومي عربي آخر هو الاستاذ الياس سحاب حول « شعار وحدة وادي النيل» في «السفير» العدد٦/١١/١٩٧٧. وبعد أن يبدي الاستاذ سحاب تحفظاته على خطر تحول هذه الوحدات الى تمحور منعزل عن المجموعة العربية ، وهو ما لا يمكن ان تقبل به ، او لاهداف استراتجية مرتبطة بمخططات دولية ، يؤكد خلال سرده للوقائع الموضوعية حقيقتين أولهما ، موضوعية هذه الوحدة من حيث التكامل الاقتصادي والبشري والجغرافي ، وثانيهما مدى الاهمال الحاصل لهذا التكامل وضرورة ردم هوته .

يقول الاستاذ سحاب :

« فلعل كثيرين من المواطنين العرب يصدمون اذا عرفوا ان البلدين المتلاصقين منذ الازل ـ مصر والسودان ـ لا يوجد بينهما طريق بري معبدة . وكذلك يصدم اذا عرف ان السودان الذي لو استغلت كل أراضيه الزراعية بالكامل في زراعة المواد الغذائية ، لقلب ميزان الكفاية الغذائية في المنطقة الافريقية المجاورة له ، وهو مع ذلك يستورد بعض المواد الغذائية ، لاطعام ملايينه القليلة ، بسبب ندرة الاراضي الزراعية المستغلة فيه بل قد يصدم المواطن العربي أكثر اذا عرف ان المسافة بين العاصمة ، الخرطوم وبور سودان (المرفأ الرئيسي للبلاد) غير مغطاة بطريق معبدة هي الأخرى »

ويقول الاستاذ سحاب بأن بين المشاريع الهامة التي تدرس على صعيد هذه الوحدة بين مصر والسودان ، مشروع استصلاح زراعي يعرف باسم جونفلي سيتم بموجبه شق قناة تصل مجموعة كبيرة من فروع النيل الابيض ، وستعمل كطريق للملاحة النهرية ، « تم تسمح بتحفيف المستنقعات في مساحات شاسعة من الاراضي وانه عندما يتم تنفيذ هذا المشروع ستكون الحاجة للايدي الفلاحية المصرية العاملة ضرورة طبيعية لا غنى عنها » .

هذه هي مفاصل العمل الوحدوي وعضلاته وشرايينه التي تؤثر في انطلاق الدورة الاجتماعية الاقتصادية . فالعمل الوحدوي ليس تجريدا عن واقع الحياة وتكامل دورتها .

ولم تنقص أيام وأسابيع على صدور مقال الاستاذ معن بشور حول « الانفصالية الجديدة » حتى تسارعت الاحداث المصيرية تتكلم بنبرة أعلى من كل نقاش وبحجة أشد اقناعا

من أي منطق . وتوجهت بعد زيارة السادات الى القدس المحتلة انظار العرب من مغربهم الى مشرقهم الى وحدة الهلال الخصيب في لقاء بغداد ودمشق على انها محور الانقاذ المفتقد . على أنها حجر الزاوية الذي أهمله البناؤون ، بل المشتغلون في البناء بالاحرى

وكان الاخوة في المغرب العربي الكبير هم اصحاب المبادرات دعما لقيام هذه الوحدة التي اعتبرها الاستاذ بشور والعقلية الرومانسية على مدى نصف قرن « الانفصالية الجديدة » و « الشعوبية » واعتبرت في لغة الحرب والسلم ، لغة المصير القومي ، الحلقة الاقوى في جبهة الصمود والتصدي بل بدونها يكون العامود الفقري لهذه الجبهة في خلل عظيم . فكانت زيارات الرئيس بومدين والاخ جلود لعاصمتي الهلال الخصيب .

وارتفعت أصوات المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية مطالبة بتحقيق هذا اللقاء . وكان أبرزها ما قاله الاخ الاستاذ وليد جنبلاط رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي في الذكرى الخامسة والاربعين لتأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي « فكما ان سوريا هي العمق الاستراتيجي للحركة الوطنية وللثورة الفلسطينية فان العراق هو العمق الاستراتيجي لسوريا »

وتابع الاستاذ وليد « يا اخواني ويا رفاقي في دمشق وفي بغداد ما من احد يشك في اخلاصكم للقضية العربية ، لكن هذا الخلاف طال وانعكاساته تزداد خطورة يوما بعد يوم . لا نريد ان نعرف من المسؤول ، نريد الوحدة ، الوحدة ، الوحدة ، لان الكارثة لن توفر احدا » .
وتوجه الى القوميين الاجتماعيين محددا نطاق هذه الوحدة « استطعتم رغم كل التضحيات الجسيمة التي قدمتموها ان تثبتوا للعالم بعد اغتيال الزعيم انطون سعادة انه باق في نفس كل فرد من الحزب السوري القومي الاجتماعي ، في كل فرد أمن بضرورة تحقيق وحدة الهلال الخصيب التي بدونها صعب ويستحيل تحقيق الاماني القومية الحقيقية » .

فوحدة الهلال الخصيب هي التي « بدونها صعب ويستحيل تحقيق الاماني القومية » .
وهي وحدة المصير القومي دفاعا عن الوجود القومي المهدد بالمحق والتي اجمع رأي عبد الناصر والقذافي وبومدين من قادة العرب الثوريين ، ومن خارج الهلال الخصيب على أهميتها القصوى وضرورتها الملحة في مواجهة العدو وانقاذ فلسطين . وهي لو لم تكن لها ذاتيا مقومات موضوعية أساسية لما كانت لفتت اهتمام هؤلاء القادة العرب من خارج « المدرسة السورية القومية الاجتماعية » التي ناقشها الحصري سابقا وبشور لاحقاً .

وهي الوحدة التي طالبت بها قيادة المقاومة الفلسطينية مرارا بقول الأخ أبو عمار في أكثر من مناسبة أن « سوريا هي فلسطين الشمالية وفلسطين هي سورية الجنوبية » وبدعوة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في كل أدبياتها لضرورة تحقيق « وحدة الجبهة الشرقية » ، وطالبت بها ميدانيا وعمليا يوم توجهت قيادة المقاومة الفلسطينية الى بغداد ودمشق في أعقاب زيارة السادات ساعية لقيامها ، بل هي التي حفزت الاخ المناضل فاروق القدومي (ابو اللطف) رئيس الدائرة السياسية في منظمة التحرير الفلسطينية أن يقول لاحد الرؤساء بعد كل التطورات الاخيرة « لقد كان انطون سعادة على حق » .

وهي الوحدة التي أيد قيامها في كل ادبياته وطروحاته القائد الشهيد كمال جنبلاط منذ استجوابه الشهير في أعقاب استشهاد سعادة في ١٩٤٩ حين أكد ان وحدة الهلال الخصيب الى

جانب كونها ظاهرة تاريخية اجتماعية فهي ضرورة قومية لمواجهة العدو الاسرائيلي ، واستمر يدعو لها حتى آخر مقالات كتبها « في الانباء » في ربيع ١٩٧٧ حول وحدة سورية الطبيعية وضرورتها القومية .

وهي الوحدة التي أيد قيامها مؤتمر الشعب العربي في توصياته في ١٩٧٧ وأيدت قيام جبهتها الشمالية الشرقية مذكرة الحركة الوطنية اللبنانية الى قمة الصمود والتصدي .

وهي الوحدة التي اتجه اليها تفكير البعث الحاكم في دمشق وبغداد متخطيا كل تناقض سابق فجعل الرئيس البكر مسألة قيام الجبهة الشرقية أساسا لكل مبحث حول التصدي والصمود . أما الرئيس حافظ الاسد فهو الذي استشف اهميتها حين رد على غولدا مائير في ٨ آذار ١٩٧٤ بقوله « ان فلسطين هي سورية الجنوبية » . وفي المؤتمر القومي في ١٩٧٥ دعا الرئيس الاسد الى تحقيق وحدة سورية الطبيعية دون التخلي عن مطلب الوحدة العربية باعتبار الوحدة السورية الحلقة الضرورية لكل مسعى وحدوي وتركزت استراتيجية دمشق العملية على هذا الهدف وصولا الى ميثاق العمل القومي بين دمشق وبغداد .

وعلى مستوى عالمي ، هي الوحدة التي جعلت جاك بيرك الذي طالما تحدث عن الوحدة العربية حتى بات منظرها الاوروبي يتحول ليقول

« ان الحل في ذهني وحدة عربية حقيقية اقليمية أو جهوية كما يقول الجزائريون . وأقصد بذلك ان الوحدة العربية لا بد أن تستجيب لشروط ملموسة جغرافية وتاريخية وانتربولوجية كي تتحقق . لا أرى جامعا ممكنا بين موريتانيا والعراق أو بين مصر والمغرب ولكنني أرى تجانسا كبيرا وعميقا بين أقطار مثل لبنان وسوريا وفلسطين والاردن والعراق . هذا كله من ناحية التاريخ، من ناحية الابحاث الاجتماعية لا أقول أكثر ، له فرص الاحياء . هذا ما كان يسمى قبلا بالهلال الخصيب » (« المستقبل » ـ ٣١ كانون الاول ـ ١٩٧٧)

يقول ماكسيم رودانسون ان الهلال الخصيب مجرد تسمية جغرافية (« النهار العربي والدولي » ٢٢ نيسان ١٩٧٩) متجاهلا الجذور الحضارية التاريخية لشعبه الواحد والنسيج البشري والدورة الاجتماعية الاقتصادية التي تلف مجتمع الهلال الخصيب القومي ووحدة المصير والتحديات المعاصرة . وقبل رودانسون قال ماترنيخ عن ايطاليا في زمن تجزئتها واستعمارها ، انها ليست أمة بل هي مجرد تعبير جغرافي ولكن أين أصبح ماترنيخ بعد الوحدة الايطالية وحروبها !

ويتابع العلامة البحاثة جاك بيرك حول القوميات الاقليمية والوحدة العربية وتناقضها .

« لا أظن ، لأننا نستطيع ان نتصور وحدة عربية كبيرة مفصلة اقليميا . هل تتوهم أن الوحدة الاوروبية ستقضي على الوطنيات الحالية ؟ كلا ، لا أظن . وهذه الفكرة ليست واقعية . فكرة الوحدة الميتافزيقية التي تعدم كل ما يشوبها . أنا أعتقد ان هده الفكرة في الاذهان العربية هي من آثار الميتافزيقية . أنا أقصد وحدة تاريخية وليس وحدة ميتافزيقية » .

وجوابا عن سؤال « اذن انت تؤيد فكرة وحدة البيئات أو الوحدات الاقليمية ؟ »

« أنا أرحب بوحدة حقيقية تعتمد على وحدة طبيعية تاريخية وليس فقط وحدة خطابية » .

وجوابا عن سؤال « ما هي برأيك هذه الوحدات » يقول « انا أتصور في المستقبل اننا

نستطيع أن نرى العالم العربي كسلسلة من الوحدات الكبيرة . أنا أشرت الى اثنتين منهما الشرق الادنى (التي سماها فوق بوحدة الهلال الخصيب) ووادي النيل ، وهناك أيضا المربع العربي الكبير ، والمغرب العربي » .

ان أهم ما يركز عليه بيرك النقاط الرئيسية التالية

اولا : « الشروط الملموسة » لقيام الوحدة وهي « جغرافية وتاريخية وانتربولوجية » . وهذه يرى انها متجانسة « تجانسا كبيراً وعميقاً بين أقطار مثل لبنان وسوريا وفلسطين والاردن والعراق » .

ثانياً : يشبه الوحدات الطبيعية بوطنيات أو قوميات أو وحدات أوروبا القومية كفرنسا وايطاليا والمانيا ولكنها لا تتناقض مع مسعى قيام وحدة أوروبية بل لولاها لما قام التفكير بوحدة اوروبية .

ثالثاً : يعتبر ان فكرة الوحدة العربية الشاملة دون تأطير جغرافي ـ اقتصادي ـ اجتماعي ـ تاريخي لواقع البيئات العربية « هذه الفكرة في الاذهان العربية هي من آثار الميتافزيقية . »

رابعاً : يتصور ان مستقبل العالم العربي هو في قيام وحداته الطبيعية الاربع المحتضنة لدورات عمرانه الاجتماعية الاقتصادية .

الاحداث والعلم يتجهان نحو هذه الحقيقة الكبرى . والفكر القومي هو الذي يرتكز على العلم ويستوعب عبرة الاحداث . في ١٩٥٩ أصدر الدكتور فايز صايغ كتاباً بالانكليزية عن « الوحدة العربية » أراد ان يعلل فيه قيام وحدة مصر والشام رغم افتقارها للمقومات المادية ـ الجغرافية والتواصل المادي . فقال تسفيها لتلك العوامل وانتصارا للنموذج الوحدوي الذي أيد ، بأن ها هي باكستان تنهض كنموذج تخطى واسقط قيمة التواصل الجغرافي والعمراني في الوحدات القومية ، وبعد سنوات قليلة حصلت نكسة انفكاك الوحدة بين الشام ومصر ثم لم يلبث بعد سنوات اخرى بأن انهار كيان باكستان وانفصلت بنغلادش عنها . ومشهود للدكتور فايز صايغ بسعة باعه في تسلسل الافكار والمنطق . ولكن الواقع الاجتماعي والاحداث التاريخية ابلغ من كل منطق مجرد .

ان لقاء الفكر القومي الاجتماعي الوحدوي مع الفكر القومي العربي الوحدوي هو على مقولة الوحدات الطبيعية في اطار الجبهة العربية المعادية للاستعمار والصهيونية طريقاً للنمو بالتفاعل نحو الوحدة العربية كظاهرة اتحادية في عالم تتوحد فيه أقاليم كبرى لاحداث مستلزمات التكتلات الاقتصادية والدفاعية الكبرى .

فالفكر القومي الاجتماعي يؤمن بالسورية ضمن العروبة ، يؤمن بالوحدة السورية كدورة اجتماعية اقتصادية ضمن الاسرة العربية والانتماء العربي ، ويؤمن بامكان تطور الروابط العربية على قاعدة نمو المصالح والوشائج الحياتية في عالم متطور . ويؤمن بأن هذه الروابط ، كما قال سعادة ، « تحتم » التعاون والتعاضد الجبهوي وبالتالي لا انفكاك لسورية عن العروبة التي هي طابعها التاريخي وقدرها المستقبلي .

فالعروبة عندنا ليست رجوعاً الى الماضي فحسب بل هي مستقبل ومصير مشترك . كل هذا انبثاقاً من نظرة متكاملة الى الانسان ـ المجتمع وعلاقاته ببيئته ومحيطه الطبيعيين، من نظرة دينامية الى المجتمع والطبيعة على قاعدة التفاعل المتنامي باستمرار .

ان هذه النظرة الى السورية والعروبة في تلاحمهما وتكاملهما تختلف كلياً عن النظرات والاتجاهات المرتدة عن العروبة بشعوبية عدائية والمعتبرة مثلا في مصر ان المصرية هي نقيض العروبة . ألم يكتب الدكتور لويس عوض سلسلة مقالات في مجلة « الفكر العربي » في العددين الرابع والخامس من العام ١٩٧٨ يقول فيها : « وهذه الاسطورة ، اسطورة العروبة العرقية خارج الجزيرة العربية ، لا تقل شططاً وخطراً عن أسطورة الآرية العرقية أيام النازي ونظيرها في الشطط أساطير القومية الفرعونية والقومية الفينقية والقومية الاسرائيلية . » أليس هذا الاتجاه عدائيا وخطيراً ؟

ان الردة عن العروبة في مصر فكرياً صاحبت الردة عنها سياسيا وعسكرياً وجبهوياً الى تبرير خطوة السادات والانحراف السياسي والاستراتيجي الموصل الى الخروج الكلي على الروابط الجبهوية العربية والمتعامل مع العدو .

ويقول **محمد حسنين هيكل** حول **هوية** مصر(١) «جاء عبد الناصر واعتقد انه أصاب وأخطأ . أصاب عندما اخذ الاختيار الواضح والطبيعي والتاريخي وسار فيه . لكنه أخطأ لأنه ، من اجل تحقيق اختيار تاريخي في هذا العمق وفي هذا الاتساع ، كان يجب ان يطرح هذا الاختيار على أوسع مناقشة ممكنة . اتخذ انتماء مصر عربيا ، باعتباره مسألة شبيهة بقضية الوجود . هو فعلا يشبه قضية الوجود ، وهو فعلا أمر لا يناقش ، ولكن بعد الظروف التي مرت بنا في مصر ، وهي كثيرة جدا ، وبعد القرن التاسع عشر حين اكتشفت في اواخره الحضارة الفرعونية ، وتصورات رغبة الاستعمار في عزل مصر وحدها ، وتفكير بعض المثقفين المصريين الذين قادوا ولعبوا ادوارا مهمة جدا في حركة الترجمة والاقتباس ، والذين تصوروا ان اوروبا الغربية هي الحضارة الحقيقية ـ بعد هذا كله كان من الواجب حدوث أوسع مناقشة ممكنة تتعلق بهوية مصر ، وان تجري مناقشة فلسفية سياسية فكرية الخ ... حول هوية مصر . وكان يجب ان تكون واسعة جدا .

هناك عناصر في مصر ارتبط ، طبعا ، الانتماء العربي في ذهنها بتجربة كاملة ، وتأكيد الانتماء العربي ارتبط بتجربة لها جوانبها الاجتماعية والسياسية . وهناك أيضا عناصر فكرية تقول : لا ، نحن قطعة من اوروبا ، الخديوي اسماعيل كان يقول اننا قطعة من أوروبا ، وفي مصر حتى الآن أنصار لمدرسة الخديوي اسماعيل . وفي هذا الجو ، ولاهداف سياسية واجتماعية معينة، حصل هجوم شرس جداً على انتماء مصر العربي، وهذا كان من المفروض والواجب عدم حدوثه ، ولكن وبشكل من الاشكال ، انا لا أمانع في انه حصل ، لا أمانع مستقبليا وتاريخيا في انه حصل ، على أساس اننا نقبل بمبدأ النقاش الحر .

تقولون أن مصر ليست عربية ؟ قولوا لنا ما هي اذاً ؟ اعتقد اننا سندور كثيراً وسنحاول أكثر لكن ستعود مصر الى مكانها . لا يستطيع احد ان يتخلى عن شكله . »

ان عدم ارساء المصرية والعروبة في مصر على قاعدة نظرية وعلمية متكاملة أدى الى هذا الشرخ بعد غياب القائد الثوري الملهم .

---

(١) « النهار العربي والدولي » ١٨ كانون أول ١٩٧٨ .

ولقد كانت « الوطنية المصرية والقومية العربية » في الميثاق متجاورتين ولكن غير متكاملتين . فالوطنية المصرية أعطيت خصائص المجتمع القومي ولكن تحت اسم الوطنية المصرية ، والقومية العربية اعطيت مفردات الشأن القومي ولكن بمضمون جبهوي .

ولقد أوضح العقيد معمر القذافي بصراحته المشهودة وجرأته على النقد والنقد الذاتي موقف الفكر القومي العربي الوحدوي في مرحلة ما ، بقوله : « كان موقفنا من الوحدة عاطفياً » ولا يستند الى أساس أيديولوجي وعلمي »⁽¹⁾ « لقد كنا نتعاطى مع المسائل القومية بغير أن تكون لنا ايديولوجية محددة . كنا نتعاطى معها بعواطفنا ومن خلال التزامنا المبدئي بالقضايا القومية . وهذا ما أدى الى هزيمة المنطق القومي . » وفي رأي القذافي ان الحركة القومية العربية لعدم رسوها على الوضوح النظري والفكري تراجعت امام الماركسية ، بل هو يقول انها لم تكن محصنة بأيديولوجية .

وفي السنوات الاخيرة حصل تطوران هامان على صعيد الاتجاه القومي العربي الوحدوي . فقبل غياب الرئيس عبد الناصر دعا من جهة الى وحدة وادي النيل ووحدة الجبهة الشرقية كما انه على صعيد عربي عام دعا الى تطوير الجامعة العربية بمؤسساتها لتصبح على غرار السوق الاوروبية المشتركة « جماعة عربية متحدة » . وفي أيار ١٩٧٧ دعا الرئيس معمر القذافي لانعقاد مؤتمر قمة عربي لدرس قيام « الجماعة العربية الاقتصادية » ، وفي ١٩٧٨ قامت جبهة الصمود والتصدي وفي ١٩٧٩ انعقدت قمة بغداد العربية وبمبادرة من العراق وكانت بانطلاقها من الحد الادنى للجهد العربي المشترك الذي لم يتحقق مثيل له في السابق .

وهكذا بينما يتجه العروبيون المخلصون الى النهج الجبهوي التوحيدي التدريجي في الاطار العربي العام يعكفون على وحدة العمق الجغرافي بكل ما يوفر من تكامل اقتصادي واجتماعي واستراتجي .

وهكذا اخذ الفكر القومي العربي يتجه نحو صيغة واقعية تدريجية للوحدة العربية العامة . بينما أكد مقولة الوحدات الطبيعية ، وبالتالي تقوم اليوم خاصة بعد انجاز حزب البعث العربي الاشتراكي لأهم وأخطر خطوة وحدوية نواة كل تحرك وحدوي عربي ، تقوم بين الفكر القومي الاجتماعي والفكر القومي العربي علاقة جدلية من الحوار والتفاعل والتحالف الاستراتجي .

ان التحديات التاريخية والمصيرية هي التي تفرز الفكر السليم والعمل السليم .

لقد التقى الفكر القومي ، الوحدوي القومي العربي والوحدوي السوري القومي الاجتماعي على مقولة الصراع القومي في فلسطين وعلى أن الكفاح المسلح هو طريق تحريرها وعلى أن الصراع في فلسطين هو صراع وجود لا صراع حدود ، وعلى انه صراع يتناول المصير القومي كله وبالتالي فالرد على تحدياته هو بوحدة العمق القومي .

واذا كان شعار الجبهة الشرقية الشمالية منذ ١٩٦٧ بقي في نطاق الوعي العسكري لترابط ارض الصراع وعمقها الاستراتجي فان وثبة حزب البعث لتحقيق وحدة بغداد ـ دمشق في هذا المفصل التاريخي وبعد اتفاقات كامب دافيد وتحدياتها على المنطقة ، والتأكيد على ان

---

(١) الحوار في « ندوة فكرية مع معمر القذافي حول الكتاب الاخضر ومقولاته مقارنة بالفكر القومي ـ « السفير » ١٩٧٩/١/١

العراق هو عمق الشام الاستراتجي كما ان الشام هي عمق فلسطين (سورية الشمالية وسورية الجنوبية) ولبنان والاردن ، وبروز أهمية التكامل الجغرافي والاقتصادي بين هذه الكيانات اساساً موضوعياً للوحدة ، ان هذا التوجه العام لحزب وحدوي قومي عربي اقدم على هذه الوحدة المتكاملة جغرافياً واقتصادياً وبشرياً واستراتجياً ، قد ثبت عملياً ان واقع الحياة هو مصدر كل نظرية سليمة . ان الانجاز الميداني اسقط الجدل اللفظي وسقط معه هذا العداء للعوامل الموضوعية الطبيعية والاجتماعية للوحدة التي تأكدت انها المعيار الاسلم لنجاحها .

وهذا المنعطف الكبير في مسار الوحدة العربية أكد ان قيام الوحدات الطبيعية ، ليس نقيضاً للوحدة العربية حتى يناصب العداء ، بل طريقاً أوحد لبلوغ العمل الوحدوي السليم قدرة التحقيق والانطلاق بحيث أن الوحدات الطبيعية ضرورة لا محيد عنها وان التخلي عنها أو مقاومتها يعرقل المسيرة الوحدوية العربية اطلاقاً ، بحيث أن لا تناقض بين العمليتين .

فالمرحلة الحالية هي مرحلة انضاج للوحدة العربية انطلاقاً من تحقيق الوحدات الطبيعية في اطار من التعاضد العربي الجبهوي وتطوير مجالات التعاون العربي الفعال كالسوق العربية المشتركة ومؤتمرات القمة وجبهة الصمود والتصدي وسواها من نشاطات العمل الجبهوي العربي الراهن وبأفق وحدوي مستقبلي يجاري التطورات الموضوعية في الروابط بين دورات العمران .

وان الفكر الوحدوي القومي العربي بعد التطورات المستجدة من تصاعد حرب الوجود ضد العدو الصهيوني وتحدياتها الى قيام ميثاق العمل القومي المشترك بين عاصمتي الهلال الخصيب الى تبلور المسألة الفلسطينية على قاعدة سورية الطبيعية الى بروز هذه الوحدة المصيرية على الساحة اللبنانية ، الى صيغ العمل الجبهوي العربي من قمة بغداد الى جبهة الصمود والتصدي التي أكدت المحور السوري ـ الفلسطيني ـ العراقي ، بعد كل هذه التطورات ، مدعو الى خلاصة فكرية تعيد للوحدة السورية اعتبارها الكامل في الفكر الوحدوي القومي العربي على اعتبارها لازمة وجودية للعروبة ، بدونها تبقى العروبة أسيرة تجزئة سنيكس ـ بيكو وتوقاً وحدوياً منفصلاً عن الواقع الاجتماعي والجغرافي والاستراتجي والاقتصادي . ولنذكر أن الجنرال غورو في ميسلون أوقف مد الوحدة السورية القومي وليس ساطع الحصري ، ودحضه النظري لها .

كما ان الفكر السوري القومي الاجتماعي الملتزم بالعروبة تاريخاً وحاضراً ومستقبلاً في دعوته وتأييده ودعمه لقيام وحدة الهلال السوري الخصيب العربي نطاقاً طبيعياً « لوحدة الحياة والاجتماع ولمجتمع وأرض المعركة القومية المصيرية ضد العدو الصهيوني في الهلال الخصيب ، انما يقرن الدعوة الى الوحدة السورية بالعمل من ضمن الجبهة العربية التي نص عليها دستور الحزب السوري القومي الاجتماعي على أنه متمم لغايته ، وتطوير روابطها ودعم تحقق الوحدات الطبيعية الأخرى في العالم العربي في أفق اتحادي أكده الحزب رسمياً في مذكرته الى الجامعة العربية في ١٩٤٤ وفي بيان اللجنة التنفيذية العليا في ١٩٧١ .

ان دعوة عبد الناصر ثم القذافي الى تحقيق السوق العربية المشتركة ثم مبادرة قمة بغداد لتحقيق انتظام العمل الجبهوي العربي على مستوى القمة ، وقيام جبهة الصمود والتصدي ، كلها بلورة لفكرة الجبهة العربية التي يلتزم بها الحزب السوري القومي الاجتماعي ويدعم تحقق اواصرها وتعزيز روابطها وتطويرها في أفق اتحادي مستقبلي

الفصل السادس والعشرون

جبهة الصمود والتصدي :
وثائق طرابلس والجزائر ودمشق :

كما أن مبادرة دمشق وبغداد الى انجاز وحدتهما الطبيعية وتأييد العرب خاصة التقدميين منهم لها والوحدويين كمعمر القذافي وهواري بوميدين وعبد الفتاح اسماعيل لها ، تشكل كلها تطورات ايجابية على طريق انجاز لقاء الفكر الوحدوي القومي العربي والفكر الوحدوي السوري القومي الاجتماعي .

ولقد اتضح ايضا وبصورة لا تقبل الجدل ، ان قيام وحدة الهلال الخصيب يحقق ايجابتين على الصعيد العربي اولا : يجعل الثقل القومي الاشد ارتباطاً بمسألة فلسطين هو القادر على قيادة العالم العربي ، كما جرى في قمة بغداد ، وهذا بالذات ما يثير حفيظة السياسات العربية الرجعية التي كانت تنصب نفسها وكيلا للسياسة الاميركية في المنطقة ، وثانياً : يشكل بشهادة العروبيين انفسهم ، أمل الجذب الوحيد لمصر من منزلق الخيانة التي أوداها به نهج السادات لاستعادتها الى العروبة ، موقعها السليم . هذا في الافق الوحدوي والعربي .

أما على صعيد الهوية القومية والحضارية لشعبنا ، فلقد تأكد ان الثغرة الكبرى في تحديد هويتنا هي اننا كنا نقفز فوق هذا الرابط الاقليمي الذي له خصائص ومزايا من ضمن رابطة العروبة الأشمل لنغرق في تحديدات التجزئة الاستعمارية الناتجة عن سيكس ــ بيكو ، فأما نحن محليون ، لبنانيون وفلسطينيون وعراقيون وسوريون بمعنى الشام ، أو نحن عرب . بينما ليست فلسطين ولا الشام ولا العراق ولا لبنان ولا الاردن كالهوية المصرية ، هوية الاقليم والارض ودورة الحياة ، بل هي أجزاء من اقليم واحد وحياة واحدة وارض واحدة . وحين يقول الرئيس الاسد « الموارنة سوريون عرب » يكون قد أعطى الوصف الصحيح والدقيق لهويتنا القومية والحضارية . فنحن لبنانيون سوريون عرب ونحن فلسطينيون سوريون عرب ونحن شاميون سوريون عرب . العروبة هي رابطتنا الشاملة المميزة والسورية هي هويتنا ، هوية ارضنا واقليمنا ومجتمعنا ، واللبنانية أو الفلسطينية هي تعريف محلي من ضمن الروابط الاشمل بالتدرج .

والسورية في هذا المجال لا تتناقض مع العروبة كما لا يجوز ان تتناقض المصرية معها ولا الانتماء للمغرب العربي الكبير أو الجزيرة العربية .

ثم انه عندما نعي جذورنا الحضارية دون تناقض مع هوية الحاضر والمستقبل العروبية بل على اساس التكامل والتفاعل ، فلا نرتد الى الشعوب القديمة لننأى عن رابطة العروبة ولا نطمس جذورنا الحضارية القديمة تأكيداً على رابطة العروبة ، وكلا الموقفين خاطيء ومنحرف ، بل نعتز بجذورنا ونعيد لها الاعتبار على قاعدة انها استمرار مجتمعنا وصراعنا ، كما قال بيان قيادة مجلس الثورة العراقي ان الصراع ضد الصهاينة يبدأ بالبابليين والاشوريين ويستمر

حتى الساعة ، أو كما أشار اعلام فتح عن الارض المحتلة على أن الكنعانيين هم اجدادنا التاريخيون الذين اعطوا فلسطين اسماء القرى والمدن لا اليهود . دون أن يؤدي هذا الاعتزاز بالجذور الى انقطاع عن استمرارية المجتمع ونموه وتفاعله ليصبح ما هو عليه ، محصلة كل المسيرة ، مجتمعا من صلب العروبة حاضرا ومستقبلا .

ان محرضات الصراع وتحديات المرحلة قد أضاءت بعمق اللقاء الصميمي بين الفكر الوحدوي القومي العربي والفكر الوحدوي القومي الاجتماعي الجبهوي العربي .

وليس مثل صراع الوجود مشعلا لاضاءة الحقيقة من كل جوانبها .

ثورات عربية ثلاث تدعم وحدتنا القتالية وترسي المفهوم الجبهوي السليم

١ – ثورة الفاتح وتحركها الوحدوي الاستراتجي والالتزامات

وحين غاب عبد الناصر مرت الناصرية في نكسة ولكن لم يلبث أن ارتفع لها علم أصيل في ارض المغرب بنهوض ثورة الفاتح بأعباء الدور الذي كان ينتظر البطل . ذلك انه كما انطلق عبد الناصر ، من الفالوجة ، من فلسطين الى ثورة ٢٣ يوليو فقد انطلق معمر القذافي من الرد على نكبة ١٩٦٧ في ثورة الفاتح من سبتمبر وكلاهما كان محركه فلسطين . وحين ذهب السادات الى القدس المحتلة يصافح العدو ويعلن صداقته لبيغن ومائير ، وذهب العرب الرافضون لخطوة السادات الى طرابلس وقد غدت ملتقى الثوار والرافضين ورمز الصمود فانعقد رأيهم في اجتماعات ثلاثة : قمة التصدي والصمود للرؤساء ولقاء الوحدة الوطنية الفلسطينية والمؤتمر الشعبي الذي ضم كل الاحزاب التقدمية والوطنية والقومية العاملة على الساحة العربية والمعادية للامبريالية والصهيونية فضلا عن التنظيمات المهنية وكان أوسع تمثيل للرأي العام الوطني في العالم العربي كان فعلا مؤتمرا شعبيا عربيا .

الا ان هذا الدور الذي تؤديه ثورة الفاتح لم يكن ليكون في انعقاد هذه المؤتمرات الرسمية والشعبية على أرضها بالصدفة بل نتيجة شريط متصل من المواقف في موقع معاداة الاستعمار والامبريالية والصهيونية والرجعية العربية ودعم الثورة في كل مكان والكفاح المسلح الفلسطيني في أحلك وأصعب الظروف ورفض الحل السلمي والعمل الدؤوب للوحدة .

الا ان ابرز ما يميز ثورة الفاتح وهي التي عينها على المعركة المحتدمة ضد العدو الاسرائيلي انها افترقت عن كل الارث الرومانسي السابق في العمل الوحدوي العربي وانطلقت من موجبات الاستراتجية العسكرية في التواصل الجغرافي والتكامل للجبهات والوحدات

ان مفتاح فهم موقف ثورة الفاتح من مسألة الوحدة انما هو في فهم موقفها من مسألة الصراع ضد العدو لأن الوحدة عندها ملازمة لمقولة هذا الصراع .

« ان القضية قد بيعت وأريد ان أقول بهذا الخصوص ان الصراع بيننا وبين اليهود صراع تاريخي لن توقفه المعاهدات ولا الاتفاقات السرية والعلنية ولا رؤساء الدول ولا وزراء

خارجيتها . ان هذا الصراع تحتمه المعطيات الاساسية الموجودة في المنطقة وهي ان الشعب بكامله طرد من أرضه ويعيش في خيام ويقاتل ولو بأظافره وأسنانه ليعود الى دياره الى مزارعه الى أرضه الى فلسطين .

هذا هو المنطق الذي يحسم الصراع بيننا وبين بني اسرائيل وأريد أن أقول ان الجمهورية العربية الليبية تؤكد من جديد وقوفها غير المحدود مع المقاومة لتصعيد الكفاح المسلح في الارض الفلسطينية المحتلة خاصة في هذا الظرف » . (خطاب العقيد معمر القذافي في الفاتح من سبتمبر ١٩٧٥)

من مقولة ان « الصراع بيننا وبين اليهود صراع تاريخي لن توقفه المعاهدات ولا الاتفاقات السرية والعلنية ولا رؤساء الدول ولا وزراء خارجيتها » وانه صراع منبثق من « المعطيات الاساسية الموجودة في المنطقة وهي ان الشعب بكامله طرد من أرضه » وانه لن يحسم هذا الصراع الا بعودة شعبنا الى « دياره ، الى مزارعه ، الى أرضه ، الى فلسطين » ، من هذه المقولة التي لا تقبل بمنطق « الحاجز البسيكولوجي المفتعل » الذي تزيله « زيارة ودية » الى الارض المحتلة ، ولا بمخاطبة اسرائيل « كحقيقة قائمة » لا بد من اعطائها « الضمانات لكيانها وأمنها » ، تنطلق من احتدام الصراع حتى تتحرر الارض ويعود الشعب ولا ترى هذا الصراع منطلقاً بالتسويات المضيعة للحق القومي لشعبنا والتي تنتهي الى « ان القضية قد بيعت » ، من هذه المقولة الصراعية نفهم كل منطق معمر القذافي في الوحدة . ذلك انه كما تبين من قبل انه حين تمحورت بعد حزيران ١٩٦٧ مقولة الصراع ضد اسرائيل كل استراتيجية عبد الناصر على اساسها قال بالوحدة مشدودة الى ضرورات المعركة فلم يكن من بديل عن العمق الاستراتيجي للجبهات : الجبهة الشرقية ، ووادي النيل حتى ليبيا .

ومعمر القذافي المنطلق من هذا الفهم لحقيقة الصراع وتاريخيته ، بحيث لا يعتبره عارضاً ولا طارئاً بل صراعاً تاريخياً وحقيقياً لا يحسم الا بالعودة والتحرير ، يتلمس طريق الوحدة وفي يده مشعل الصراع المضيء لكل جنبات الطريق .

وعلى هذا كانت مبادرته باتجاه الوحدة التي تشكل منطلق التحرير ، وحدة الهلال الخصيب ، أو بتعبير عبد الناصر وحدة الجبهة الشرقية :

« أنا وزملائي ذهبنا بأنفسنا بعد حرب رمضان ٧٣ ، ذهبنا لتوحيد سوريا والعراق . لا يوجد مسؤول عربي يذهب لتوحيد قطرين عربيين بل على العكس من ذلك جلهم يدسون الدسائس بين كل قطر عربي وقطر أخر يريدون الفرقة . وعندما يأتون اليك يغمزون من طرف آخر ولكن نحن ذهبنا لكي نقنع العراقيين والسوريين لأن مصلحتهم في المنطقة هي وحدة سوريا والعراق .. ذهبنا لدمشق وذهبنا للعراق ، وذهبنا لقاعدة الوليد مرة أخرى لكي نرفع وجهات النظر وتنفسنا الصعداء عندما رأينا هذه الجهود أدت الى نتيجة ، كنا في ذلك الوقت نعتقد أنها بداية لعمل إيجابي وهو أن زيارة الرئيس السوري للعراق كانت تحصل في ذلك الوقت . كنا نريد أن يؤدي بعد ذلك الحوار الى الوحدة بين البلدين . **لا زلنا نحن عند هذا الموقف ، لا زلنا نقول ان المصلحة القومية هي في وحدة سوريا والعراق ...** » (من خطاب العقيد القذافي في الفرضابية بمناسبة عيد الجلاء في ٢ حزيران ١٩٧٧)

أولى الحقائق ان مسعى ليبيا لوحدة بغداد ــ دمشق كان مسعى دؤوباً لم يفتر على السنين ، بدأ ، كما يقول العقيد القذافي ، بعد حرب رمضان ١٩٧٣ في زيارة قام بها الرئيس

معمر القذافي الى العاصمتين بغداد ودمشق في هذا المسعى ، ثم استمر بعد ذلك . حين سعى الرائد عبد السلام جلود في المسعى نفسه لعقد قمة طرابلس في ١٩٧٦ التي كان مفروضا ان ينبثق عنها اتحاد بغداد ودمشق ضمن جبهة رفض عربية .

ثم كان التحرك الاخير بعد زيارة السادات حين زار الرائد عبد السلام جلود دمشق وبغداد مجدداً وفي المسعى نفسه . فمنذ ١٩٧٣ أكثر من ثلاث مبادرات ليبية رسمية في مستوى عال من أجل وحدة بغداد ودمشق .

فعلا ان هذا السلوك وسط عالم عربي يسعى حكامه للفرقة لا للوحدة ، يبدو في منتهى الشذوذ لأنه يعبر عن مثالية نادرة وعمل وحدوي نزيه وأصيل .

ولنذكر ان السياسات العربية على مدى نصف قرن ويزيد كان بعضها يقوم على نهج محاربة وحدة الهلال الخصيب . كان بعضها يحرص على أن يبقى في مركز الاستقطاب على اشلاء الوحدة وبسياسة الفرقة . كانت السياسة السعودية ولم تزل تريد الهلال الخصيب ممزقاً وخاضعاً بدويلاته لنفوذها . وكانت السياسة المصرية التقليدية معادية لوحدة الهلال الخصيب مرة في العهد الملكي خوفاً من نشوء محور عربي آخر ينتزع من مصر الزعامة ومرة في العهد الناصري على أساس ان وحدته في العهد الملكي هي وحدة الاقطاع والاحلاف وعلى أساس في العهد الجمهوري وبعد ثورة تموز في العراق في ١٩٥٨ و١٩٦٨ ان قيام مثل هذه الوحدة اعتبر تحدياً لمصر بعد انفكاك الشام عن الوحدة معها .

ولم تسقط كل هذه الاعتبارات الا حين انتصرت مقولة ان التناقض الاساسي هو مع العدو وان هذا التناقض يفرض عسكرياً واستراتيجيا قيام الجبهة الشرقية وذلك بدءاً من ١٩٦٨ .

اما القذافي فقد انطلق منذ البدء من مقولة ان التناقض الاساسي هو هذا الصراع التاريخي ضد اليهود حتى تتحرر فلسطين . وهذه المقولة كانت دليله الصحيح الى الوحدة الصحيحة فانصب كل اهتمامه على دعم قيام وحدة الهلال الخصيب دون أي تعقيد .

ولأن مقولة الصراع ضد الوجود الصهيوني في فلسطين هي منطلق تحرك فكره العسكري والاستراتجي لتقييم الوحدة دون الوقوع في مطبات الشعارات السياسية والرومانسية التي تعصف بالمنطقة. **لذلك يقول الأخ معمر القذافي في حديثه للصحافيين الاوروبيين والعرب الذي نشرته « السفير » في ١٠/١٢/١٩٧٧ : « ومع التسليم بجبهة مصر ، فان جبهة سوريا والاردن ولبنان هي التي يخشاها العدو ، وليست الجبهة المصرية ، وذلك اساسا لأسباب جغرافية . فصحراء سيناء عائق في وجه العمل العسكري ، ومن هنا كان صعبا على الدوام أن تكون سيناء منطلقاً لعمل عسكري نظامي او حتى للعمل الفدائي الفلسطيني » .**

هذا التفكير الموضوعي للجبهة « التي يخشاها العدو » ، « جبهة سوريا والاردن ولبنان » دفع الفاتح الى التفكير بتوحيدها وعلى أساس « العمق العسكري » الذي يمثله العراق . يقول الرائد عبد السلام جلود لمجلة « الوطن العربي » في ٤/١١/١٩٧٧ «هناك دولتان اساسيتان ترشحهما اقدارهما لتأليف الجبهة الشرقية الا وهما : سوريا والعراق . سوريا تملك القوة العسكرية وأرض المواجهة والعراق يمثل العمق العسكري والقوة العسكرية » . « فأرض المواجهة » تستكمل « بالعمق العسكري » وهذه هي الوحدة الطبيعية القتالية .

وطبعاً هذا لم يغن عن قيام الجبهة العربية التي تنتظم كل القوى العربية المساندة للجبهة الاساسية ومن هنا فان دعم ليبيا لقيام وحدة الهلال الخصيب ومسعاها في هذا السبيل لم يغنها عن اقامة الجبهة العربية المعادية للامبريالية والصهيونية والتي نص عليها اعلان قمة الرؤساء في طرابلس .

لقد اعتبر ذلك الاعلان أن محور المواجهة هو سوري ــ فلسطيني ، وكان يمكن لو انضم العراق الى ذلك الاتفاق ان يكون كما هو مفروض سوري ــ عراقي ــ فلسطيني ، ذلك لأن ثورة الفاتح مؤمنة بأن « الاقدار ترشح العراق والشام لتأليف الجبهة الشرقية وان العراق هو العمق العسكري لهذه الجبهة . »

محور المواجهة اذن هو الهلال الخصيب مدعما بالجبهة العربية التقدمية المعادية للصهيونية والامبريالية والتي تضع كل امكاناتها دعما لصمود جبهتنا القومية القتالية .

هذا التفكير العملي السليم هو الذي جعلنا في الحزب السوري القومي الاجتماعي نلتقي وثورة الفاتح لقاء استراتجيا ومبدئيا مرتكزا الى دعم الكفاح المسلح لتحرير فلسطين انطلاقا من وحدة الهلال الخصيب مدعمة بجبهة عربية رافضة . وهي مقولات ثلاث تشكل جوهر عقيدتنا وغاية قضيتنا : الوحدة السورية الطبيعية ــ الجبهة العربية ــ الكفاح المسلح لتحرير فلسطين المغتصبة .

لقد كان صدق ثورة الفاتح في علاقاتها العربية نابعاً من موضوعيتها . وكانت موضوعيتها نابعة من تعاطيها مع أمر لا يقبل الاوهام : امر القتال في سبيل التحرير واعتبارُ الصراع ضد اليهود في فلسطين صراعا تاريخيا وادراكها ان الجبهة الاساسية لهذا القتال هي بيئتنا في الهلال الخصيب .

وهذه المنطلقات هي التي تعطي المصداقية لكل موقف . وعلى أساس هذا المنطلق الموضوعي الصراعي كان اصرار ثورة الفاتح على وحدة ليبيا مع مصر ، لأنها ادركت أن مصر تواجه من زاوية النظرة الاستراتيجية العسكرية أشد الاخطار بانكشافها عبر سيناء وعدم قدرتها بسبب سيناء على نقل الحرب الى قلب الارض المحتلة « فصحراء سيناء عائق في وَجه العمل العسكري ومن هنا كان صعباً على الدوام ان تكون سيناء منطلقا لعمل عسكري نظامي . » هكذا يقول العقيد القذافي . ولذلك كان الجيش المصري في سيناء مكشوفا خاصة بتفوق الاسلحة الحديثة : الطيران والمدرعات .

ولذلك يحتاج الى دعم وعلى هذا الاساس وضع القذافي كل امكانيات ليبيا بتصرف مصر للمواجهة والصمود وكان مستغربا كيف ان السادات بالمقابل أخذ يندد بتنامي القوة العسكرية الليبية ويحرض أميركا عليها بدل أن يفيد منها : عليهم ان يرحبوا بزيادة القوة العسكرية حتى يؤكدوا للعدو أن قوة العرب هي للعرب كلهم . أن القوة العسكرية الليبية ... هي في يد مصر ... ضد العدو الذي يحتل الأرض العربية (من خطاب القذافي في ٢ حزيران ١٩٧٧)

ولم يكن هذا الكلام خطاباً يلقى على عواهنه . فقد كشف اسماعيل فهمي وزير خارجية مصر «المستقبل» مدى التزام ليبيا المادي بدعم صمود مصر: «أكثر من ذلك كانت المصالحة مع ليبيا على وشك الاعلان . القذافي وعد بارسال ٥٠٠ دبابة الى مصر » . (اسماعيل فهمي « المستقبل » ــ في ٣ ك ١ ١٩٧٧)

وهذا الاقرار الرسمي من وزير خارجية مصر السابق يؤيد ما أعلنه الاخ هاني الحسن المستشار الشخصي للقائد أبو عمار في احتفال الحزب السوري القومي الاجتماعي في بيروت بذكرى تأسيسه الخامسة والاربعين اذ قال الاخ هاني : « ان الجماهيرية الليبية كانت قد تعهدت بدعم صمود مصر بأسراب من الطائرات المقاتلة و ٥٠٠ دبابة وملايين الدولارات ولكن السادات ذهب الى الكيان الصهيوني مستسلما . »

وهكذا يتضح كيف يتكامل تصور ثورة الفاتح للمخاطر التي تواجهها مصر في جبهتها المكشوفة في سيناء بالعمل على دعم هذه الجبهة بعمقها الاستراتيجي الوحدوي وبالدعم العسكري الملموس للصمود .

ولقد كان الحاح ليبيا بالوحدة مع مصر كالحاحها بقيام الوحدة بين بغداد ودمشق استكمالا للطوق العسكري حول دولة العدو الاسرائيلي على أساس الوحدات التي تشكل عمق الجبهات الاستراتيجي . وكان هذا الالحاح لوحدة قتالية مع مصر في مقدمة محرضات الامبريالية على ثورة الفاتح الليبية لأنها فعلا تعرقل مخطط الاستسلام .

ولقد كان التقتير على مصر بمساعدات دول النفط الخاضعة لفلك الامبريالية يستهدف دفع السادات أكثر نحو الاستسلام وهو الذي أعلن اقتصاده المفتوح أمام الرساميل العربية والاجنبية متوهما ان في ذلك تحقيق الرخاء فطلب منه رفع أسعار الحاجيات على شعبه لمصلحة تلك الرساميل ودون تدفق تلك المساعدات بالقدر المطلوب . وكان السادات يتذرع بانتشار الفقر بين المصريين المتزايد عددهم لمغادرة ساحة الصراع الى ركوب طائرة الاستسلام الى مطار اللد .

ولكن ليبيا قدمت له بديلا عن الشح الذي قترته عليه دول النفط الاخرى ، قدمت له كل نفطها على أساس الوحدة وعلى أساس تحليل دقيق لمسألة تزايد السكان والتكامل الاقتصادي الذي بالامكان ان يحققه الاتحاد . يقول العقيد معمر القذافي في خطابه في القرضابية في ٢ حزيران ٩٧٧ : « هناك كثافة سكانية في مكان وهنا تخلخل سكاني في مكان آخر ، وهناك ثورة في مكان وهناك فقر في مكان آخر داخل الامة الواحدة » . ويقول « ونحن نعلن اننا نرفع شعار بترول العرب للعرب دائما ونحن نرى حتى التوزيع السكاني وتوزيع الثروة في الوطن العربي لا يخدم مستقبل الامة العربية » ويتابع حول مشكلة الجرف القاري مع تونس « نحن ... طرحنا وحدة اندماجية بين البلدين تجعل التونسي والليبي يشتركان في النفط لا في الجرف القاري » . وكان قوله من قبل الوحدة مع مصر على الاساس نفسه .

فثورة الفاتح ليست اقليمية ولا كيانية تنحصر في الجماهيرية بل هي تريد مشاركة مصر وتونس بنفطها وثروتها لحل مشكلات الفقر وتزايد السكان على أساس التكامل الاقتصادي بالوحدة .

ولكن الامبريالية لا تريد الوحدة القتالية المرتبطة بالتحرير وبالنضال الجبهوي العربي المتصدي للصهيونية وللامبريالية. المخطط الامبريالي يهب لمصر ولكن على أساس استسلام مصر اولا وعقدها الصلح مع اسرائيل وانعزالها عن جبهة الصدام مع العدو واتجاهها غربي القناة كليا هاجرة ساح المشرق العربي الى المغرب العربي بالتوسع لا بالوحدة بحيث تضرب ثورة الفاتح اسقاطا لقلعة التحرر والصمود .

ذلك ان ليبيا باتت تشكل بنهجها التحرري الثوري نقطة اعتراض على المخطط الامبريالي

لا تقتصر على شمالي افريقيا بل يمتد تأثيرها الى المشرق بالدور السياسي القيادي الذي مارسته والـى عقد مؤتمر طرابلس للتصدي والصمود ومن قبل بالمسعى المستمر لتصليب جبهة المشرق تارة بالعمل لوحدة بغداد ودمشق وطوراً بطرح وحدة ليبيا مع مصر وقد أرادت الجماهيرية ان تكون عمقها العسكري كما هي العراق عمق الجبهة الشرقية وعلى أساس مقولة الصراع ضد العدو .

عكس هذا أرادت الامبريالية وأراد تبعاً لارادتها السادات : فبعد حملة الامبريالية العنيفة على الجماهيرية الليبية تحت شعار أنها تحتضن « الارهاب الدولي » أي تساند الكفاح الفلسطيني المسلح واشتراط أميركا ان تتخلى الجماهيرية عن هذه المساندة وعما وصفته دوائرها « بتخريب التسوية » قام العدوان المصري الرجعي على ليبيا .

والحقيقة أن ليبيا استهدفت لأنها دولة نفطية تضع عائداتها لا في خزائن الامبريالية بل بتصرف جبهات المواجهة وتعتبر الصراع مع اليهود في فلسطين صراعا تاريخيا وتسعى وتعمل لوحدة الهلال الخصيب القتالية وتسعى وتعمل لان تكون عمق الجبهة المصرية العسكري مما ينقض كل الاستراتجية الامبريالية والصهيونية في المنطقة والتي قامت على ما يلي :

١ ـ اخراج مصر من الصراع العربي الاسرائيلي

٢ ـ صرف مصر الى افريقيا دعما للمخططات الامبريالية

٣ ـ الضغط على مصر اقتصاديا لتصبح موجة الفقر وتزايد السكان هي الرافعة الضاغطة باتجاه الاستسلام والخروج من حلبة الصراع .

وليبيا طرحت خطة نقيض لكل هذا :

١ ـ مد مصر بعمقها العسكري بالوحدة ووضع كل قدرات ليبيا العسكرية والتسليحية بتصرفها .

٢ ـ اعتبار الصراع العربي ـ الاسرائيلي صراعا جبهويا تاريخيا لا يحسم الا بتحرير فلسطين .

٣ ـ دعم الوحدة القتالية لسورية الطبيعية لتكون منطلق التحرير مدعومة بجبهة عربية تقدمية رافضة معادية للاستعمار والصهيونية .

٤ ـ حل أزمة مصر الاقتصادية بالوحدة التي تضع كل امكانات ليبيا الاقتصادية والنفطية بتصرف المواجهة والانماء .

وبدأ المخطط الامبريالي يعقد الصفقة مع السادات مفادها اخراج مصر من الصراع العربي ـ الاسرائيلي لقاء ضوء أخضر بالاستيلاء على ليبيا ونفطها كمكافأة الخيانة بالانسحاب من المعركة ضد العدو الاسرائيلي بدل الاتحاد مع ليبيا على مقولة جبهة الصراع ضد اسرائيل . فتحل مشاكل مصر الاقتصادية بنفط ليبيا كثمن لفرط الجبهة العربية وفرض الاستسلام ويتم ذلك في ظل الصلح مع اسرائيل بحيث تمتد عندها حدود معسكر الاستسلام اذا مازالت ثورة الفاتح من الطريق فتمتد من السويس الى المغرب حيث ينظر الملك الحسن للعبقرية اليهودية المستثمرة الاموال العربية في مخططات الازدهار المقبلة !

هذا هو المخطط الامبريالي . وهو ما حذر منه حرفيا سعادة في ١٩٤٨ من أن اليهود

يطمعون في الاستيلاء على كل سورية الطبيعية ليقيموا دولتهم « من الفرات الى النيل » ثم يتجهون الى الاستعمار !

وفي ضوء تحديات الاخطار المصيرية هذه تتضح معالم النضال الجبهوي العربي الحقيقي :

ان ثورة ليبيا قد راهنت على دعم وتحقيق قيام وحدتنا القتالية ودعمت الكفاح لتحرير فلسطين فاستحقت هذا العقاب من الامبريالية لأنها فهمت العروبة بأبعادها الحقيقية : تضامنا جبهويا ووعيا لكامل الظروف الموضوعية الجغرافية والاستراتيجية التي يؤدي اخذها بعين الاعتبار الى صيرورة الجبهة العربية حقيقة واقعية لا حلما مجنحا .

ولأن ثورة ليبيا تصرفت في هدي هذه الحقائق تصرفا ثوريا متقدما على طريق الجبهة العربية المعادية للاستعمار والصهيونية والداعمة لوحدتنا القتالية تستحق عقاب الامبريالية .

ان امتنا السورية هي الاكثر حاجة وافادة من قيام الجبهة العربية المعادية للاستعمار والصهيونية لأن الصراع على أرضها الذي يدور ضد التنين الصهيوني ــ الامبريالي هو صراع يتناول وجودها من الاساس . فخلافا لكل رأي سقيم يعتقد ان بامكان سورية الانسلاخ عن العروبة فان سورية بحاجة قصوى لرابطة العروبة لأنها تخوض صراعا وصفه سعادة بأنه « صراع الموت أو الحياة » صراع يتناول وجودنا القومي بالذات . ومساندة العالم العربي لنا في هذا الصراع هي مساندة تتناول دعم الحفاظ على وجودنا القومي .

أما نحن فنتضامن مع هذا العالم العربي في اطارين : أولا ان انتصارنا على التنين الصهيوني ــ الامبريالي في أرضنا هو انتصار لكل العرب لاننا خط المواجهة الأول ، فاذا دحرت المؤامرة الصهيونية في المشرق انتهى خطر الاستعمار الصهيوني للعالم العربي وخاب حلم الحسن الثاني !

ثانيا ، في ان نعتبر صراع شعوب العالم العربي ضد الامبريالية جزءا متمما لصراعنا ، وبخاصة تلك الشعوب التي تدفع من سلامتها ثمن تضامنها الجبهوي الأخوي معنا في صراعنا المصيري ضد التنين الصهيوني الامبريالي .

ان ليبيا حين تواجه الهجوم الامبريالي ــ الساداتي ــ الرجعي لأنها متضامنة معنا في صراع الوجود ضد اليهود داعمة لوحدتنا الطبيعية القتالية ولكفاحنا المسلح متصدية للمؤامرة الامبريالية ، انما تكون قد تعرضت معنا في خندق المجابهة الجبهوية الواحدة .

ومن هنا كان واجب كل سوري أن يناصر ثورة الفاتح وثورة الجزائر في تصديهما للهجمة الامبريالية الرجعية المتوسلة السادات والحسن أدوات التنفيذ . الذين لا يفهمون أبعاد هذا الصراع الجبهوي نادوا بالتضامن العربي لحل الخلافات يوم هاجم السادات ليبيا ونادوا «بالحياد». الحياد بين من ومن؟ بين الخيانة والوطنية؟ بين من يدعم وحدة الهلال الخصيب القتالية والكفاح المسلح ومن يهيء للاستسلام والذهاب الى الارض المحتلة لمصافحة بيغن ؟

مفروض أن يتجسد النضال الجبهوي في مواقع الصراع . مفروض ان يناضل الثوار في الخنادق المشتركة على امتداد العالم العربي ضد الصهيونية والامبريالية والرجعية .

٢ ــ مع ثورة المليون شهيد وثوار البوليساريو : مبادرات جزائرية دعما لوحدة بغداد ودمشق :

من هنا ، ومن ضمن هذا الوعي لتماسك جبهتنا العربية المعادية للاستعمار كان تأييدنا العفوي لثوار البوليساريو . لم ندخل في كل الجدل الذي يمكن ان يقوم حول ثورتهم . حسبنا انهم يرفعون البندقية في وجه رجعية عربية مؤيدة من الاستعمار وان هذه الرجعية العربية هي التي دأبت منذ سنوات على عقد اللقاءات مع أقطاب الصهاينة تمهيدا لخطوة السادات وانها تبوق للتحالف مع الصهاينة من أجل « ازدهار » العالم العربي في ظل العبقرية اليهودية .

كل بندقية ترتفع في وجه هذه الرجعية المتحالفة مع الصهيونية والاستعمار مفروض دعمها . ومن هنا صدر البيان المشترك بين رئاسة الحزب السوري القومي الاجتماعي وقيادة جبهة البوليساريو في شباط ١٩٧٦ وفي وقت كانت احداث لبنان هي الطاغية على الاهتمام ولكن الافق الاستراتيجي للنضال مفروض أن لا يغيب لحظة عن أبصار الثوار . وعلى قاعدة تأييد هذا الكفاح المسلح جرت ابحاث لاحقة مستفيضة مع الاخوة في البوليساريو حول التوجه وحدويا في المغرب العربي. والى جانب البوليساريو تقف ثورة المليون شهيد، ثورة الجزائر العظيمة التي أيدها حزبنا منذ اندلاعها وناصرها طوال تلك السنوات ، هذه الثورة التي كانت تحولا نوعياً في ثورات العصر الحديث لأنها أول ثورة ضد الاستيطان الاستعماري وأول انتصار لثورة وطنية شعبية ضد ظاهرة الاستيطان وضد قوى استعمارية عاتية تمثل اقوى جيش بري في أوروبا في ذلك الزمن .

ان ثورة المليون شهيد هي القدوة الرائدة لكفاحنا القومي المسلح في فلسطين والأمل الذي لا يخبو في أعتى لحظات الظلمة والظلم بحتمية انتصار الكفاح المسلح على الاستيطان الاستعماري وحليفه الامبريالية . وثورة المليون شهيد وعت أبعاد معركتنا في فلسطين فكانت دوما تقف الى جانب المقاومة وهي التي انتزعت مقررات الرباط من الرجعية العربية لمصلحة شعبنا في فلسطين وحقه في التمثيل بمنظمة التحرير الفلسطينية . وهي التي سارعت في حزيران ١٩٦٧ الى ارسال ارتال الدبابات الى ضفة القناة لحماية مصر بعد تدمير طيرانها وجيشها في المعركة . وهي التي ارسلت قيادتها الى دول المواجهة بعد حزيران ١٩٦٧ بمطلبين : دعم المقاومة الفلسطينية واتحاد جبهة المواجهة ساعية الى رأب الصدع بين دمشق وبغداد منذ ذلك الحين . وهي التي انطلقت في حرب ١٩٧٣ الى موسكو تحمل كل ما في خزائنها من احتياطي لتدفع ثمن الجسر الجوي من المعدات والاسلحة المتطورة الى القاهرة ودمشق .

ثورة المليون شهيد وعت أيضا أبعاد المعركة على أنها صراع قومي تاريخي تحريري لا مساومة على الحق القومي فيه وأسلوبه الاساسي الكفاح المسلح . ووعت أيضا أن المعركة هي معركة دول المشرق وتخصيصا الهلال الخصيب وأن الجبهة العربية هي للمساندة والدعم وليس لاتخاذ القرار عن أحد .

هذا ما قاله تكرارا الرئيس بومدين على مسامعنا حين تشرفنا بمقابلته في الجزائر في تشرين أول ١٩٧٧ وهذا ما أعلنه في قمة طرابلس في الشهر التالي حين قال بأن القرار هو سوري – فلسطيني وبعد ذلك يكون الدعم العربي لهذا القرار . وهو حتما يريده سوريا – عراقيا – فلسطينيا بانضمام العراق الى قمة الصمود . وفي سبيل هذا كان القرار بأن يقوم الرئيس بوميدين شخصيا بزيارة بغداد ودمشق تحقيقا لوحدتهما . وقد أرسل من قبل مندوبه الأخ الابراهيمي الى كل منهما في المسعى نفسه .

وحين أعلن عن زيارة الرئيس بوميدين الى بغداد ودمشق للقيام بالمسعى الكبير لتوحيدهما تحركت الامبريالية والرجعية المتحالفة معها في محاولة اشغال الجزائر ورئيسها المناضل عن

هذا الدور الخطير المتهدد للمصالح الامبريالية والصهيونية في المشرق تماما كما حرك من قبل السادات لشن هجومه على ليبيا الثورة .

ان الخلاصة المهمة التي يتوصل اليها الباحث من درس معنى التأييد الليبي والجزائري لوحدتنا القتالية ومسعاهما لرأب الصدع بين بغداد ودمشق هي التالية :

لقد انطلقت الجزائر من نظرية دعم التمثيل الوطني الفلسطيني منذ حرب حزيران الى مؤتمر قمة الجزائر وقمة الرباط العربيتين فانتزعت لمنظمة التحرير الفلسطينية هذا الحق في وجه رفض الرجعيات العربية ومعارضتها . ونظرية الجزائر في التمثيل الفلسطيني تقوم على مقارنة ضمنية مع وضع جبهة التحرير الجزائرية وحقها في التمثيل السياسي ابان ثورة الجزائر المجيدة . أما ثورة الفاتح الليبية العربية فقد انطلقت اصلا من تراث ناصري وحدوي شامل ولكنها هي أيضا دعمت قيام وحدة الهلال الخصيب .

والنقطة المفصل هنا ، هي أن ثورتي الجزائر وليبيا ، رغم تمايز منطلقهما ، الأولى تؤكد التمثيل الفلسطيني ، والثانية تنطلق من مقولة الوحدة العربية الشاملة ، فقد التقيتا على دعم وحدة الهلال الخصيب ايمانا منهما بأهمية محور بغداد ــ دمشق في المعادلة القومية المواجهة للعدو على الساحة المشرقية .

لقد تجلت في بادرتيهما أسمى معاني العمل الجبهوي العربية وأشرفه .

وبوميدين انطلق الى موسكو باحثاً عن التوازن الاستراتيجي الدولي لجبهة الصمود وممهدا لزيارة الاسد وعرفات .

ان النضال العربي الجبهوي ضد الامبريالية والاستعمار والصهيونية يفرض رص صفوف الجبهة العربية التقدمية واعتبار الساحة الممتدة على مدى العالم العربي ضد الامبريالية والصهيونية ساحة متداخلة تفترض صراعا تضامنيا موحداً وموقفاً جبهوياً واحداً .

وفعلا قصف الطيران الفرنسي والمغربي شعب الصحراء وتوترت الاجواء . ولكن الرئيس بوميدين لم ينشغل في هذه الملهاة عن مهمته العربية وزيارته المشرقية . وفشل مخطط خلق بؤر التوتر الجانبية المستهدف تجميد كل دولة تقدمية في مشاغلها الخاصة وعزلها عن قضية فلسطين تماما كما انتصبت الجماهيرية الليبية بعد عدوان السادات على أراضيها قلعة للصمود والتصدي تدعو لمؤتمرات طرابلس الثلاثة ، هكذا انطلق الرئيس بوميدين الى المشرق وفي الوقت نفسه الذي كان يزور كارتر المنطقة متنقلا بين طهران وأسوان والرياض داعيا لسياسة الامبريالية ودعم محور بيغن ــ السادات ، انطلق الرئيس بوميدين داعيا لجبهة التصدي والصمود في جولة شملت عشر دول عربية ومركزا جهده الاوفى على مسعى تذويب الجليد بين بغداد ودمشق .

وكاد المسعى ينجح باللقاء الثنائي العراقي ــ الشامي في الجزائر لولا بعض الشكليات التي جمدت المسعى المشكور .

ولقد انهى الرئيس بوميدين جولته في موسكو تمهيدا لقمة الجزائر التي انعقدت لاحقا .

ان أبرز ما ميز السياسة الجزائرية في هذه المرحلة :

١ ــ المسعى لجمع دمشق وبغداد في محور قومي واحد .

٢ ـ الحرص على تأكيد التمثيل الفلسطيني الوطني في وجه محاولات السادات ابراز بديل فلسطيني عن منظمة التحرير الفلسطينية .

٣ ـ التوازن الاستراتجي الدولي في مواجهة المؤامرة .

وكم هي الفجيعة كبيرة بغياب القائد المناضل بوميدين في هذا الظرف القاسي من النضال العربي التقدمي والتصدي للمؤامرة الامبريالية الصهيونية .

مثل هذه العروبة العملية المكافحة الداعمة لوجودنا ومصيرنا حين تتعرض لهجمة امبريالية رجعية . أين يكون موقفنا ، اليس الى جانبها في الخندق المشترك للنضال الجبهوي ؟

هل يمكن ان نتردد في ظل نفاق « الوفاق » العربي بين ملكية رجعية عميلة وبين ثورة المليون شهيد ؟

هل يمكن ان نتردد في ظل الكلمات الطنانة عن « التضامن العربي » ، بين حلفاء اسرائيل وحلفاء ثورتنا القومية وكفاحنا المسلح ؟ اليس الخيار واضحا والموقع محددا لا يقبل الالتباس ؟

٣ ـ تبقى الثورة الثالثة ، تلك التي تحكم الطوق على اسرائيل وتحكم الرجعية عليها الطوق: ثورة اليمن الديمقراطي التي تغلق باب المندب في وجه العدو وتحاط بطوق من الرجعيات العربية المتحالفة ضدها . ثورية جذرية تغييرية انبثقت من رحم حرب تحرير قومية وكفاح مسلح ضد الاستعمار ، فأجلته عن احدى أهم مواقعه الاستراتجية . ألم تكن عدن محفز الاستعمار البريطاني البحري على طريق الهند والبحر الاحمر ؟ فأصبحت قلعة الثورة والتغيير في الجزيرة العربية ، ورائدة تجربة الثورة الشعبية على مداها ؟ تلك الثورة الشجاعة التي لم يمنعها الطوق الرجعي من أن تعلن انضمامها لجبهة الصمود والتصدي وهي التي تملك امضى سلاح في وجه كل الرجعيات : ثورة شعبية منظمة هي باكورة الخير في قحط وجدب صحراء الجاهلية المستمرة في الجزيرة .

لقد ردت ثورة اليمن الديمقراطية على محاولات الرجعية ضربها من الداخل بالحسم الثوري الذي لم يقتصر على تصفية الزمرة الوسطية بل على بناء حزبها الطليعي الثوري الاشتراكي . وبدل ان تكون مسألة تصفية الثورة هي المطروحة على جدول اعمال الامبريالية والرجعية العربية انتقلت الثورة الى الهجوم ، فاشتعلت الثورة الشعبية الوطنية في اليمن الشمالية وترنح حكم صنعاء امام الانفجار .

وان الخط الوحدوي الذي تقوده ثورة اليمن الديمقراطية لتوحيد شطري اليمن والذي عبر عنه الرئيس عبد الفتاح اسماعيل رئيس هيئة رئاسة مجلس الشعب الاعلى في حديثه لمجلة « الف باء » العراقية في ٢١ شباط ١٩٧٩ ، يقترب كثيراً من المفهوم القومي الاجتماعي للعمل الوحدوي وعلاقته بالعالم العربي ككل . يقول الرئيس عبد الفتاح اسماعيل : « ان تحقيق الوحدة اليمنية وقيام اليمن الموحد اسهام عظيم نقدمه الى الدرب الطويل من اجل وحدة امتنا العربية .. لأننا لا نستطيع ان نكون ثوريين ووحدويين على الصعيد القومي العربي متى ما كنا وحدويين وثوريين على صعيد وطننا اليمني . »

وهذا مفهوم يلتقي في اتجاهه العام مع قول سعادة : « لا يمكننا ان نقدم شيئاً ونحن لا شيء . لا يمكن لسورية ان تخدم العالم العربي في شيء وهي مبعثرة ، مجزاة نفسيا واجتماعيا وسياسيا واقتصاديا، وليس لها كيان أو ذات أو حقيقة أو نفسية . لذلك نحن نرى هذه النهضة

مقربة لنا للعمل والتعاون في العالم العربي لا مبعدة » (سعادة المحاضرات العشر ــ ص ١٨٢) .

فالمفهومان يلتقيان على ان وحدة الوطن الطبيعي ــ اليمن بشطريها أو سورية بكياناتها ، هو طريق العمل الوحدوي السليم والممكن للوطن الموحد من الاسهام في العمل العربي العام اسهاماً متقدراً لا اسهاماً عاجزاً .

٤ ــ هذه الثورات الثلاث واسترجاع مصر للعروبة :

هذه الثورات الثلاث : ليبيا والجزائر واليمن الجنوبي تمثل نواة الجبهة العربية المعادية للاستعمار والصهيونية الداعمة لجبهتنا القومية في صراعها ضد الصهيونية والامبريالية .

ومن هنا ونحن نحلل خطورة ما احدثته خطوة السادات في عزل مصر عن العروبة وعن جبهة المصادمة للعدو ندرك بأن خطوة السادات تكتسب خطورتها الفعلية في انها لم تقتصر على فرد **نبذته الجماهير المصرية وعزلته** بل في انها شكلت نوعاً من القبول المصري باستثناء طبعاً اليسار المصري الذي له كل تقديرنا وتأييدنا وعدد من الوطنيين . ولكن القبول المصري تجلى في أن الوفود الاسرائيلية الذاهبة الى مصر استطاعت ان تتجول بين الجماهير بحرية أكثر مما تستطيعه في الارض المحتلة وفي ظل أمن الجيش الاسرائيلي المحتل اذ هي معرضة دوماً لغضبة شعبنا في الارض المحتلة بينما لقيت الحفاوة والضيافة حتى في شوارع مدن مصر . هذا فضلاً عن الاستقبالات الحافلة للسادات .

انها ظاهرة ربما اخطر من خطوة السادات هذا القبول الضمني بهذه الخطوة من المصريين باستثناء المعترضين الذين يبدون قلة حتى الآن ، مع انها القلة المناضلة التي نعتز بعروبتها ونعتبرها على طريق عبد الناصر .

تقول مجلة « الصمود » الناطقة بلسان جبهة الرفض الفلسطينية في عددها الصادر في ٣٠ ايلول ١٩٧٨ :

« دولة مصر لا تعاني من الوجود الفلسطيني ، فلا لاجئين ولا مقاومة مسلحة في أراضيها ، وهذا ما ساعد نظام مصر على القفز فوق الرقم الفلسطيني ، أما على الجانب الآخر ، أي اقامة العلاقات مع العدو ، فيبدو ان الاوضاع في مصر كان قد تم اعدادها لقبول مثل هذه العلاقات خلال السنوات الاخيرة . »

وطبعاً « دولة مصر لا تعاني من الوجود الفلسطيني فلا لاجئين ولا مقاومة مسلحة في أراضيها » ليس بالصدفة بل بعامل الترابط الجغرافي والتكامل السكاني الذي يجعل فلسطين جزءاً من سورية الطبيعية .

ان النضال في سبيل استعادة دور مصر العربي في المجموعة العربية مهمة أساسية وتاريخية .

واننا ندرك كل المعطيات والمقدمات التي جعلت خطوة السادات تلاقي هذا القبول الضمني في مصر . وهو أمر يقلقنا أشد القلق . وندرك ان بعض هذه المعطيات والمقدمات كانت في تصفية السادات لاثار الثورة الناصرية واتجاهها العربي وضربه اليسار والقوى الوطنية وضربه المكتسبات الاقتصادية والاجتماعية لثورة ٢٣ يوليو وتيئيسه الشعب والجيش بقطع علاقاته مع الاتحاد السوفياتي وبالتالي سد باب تبديل قطع الغيار للاسلحة .

ولكن هذا كله لم يكن ليجعل في أي كيان من الكيانات السورية في الهلال الخصيب أمر التعامل مع العدو مقبولا ، لأن الشعب أكثر التصاقاً هنا بالمسألة الفلسطينية والقضية القومية التي تتفرع عنها ، وهذا هو الذي حال دون تورط من رغب في مجاراة السادات أو سبقه الاتيان بهذه الخطوة .

وهذه حقيقة لا مجال لانكارها أو المكابرة فيها . على انها لا تعني اسقاطا لمصر من الصراع العربي بل نضالا في سبيل استعادتها ولكن مع وعي كامل لتمايز مدى الالتزام بمسألة فلسطين على صعيد سواد الامة وجماهير الشعب بين بيئة عربية وأخرى بمقدار الانعكاس الفعلي للخطر على وجود الشعب ومصير البلاد .

وهنا يصبح المعيار للاخلاص الجدي لرابطة العروبة والعمل النزيه في سبيلها يتجلى في مدى وعي هذه المعادلة في تصحيح العلاقات الجبهوية . لقد ارتكب السادات خيانة واستسلاماً ولكن علينا ان نسأل أنفسنا بموضوعية هل أن خللا في العلاقات العربية كان حاصلا نفذ منه السادات الى منزلقه ؟

ألم يكن الانفصال في ١٩٦١ جريمة نفذت منها الرجعية العربية المتحالفة مع الاستعمار ؟ ولكن كل ما كتب وقيل يومها لم يستطع اغفال الخلل الاساسي في التسرع باقامة الوحدة دون ارسائها على الواقع الاجتماعي ــ الاقتصادي ــ البشري ومستلزماته ، ومن هنا ارتفعت اصوات أكثر الوحدويين في الشام مستنكرة ما وصفته « بعدم التكافؤ القطري » وسوى ذلك من أوصاف .

والآن ، حين تندفع ثورتا ليبيا والجزائر باتجاه دعم تحقيق وحدتنا القومية في الهلال الخصيب مع تضامنهما الجبهوي الكامل في دعم الصمود تقدمان أروع صورة عن رابطة العروبة الخيرة الصحيحة . وحين تحمل مصر أعباء حرب حزيران ثم تبقى جبهتنا الشرقية متحكمة بها التناقضات وتندفع السياسات العربية ومنها السياسة المصرية للحيلولة دون وحدتها ، تكون النتيجة ان حاكم مصر اما يستشهد كعبد الناصر أو يخون كالسادات .

لقد شاعت في خضم الاحداث الاخيرة عبارات وشعارات كالقول « ان من مصر قرار الحرب والسلم » . هذا ما اعلنه السادات مراراً وما جرى الرد عليه من ان مصر تكبر بالعرب لكنها اذا ما انعزلت عنهم فقدت وزنها . (راجع « الحوادث » العدد ٢٧ ــ كانون الثاني ١٩٧٨) .

ان وراء هذه الكلمات معاني كثيرة تحتاج الى تصحيح من حيث اعادة الصياغة لا في الكلام بل في طبيعة العلاقات العربية نفسها .

ذلك انه لا يجوز ان تكون مسؤوليات الحرب ضد العدو الاسرائيلي الا في يد من يشكل هذا العدو بالنسبة لوجوده خطر المصير : خطر الحياة أو الموت . ان ما حصل اخيراً ، يتسدعي ، على هوله ، اعادة نظر في اتجاه العلاقات العربية دعما لقيام المحور القومي القتالي في الهلال الخصيب مستنداً الى جبهة صمود عربية .

ان استعادة مصر للعروبة شأن مهم جداً ولكن بانتظار ذلك مفروض ان يؤدي ملء الخلل الحاصل بسحبها من جبهة المواجهة الى تصحيح اساسي وثابت للعلاقات العربية وللتوازن الاستراتيجي المطلوب ضد العدو .

ذلك ان الفارق نوعي بين ما حصل في مصر وما يمكن ان يحصل في أي من دول محيط فلسطين الطبيعي في الهلال الخصيب . فهنا الخشية والرادع دوما كانت ارادة الشعب الذي تملأ قضيّة فلسطين وجدانه القومي . لولا ذلك ما الحائل دون اقتفاء الحسين آثار السادات ؟ ان شعبنا السوري في الهلال الخصيب لا يمكن أن يقبل بما يبدو انه مقبول الى حد ما مصريا من هذا « التفهم والتفاهم » الصهيوني ـ المصري .

وهذا كلام ليس ضد شعب مصر الذي نحترم نضاله وتضحياته لا سيما بقيادة عبد الناصر التاريخية ، وبقيادة اليسار المصري اليوم، ولكن هذا تحليل موضوعي لما شكل رادعا ضد الحكام في الهلال الخصيب من تحريم أية علاقة مع العدو وما اخذ على انه مبادرة سياسية عادية في مصر . ان « التابو » على التعامل مع الصهيونية لم يزل أرسخ وأشد في الهلال الخصيب بحيث يجري تخوين من يلجأ الى هذا السلوك الخياني المنحرف ونبذه ومحاربته . وهذا « التابو » ضد العدو ، مصدره ان مسألة فلسطين حية في وجدان محيط فلسطين الطبيعي في الهلال الخصيب وأكثر التصاقا بالمصير القومي العام منها في مصر .

هنا يعود الناس الى ما قاله أنطون سعادة في ١٩٤٨ على أثر نكبة فلسطين الاولى .

« اننا نشك كثيرا في أن المملكة العربية السعودية كانت تشعر بالفعل ان فلسطين يجب الدفاع عنها كما يشعر السوريون وللغاية السورية عينها التي يريدها السوريون . فالارجح ، الذي تدل الدلائل عليه ، ان المملكة السعودية رأت في تدخلها مجالا للعمل لمسائل خاصة بها ويمكننا ان نعتقد ، وهنالك أسباب تؤيد هذا الاعتقاد ، ان مصالح مادية هامة تمكنت المملكة العربية السعودية من الحصول عليها بطرق المساومات على كيفية تقرير مصير فلسطين . ان القروض المالية الكبيرة التي تستعد دولة الولايات المتحدة الاميركانية لاقراضها لها وفي المصالح المادية الكثيرة التي حصلت بين الولايات المتحدة الاميركية والمملكة العربية السعودية لا تسمح بأن نظن أنها بعيدة عن تنفيذ خطط السياسة الاميركانية في صدد قضية فلسطين . كذلك نرى ان المصريين نظروا الى قضية فلسطين من وجهة نظر مصرية بحتة . » (سعادة ـ المحاضرات العشر » ص ٥٨ ـ ٥٩)

لقد تأكدت مصداقية هذا الاستشراف برمته تقريبا . فاتضح لا سيما في السنوات الاخيرة مدى الانعكاس السلبي للتحالف الاميركاني ـ السعودي على قضية فلسطين . والشيء الوحيد الذي تغير هو أنه بعد أن كانت السعودية تأخذ قروضا اميركية في ١٩٤٨ باتت اليوم تثمر أموالها في أميركا وفق المصالح المالية الاميركية . أي ان صلة الاستعباد بقيت واستمرت مع تزايد افادة الامبريالية من الدور السعودي على كل صعيد ، خاصة بالضغوط التي يمارسها على دول المواجهة ومنظمة التحرير للاستسلام للحل الاميركي الامبريالي . طبعا موضوع السعودية يمكن الحديث فيه عن تحالف الطبقة الرجعية السعودية مع الاستعمار . وهذا وارد وصحيح . ثم هناك تحذير سعادة من « النظر الى قضية فلسطين من وجهة نظر مصرية بحتة . » لا تراعى فيه مصلحة شعبنا في فلسطين بل المصالح السياسية المصرية .

هل نفقد ايماننا بالعروبة في ضوء هذا الانتكاس الكبير ؟ هل ننكمش على أنفسنا ؟

كلا ! ان وجها من الحقيقة هو في ما حصل لمصر بقيادة السادات ولكن الوجه الآخر هو في لقاءات طرابلس والجزائر ودمشق التي تمخضت عنها جبهة الصمود والتصدي فقدمت الوجه المضيء المشرق للعروبة وتضامنها الكفاحي .

وسعادة قدم مقولتين متكاملتين حول الشأن العربي ، مقولة التحذير من استغلال هذا الشأن الجبهوي من قبل اي محور لمصالحه الاقليمية . وبالتالي وجوب تمركز قضية كفاح شعبنا خاصة بموضوع فلسطين على مبدأ الاعتماد على النفس أولا وعدم فلش المسؤوليات على النحو الذي مورس منذ استشهاد سعادة حتى الآن فما جنى سوى الكوارث لأن مسألة فلسطين خضعت لمشاعية الانظمة دون وجود الاستقطاب القومي في محيط فلسطين الطبيعي المباشر مدعوما بالجبهة العربية .

والمقولة الثانية ، هي ايمان سعادة ودعوته والزام حزبه بالعمل لقيام الجبهة العربية المعادية للاستعمار « التي تكون سدا في وجه المطامع الاجنبية الاستعمارية » والتي تحتضن وحدة سورية الطبيعية وتدعم قيامها لتكون احدى مرتكزاتها القوية .

ونحن نعتقد ان المقولتين السلبية والايجابية قد تحققتا . « والضد يظهر حسنه الضد » . فاذا كانت المشاعية واختلاط المسؤوليات والتصرف بالقضية كما فعل السادات ، وعدم قيام الاستقطاب القومي في الهلال الخصيب لمعركة فلسطين قد أدت الى الكوارث ، فان قيام نواة الجبهة العربية المعادية للاستعمار والصهيونية والداعمة لكفاح شعبنا ولقيام الاستقطاب القومي في الهلال الخصيب ، هي احدى أبرز منجزات المرحلة الحاضرة وتحتل في هذا المضمار ثورات ليبيا والجزائر واليمن الديمقراطي موقعا خاصا من التقدير لتضامنها على بناء هذه النواة .

٥ ــ وثائق طرابلس الثلاث تؤكد هذا المنحى

يمكن اعتبار وثائق طرابلس الثلاث : الاعلان السياسي الصادر عن قمة الرؤساء بقيام جبهة التصدي والصمود ، بيان الوحدة الوطنية الفلسطينية ، والاعلان السياسي عن « مؤتمر الشعب العربي » على انها تشكل وحدة متكاملة في بعض جوانبها .

ذلك ان ثمة خطوطا متكاملة بين هذه الوثائق الثلاث . اولى هذه الخطوط ــ المفاصل هي التمييز بين جبهة المواجهة وجبهة المساندة ، وهذا هو التفكير الجبهوي السليم الذي تميزت به كما مر سابقا ، ثورتا ليبيا والجزائر ازاء المشرق . وقد نصت وثيقة اعلان قيام جبهة التصدي والصمود لقمة الرؤساء في البند التاسع من بنودها على ما يلي :

« وتأكيدا على أهمية العلاقات النضالية والقومية السورية الفلسطينية فقد أعلنت كل من الجمهورية العربية السورية ومنظمة التحرير الفلسطينية تشكيل جبهة موحدة بينهما لمواجهة العدو الصهيوني والتصدي للمؤامرة الامبريالية بكل أطرافها واسقاط كل محاول للاستسلام . » واعتبر هذا هو المحور الذي انضمت اليه بالدعم كل من الجماهيرية الليبية والجمهورية الجزائرية وجمهورية اليمن الديمقراطية .

ولا يمكن فصل هذا النص عن النصوص الاخرى التالية لفهم أبعاده الحقيقية :

اولا : البيان الشامي ــ الفلسطيني المشترك الصادر في ٢٤/١١/١٩٧٧ أي قبل انعقاد قمة طرابلس .

ثانيا : بيان الوحدة الوطنية الفلسطينية الصادر في طرابلس .

ثالثا : توصيات مؤتمر الشعب العربي المنعقد في طرابلس ان لجهة الموقف من الكيان

الصهيوني وحرب التحرير أو لجهة الدعوة الى قيام الجبهة الشرقية .

وثمة مسألتان مركزيتان يهمنا تبيان موقف هذه الوثائق منهما **الوحدة والتحرير** .

أ ـ الوحدة : ان ما ورد في نص ميثاق طرابلس حول « العلاقات النضالية والقومية السورية الفلسطينية » جاء تثبيتاً لمنحى البيان الشامي ـ الفلسطيني المشترك الصادر في ١٩٧٧/١١/٢٤ بنشوء محور شامي ـ فلسطيني .

ان قيام هذا المحور لا يعني الاقتصار عليه فهو نشأ كذلك لأن العلاقات بين العراق والشام لم تكن قد عادت الى طبيعتها المتوخاة مع استمرار المساعي في سبيل عودتها ومع تصريحات كبار المسؤولين الشاميين عن وجوب أعادتها الى طبيعتها ومع رسالة الرئيس الاسد الى الرئيس البكر ورسالة الرئيس البكر الى الرئيس الاسد وتقديم بغداد لميثاق جبهوي بهذا الصدد . كل هذه مؤشرات على الطريق في سبيل الهدف القومي الكبير · لقاء بغداد ودمشق .

ولكن الاعلان السياسي الصادر عن مؤتمر الشعب العربي أكد الهدف القومي الذي يكمل ما ورد في نص اعلان قمة التصدي والصمود من ان الجبهة الشرقية هي دمشق وبغداد والمقاومة . « يطالب المؤتمر باقامة الجبهة الشمالية من القطر السوري والعراقي والثورة الفلسطينية ، وأية قوة عربية مقاتلة والجبهة الغربية من الجماهيرية والجزائر وقدرات شعب مصر وأي قدرات أخرى عربية » . (البند ١٠ من توصيات المؤتمر)

وهكذا فما أعلن عنه في بيان قمة الرؤساء من قيام محور شامي ـ فلسطيني « تأكيدا على أهمية العلاقات النضالية والقومية السورية الفلسطينية » **هو محور يكتمل بالعراق ليتحقق الهدف الاستراتيجي الذي دعا اليه الاعلان السياسي لمؤتمر الشعب العربي « اقامة الجبهة الشمالية من القطر السوري والعراقي والثورة الفلسطينية » .**

ان هذه الوثائق الثلاث تؤكد بشكل قاطع وحدة الهلال الخصيب كأساس المواجهة القومية وتؤكد الدعم العربي لقيام هذه الوحدة ثم لصمودها . وهذا المنحى يشكل فعلا تحولا نوعيا في الاتجاه العربي العام لا سيما العمل الوحدوي على قواعد مشدودة الى الواقع الطبيعي ومستلزمات المجابهة الاستراتيجية .

ب ـ التحرير : نعود الى الوثائق نفسها لنتبين موقفها من التسوية والتحرير . وهنا لا بد من العودة الى وثائق ومستندات سابقة لتبيان كل ملامح الصورة .

لا بد من التنويه أولا ، بأن الطرفين الشامي والفلسطيني (منظمة التحرير) قد تعاطيتا مع التسوية حتى خطوة السادات .

ولا بد ثانيا ، من التنويه بأنه بعد ١٩٦٧ وخاصة بعد ١٩٧٣ حصل انقسام في الصف الوطني وخاصة في المقاومة الفلسطينية . فأصبح الصف الوطني صفين صف رافض مبدئيا لقرارات الامم المتحدة متمسك بالحق القومي ، وصف ليس أقل غيرة على الحق القومي ولكنه تعاطى في التكتيك على أمل ان التعاطي مع التسوية قد يكسبه « تسوية وطنية شريفة » . وهذا الفريق المتعاطي مع التسوية انقسم بدوره الى صف وطني تعامل تكتيكيا مع التسوية مع مخاطر تلك الاستراتجية ، والى صف منحرف عن الوطنية استبدل الاستراتجية نهائيا بالتكتيك الذي أصبح استراتيجية بديل فانحدر الى الاستسلام كالسادات .

والموقف المفصل هو في كيفية تصور الطرف الوطني المتعاطي مع التسوية للكيان

الصهيوني . ذلك انه على هذا التصور قد يبنى خط متصاعد باتجاه التصلب القومي كما حصل مؤخراً وبالتالي نحو اتضاح ان لا مجال لتسوية وطنية شريفة لاسباب تتعلق بطبيعة الكيان الصهيوني التي لا تفسح مجالا لتسوية وطنية شريفة . لأن اسرائيل دولة هجرة استيطانية استعمارية قامت على أساس الاغتصاب وكان نشوؤها على اشلاء حقنا القومي وانها لا تستطيع البقاء الا بالتهام المزيد من الارض وتشريد المزيد من الشعب . وان سلامها هيمنة على مواردنا وأرضنا وموت لنا . فاذا كانت هذه هي طبيعة الكيان الصهيوني ، فهل بالامكان المراهنة على التعايش معه ؟

ثم ان الكيان الصهيوني متحالف مع الامبريالية الاميركية وهي بدورها لا يمكن ان تسمح بتسوية شريفة لان مصالحها تقضي بأن تبقى شعوبنا مستعبدة لاحتكاراتها ولسلامها الامبريالي الذي تؤمنه اسرائيل بطبيعة نشوئها أساساً . في ظل هذه الموازين يتضح عملياً وفي ميدان الصراع بأن طريق التسوية الوحيد المعروض هو طريق الاستسلام : طريق السادات والكنيست .

المأزق الفلسطيني والتسوية

ان موقف منظمة التحرير الفلسطينية (قبل وثيقة الوحدة) المتعاطي مع التسوية استمر لا يجتاز العقدة: عقدة التعاطي مع اسرائيل كدولة عادية يمكن الاعتراف بها أو التعاطي على أساس انها دولة عادية من دول المنطقة . فرغم كل التكتيكات التي كانت تصل احيانا الى حد الخطر لجهة الدولة الفلسطينية و« حدودها » الا ان أمر الموقف من الكيان الصهيوني ، وهو الذي كان مطلوبا مهره بالاعتراف استمر لا يجتاز هذه العقدة. ولذلك قال بريجنسكي في الاخير : « وداعا يا منظمة التحرير » كما قال كارتر والسادات بأن « المنظمة اقصت نفسها عن التسوية » .

يقول الاخ فاروق القدومي لمجلة نيوزويك في عددها الصادر في ١٥/٣/١٩٧٧« لن نعترف باسرائيل .. في هذه المرحلة نناضل في سبيل اقامة دولة فلسطينية على جزء من فلسطين ... بعدها نناضل في سبيل عودة ابناء شعبنا الى باقي فلسطين .. أمامنا مرحلتان : مرحلة العودة الى حدود ١٩٦٧ ثم مرحلة العودة الى حدود ١٩٤٨ . أما المرحلة الثالثة ففي اقامة دولة ديمقراطية على كل فلسطين . نحن نناضل في سبيل هذه المراحل الثلاث . وامل ان يعرف ذلك جيداً السيد اسحق رابين » . (كان يومها رابين رئيس حكومة العدو) .

وفي ضوء هذا نستطيع ان نفهم لماذا « الفلسطينيون هم العقبة في وجه جنيف » كما قال فانس . لأن العدو يعرف ان فلسطين لا تحمل استراتجيتين : اسرائيل وفلسطين . وفلسطين لا يمكن حصرها بجزء منها .

وهنا كان شد الحبل فالعدو يعرف أيضاً مصلحته في أن لا تبدأ المراحل الثلاث وعلى النحو الذي عبر عنه الاخ أبو اللطف .

لذلك كان الضغط حتى يطغى البحث بصراع الحدود على صراع الوجود ، وحتى تشد منظمة التحرير الفلسطينية الى هذا الاطار فتفقد نفسها .

وكان ثمة اعتراضات على تعاطي منظمة التحرير الفلسطينية مع التسوية : اولاهما ان التعاطي مع التسوية وفي ظل القرار ٢٤٢حتى لو أدى الى كسب الجزء ، فانه مؤد الى اضاعة

للمراحل التالية . فاذا ما استردت الارض المحتلة في ١٩٦٧ على قاعدة التسوية « والحدود الآمنة والمعترف بها » و« انهاء حالة الحرب » تم عندها تصفية القضية . وثانيهما ، ان « الحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني » والحالة هذه تصبح كما بينا سابقا ، هي الفخ الذي تسقط فيه القضية بدل أن تكون منطلق الحق الثوري .

وكانت الخشية اصلا مزدوجة : فمن جهة ما يتناول التنازل الحقوقي عن كامل القضية في صفقة التسوية ومن جهة ثانية ما هو أخطـر الشعارات المرحلية مغروسة في نفوس القواعد والجماهير بحيث تصبح الدولة الفلسطينية على جزء من فلسطين دون شدها مرحليا الى غاية تحرير كل فلسطين وكأنها المدخل الى وجدان الناس في ان يكون قبولهم بها مدخلا لقبولهم بما هو قائم على ما تبقى من فلسطين من كيان صهيوني .

ثم هل تقبل اسرائيل بغير الاعتراف بها سبيلا للتنازل عن الارض ولمن ، للفلسطينيين ؟ وماذا يكون مصير منظمة التحرير ، الثورة اليس يعني ذلك التنازل عن الوجود وتصفية القضية من أصحابها المباشرين ، نقول المباشرين ، لأن صاحب القضية بالمدلول القومي ، هو امتنا كلها بحقها التاريخي والقومي .

وكان منطق منظمة التحرير انها لن تتعاطى مع التسوية في ظل القرار ٢٤٢ بل في ظل القرارات الصادرة عن الامم المتحدة في ١٩٧٠ و ١٩٧١ لجهة حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير والعودة واقامة دولته . ولكن جنيف لم تكن لتعقد الا في ظل القرار ٢٤٢ . ومن هنا كان على منظمة التحرير ان تعلن عدم تعاطيها مع جنيف طالما أنها لا تعقد الا في ظل القرار ٢٤٢ الذي ترفضه .

الا ان مرونة المنظمة وصلت الى حد استمرار التعاطي مع جنيف الى حد بحث الاجراءات الشكلية لتأمين وصول المندوب الفلسطيني . وكانت المنظمة ترفض الاعتراف باسرائيل رغم كل الضغوطات متذرعة بضرورة الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني أولا . ولكن شد الحبل كان سيفضي في ظل موازين القوى القائمة بالنتيجة الى الاعتراف المتبادل كمدخل للتسوية .

ويقول هنا بعض المطلعين من المنظمة ان الاعتراف الفلسطيني كان سيتوقف على شرط الغاء هو أن قرار ١٩٤٧ الصادر عن الامم المتحدة أساسا جعل الاعتراف باسرائيل مشروطا بتسهيلها عودة النازحين الفلسطينيين الى ديارهم وانه متى عاد المليونان فلسطيني الى فلسطين ، كل فلسطين ، تزعزع الكيان الصهيوني من داخله .

ولكن في وجه هذا الافتراض تبرز بقوة مشاريع التوطين الخطيرة . وحين سأل الصحافي الفرنسي غاي سبتسون المندوب الاسرائيلي لمفاوضات القاهرة الياهو بن اليسار عن مصير الفلسطينيين ولو حتى بمفهوم القرار ٢٤٢ الذي اعتبرهم لاجئين ، كان رد الياهو : « نحن لا نعترف بوجود أي لاجئين الا السكان العرب في يهودا والسامرة » أي ان الفلسطينيين الباقين في الضفة الغربية وغزة هم غرباء ولاجئون على أرضهم فكيف بالذين نزحوا الى محيط فلسطين الطبيعي في الاردن ولبنان والشام والدول العربية الاخرى ؟!

ولقد أجمعت الانظمة العربية المتعاطية مع التسوية على تأكيد حق الفلسطينيين في العودة ... أو التعويض . ولا بد ان الضغوطات الدولية كانت ستجعل قسما غير قليل يقبل بالتعويض والتوطين . وهذه هي المؤامرة الدولية التي رفضتها المقاومة الفلسطينية .

وقال أبو أياد في ٢٣ كانون الثاني ١٩٧٨ « نحن لا نستبدل فلسطين بقطعة من الجنــة، لا بديل عن فلسطين » .

ثم ان الحل الاميركي يضغط ضد عودة الفلسطينيين الى الضفة الغربية وضد اقامة كيان فلسطيني مستقل فيها . ان المصالح الصهيونية تقف ضد ابراز الشخصية الوطنية الفلسطينية انطلاقاً من مبدأ تنازع البقاء على هوية الارض والشعب ، بين صاحب الحق الاصيل والاغتصاب الدخيل .

اما المصالح الاميركية الامبريالية فلا تريد قيام كوبا ثانية ، مهما كانت صغيرة في المشرق العربي ، وعلى طريق النفط واحتكاراتها . ولذلك تقف ضد استقلال فلسطين . ولقد عرفت اسرائيل ان تبيع أميركا هذه الورقة في أنها هي أيضاً تدافع عن المصالح الاميركية ضد كوبا الفلسطينية .

وفي ضوء هذا كله يصبح كل رهان على النفاذ بأي مكسب من ضمن أوضاع التسوية رهان على سراب ويصبح الرفض ليس موقفاً مبدئياً فحسب بل موقفاً عملياً أيضاً .

الا أن هذا يقضي فعلا بأن تصاغ العلاقة المتكاملة بين الرفض الفلسطيني للتسوية وبين الدعم القومي والعربي له ، فلا تسود هذه العلاقة فلسفة النعامة ، لا طير لتطير ولا جمل لتحمل . المطلوب ان يفهم ويشجع موقف الرفض الفلسطيني ويدعم قوميا ، ولا يعتبر عامل ارباك للانظمة الوطنية بل تقوم علاقة ايجابية متكاملة بينهما .

ولقد كان عدم صوغ هذه العلاقة الواضحة هو أساس الخلل في الماضي ومنه قامت الذريعة لمنطق المنظمة القائل بأنها لم تكن تستطيع عزل نفسها عن عملية التسوية طالما ان انظمة المواجهة متعاطية معها وهي تذكر أن الشعب الفلسطيني مر بمغطسين من الدم حين تصدى لبادرة روجرز في الاردن ثم لخطة كيسنجر في لبنان . ومن جهة كانت تعتبر ان أي مكسب يتحقق يكون على طريق التحرير ، لأن مجرد قيام الدويلة الفلسطينية يبدأ باعطاء الفلسطينيين شخصيتهم السياسية وعلى أرضهم ، ومهما كان هذا الجزء محدوداً .

غير أن الاحداث جاءت تؤكد سقوط كل منطق التسوية . فمن جهة سدت الطريق الى جنيف وظهر جلياً ان مسألة التمثيل الفلسطيني هي العقدة لان اسرائيل لن تقبل بما وصفته في بيانات رسمييها بالقنبلة الموقوتة . ومن جهة ثانية أظهرت مبادرة السادات الاستسلامية كيف ترفض اسرائيل وأميركا في تلك المطولات من الابحاث والبيانات والتصريحات الصادرة عن كل من الاطراف الاسرائيلية والاميركية حتى الكيان الفلسطيني الهزيل . وكانت وثيقة طرابلس بين فصائل المقاومة تأكيداً لخط الرفض ونفض اليد من التسوية . ولكن طبعا لم يكن مثل هذا الموقف الفلسطيني ممكناً لولم يستند الى عمق قومي وعربي . وهنا نعود الى جوهر القضية التي مفروض جلاء ترابط حلقاتها : فمهم جداً ابراز الشخصية الفلسطينية في هذه المرحلة من النضال القومي ضد الكيان الصهيوني المغتصب . ذلك لأن فلسطين لا تحتمل حقيقتين فلسطين واسرائيل . ولكن مهم جداً أيضاً ان تستند الشخصية الفلسطينية الى عمقها القومي لتستطيع الصمود والتحرير .

ولا بد هنا من اخذ العبر الاساسية من كل هذا المسار . وأولى هذه العبر هي أهمية التكتيك المرحلي شرط ان يبقى مشدوداً الى الاستراتجية . وهذا القول يعني ان التكتيك المرحلي

مهم وضروري كما يعني في الوقت نفسه أن الاهم شده الى الاستراتجية . وخطأ كبير التوهم بأن الاستراتجية الناجحة هي التي لا تكون لها تكتيكات مرحلية ناجحة ولكن الخطأ الادهى هو اعتبار التكتيكات المرحلية بديلا عن الاستراتجية أو حلا قائما بذاته .

وفي ضوء هذا كله فان منظمة التحرير الفلسطينية ،استطاعت والحق يقال ، بتكتيكها المرحلي الرافع شعار « الحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني » ابراز شخصية هذا الشعب وحقه في السيادة والدولة وتقرير المصير على أوسع نطاق عالمي وان تصدر القرارات الدولية في هذا الاتجاه مما شكل كسبا سياسيا واعلاميا عالميا كبيرا . وهز صورة اسرائيل العالم الذي غسلت ذهنه الأضاليل الصهيونية والامبريالية ولم يكن ليتقبل دفعة واحدة مسألة الكيان الصهيوني لمصلحة كيان فلسطين . فكانت المرحلة وهي جاذب الاستقطاب الواسع ..

الا ان الخطر هو في الخيط الرفيع الفاصل بين التكتيك البارع وبين تحوله الى استراتجية بديل بحيث تصبح هذه المرحلية لاغية لما بعدها ، أي لكل المراحل ، وتصبح فلسطين هي غزة والضفة سواء كما قلنا ، بالتنازل الحقوقي ، أو وهذا هو الادهى ، بالتوعية السياسية للقواعد والجماهير . وأخطر وأبشع أساليب التعاطي مع التكتيك هو التنظير له . فاذا كان التنظير للحقيقة الكلية سلاحا ماضيا في نصرتها فان التكتيك اساسا متى ارتفع الى مستوى التنظير أكتسب مهابة الاستراتجية . وقد قام بين بعض اوساط المنظمات تنظير لهذه المرحلة كاد يكون على حساب القضية وأصبحت الدولة الفلسطينية على جزء من فلسطين هدف الاهداف بل وأصبح التعاطي مع الكيان الصهيوني لتذويبه بالحل السلمي فلسفة خاصة ممزقة ، ثاني هذه العبر هي ان العدو الصهيوني والامبريالي لا يقبل بأي كيان فلسطيني، ولنقل هنا أن هذا الرفض الصهيوني للدولة الفلسطينية والمصحوب برفض امبريالي له معنيان يستطيع كل طرف أن يأخذ معنى الى جانبه . فمن جهة يقول المتعاطون مع التسوية ، ارأيتم أن طرح الدولة الفلسطينية حتى على الضفة والقطاع ، كان بحد ذاته خطراً على الكيان الصهيوني وأنه أدرك هذا الخطر فاستمات برفضه ؟ ومن جهة ثانية يقول الرافضون ، بل هذا دليل على أن الرهان على التسوية كان متعجلا وخاطئا لأن طبيعة الكيان الصهيوني الاستيطاني العنصري لا تقبل التسوية مع الشعب الفلسطيني ومفاهيم السيادة وتقرير المصير ، ولذلك يقول الرافضون ، كان الاولى تجنب كل مسار التسوية طالما هذه هي النتيجة ، ولقد جاءت خطوة السادات تكشف ما استتر في هذا المجال .

الا ان المحصلة الاخيرة التي لا بد من التوقف عندها هي اولا : ان صخب اميركا واسرائيل في الاشهر التي تلت خطوة السادات صبت على منظمة التحرير الفلسطينية . ففي أقل من ثلاثة أشهر صدر ١٧ تصريحا أميركيا رسميا معاديا لمنظمة التحرير وبعضها وكأنه أمر عمليات للتصفية ، كقول بريزنسكي « وداعا يا منظمة التحرير الفلسطينية » ، وقول كارتر « لقد اقصت منظمة التحرير نفسها » . وقد رد رئيس منظمة التحرير على هذا كله « بوداعا يا مصالح اميركا في المنطقة » . (خطابه في عيد انطلاق الثورة أول كانون الثاني ١٩٧٨) .

وجاءت ثورة ايران لاحقا تؤكد مصداقية هذا التحذير .

ثانيا : ان العدو الصهيوني رفض أي كيان فلسطيني في الضفة الغربية الى حد اعتبر مناحيم بيغن أن منح الفلسطينيين حق تقرير المصير مواز للسماح للنازية بتهديد اليهود بالافناء . وهذا دليل صارخ على صراع «الحياة والموت» بين الشخصية الفلسطينية الوطنية والشخصية الصهيونية العنصرية على أرض فلسطين .

ولعل أبرز عملية تزييف نموذجية على كيف يتحرك العقل الصهيوني في هذا المجال ما قاله مناحيم بيغن « للنيوزويك » في عددها الصادر في ١١ كانون الثاني ١٩٧٨ حول موضوع تقرير المصير وانطباقه على الشعب الفلسطيني :

« ان مفهوم حق تقرير المصير الذي ساعد عدة أمم في كفاحها في سبيل الحرية وأعان في انشاء الدولة اليهودية لا يمكن أن يعني الحق في الاستقلال « لكسور من الامم » . أما هذه « الكسور » من الرقم التي يعطي أمثلته غير المتطابقة عليها بيغن ، ففي ان ستة ملايين مكسيكي على حد زعمه يعيشون في تكساس ونيو مكسيكو ومع ذلك فلا يمكن منهم حق اقامة دولة مستقلة على أرض الولايات المتحدة . وكذلك فان فرنسا لا تسمح بانفصال كورسيكا كما ان العراق لا يسمح بقيام الوطن الكردي .

ان هذه الامثلة لا تنطبق على الشعب الفلسطيني لأنه لا يطلب هو الانفصال عن مجتمع قائم جاءه في هجرة من خارجه ويريد اتباعه لما حوله ، أي لبلد الهجرة الاصلي . ان مثل نيومكسيكو ينطبق على الاسرائيليين وبشكل معكوس . فهم هجرة من خارج « الولايات المتحدة » وخلافا لما فعله المكسيكيون وكل الهجرات في العالم من انصهار في المجتمع الجديد يريدون اقامة دولة مستقلة على أرضها والاعتداء على سيادتها . الفلسطينيون ليسوا هجرة من خارج فلسطين يا سيد بيغن بل عودة من اجبروا على ترك أرضهم بقوة سلاح الاغتصاب .

وهم لا يطلبون **الانفصال** عن الوطن الام كمثل كورسيكا الذي اعطيت يا مستر بيغن ، بل يطلبون **الالتصاق** بالوطن الام وجيش الاغتصاب الصهيوني يحول بينهم وبين ذلك .

وطبعا ليس الفلسطينيون مشروع « وطن عنصري » كعملية الوطن الكردي المنشق عن العراق أو الوطن المسيحي المنشق عن لبنان . فتفجير المنطقة بالأوطان الطائفية العنصرية هي خطة صهيونية لتبرير الكيان الطائفي العنصري الاغتصابي الاستيطاني اليهودي في فلسطين ، لا لتبرير عودة الفلسطينيين الى فلسطين وعلى العكس فقد رفعت المقاومة الفلسطينية شعار الدولة الديمقراطية العلمانية بديلا عن الدولة العنصرية الصهيونية .

الا ان بيغن يصل بعملية التزييف الى اعلى درجاته وأوقح مناوراتها حين يختم حديثه حول هذا الموضوع فيقول « أن الفلسطينيين العرب يشكلون واحد بالمئة من الامة العربية العظيمة... فانه لمن اساءة استخدام التعبير والنفاق للمطالبة بحق تقرير المصير لواحد بالمئة من الامة ! »

وهل من عملية تزوير مفضوحة أكثر من هذه ؟ ليس بنسبة الفلسطينيين الى فلسطين ، الى الغاصبين ، ليس الثلاثة ملايين فلسطيني الذين شردوا من فلسطين بفعل الهجرة اليهودية الاستيطانية الدخيلة ، ليس هذا هو الموضوع ولا هذه هي المشكلة . ولكن المشكلة تصبح عند بيغن هي نسبة الفلسطينيين الى « الامة العربية العظيمة » فتصبح حسب زعمه مسألة الواحد بالمئة ! هل بيغن مكلف بحل مشكلة تقرير المصير الفلسطيني ازاء العرب ام ازاء الصهاينة المغتصبين لارض فلسطين ؟

طبعا ان هذا المفهوم الصهيوني يصر على « منح » « الفلسطينيين العرب » الحكم الذاتي الذي لا يهدد أمن الفلسطينيين اليهود » كما يختم بيغن حديثه للنيوزويك » .

وفي هذا المجال قال الاخ أبو اياد في مهرجان للشهداء أقيم في جامعة بيروت العربية في ٢٣ كانون الثاني ١٩٧٨ :

« وفي البداية طالبنا بدولة ديمقراطية . قلنا ان يعيش القاتل والمقتول في دولة ديمقراطية واحدة ورفعنا صوتنا لسنوات طويلة ونحن نطالب بالدولة الديمقراطية وقبلنا بالتعايش العربي ـ اليهودي ورفضوها .. قلنا دولة فلسطينية على أرضنا لا تساوي اكثر من ٢٣ بالمئة من هذه الارض رفضوها . قالوا ان منظمة التحرير الفلسطينية ليست مقبولة ، هاتوا درجة ثانية ورابعة وقبلنا وبعد ذلك ماذا تم ؟ لم يبق الا ان نذهب راكعين ساجدين الى بيغن ان بيغن لن يعطينا شبراً من أرضنا » .

وهذه هي الحقيقة. فالصهيونية لن تعطي للفلسطينيين شبراً من أرض فلسطين في ظل سيادتهم . ومن متابعة هذا السرد المختصر لأبو أياد يبرز بجلاء كيف ان الجانب الفلسطيني باستمرار قدم صيغا مرنة وبقي الموقف الصهيوني متصلبا لا يحيد عن مشروعه الاساسي .

فالعدو نفسه أكد ان الطريق الى فلسطين هي طريق الكفاح المسلح .

وهو ما مارسته المقاومة حتى ١٩٧٥ حين انفجرت المؤامرة ضدها في لبنان وهو ما عادت الى تصعيده منذ ١٩٧٧ وتوجته عملية دلال المغربي . هذا وحده يجعل « الرقم الفلسطيني » هو « الرقم الفاعل والمؤثر » .

ثالثا : ان استمرار الكفاح المسلح وحده هو طريق احقاق الحق في فلسطين . ولا يمكن قنص حتى كيان فلسطيني على جزء من فلسطين عن مائدة المفاوضات في ميزان القوى القائم .

وان استمرار هذا الكفاح المسلح وتحول نضال الشعب الفلسطيني الى ثورة فعلية على الارض المحتلة والمغتصبة انما هي عملية متكاملة تبدأ بالثائر الفلسطيني ليكون عمقها البعد القومي ، وتبدأ بجزء من الارض لتنطلق الى تحرير كامل التراب القومي المغتصب في فلسطين . وهو ما يستدعي تصور استراتجية قومية متكاملة هي النتيجة التي يريد التوصل اليها الكتاب .

وفي ضوء هذا نستطيع ان نفهم كيف ان غصن الزيتون الذي رفعه ابو عمار في الامم المتحدة في ١٩٧٤ لم يكن طريق السلام بل طريق الحرب الابادية ضد المقاومة لأن في اليد الثانية كانت البندقية . والمؤامرة الاميركية ـ الاسرائيلية لا تقبل بالبندقية طريقا للسلام بل تريد اسقاطها في سبيل الاستسلام .

وفي ضوء هذا ايضا نستطيع ان نفهم ما حققته منظمة التحرير الفلسطينية من مكاسب عالمية واعتراف دولي شامل بظهورها بمظهر « المعقولية » الدولية القابل بحل مرحلي لاقامة دولة على جزء من فلسطين من ضمن منطق قرارات مجلس الامن والامم المتحدة .

ولكن ذلك كله كان يحمل خطراً شديداً في ان الثورة وهي اصلا موقع مبدئي قد ينزلق الى المساومة وبالتالي وجوب شد النهج المرحلي الى النهج الاستراتجي بحيث يكون ثمة ضوء أحمر لا يمكن تجاوزه . والمفارقة هي ان تمسك المقاومة بهذا الضوء الاحمر جعلها تواجه مؤامرات لتصفيتها لأن المطلوب استسلامها وتصفيتها اما سياسيا أو عسكريا ، والمشكلة المأزق التي واجهت منظمة التحرير الفلسطينية هي هذه . هل تحضر جنيف ؟ عليها ان تساوم . ام ترفض جنيف فتتم التسوية لمصلحة النظام الاردني .

هل تغيب الثورة عن التسوية فتحتفظ بمدئيتها ، وتحل للانظمة مشكلة التمثيل الفلسطيني وكل المشاكل الاخرى ، وتستطيع ان تستمر في الصراع من اجل التحرير بعد توقيع الانظمة على

صك انهاء الحرب والذي تصورته اسرائيل واميركا صك الصلح الكامل ؟

ألم ينص القرار ٢٤٢ على اسقاط كل الادعاءات ومنع اي تحرك عدائي لاسرائيل ؟

دون ريب كان وضع الثورة في عنق الزجاجة .

وجاءت ورقة العمل الاميركية ــ الاسرائيلية تشطب نهائيا المسألة الفلسطينية ثم جاءت خطوة السادات تؤكد هذا الشطب مع الاصرار اللفظي عليها . واتضح بما لا يقبل الجدل ان الطريق مسدود الى جنيف والى وهم التسوية الوطنية الشريفة لأن طبائع الاشياء كما اشرنا اعلاه لا تقبل بمثل هذا .

في أعقاب هذا عاد الموقف الفلسطيني المتعاطي مع التسوية الى التصلب . فكان البيان الشامي ــ الفلسطيني تأكيداً للموقف المشترك من الكيان الصهيوني ، ثم بيان الوحدة الوطنية الفلسطينية على أساس خط الرفض الكامل لكل التسويات . وبين البيانين تمايز وان لم يكن تناقضا .

البيان الشامي ــ الفلسطيني المشترك الذي صدر في ١٩٧٧/١١/٢٤ في أعقاب زيارة السادات للارض المحتلة أدان الزيارة الخيانية لأنها « تأتي في اطار مخطط شامل لفرض الاستسلام التام وفق الشروط الصهيونية الكاملة ، بما فيها الاعتراف بشرعية الاحتلال والصلح مع الكيان الصهيوني وتصفية حقوق الشعب العربي الفلسطيني » كما أدان البيان « الامبريالية الاميركية حليفة العدو الصهيوني » .

وهذه هي الحدود التي التزم بها الجانبان خلال تعاطيهما مع التسوية : « لا صلح ولا اعتراف » .

ولكن البيان لم يتخل عن « المساعي الحقيقية للوصول الى سلام عادل يقوم على أساس الانسحاب التام من جميع الاراضي العربية المحتلة وضمان حقوق الشعب العربي الفلسطيني في العودة وتقرير المصير واقامة الدولة المستقلة » .

وواضح ان هذا التصور للسلام لم تؤمنه ورقة العمل الاميركية ــ الاسرائيلية ولا كل الحلول المطروحة انطلاقا من القرار ٢٤٢ . وقد كان مميزا ان البيان لم يتضمن بالنص القرار ٢٤٢ أو ٣٣٨ وهما القراران اللذان لم تعترف بهما منظمة التحرير رسميا مع ان تعاطيها مع التسوية كان يجعل الرفض يعتبر ان ثمة تعاطيا ضمنيا مع هذه القرارات ، وكانت منظمة التحرير تصر على انها مدعومة من الاتحاد السوفياتي انما تتعاطى مع جنيف على أساس القرار ٣٢٢٤ .

وكان واضحا ان العدو الصهيوني لن يقبل لا هو ولا حليفه الامبريالي المتعاطي في التسوية أي شيء خارج القرار ٢٤٢ بل في أضيق حلقاته ، التي وصفتها مذكرة الحركة الوطنية الى مؤتمر الشعب العربي في طرابلس ، « بالترجمة الاميركية للقرار » ، أي أسوأ ترجمة لقرار سيء .

ان ما ورد في البيان الشامي ــ الفلسطيني المشترك حول تصور السلام العادل ورد أيضا في الاعلان السياسي لقمة الرؤساء من أن خطوة السادات وأهداف المؤامرة هي «تخريب امكان اقامة سلام عادل ومشرف يحفظ للامة العربية حقوقها القومية ويضمن لها تحرير اراضيها المحتلة وفي مقدمها القدس ولشعب فلسطين وحقوقه الوطنية الثابتة » .

وفي رأينا ، ان ليس زيارة السادات لاسرائيل وحدها التي عرقلت بلوغ ذلك بل المؤامرة إصلا التي كانت الزيارة كما يقول بيان قمة طرابلس « حلقة في اطار تنفيذ المخططات الاميركية الصهيونية التي تستهدف فرض التسويات الاستسلامية » .

والنقطة المركزية هي ان يكون قد توفر الاقتناع بأن « لا سلام عادل ومشرف » مع التسويات الاستسلامية المطروحة وأن الامبريالية والصهيونية المتحالفتين لن تقدمــا الا التسويات الاستسلامية . فعندها يكون الصمود في وجه هذه التسويات مرتبطاً بقاعدة استراتجية ثابتة لا تراهن على أوهام التسوية انما متجهة كما قالت مذكرة الحركة الوطنية الى « اعتبار ان الصراع العربي ـ الاسرائيلي سائر الى مزيد من الاحتدام راهناً ومستقبلاً وليس من فرضية التسوية » وعندها يصبح بناء الصمود على القاعدة الصلبة هو حلقة في الانتقال الى مرحلة التصدي فالتحرير . وهذا ما توصلت اليه المقاومة الفلسطينية بكل فصائلها فاذاعت بيان وحدتها الوطنية في طرابلس على أساس خط سياسي واضح يرفض الحلول الاستسلامية . أهمية بيان الوحدة الوطنية الفلسطينية انه ارتكز الى مقولتين متكاملتين :

١ ـ وحدة العمل والقيادة والاطار التنظيمي ـ منظمة التحرير .

٢ ـ الخط السياسي الرافض للقرارات التي تنتهك الحق القومي وتساوم عليه وهي القرار ٢٤٢ وكل ما يتفرع عنه .

ان خروج منظمة التحرير الفلسطينية نهائيا من التسوية يكسب القضية القومية كلها في هذه المرحلة صلابة مبدئية ضرورية وأساسية في وجه الاستسلام ويشكل نقطة مركزية مستقطبة للموقف القومي العام لانه مهما تبدلت المسالك والمنطلقات ، فالاجماع منعقد قومياً وعربياً وعالمياً ، على أن المشكلة الفلسطينية هي جوهر الصراع ضد العدو ، ومن هنا أهمية الموقف الفلسطيني الموحد والرافض .

ولقد جاء بيان طرابلس الفلسطيني أكثر صلابة من مقررات المجلس الوطني الفلسطيني المنعقد في آذار ١٩٧٧ في القاهرة والذي لم يلغ التفاوض أو حضور أي مؤتمر دولي بينما جاء البند الثالث من بيان الوحدة الوطنية الفلسطينية يعلن « نؤكد رفضنا لكافة المؤتمرات الدولية القائمة على أساس هذين القرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ بما فيهما مؤتمر جنيف أو غيره » .

كما جاء البند الرابع يؤكد من جهة الحق في مرحلية النضال واقامة « دولة فلسطينية على اي جزء يتم تحريره من الارض الفلسطينية في هذه المرحلة » مع خط أحمر عريض « دون صلح ولا تفاوض ولا اعتراف » .

وكان أهم ما ورد في البيان الفلسطيني انه لم يكتف بالموقف الفلسطيني بل دعا وبالحاح الى « اقامة جبهة تقدمية عربية مناهضة لجميع الحلول الاستسلامية الامبريالية الصهيونية الرجعية وأدواتها العربية في المنطقة » .

وفي ضوء هذا البيان نستطيع ان نفهم قيام المحور الشامي ـ الفلسطيني أساساً للجبهة العربية التقدمية التي اعلنتها قمة طرابلس للرؤساء ثم مسعى المقاومة الجاد بعد قمة طرابلس لرأب الصدع بين بغداد ودمشق وتنقل قيادتها بين العاصمتين السوريتين .

في كانون الثاني ١٩٧٩ عكس المجلس الوطني الفلسطيني الثالث عشر المنعقد في دمشق هذا الموقف المتصلب .

فالجبهة العربية التقدمية التي دعا لقيامها بيان الوحدة الوطنية الفلسطينية والتي جعل منظمة التحرير الفلسطينية والجمهورية العربية السورية محورها الصدامي هي التي تكتمل بعمقها الاستراتجي في العراق .

بين البيان الشامي ــ الفلسطيني المشترك وبيان الوحدة الوطنية الفلسطينية كما هو واضح تمايز نوعي وان لم يكن تناقضا ذلك ان منظمة التحرير الفلسطينية في بيان وحدتها في طرابلس اعلنت نهائيا خروجها من التفاوض والبحث عن التسوية فأضافت الى لا صلح ولا اعتراف ، وهو ما ورد في البيان الشامي ــ الفلسطيني المشترك ، « لا تفاوض » ، كما انها نصت على رفض القرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ .

فأين هو موقف دمشق من كل هذا وهي التي تحالفت مع منظمة التحرير الفلسطينية واعتبر تحالفهما نواة جبهة الصمود والتصدي وتم هذا الاعلان بعد بيان الوحدة الوطنية الفلسطينية الرافض ؟

ولا بد قبل ختام هذه الفقرة حول الوحدة الوطنية الفلسطينية وبياناتها الى تحليل موقف دمشق من ان نسوق خلاصة لما طرحته منظمات المقاومة الفلسطينية تعليقا على الوحدة الوطنية الفلسطينية من زوايا نظر متعددة .

فقيادة منظمة التحرير الفلسطينية اعتبرت بيان الوحدة مكرسا لحقيقة هامة هي العمل من ضمن مؤسسات المنظمة وبالتالي شجب أسلوب الخروج عليها . والجبهة الشعبية بقيادة الدكتور حبش اعتبرت بيان طرابلس انتصارا لخط الرفض وفشل الرهان على التسوية . أما القيادة العامة فقد اعتبرت قيام تحالف قمة طرابلس وبيان الوحدة الوطنية الفلسطينية انتصارا لطرحها حول جدوى تفاهم المقاومة مع دمشق وانه جغرافيا لا مجال لقيام جبهة صمود دون دمشق .

الا ان الخلاصة التي يتوصل اليها الباحث هي أن كلا من هذه الاطراف قد عبر عن جزء من الحقيقة وكلهم معا قد عبروا عن الحقيقة متكاملة . وهذه أهمية الوحدة التي تأتي نتيجة تكامل زوايا الحقيقة . فالالتفاف حول منظمة التحرير الفلسطينية وجمع كلمة المنظمات في اطار الوحدة الوطنية الفلسطينية في اطار تنظيمي جبهوي واحد هو دون ريب انجاز كبير ويزداد اهمية باكتسابه مضمون الرفض كخط سياسي . أما التحالف بين المقاومة ودمشق ووعي العمق الاستراتجي للبيئة الجغرافية فأساسي في عملية الصمود .

ونستطيع القول أن الحزب السوري القومي الاجتماعي بالرجوع الى وثائقه وبياناته ، كان في هذا الاتجاه طوال السنوات الماضية . فقد نادى دوما ودعا الى وحدة المقاومة الفلسطينية وعلى أساس منهج رفض الحلول الاستسلامية كما دعا باستمرار الى وحدة بغداد ــ دمشق ــ المقاومة الفلسطينية نواة لاي تحرك وحدوي قومي رافض .

دمشق وحدود التسوية : لا اعتراف ولا صلح

دمشق تعاطت مع التسوية ولكن من منطلق مختلف عن الطروحات التي تقول باعتبار اسرائيل دولة من دول المنطقة وحقيقة قائمة يحسن اعطاؤها الضمانات !

ولقد طرحت دمشق تصورها الخاص للتسوية أولا ، بقبولها القرار ٣٣٨ لوقف اطلاق النار مع مفهوم خاص للقرار ٢٤٢ أكدت فيه شرطين : الانسحاب من كامل الاراضي العربية

وضمان الحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني . وهذان الشرطان غير متوفرين في القرار ٢٤٢ ولا في التسوية الاميركية ـ الاسرائيلية بكل طبعاتها .

المنطلق الاول لموقف دمشق في تعاطيها المختلف مع التسوية هو تصورها للكيان الصهيوني . ففي البيان الاستنكاري لزيارة السادات الصادر عن الحزب والجبهة والحكومة في دمشق في ١٨ تشرين الثاني ١٩٧٧ تحد مناقض لفهم السادات لاسرائيل كدولة من دول المنطقة باتت حقيقة قائمة مفروض تبديد مخاوفها واعطائها الضمانات للعيش بسلام .

يقول البيان السوري : « وان الامة العربية التي ترى في الصراع ضد الوجود الصهيوني في فلسطين صراعاً تحررياً قومياً لن تغفر لأي مسؤول عربي يقدم على أي خطوة تساهم في ترسيخ العدوان وتؤكد استمراريته وتسبغ الشرعية على احتلاله الارض العربية » . المفصل هنا في اعتبار « الصراع ضد الوجود الصهيوني في فلسطين صراعاً قومياً تحررياً » بدل تأمين هذا الوجود على امنه واستقراره واعتباره حقيقة قائمة .

وهذا الفهم لطبيعة الكيان الصهيوني كان قد أوضحه مراراً الرئيس حافظ الاسد ، لا سيما في خطابه في القمة العربية ـ الافريقية في منتصف آذار ١٩٧٧ حين قارن بين الاستيطان الاستعماري الصهيوني والاستيطان الاستعماري في جنوبي افريقيا وروديسيا وقال « والمشكلة الرئيسية والتي تمثل أكبر تهديد لمنطقتنا هي مشكلة ليس لها صنو في العالم كله ، وأعني مشكلة الاستعمار الاستيطاني التي انحدرت في كل من أفريقيا والمنطقة العربية من أصول واحدة ، وقد رأى هرتزل مؤسس الصهيونية في رودس الاستعماري العريق مثله الاعلى وطلب منه النصح والتنسيق كما هو معروف » .

الكيان الصهيوني هو في وجهة النظر الشامية الرسمية ، « كيان استيطان استعماري » ، والصراع ضد وجوده في فلسطين « صراع تحرري قومي » . وهذه منطلقات لا يمكن ان توصل الى تسوية . ولذلك وجدت الطريق مسدوداً الى جنيف . اقصى ما كانت تقبل به دمشق : انهاء حالة الحرب مقابل استرجاع الارض المحتلة و« الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني » من دون صلح ولا اعتراف .

ومنذ أول عهد الرئيس الاسد بتسلم مقاليد الحكم في دمشق في آذار ١٩٧١ نشرت « البناء » في عددها الصادر في ٢٠ آذار ١٩٧١ تصريحات صادرة عنه قال فيها :

« ما في حل سلمي .. ما في حل سلمي . امكان الحل السلمي غير متوافر . الحركة الصهيونية تستهدف انشاء دولة من النيل الى الفرات . والحل السلمي كما يحكى عنه الان مخالف لكل المخططات الصهيونية ولتاريخ اسرائيل . ولا يزال المسؤولون الاسرائيليون يرفضون علناً الانسحاب من الاراضي المحتلة ، وكما نقرأ ونسمع تزداد غطرستهم يوماً بعد يوم »

ويضيف الرئيس الاسد « ان عودة الارض المحتلة بعد حزيران يسوى في حال حصوله عدوان ١٩٦٧ ، أما جوهر القضية فيبقى الشعب العربي الفلسطيني » . وفي أكثر تصريحات الرئيس الاسد منذ ذلك الحين كان يؤكد هذه الحقائق ويبدي تشاؤمه من الحل السلمي كما يؤكد حق الشعب الفلسطيني في النضال الذي لا يتأثر بالتسويات .

ان ثمة حقائق لا بد من التوقف عندها في هذا المجال

١ ـ ان القرار ٢٤٢ كان كما أشارت مذكرة الحركة الوطنية « السقف الذي فرضته موازين القوى الدولية بعد هزيمة حزيران » .

وان النضال العربي وتنامي القوة العربية كان مفروضا ان يخترق هذا السقف لأن القرار ٢٤٢ يهدر الحقوق القومية .

٢ ـ ان الجمهورية العربية السورية بعد حرب تشرين ١٩٧٣ قبلت بالقرار ٣٣٨ المعطوف على القرار ٢٤٢ ومن موقع وقف القتال وأرفقته بتفسير خاص انخرطت على أساسه في مساعي التسوية .

٣ ـ ان مسيرة التسوية في ظل التحالف الامبريالي الصهيوني أكدت ان لا مجال لهذا التفسير الخاص كما أكد بيان قمة الرؤساء والاعلان السياسي الصادر عن مؤتمر الشعب العربي « فان المخططات الاميركية ـ الصهيونية تستهدف فرض التسويات الاستسلامية والنيل من الحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني » وهذه المخططات ليست طارئة ولا عابرة بل هي كما حدد الرئيس الاسد والبيانات الشامية الرسمية نابعة من طبيعة الكيان الصهيوني الذي هو كيان استيطان استعماري ومن طبيعة الامبريالية الاميركية وتحالفها معه .

٤ ـ ان المخططات الاميركية ـ الاسرائيلية تستهدف اصلا الربط الكلي بين جوهر القضية ، نضال الشعب الفلسطيني لتحرير كامل التراب الوطني الفلسطيني وازالة آثار عدوان حزيران ١٩٦٧ بحيث يكون الأخير على حساب الاول .

بينما الخطة القومية السلمية هي التي تحصل على المطلب الاخير على طريق النضال في سبيل المطلب الاول ، اي يكون النضال المرحلي مشدودا الى استراتجية التحرير .

وحتى يتحقق هذا فلا يقوم فصل بين عودة الاراضي المحتلة في ١٩٦٧ والحق القومي الثابت في كل الارض القومية المغتصبة لا بد من ايضاح مسألتين :

١ ـ كيفية صوغ العلاقة بين المطالب المرحلية والحقوق القومية التاريخية الثابتة بحيث لا يحصل التناقض بينهما . وهذا يحتاج الى تصور جديد خارج القرار ٢٤٢ ومشاريع التسوية التصفوية المستهدفة للحقوق القومية التاريخية الثابتة .

٢ ـ وهذا التصور الجديد لا يمكن ان يكون في فراغ من القوة المادية الداعمة له . لا يمكن ان يطلب الموقف الصلب خارج توفر القاعدة المادية الصلبة . ان مذكرة الحركة الوطنية تقول بوجوب اختراق سقف القرار ٢٤٢ بتنامي القوة العربية . ولكن كيف ؟

في رأينا ان الوحدة القتالية بين دمشق وبغداد والمقاومة الفلسطينية هي بداية تنامي هذه القوة وهي التي تحقق صوغ العلاقة بين المطالب المرحلية والحقوق القومية التاريخية الثابتة من موقع قومي صلب يرتكز الى قاعدة مادية صلبة .

ان سقوط الحل السياسي التصفوي بعد وصول التكتكة المرحلية الى الطريق المسدود حقق الفرز بين الذين اعتبروا اسرائيل حقيقة يجب التعامل معها وبين الذين انطلقوا بتكتيكاتهم المرحلية من اعتبارها عدوا استيطانيا استعماريا لا يسمح ميزان القوى الحالي بالتصدي له . ولكن في الوقت نفسه لا يمكن القبول به حقيقة يجري التصالح معها .

فمن الواضح بالنسبة لدمشق ، انها ، اولا ، وضعت خطا احمر ، خلال تعاطيها مع

التسوية (١) طبيعة الكيان الصهيوني الذي لم تعتبره دولة عادية بل كيانا استيطانيا استعماريا عدوا . (٢) طبيعة السلام الاسرائيلي – الاميركي سواء لجهة الاعتراف أو الحدود المفتوحة وقد رفضته .

وهذا الخط الاحمر السوري هو الذي نص عليه لاحقا في بياني قمتي طرابلس والجزائر للصمود والتصدي، وقد اصبحت دمشق قاعدة الصمود والتصدي. وهاتان النقطتان كانتا منطلق تأكيدنا بعد زيارة السادات الى القدس على وجوب عدم اغفالهما من قبل جميع الرافضين ، وخاصة العراق ، في التعاطي الايجابي مع دمشق للوصول الى الموقف المشترك ، على طريق الموقف الموحد ، وجاءت التطورات اللاحقة تؤكد هذه الحقيقة .

وبالنسبة لمنظمة التحرير الفلسطينية ، ادى عدم اعترافها بالقرار ٢٤٢ وباسرائيل ، وسقوط جنيف الى اشتداد الحملة الامبريالية والصهيونية ضدها واعلان المسؤولين الاسرائيليين والاميركيين تكرارا الدعوة الى تصفيتها .

ولقد جاء بيان الوحدة الوطنية الفلسطينية ، كما تجلى في صيغته الاخيرة في البيان السياسي للمجلس الوطني الفلسطيني في دورته الرابعة عشرة يحسم الخلاف على الخط السياسي في المقاومة الفلسطينية ويؤكده لقاء كل أطراف المقاومة على برنامج سياسي موحد .

وحتى يعمق الفرز ليصبح استراتجيا مفروض اعادة صياغة المعادلات في العالم العربي ، هنا قبل الانتقال الى صيغة التصور لخطة قومية وعربية جبهوية متكاملة في هذا الاتجاه لا من التوقف عن البيان السياسي الصادر عن قمة الجزائر باعتباره خطوة على طريق بلورة الخط السياسي لجبهة الصمود .

قمة الجزائر خطوة على طريق الخط السياسي

لقد استعرضنا في كل هذا السياق بيانات طرابلس الثلاثة كوحدة متكاملة وان اخذ بيان قمة طرابلس مع البيانين الآخرين الصادرين عن طرابلس ، بيان « مؤتمر الشعب العربي » وبيان الوحدة الوطنية الفلسطينية ، يعود من جهة لتداخل هذه البيانات بتواجد أطراف من القمة موقعة على البيانين الآخرين (المقاومة على بيان الوحدة الوطنية الفلسطينية ودول قمة التصدي والصمود مع المقاومة في مؤتمر الشعب العربي) . وهو من جهة ثانية لأن قمة طرابلس لم تضع ميثاقا للجبهة العربية التقدمية ، جبهة الصمود والتصدي .

وكانت قمة الجزائر على طريق بلورة أكثر للاتجاهات ولكنها هي أيضا لم تضع ميثاق الجبهة . ولقد قدم العراق مشروع ميثاق للجبهة لم يقر ولم يقر كذلك مشروع ميثاق آخر .

وكان بيان قمة الجزائر لا سيما بعد مداخلات الأخ معمر القذافي وبعد جولة الرئيس بوميدين المشرقية والتي انتهت بموسكو استكشافا للبعد الدولي الداعم للجبهة ، أكثر ملامسة للاستراتجية العامة للجبهة .

ولقد تميز بيان قمة الجزائر بأنه من جهة أوضح ملامح الاستراتجية المعادية للامبريالية والمتحالفة مع الاتحاد السوفياتي والمنظومة الاشتراكية وحركات التحرر القومي في العالم . ومن جهة ثانية كان أكثر تحديدا لمفاصل الخط الاحمر الذي لا يجوز تجاوزه في المسألة الفلسطينية ولجهة دعم الصمود في هذه المسألة القومية .

لقد حققت قمة طرابلس انجازين اعلان موقف الصمود والتصدي واعلان الوحدة الوطنية الفلسطينية على قاعدة رفض التعاطي مع الحلول الاستسلامية . أما قمة الجزائر فقد حددت هوية الجبهة لجهة عدد من المسائل المهمة .

١ ـ الاستراتجية المعادية للامبريالية في جبهة هجومية :

قبل انبثاق جبهة التصدي والصمود وبينما كان السادات يقوم بزيارته الى القدس المحتلة قلت في خطاب بمناسبة ذكرى تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي في ١٦ تشرين الثاني في بعلبك . « اني أقول بأن الامبريالية والصهيونية قد زرعت أكثر من وتد على مدى العالم العربي . الملك المغربي وجيشه المرتزق هو خنجر في خاصرة الجزائر . مصر السادات التي حاولت اجتياح ليبيا قبل أشهر فاذا بها تتوجه الى اسرائيل للسلم الاستسلامي اليوم ، وايران في خاصرة العراق ، واسرائيل في وجه الجمهورية العربية السورية ولبنان .

ولكن القاعدة الثورية تقول بأنه بدل أن يأخذنا الاستعمار فرادى دولة دولة فلتتشابك الايدي في المشرق الثائر والمغرب الثائر في جبهة عربية واحدة متصدية للامبريالية والصهيونية . عندها لن يستطيع العملاء ، عملاء الامبريالية والصهيونية ان يستفردوكم دولة دولة لأن عند ذاك يوظف الثقل الاستراتجي للمكان الذي تختاره السياسة المشتركة وتصبح الضربات موجهة بمبادرات من قبلنا بدل أن تكون في موقع رد الفعل نصبح في موقع الفعل والتصدي » . (ملحق « صباح الخير » الخاص ـ بـ ١٦ تشرين الثاني ١٩٧٧) .

ولقد كان هذا هو الخط المميز لمقررات الجزائر . فجبهة التصدي والصمود اتخذت موقف الهجوم الاستراتجي على التدخل الاجنبي في الخليج العربي والمغرب العربي والقرن الافريقي في ان واحد موجهة تحذيراً لايران وللرجعية المغربية فضلا عن السادات أي لكل حلفاء أميركا في المنطقة .

«١ـ يؤكد المؤتمر تمسكه ببيان طرابلس ويلح على ضرورة استمرار النضال لاسقاط المؤامرة واحباط المحاولات الهادفة الى جر العرب نحو الهزيمة والاستسلام .

« ٢ ـ القلق من التدخل العسكري الفرنسي في الصحراء المغربية والقلق العميق ازاء التواجد العسكري الاجنبي في عمان ومساعدة شعب عمان في نضاله التحرري .

٣ ـ ادانة الانظمة العنصرية في أفريقيا والتدخل الامبريالي خاصة ازاء ما يجري من احداث في القرن الافريقي . »

وهذا الهجوم على كل أدوات الامبريالية في المنطقة تم من موقع جبهوي عربي تقدمي معاد للامبريالية ومقرر تحالفاته الدولية الاستراتجية . فبعد رحلة الرئيس بوميدين للاتحاد السوفياتي تأكد اقطاب قمة التصدي ان السوفيات جاهزون لدعم الجبهة العربية المعادية للامبريالية والصهيونية . وكانت رحلات جلود والاسد وعرفات في سبيل بلورة هذا الاتجاه الاستراتجي عمليا .

ولقد اختارت قمة الجزائر حلفاءها دوليا :

« تعزيز التعاون مع الدول الافريقية والاسلامية ومجموعة دول عدم الانحياز والبلدان الاشتراكية وفي مقدمتها الاتحاد السوفياتي »

واعتبرت قمة الجزائر ان الوجود السوفياتي في المنطقة العربية ضروري لحماية ارادة الصمود العربية وتشكيل رادع استراتجي ضد المؤامرة الامبريالية ــ الصهيونية . وهذا موقف سليم يسقط ترهات الموقف الساداتي من انهحرر مصر من السوفيات كما حررها عبد الناصر من الانكليز بينما نتيجة موقفه كانت فقدان الوزن الوقوع في افخاخ الامبريالية والصيهونية .

وهو الموقف الذي اتخذه حزبنا في مؤتمر مالطة للاحزاب الاشتراكية في البحر المتوسط من مسألة الاساطيل الاجنبية فنادى في حزيران الماضي ١٩٧٧ بموقف مرتكز الى فرز حقيقي ومبدئي وأصولي بين الاسطول السوفياتي الذي هو قوة ردع ضد العدوان الامبريالي الصهيوني ودرع ومظلة واقية لحركات تحرير الشعوب وبين الاساطيل الامبريالية العدوانية .

ان بلورة ارادة الصمود والتصدي بالعقم الاستراتجي الدولي للجبهة هو من مستلزماته الصمود. فالدعم السوفياتي لا يقتصر على كميات الاسلحة ونوعيتها المتطورة وجودتها بل على المظلة النووية التي من شأنها في حسابات الوفاق الدولي أن تحول دون هذا التدخل الاميركي الذي كان عملا اساسيا في ترجيح كفة الدولة الصهيونية على مدى ثلاثين عاما .

يبقى أن تجاوز حدود الصمود الى ترجمة سياسية لتنامي قوتنا القومية لن يكون حتما بالتحالفات الدولية وحدها، على جلال أهميتها، بل بتبديل ميزان القوى قومياً مما سنأتي على تفصيله في مكان آخر ، وانعكاس هذا التبديل في تنامي قوتنا على الميزان الدولي .

٢ ــ رسم الخط الأحمر قومياً :

أما المسألة الاساسية الأخرى فالموقف من المسألة الفلسطينية . ومما لا ريب فيه أن قمة الجزائر كانت أكثر تحديدا في رسم الخط الاحمر الذي لا يجوز تجاوزه . فبعد ان كررت ادانتها لخطوة السادات من « ضمن المخطط الاسرائيلي الاميركي الهادف الى تقويض امكانيات تحقيق سلام عادل يرتكز على الانسحاب من جميع الاراضي العربية المحتلة وضمان الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني ، بما في ذلك حقه في العودة وتقرير المصير ، واقامة دولته المستقلة فوق ترابه الوطني » ذهب البيان السياسي لقمة الجزائر الى تفصيل أكثر لمخاطر هذا المخطط من حيث انه **« يرمي الى تحقيق التصالح مع العدو ، والاعتراف بشرعية وجوده ، واقامة علاقات خضوع في المجالات المختلفة ، السياسية والاقتصادية والثقافية ، وفتح الحدود ، تمكيناً للصهيونية من السيطرة على الوطن العربي ، وموارده وامكاناته . »**

كما يؤكد المؤتمر العزم على مقاومة جميع المحاولات الهادفة الى تصفية قضية فلسطين ، ويحذر أي طرف عربي حكومي أو غير حكومي ، أفراداً أو مجموعات من خرق قرارات القمة العربية في الجزائر والرباط بمحاولة ادعاء التمثيل الفلسطيني تحت أي عنوان ، ذلك ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني »

في هذه الفقرات رسم البيان السياسي لقمة الجزائر خطين لا يمكن تجاوزهما :

١ ــ رفض طبيعة السلام الاسرائيلية ــ الاميركية المعروضة .

٢ ــ رفض التفريط بقضية فلسطين من أي « طرف عربي حكومي أو غير حكومي » واعتبار ان منظمة التحرير هي وحدها المسؤولة عن التمثيل الفلسطيني .

ولقد استتبع ذلك من توجه رئيس منظمـة التحرير الفلسطينية الى دول مجلس الأمن بفحوى هذا القرار قطعاً على السادات مجالات العبث بالقضية والانذار المبطن للاردن في ان لا ينزلق وراء السادات في مسيرته كما تجلى ذلك في حرص قمة الصمود على التبني الكامل لمنظمة التحرير الفلسطينية في وجه محاولات السادات والامبريالية والصهيونية فرض مجموعة عملاء فلسطينيين كواجهة لعقد صفقة على ما تبقى من فلسطين .

يضاف الى هذا على الصعيد العملي التأكيد على محور دمشق ـ المقاومة وترك الباب أمام بغداد مفتوحاً لاكمال هذا المحور القومي ، والالتزام بدعم صمود الشام حتى تصبح في حالة التوازن الاستراتجي مع العدو ، أي دعم تسليحها وقدراتها على المواجهة والصمود والالتزام كذلك بدعم المقاومة الفلسطينية .

ان قمة الجزائر خطوة مشجعة على طريق تكامل الخط الاستراتجي ولكنها بحاجة الى إكمال .

ان كل هذه الايجابيات لقمة الجزائر لا بد من ذكرها مع التنويه ان ميثاق الجبهة يقتضي ان يحدد أكثر الخط الاستراتجي البعيد للجبهة الذي هو خط التحرير مع بناء مستلزماته دولياً وعربياً .

« السلام العادل » وموت جنيف

تبقى مسألة يهمنا معالجتها من زاوية تحليلية مبدئية هي ما ورد في بياني قمة طرابلس والجزائر حول ان زيارة السادات الى دولة العدو قد خربت مسيرة « السلام العادل » .

في الحقيقة أن زيارة السادات ومقدماتها ونتائجها كلها كانت تأكيداً على ان لا سلام عادل مع الاغتصاب الاستيطاني الصهيوني ولا مع الامبريالية الاميركية المتحالفة معه .

فاذا كانت كل تنازلات السادات لم تقابل بتنازل واحد من الجانب الصهيوني الذي ازداد صلفاً فهل كان هذا الجانب سيقبل بالتنازل في مؤتمر جنيف ؟

ثم انه لا بد من التذكر ان مؤتمر جنيف « كان قد مات » على حد تعبير هنري كيسنجر ، قبل زيارة السادات . وخلافاً لرأي كيسنجر فلم يمت مؤتمر جنيف لأن « العناصر الاكثر راديكالية ـ أي الشام والسوفيات والفلسطينيون ـ كانت ستمارس الفيتو لعلمها بأنه لا يمكن احراز تقدم بدونها » ، بل لأن ورقة العمل الاسرائيلية ـ الاميركية سدت كل المنافذ الى جنيف . « فالمشاكل الاجرائية لم تحل صلاحيات الاجتماعات العامة ومجموعات العمل ، طبيعة الاشتراك الفلسطيني» ، واضافة الى هذا الذي أورده هنري كيسنجر في مقاله « للتايم » في ٢٦ كانون الأول ١٩٧٧ فان كل موضوع فلسطين كان قد شطب واعتمد مفهوم « اللاجئين اليهود واللاجئين العرب » اي بما هو ادنى حتى من القرار ٢٤٢ شاطبا هو الآخر الحقوق الوطنية النابعة من الحق القومي لامتنا في فلسطين .

لقد سد طريق جنيف قبل زيارة السادات . وجاءت زيارة السادات تثبت أكثر أن لا طريق الى السلام العادل مع التحالف الصهيوني ـ الامبريالي .

لا يمكن أن يتنازل الكيان الصهيوني الاستيطاني عن طبيعته . لقد زرع مستوطناته في الارض المحتلة في ١٩٦٧ كما زرعها في الارض المغتصبة في ١٩٤٨ واعتبرها كلها « ارض

اسرائيل » ، السامرة ويهودا ، هكذا اصبحت الضفة الغربية وما تبقى من فلسطين .

أما الجولان فقد اتخذ العدو منذ أيلول ١٩٦٧ قراره السري بضمه الى كيانه وتقسيمه الى أربع وحدات جغرافية استيطانية هي سفوح جبل الشيخ وشمال الجولان ، وجنوب الجولان ووسط الجولان ومنخفضات الجولان . واستهدف العدو خلق ما وصفه « بواقع استيطاني ديمغرافي ، وقد أقام العدو سبعا وعشرين مستوطنة في مرتفعات الجولان المحتلة وبدأ يخطط لمضاعفة هذا العدد ليصل الى اربعين مستوطنة حتى منتصف الثمانينات .

ولقد كشف الجنرال أوري لينير رئيس مجلس الاستيطان في الجولان الخطة الصهيونية الاستيطانية في هذا الصدد بقوله .

« اننا نبذل الآن أقصى جهودنا لجعل الجولان مركزا استيطانيا رئيسيا عن طريق تكثيف المستوطنات والمستوطنين لنحول بذلك دون اعادة جزء ولو صغير من الجولان . » وأضاف « ان ما نتوخاه من وراء انشاء المزيد من المستوطنات هو تهويد الجولان عن طريق خلق واقع ديمغرافي واستيطاني على غرار ما فعلناه في منطقة النقب في منتصف الخمسينات لكي نفوت الفرصة على أية محاولة للمساومة » . وأشار الى أن عدد المستوطنات في الجولان سيصبح في غضون العشرة أعوام المقبلة أربعين مستوطنة من ضمنها مدينة كبيرة .

وعندما سئل عن رأيه في امكانية انسحاب اسرائيل من اجزاء من الجولان في حالة استئناف المفاوضات والتوصل الى تسوية مع سوريا ، قال « إن مسألة الانسحاب أو عدم الانسحاب لا تقررها الحكومة وانما يحسمها الاستيطان ذاته » .

وفي ٢٤ كانون الثاني ١٩٧٨ أعلن وزير الاسكان الاسرائيلي جدعون بات في خطاب القاه في مستوطنة كارزين (مرتفعات الجولان المحتلة) « ان هذه المرتفعات أصبحت فعلا جزءا من اسرائيل بحكم الأمر الواقع وان اليوم الذي ستصبح فيه اسرائيلية من الناحية القانونية ليس بعيداً . » وأضاف الوزير الاسرائيلي قائلا بأن « خطابه هذا يلقيه باسم رئيس الوزراء مناحيم بيغن وباسم الحكومة كلها . »

وفي الاسبوع الأخير من نيسان ١٩٧٩ قام جدل في الكيان الصهيوني حول مصير الجولان فغلب الرأي القائل : نفضل الاحتفاظ بالجولان على اتفاقية سلام (راجع تصريحات بيغن ودايان في ٢٤ و ٢٥ نيسان ١٩٧٩) .

ونذكر بالمناسبة ان غولدا مائير كانت في ١٩٧٤ قد أعلنت ان الجولان جزء من اسرائيل فرد عليها الرئيس حافظ الاسد رده المشهور والمعروف في ٨ اذار ١٩٧٤ مؤكدا ان فلسطين هي سورية الجنوبية التي لن تتخلى عنها سورية في صراعها التحرري .

هذا هو المنطق الوحيد مع العدو : الكفاح حتى التحرير ، مهما تمرحل الكفاح . ولكن لا بد من ادراك حقيقة اساسية وهي ان كيان الاستيطان الاستعماري لا يمكن حسم الموضوع معه « بالسلام العادل » ، بل بالاعداد للحرب العادلة الطويلة الأمد التي وحدها تنتج السلام الحقيقي .

هنا لا بد من تذكر حقيقة أخرى أساسية قد تكون موضوع جدل . فثمة رأي يقول أن مؤتمر جنيف فيما لو انعقد لكان يتم في ظل توازن دولي يتيح للعرب الوصول الى حقوقهم . لنذكر في هذا المجال البيان الاميركي – السوفياتي . ألم يكن سقفا يعقد جنيف في ظله ؟ على ماذا

اشتمل ؟ ألم يشتمل على التصور الاسرائيلي ــ الاميركي لطبيعة السلام . الحدود المفتوحة والعلاقات الاقتصادية والتجارية والسياسية والثقافية الطبيعية ؟ مقابل النص على « الحقوق المشروعة » للشعب الفلسطيني جرى النص على طبيعة السلام في مفهومه الاسرائيلي الاميركي .

وحتى هذا البيان السوفياتي ــ الاميركي عادت اسرائيل فأطاحت به لمصلحة ورقة العمل الاميركية ــ الاسرائيلية .

في مقاله في التايم في ٢٦ كانون أول ١٩٧٧ الذي نعى فيه جنيف : « ان جنيف ، كاطار للمفاوضات قد مات » يقول هنري كيسنجر : « هذا بالاضافة الى ان التقدم في جنيف كان سيعتمد الضغط الاميركي على اسرائيل الى درجة قد لا تكون متوافقة مع حقائق السياسة المحلية الاميركية » . وهذا تصور لمدى الترابط الصهيوني ــ الاميركي . وفي الواقع أن « أميركا العربية » حلم وسراب ، وأقصى ما يمكن الوصول بسياستها كما قال كيسنجر نفسه ، هو أن تحاول الفرض على اسرائيل حلا لمصلحتها بالذات مع « تمويه عربي » كاف .

ان قول كيسنجر ان جنيف قد مات لم يكن لأن تكتيكا جديداً قد تجاوزه هو المفاوضات المباشرة بين السادات وبيغن ، وهو ما أراد تثبيته وتأكيده كيسنجر بل لأن الحقائق الموضوعية تقول بأن جنيف نفسه قد وصل الى طريق مسدود بسبب طبيعة الوجود الاستيطاني الصهيوني وبسبب طبيعة التحالف الامبريالي الصهيوني .

ولكن جنيف تبقى ورقة احتياط يفكر ببعثها في حال فشلت مهمة الحل المنفرد .

ولقد بدأ التلويح بها من أصدقاء أميركا . ففي ١٧ شباط ١٩٧٨ قال بيغن لصحافيين يهود اميركيين زاروا تل أبيب « ان اسرائيل سترحب دائما بالعودة الى مؤتمر جنيف لأنه قد يكون أساسا لتسوية شاملة في الشرق الاوسط » . وفي ١٨ شباط صرح مصدر اردني مسؤول بأن الاردن يراقب بتحفظ السياسة المصرية الرامية الى ابعاد الاتحاد السوفياتي عن جهود التوصل الى حل لنزاع الشرق الاوسط » وفهم ، من التصريح انه بداية عودة الاردن الى صيغة جنيف بعد تعثر لقاء بيغن ــ السادات .

وعزز هذا الاعتقاد تأكيد وزير خارجية الشام ونائب رئيس الوزراء الاستاذ عبد الحليم خدام في ٢٢ شباط ١٩٧٨ « ان الاردن أكد لسوريا مرة أخرى انه لن ينضم الى المحادثات المصرية ــ الاسرائيلية » .

الا ان الوزير السوري استبعد أي مؤتمر سلام يعقد لأن « رحلة الرئيس السادات الاسرائيلية أغلقت كل الابواب أمام سلام عادل ، وأي مؤتمر سلام يعقد الان سيكون لمصلحة اسرائيل فقط . في استطاعتنا القول وداعا لجنيف » .

وهكذا مقابل نعي جنيف على لسان كيسنجر تحبيذا للمفاوضات المباشرة يعلن الوزير خدام النتيجة نفسها من منطلق مختلف هو شجب المفاوضات المباشرة .

وبينما وعى الطرف السوري ان الطريق الى جنيف قد سدت أميركيا واسرائيليا وساداتيا وعلى هذا الاساس اتجه الى صيغة الصمود والتصدي وحشد القوات ، فان بغداد بقيت متخوفة من جنيف حتى انعقاد كامب دافيد. وبعدها تأكد لبغداد أن جنيف فعلا قد ماتت. يقول الاستاذ طارق عزيز في حديث « للوطن العربي » في ٢٦ كانون الثاني ١٩٧٩ . « مؤتمر جنيف صار غير وارد ... والحديث عن تسوية مقبولة مصدرها خارجي هو حديث الوهم » . ولقد كانت هذه

القناعة وراء الوصول الى ميثاق العمل القومي بين دمشق وبغداد .

الا أن ورقة جنيف تبقى في المستقبل الورقة التي قد يلوح بها بعد فشل نهج كامب دافيد . وعندها مفروض أن تكون تنامت قوتنا القومية وتبلورت ارادتنا المصممة على الخروج عن دائرة القرار ٢٤٢ الذي هو ترجمة لتفكك قوتنا وهزيمة جبهتنا .

يبقى جانب آخر من موضوعة « السلام العادل » وهي التي تقوم على أساس ان توازن القوى لا يسمح بحرب التحرير اذن لا بد من تسوية سلمية تتيح للامة فرصة التقاط انفاس وانماء وبناء قوتها . ولكن اذا كانت الحرب لا تجوز في غياب توازن القوى حرصاً على أن لا تكون مغامرة غير مأمونة النتائج والجوانب ، فان السلم كذلك ، أليس هو الآخر ترجمة فعلية لميزان أو انعدام ميزان القوى ؟

ألم يكن القرار ٢٤٢ ذاته ترجمة فعلية لميزان القوى بعد هزيمة ١٩٦٧ ؟

من هنا كان الاتجاه الاسلم هو لتعديل ميزان القوى قوميا باستهداف تعديله دوليا . ذلك لأن ميزان القوى الدولي لن يتعدل لصالحنا بدون تنامي قوتنا القومية بتعديل ميزانها من التجزئة الى الوحدة .

ولقد وعى هذه المقولة الرئيس الاسدحين توجه الى المؤتمر القومي لحزب البعث في ١٩٧٥ برسالته حول الوحدة وأولويتها في أهداف النضال . وانصب جهد دمشق في السنوات التالية على توحيد سورية الغربية بقيادتها سواء بمسعى التنسيق مع الاردن الذي اجهضه الضغط السعودي على الاردن أو بالمبادرة السورية في لبنان والتي أصبحت في الاونة الاخيرة تجابه اسرائيل وعملاءها . كما سعت دمشق الى احداث توازن استراتجي مع العدو مدعمة بجبهة الصمود . والاتجاهان سليمان ولكن غير كافيين لتعديل ميزان القوى قوميا تمهيدا لتعديله دوليا لصالحنا . ذلك أن وحدة سورية الغربية كما يتضح ، هي وحدة تزيد من أعباء دمشق سواء جبهة الاردن المتسعة أو جرح لبنان النازف ، والالتزام القومي بهما ضروري ولكن التوازن الاستراتجي مع العدو لا يحصل بتصاعد الاعباء بل بتصاعد الطاقات .

من هنا أهمية العمق الاستراتجي والاقتصادي الذي تكتسبه وحدة بغداد — دمشق سواء لجهة الموارد الاقتصادية الضرورية للصمود القومي أو لجهة الطاقة البشرية الضاربة او العمق الجغرافي .

وحدة طرفي الهلال الخصيب هي التي تتيح تغطية جبهة الاردن ولبنان بعمق عسكري استراتجي وتكامل قوة برية وجوية ، آلية ومشاة وسلاح حديث متطور متكامل قادر ان يحدث التوازن الفعال في القدرة القتالية والعمق الاستراتجي . عندها ، وفي وهج هذه القوة القومية المتكاملة تتحول الاعباء الى منطلقات فعل ، كما تتعدى أطر البحث في مبادىء السلام وقواعده . عندها يفرض السلام بالقوة المتوافرة أو حربا .

عندها يسقط القرار ٢٤٢ بشباكه ومحاذيره واشتراطاته كما تسقط الاشتراطات المضافة اليه بالعنجهية الاسرائيلية المدعومة امبرياليا في نهج كامب دافيد ازاء الضعف العربي المتمادي ، حول طبيعة السلام وحدوده المفتوحة والصلح ونتائجه الديبلوماسية والاقتصادية والسياسية والثقافية والحقوقية على قضيتنا القومية ، تسقط هذه كلها .

عندها يمكن رسم معالم النضال ومراحله وتوقيتها بحيث يبدأ بمرحلة الصمود ثم تطويرها لدعم اندلاع ثورة شعب فلسطين المسلحة ضد الاستيطان الاستعماري ، ويتحول

عمق فلسطين في دولة الوحدة القومية في الهلال الخصيب الى هانوي التي تدعم ثورة شعب الجنوب وتصمد في وجه ردات فعل العدو حتى يتحطم هذا العدو في حرب استنزاف طويلة مصحوب بتفجر داخل كيانه مستمر .

عندها لا تعود المقاومة عبئاً على هذا الكيان او ذاك بل تصبح طليعة مستندة الى عمق قادر على المجابهة .

عندها « تصبح سورية كلها فلسطين بمعنى ان يطبع لهب الكفاح القومي المسلح المستهدف تحرير كامل ترابنا المغتصب في فلسطين ، كل مجتمعنا القومي في سورية الطبيعية . وان تكون الوحدة هي الاطار الذي يعبىء الامة كلها لمعركة التحرير » وتصبح المقاومة الفلسطينية « رأس الحربة القومية وطليعة الكفاح المسلح في سبيل التحرير . »⁽¹⁾ وتصبح الوحدة السورية اطار استعادة فلسطين .

ولكن كل هذا كان يحتاج الى قرار خطير : الى كسر الثابت الوحيد غير المتبدل في حياة المنطقة ، لعنة التجزئة على الهلال الخصيب . وهذا ما سنعرض له في الفصول اللاحقة .

ان التصور الاستراتجي الثابت للحزب السوري القومي الاجتماعي الذي كرره مراراً ، انطلاقا من عقيدته وتعاليمه ، لاعادة صياغة المعادلات في العالم العربي يبدأ بوحدة دمشق وبغداد محوراً قومياً متصدياً للاستسلام يستطيع ان يستقطب البيئة الطبيعية لفلسطين ويعطي للصمود اطاره المادي ـ الجغرافي ـ البشري الاقتصادي .

ولقد اقترنت دوماً عند الحزب السوري القومي الاجتماعي الوحدة السورية بالجبهة العربية المعادية للاستعمار .

في أعقاب عقد اتفاقية سيناء حين بـرز الخط الساداتي بوضوح دعا الحزب السوري القومي الاجتماعي في مؤتمره الصحفي المعقود في ٦ ـ ٩ ـ ١٩٧٥ الى جبهة رفض عربية موسعة تشمل دمشق وبغداد وليبيا والجزائر واليمن الديمقراطية وتكون نواتها وحدة بغداد ودمشق والمقاومة . ولقد كانت وحدة بغداد ودمشق هي التصور الاستراتجي الثابت للحزب السوري القومي الاجتماعي ، الذي كرره على مر السنين ، انطلاقا من عقيدته وتعاليمه ، لاعادة صياغة المعادلات في العالم العربي بدءاً بهذا المحور القومي المتصدي للاستسلام والقادر في حال قيامه على استقطاب البيئة الطبيعية لفلسطين فيعطي للصمود اطاره المادي ـ الجغرافي ـ البشري ـ الاقتصادي ـ الاستراتجي . كما انه بنهوض محيط فلسطين الطبيعي تدعم وحدة العالم العربي وجبهته وما قمة بغداد في بداية تقارب دمشق بغداد الا الدليل الاسطع على زخم هذه النواة الوحدوية متى قامت وما تحقق على الصعيد العربي .

في ضوء هذا مفروض برمجة الموقف الرافض ليأخذ بعين الاعتبار كل هذه الحسابات . ننطلق من الحد الادنى ونتعاطى مع هذا الحد الادنى ايجابيا لتطويره الى الحد الاقصى وفق تصور استراتجي متكامل ولا نستمر في الموقف السلبي من كل التطورات الحاصلة وكأن شيئا لم يحصل .

وعلى هذا الاساس فان ما اعلنته قمة الجزائر يشكل الحد الادنى للخروج من دائرة

---

(١) بيان رئاسة الحزب في ذكرى التأسيس الرابعة والأربعين ٦ تشرين الثاني ١٩٧٦

التسوية الاميركية ـ الاسرائيلية ، اذ نص بيانها بوضوح على ادانة « المخطط الذي يرمي الى تحقيق التصالح مع العدو والاعتراف بشرعية وجوده واقامة علاقات خضوع في المجالات المختلفة ، السياسية والاقتصادية والثقافية ، وفتح الحدود ، تمكينا للصهيونية من السيطرة على الوطن العربي وموارده وامكاناته » .

كما نص على « العزم على مقاومة جميع المحاولات الهادفة الى تصفية قضية فلسطين ، ويحذر أي طرف عربي حكومي أو غير حكومي ، افراداً أو مجموعات من خرق قرارات القمة في الجزائر والرباط بمحاولة ادعاء التمثيل الفلسطيني تحت أي عنوان ، ذلك ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني » و « احباط جميع المحاولات الهادفة الى جر العرب نحو الهزيمة والاستسلام والى تصفية قضية فلسطين ، واستمرار احتلال الاراضي العربية وتكريس الوجود الصهيوني وتمكينه من السيطرة على المنطقة سياسياً واقتصادياً وعسكرياً » .

ان هذه الفقرات التي ترفض « تصفية قضية فلسطين » أو ادعاء تمثيلها من أي طرف عربي حكومي أو غير حكومي خارج ارادة الشعب الفلسطيني وترفض « تكريس الوجود الصهيوني وتمكينه من السيطرة على المنطقة » وترفض « تحقيق التصالح مع العدو والاعتراف بشرعية وجوده واقامة علاقات خضوع معه في المجالات المختلفة »

وتدعو الى « حشد الطاقات العربية للكفاح ضد العدو الاسرائيلي » في هذا السبيل محددة « السلام العادل » بالارتكاز على « الانسحاب الشامل من جميع الاراضي المحتلة وضمان الحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني بما في ذلك حقه في العودة وتقرير المصير واقامة دولته المستقلة فوق ترابه الوطني » دون تحديد الضفة والقطاع ،

ان هذه الفقرات تصلح منطلقاً للخروج من دائرة التسوية الاميركية ـ الاسرائيلية ويمكن ان يكتسب هذا المنطلق الوضوح والتحديد للخروج من نهج التسوية اطلاقاً ، وان تأييد موسكو لقمتي طرابلس والجزائر تجعلها ملتزمة بتأييد الصمود في هذه الحدود ، أي عملياً تسقط البيان السوفياتي ـ الاميركي حول طبيعة السلام . وهذه نقطة بالغة الأهمية .

قمـة دمشـق :

١ ـ تعميق الفرز دولياً والعداء لاميركا

٢ ـ أهمية دور الشام الفاصل في احباط التسوية التصفوية .

اذا كانت جبهة الصمود والتصدي قد قامت قبل كامب دافيد وكرد تاريخي على النهج الذي أوصل الى كامب دافيد بدءاً بزيارة السادات الى القدس المحتلة والتعاطي مع العدو الصهيوني على طريق الاستسلام ، فان قمة دمشق المنعقدة في أيلول ١٩٧٨ في دمشق والتي صدر بيانها السياسي في ٢٣ ـ ٢٤ منه متضمنا ميثاق الجبهة تعتبر أول رد عربي جبهوي على اتفاقات كامب دافيد .

ولقد كان مهماً وأساسياً ان تنعقد قمة الصمود والتصدي في دمشق ، في عاصمة التصدي الفعلي لنتائج كامب دافيد على الساحة القومية . كما كان قرار الرئيس الاسد في التمسك بنهج الصمود والتصدي حتى لو لم تتوفر الامكانات المادية لتحقيق التوازن

الاستراتجي مع العدو ؛ قراراً قياديا مبدئيا أكد أهمية مثل هذه المواقف الفاصلة في أزمة المواجهة القومية .

وفي كلمة ختام المؤتمر قال الرئيس الاسد في ادانة نهج كامب دافيد « ما جرى يمثل أبشع جريمة لأن ما جرى لم يكن مجرد صفقة انفرادية بما تعنيه من غدر بالقضية وتتخلى عنها بل ما حدث يعتبر بيعا للقضية الفلسطينية ويشكل انتقالا كاملا الى صف العدو وتحالفا معه . والمرء يأمل الا يجد الكثير من الحكومات العربية التي يمكن ان تؤيد أو تدعم هذا الخط الغادر . »

وكان فعلا التخوف من انحياز عدد من حكومات عرب اميركا مع السادات لولا التطورات اللاحقة التي كان أبرزها اللقاء السوري – العراقي الذي ألقى بثقله في قمة بغداد العربية وانتزع الحد الادنى من التضامن العربي ضد كامب دافيد. لولا هذه الخطوة اللاحقة النوعية بين دمشق وبغداد لكان تخوف الرئيس الاسد وتحسبه من انحياز حكومات عربية الى « هذا الخط الغادر » وجد أكثر من بروتس عربي يطعن القضية الا ان ابرز ما في كلمة الرئيس الاسد رفضه لنهج السلام الذي « يبنى على التفريط بحقوق الشعوب » ، « ومن يقرأ الوثائق التي صدرت عن معسكر داود يرى كيف تم التفريط بالقضية الفلسطينية »

ورغم ابدائه الألم من « المحاولات التي تهدف الى شل مصر ، والى وضع مصر عكس اتجاهها القومي التاريخي » يعلن الرئيس الاسد في كلمته : « لقد دلت مناقشتنا خلال سير المؤتمر ، وأبرزت بشكل واضح تصميمنا على رفض كل استسلام ، وعلى رفض كل محاولات الهزيمة أو فرض الهزيمة ، وعلى رفض كل رضوخ ، وأكدت ، وأكدتم جميعا الا رضوخ بيننا اطلاقا . ولا مكان لراضخ . »(١)

الموقف السوري الصامد ، كان مهما وأساسيا ، لان لا صمود بدون دمشق ، هذه هي المقولة التي رفعها الحزب السوري القومي الاجتماعي في كل اعلامه ونشاطاته واتصالاته بمختلف الاطراف القومية والعربية التقدمية قبل وبعد خطوة السادات وكان نقاشنا المستمر مع اخوتنا في الرفض والعراق حول أهمية صمود دمشق أساسا لكل رفض حقيقي .

وحتى نتأكد من الاهمية الفاصلة لصمود دمشق في احباط استهدافات مؤامرة كامب دافيد نشير الى ما قاله بريزنسكي في مقابلة مع التلفزيون الاميركي(٢) « ويعني البيان ان سوريا هي طرف معني . ونأمل بأن تنضم سوريا الى الركب في مرحلة من المراحل وتتفاوض أيضا بشأن عقد معاهدة صلح مع اسرائيل وما لم يتحقق ذلك فاننا لا نكون قد حققنا التسوية النهائية التي نتوق اليها جميعا . »

فواضح من كلام بيريزنسكي انه بدون الشام تسقط التسوية التصفوية .

ان أبرز ما صدر عن المؤتمر وثيقتان : اعلان مبادىء الجبهة والبيان السياسي. ولذلك تصاعد التوتير في لبنان ضد دمشق كما مر معنا .

في ميثاق الجبهة تأكيد على نهج النضال وقوميته . ففي مقدمة الميثاق تصميم « على بناء

---

(١) « السفير » ١٩٧٨/٩/٢٤

(٢) « النهار » ١٩٧٨/٩/٣٠ .

القوة القادرة على مواجهة كل المخاطر وتحرير الارض العربية المحتلة واستعادة الحقوق الوطنية الثابتة للشعب العربي الفلسطيني **وحماية قضية فلسطين من جميع المؤامرات الهادفة الى تصفيتها وترسيخ الوجود الصهيوني** . » وهذا البند يؤكد الالتزام « بقضية فلسطين » والنضال ضد « ترسيخ الوجود الصهيوني » .

وفي البند الاول من المادة الثانية « **العمل على تحقيق الوحدة العربية ودعم النضال الوحدوي والعمل** على ازالة كل العقبات من طريق الوحدة العربية وتطوير العلاقات الوحدوية بين اطراف الجبهة ومن أجل تقدمها الاقتصادي والاجتماعي . » وهذا التوجه تجسد لاحقاً في ميثاق العمل القومي بين دمشق وبغداد . الى انه واضح من هذا التوجه الى ان مجابهة العدو الصهيوني لا تكون الا بالوحدة .

اما الخط السياسي العام للميثاق فهو نفسه الخط الذي أكدته قمة الجزائر في صداقة المعسكر الاشتراكي وحركات التحرر الوطني والتصدي للامبريالية والصهيونية .

ورغم ان الميثاق نص على مؤسسات وأجهزة جبهوية ولكن كان من الصعب تصور عملها الديناميكي بدون الاساس المادي لها ، خاصة لجهة التماسك الجغرافي والارصدة المالية الكافية . من هنا كانت الانظار شاخصة الى بغداد .

أما البيان السياسي فقد كانت أبرز فقراته تلك التي اعتبرت المؤامرة اميركية واعتبرت السياسة الاميركية « عدواً ولا يمكن اعتبارها وسيطاً » . فلقد نصت الفقرة ٥ من البيان على . « ان الاتفاقات التي تم التوصل اليها في معسكر داود هي جزء من عملية شاملة لبسط نفوذ وسيطرة الامبريالية الاميركية على الوطن العربي والقارة الافريقية ولاستخدام النظام المصري كأداة لضرب حركات التحرر العربي » كما نص البند ٧ من الفقرة هـ على « ادانة السياسة الامبريالية للولايات المتحدة الاميركية بتحالفها مع العدو الصهيوني ونظام السادات واستمرارها في انتهاج سياسة مناهضة لحقوق وأهداف الامة العربية الأمر الذي جعلها عدواً ولا يمكن اعتبارها وسيطاً في المساعي المبذولة لتحقيق سلام عادل في المنطقة العربية وتحميلها المسؤولية المباشرة عن النتائج الخطيرة التي ترتبت أو تترتب عن اتفاقات معسكر داود » وهذا الموقف المتصدي مباشرة للسياسة الاميركية ، وغير المقتصر على رفض نتائجها في كامب دافيد ، شكل التزاماً استراتجيا يعود بالمنطقة العربية الى المناخ الذي ساد بعد حزيران ١٩٦٧ من اعتبار السياسة الاميركية معادية للشعوب العربية ، وهو غير المناخ الذي ساد في مرحلة أواسط السبعينات حين استعادت اميركا مكانتها كاملة في المنطقة العربية .

ولكن هذا التحدي لاميركا والسياسة الاميركية والفرز على الساحة الدولية والذي دعا له بصدق الرئيس الراحل هواري بوميدين فكوفىء من قبل الامبريالية الاميركية بالغاء بعض عقود الغاز الطبيعي مع الجزائر ، وهو النهج الذي كانت تعبر عنه كل من الدول الاعضاء في جبهة الصمود والتصدي في سياستها الخاصة وعلى ساحتها الخاصة كما في اليمن أو في ليبيا ، الا انه كان يفتقر الى الاداة والخطة والامكانات التي تجسد على صعيد جبهوي مثل هذا التحرك المضاد للسياسة الاميركية في المنطقة .

وهو الذي سدت كل ثغراته تلك مبادرة العراق اللاحقة التي انعقدت قمة بغداد العربية في ظلها . فقد حققت تلك المبادرة عدا اللقاء السوري العراقي الخطير والهام والاساسي والذي سنعرض له في فصل على حدة ، انجازين هامين . أولا : الصندوق القومي لدعم خطوات

الصمود وفرض حصة كبرى من اعتمادات هذا الصندوق على الدول العربية المحسوبة على اميركا كأنها ضريبة الانتماء العربي كما فرضت ، من قبل ، قمة الخرطوم على الدول النفطية دعم صمود دول المواجهة في زمن عبد الناصر بعد حرب ١٩٦٧ . وثانيا : الحد الادنى ضد السياسة الاميركية الذي ينعقد عليه الاجماع العربي ، في رفض كامب دافيد ، الا ان هذين الانجازين يتكاملان وليسا بديلا عن جبهة الصمود والتصدي في استراتجيتها الاكثر وضوحاً في الفرز بين الصديق والعدو على الساحة الدولية .

ولقد كان توجه جبهة الصمود والتصدي نحو الاتحاد السوفياتي والمعسكر الاشتراكي هو التوجه السليم استراتجيا .

أما الموضوع الآخر الذي حسم فيه بيان قمة دمشق فموضوع لبنان الذي نصت الفقرة الثالثة من البند الثامن ـ فقرة هـ ـ على دعم « موقف الجمهورية العربية السورية في لبنان والهادف الى مواجهة محاولة اشعال الفتنة تغطية لمؤامرة تصفية قضية فلسطين وتقسيم لبنان واقامة دويلات طائفية تشكل الدعم والسند للتحالف الاميركي ـ الساداتي ـ الاسرائيلي . كما أكد مساندته لكافة القوى اللبنانية المعادية للمخطط الاسرائيلي والمتعاونين معه . »

وهذا النص جاء جوابا على دعوة كارتر لفتح ملف المسألة اللبنانية بالتفاهم مع السادات وبيغن كما جاء ، لأول مرة ، يعلن باسم جبهة « الصمود والتصدي » مساندة كافة القوى اللبنانية المعادية للمخطط الاسرائيلي والمتعاونين معه » أي يقيم فرزاً وطنياً على الساحة اللبنانية بعد ان اثبت المتعاونون مع العدو تماديهم في هذا النهج المضيع للوفاق الوطني .

الفصل السابع والعشرون :

ميثاق العمل القومي بين بغداد ودمشق
ايذان فجر جديد من التكامل القومي ونتائجه محلياً وعربياً ودولياً

في أعقاب التوقيع على اتفاقية كامب دافيد وانعقاد قمة الصمود والتصدي وجه الرئيس الاسد رسالة الى الرئيس البكر مستوعباً تحديات المرحلة في وجوب تخطي كل السلبيات العارضة بين الكيانين باتجاه وحدة الموقف القومي ازاء التحدي المصري . وفي ١/١٠/١٩٧٨ صدر البيان التاريخي عن مجلس قيادة الثورة في الجمهورية العراقية كما صدر في ٣/١٠/١٩٧٨ بيان عن القيادة القومية في العراق وكلاهما يحمل مبادرة عراقية وحدوية باتجاه دمشق . وقالت وكالة « الانباء العراقية » في يوم صدور بيان القيادة القومية ان رسالة الرئيس الاسد التي كتبت قبل اعلان القرارات الاخيرة لمجلس قيادة الثورة تتضمن موقفاً ايجابياً من مسألة العلاقة بين القطرين الشقيقين لمواجهة الاخطار الراهنة عربياً . »

وهكذا ارتفع البحث في دمشق وبغداد الى مستوى المسؤولية القومية وطوى ماضي الخلاف والتناقض العابر وانجز للامة كلها توقها الوحدوي ، وللعرب الأمل بصمودهم في لحظة مالت الموازين واختلت بعد انسحاب مصر السادات من جبهة المواجهة العربية .

وسقطت كل التناقضات وبدت كم كانت تافهة ازاء وحدة المصير القومي وبدا كم بمقدور القيادات القومية الواعية ان تتجاوز التناقض العابر في سبيل المصير القومي الواحد . وفي لحظة من المبادرة الخيرة والتجارب معها اطلت دمشق وبغداد على الامة وعالمها العربي ببشر الاتفاق وبكلام الايجاب وبمناخ الوحدة المحبب فتبدل الجو العام وعم التفاؤل والامل وطاب الصراع في افق مفتوح على المستقبل وبدأ تجمع الطاقة وتلاقي الامكانات وتفاعلها .

ولم تكن دمشق في السنوات الماضية الا وحدوية ولم تكن بغداد في السنوات الماضية الا وحدوية ولكن كل وحدة دون وحدتهما تبقى مشوبة وضعيفة وعلى غير الجدوى المرتقبة من وحدة العمق والنواة في الهلال الخصيب .

لقد دعت دمشق وعملت لوحدة سورية محددة تضمها والأردن وفلسطين ولبنان . ولكن كان رأينا منذ ذلك الحين تأييد كل مسعى وحدوي الا اننا وجدنا في تلك الوحدة وحدة الاعباء لا وحدة تكامل الطاقات ورأينا أن يبدأ قيام وحدة بغداد ودمشق فيستقطب بدوره البيئة القومية كلها .

ونادت بغداد بالرفض القومي وتزعمته وبمسؤوليات المواجهة القومية في فلسطين ولبنان ولكن كان رأينا دوما انه دون اكتمال وحدتها مع دمشق ، تبقى التطلعات الوحدوية والقومية مفتقرة الى عامودها الفقري في الجغرافيا والتكامل الاقتصادي والبشري ، وكل هذا يتأمن بوحدة دمشق وبغداد ، وان الرفض القومي لا يستطيع ان يقفز فوق صمود دمشق .

وصح الفكر الصحيح حين جاءت المبادرة العراقية السليمة قوميا تقول في بيان القيادة

القومية الصادر في ٣/١٠/١٩٧٨(١) « ان الخطر الذي يتعرض له القطر العربي السوري ليس أقل من الخطر الذي تعرضت له فلسطين » ويدعو في البند السادس منه الى « اعتبار الساحة السورية العراقية ، مبدئيا ، ساحة مواجهة واحدة يرمي العراق بثقله الكامل فيها » .

كما ان بيان مجلس الثورة الصادر في ١/١٠/١٩٧٨(٢) في بنده الاول دعا الى « اعتبار العراق ، كما كان شأنه دائما ، جزءا من الجبهة العسكرية الشمالية المواجهة للعدو الصهيوني ومن أية جبهة ملاصقة للكيان الصهيوني تتهيأ فرص تحريكها ضد العدو في المستقبل». ويعلن العراق استعداده الفوري لارسال قوات عسكرية فعالة الى الساحة السورية من اجل تأمين القوة العربية القادرة على مواجهة العدو » واعتبر البيان في ختامه « ان العراق كان له دائما شأن معروف في النضال ضد الصهيونية وتحرير فلسطين .. منذ عهد الاشوريين والبابليين وفي عهد صلاح الدين الايوبي » .

دورة الحياة ووحدتها الاجتماعية الاقتصادية

وفي ١٠/١٠/١٩٧٨ حملت الصحف ترحيبا سوريا بمبادرة العراق وبدأت دورة جديدة، من العلاقات الايجابية اثمرت في ٢٦ ـ ٢٧ تشرين الاول ١٩٧٨ بصدور ميثاق العمل القومي بين دمشق وبغداد الذي نص على اقامة قيادة عليا جماعية من أعلى المراجع (رئيسا الدولة على رأسها) وأربع لجان للتنسيق السياسي والاقتصادي والثقافي والعسكري . وأكد ميثاق العمل القومي ان مسيرة الوحدة السورية العراقية هي مسيرة صدامية للتصدي « للتحالف الاستعماري ـ الصهيوني الذي ازداد خطورة وتفاقما بتوقيع الاتفاقيات الخيانية بين النظام المصري والعدو الصهيوني » واعتبر ان هذا فرض « تحقيق انتقال نوعي في العلاقات بين القطرين الشقيقين » . وهكذا أكد ميثاق العمل القومي اقتران الوحدة بالمجابهة ضد العدو الصهيوني ، كما أكدت المبادرة العراقية **ان الخطر على الوجود هو الدافع الى الوحدة** « ان الهجمة الامبريالية الصهيونية قد بلغت حدا من الشراسة **أصبح يهدد كل الوجود العربي** وكل الاقطار العربية على اختلاف انظمتها ومبادئها »(٣) .

فحرب الوجود فرضت هذه الوحدة التي لها مقوماتها الموضوعية لتكون الثقل المطلوب لصيانة الوجود القومي . وعلى مدى أسابيع توالت كل يوم انباء سريان دورة الحياة التي تتخطى كل حدود . فاذا كانت المبادرة العراقية قد بدأت بالاعلان عن الاستعداد لارسال قوات الى الجبهة السورية ، فان ميثاق العمل القومي قد فتح المجال أمام التكامل والتنسيق في كل المجالات الثقافية والاقتصادية والاعلامية والسياسية والعسكرية الا ان انطلاقة الوحدة تخطت التنسيق الى نشدان الوحدة الكاملة .

وهكذا في ٣٠/١٠/١٩٧٨ تم الاتفاق على حرية التنقل للاشخاص بين الشام والعراق(٤) . بعد ان فتحت الحدود والاجواء بينهما في ٢٣/١٠/١٩٧٨ .وفي ٢/١١/١٩٧٨ تم اتفاق شامي ـ عراقي بشأن مياه نهر الفرات .فقد صرح عبد الوهاب محمود وزير الري العراقي

---

(١) « النهار » ٣/١٠/١٩٧٨

(٢) الصحف في ٢/١٠/١٩٧٨

(٣) صدر نصه في الصحف في ٢٧/١٠/١٩٧٨

(٤) بيان القيادة القومية في ٣/١٠/١٩٧٨ (« النهار »)

في حديث « للثورة » العراقية بأن الشام والعراق اتفقتا خلال اجتماعات لجنة المياه المنبثقة عن لجنة الشؤون الاقتصادية والتعاون الفني المشتركة على توسيع الاتصالات بينهما بخصوص كميات ومناسب المياه في مناطق الخزن وتصريف المياه من حوض الفرات . وأضاف ان اللجنة بحثت كافة الامور المتعلقة بحوض نهر الفرات بين القطرين وقررت دراسة أفضل الصيغ لاعداد الخطط الخاصة باستغلال المياه بين القطرين وأشار الى ان المعلومات الهيدرولوجية المتعلقة بحوض الفرات لم تكن متوفرة في السابق لدى الجانبين وقد تم تبادلها بروح أخوية عالية حيث ان الموارد المائية تعتبر من عوامل التعاون والتكامل بين القطرين »(١) .

وهذه صورة عن حقيقة مزدوجة ، من جهة ان ما بين العراق والشام شأناً حيوياً بكل ما تعنيه مياه الفرات من ري وطاقة كهربائية ، وان زمن الفرقة والقطيعة جعلت هذا الشأن الحيوي تحجب معلوماته المتكاملة عن الجانبين مما يشير الى خطورة تجزئة دورة الحياة الواحدة والى ضرورة قيام وحدتها .

« ان لنا في هذه البيئة الطبيعية وحدة زراعية ـ اقتصادية متشابكة بالانهر التي ذكرتها لا يخطئها نظر عارف بشؤون الجغرافية والطبغرافية . فترابط الزراعة في وحدة الارض وريها بالانهر السورية ، دجلة ، الفرات . جيجون ، سيجون ، بردى ، العاصي والليطاني ، الاردن وما بينها من جداول وبحيرات وبرك هو أمر واقع ، طبيعي ، وتاريخي »(٢) (سعادة) .

وفي ١٩٧٨/١١/١٠ جرت مباحثات طالبية في بغداد بين العراق والشام حول سبيل تطوير العلاقات الثنائية بينهما في ضوء ميثاق العمل القومي بينهما وكان أول وفد تخطى الحدود هو وفد النقابات العمالية العراقي الذي زار دمشق واجتمع الى نده الشامي . في ١٩٧٨/١١/١٤ .

اعلن السيد عبد الحليم خدام نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية السوري أن الجيشين العراقي والسوري سيصبحان جيشاً واحداً وكل ما لدى سوريا سيصبح للعراق والعكس بالعكس ونقلت الصحيفة نفسها عن لسان نائب الرئيس السيد صدام حسين قوله أن الرئيس الاسد ناقش دخول القوات العراقية الى الشام من زاوية « طالما أننا على طريق الوحدة فلماذا اضاعة الوقت في عمليات التنسيق وتفاصيلها . لنقر مبدأ الجيش الواحد ولنوحد بالفعل جيشينا بحيث(٣) يصبح بامكان القيادة أن تحرك الجيش الواحد حيث تقتضي الحاجة . »

وفي ١٩٧٨/١١/١٦ وضعت ورقة عمل عراقية لتوحيد التربية والتعليم بين دمشق وبغداد(٤) وفي ١٩٧٨/١١/١٨ دعا وزير الزراعة والاصلاح الزراعي السوري السيد أحمد قبلان الى توحيد القوانين الزراعية بين الشام والعراق على طريق اقامة التكامل الزراعي بين الكيانين(٥) . وفي ١٩٧٨/١١/٢١ عقدت محادثات سورية عراقية في دمشق

---

(١) (« السفير ١٩٧٨/١١/٢) .

(٢) سعادة « المحاضرات العشر ص ٢ .

(٣) « السفير » ، ١٩٧٨/١١/١٤ عن اليونتدبرس ـ تصريح خدام الى الاذاعة الدانمركية

(٤) « النهار » ١٩٧٨/٧/١٦

(٥) « النهار » ١٩٧٨/١١/١٨ .

للتنسيق الاعلامي بين دمشق وبغداد⁽¹⁾ . وفي ١٩٧٨/١٢/٧ تم توقيع اتفاق اعلامي وثقافي ووضع ورقة عمل تربوية بين دمشق وبغداد واقرار صيغ للتعاون الوحدوي بين المنظمات الشعبية، وصرح السيد حسين علي عضو مجلس قيادة الثورة ووزير التجارة العراقي ان الوزارة تعمل على وضع الاسس المتينة لعلاقات اقتصادية بين دمشق وبغداد « بما يضمن اقامة وحدة اقتصادية متكاملة بينهما وان الوزارة اصدرت توجيهات الى جميع المؤسسات والدوائر التابعة لها بالتحرك السريع لتنشيط حركة التبادل السلعي ومضاعفاته بين القطرين الشقيقين »⁽²⁾ وفي ١٩٧٩/١/٩ انهت اللجنة الاقتصادية العراقية السورية اعمالها « بتشكيل لجنة عليا لخطط القطرين الانمائية » واعتبرت القطرين سوقاً واحدة ومراكز تجارية موحدة في العالم »⁽³⁾

وفي ١٩٧٩/١/١٩ ⁽⁴⁾ أعلنت دمشق وبغداد الاتفاق على اعادة ضخ النفط العراقي عبر خط الانابيب السوري بعد انقطاع سنوات كان يضخ فيها النفط العراقي عبر تركيا .

وهكذا فقبل اعلان الوحدة الدستورية وقبل التوصل الى وحدة الحزب وكلاهما هام وأساسي ، فرضت الحياة نفسها في المجالات الاقتصادية المتكاملة بدءاً من مياه الفرات الى شريان النفط ، كل ذلك على وحدة جغرافية متكاملة شوهها الاستعمار بكيانات التجزئة التي لم تقو على تعليل لماذا الموصل في العراق والجزيرة في الشام وهما متداخلان كتداخل الارض والحياة بين الشام والعراق في وحدة الهلال الخصيب. وهكذا تفرض الطبيعة بكل شرايين الحياة الدافقة على متنها والحيوية للجماعة البشرية المتحدة حياتها عليها ، تفرض الطبيعة نفسها قبل اكتمال النصوص والاشكال . وكما ان وحدة الحياة باقتصادها وشرايين حياتها ضرورية وعفوية في فرض نفسها فكذلك كانت القطيعة بين شرايينها الحيوية موجعة كما في ازمة مياه الفرات قبل سنوات بين العراق والشام أو كما في تحويل أنابيب النفط . فهنا التكامل الذي يزدهر بالوحدة ويتأذى بالتجزئة .

لقد بدىء التحسس بالوحدة انطلاقا من الخطر المصيري وطرح ارسال القوات العراقية الى الجبهة السورية ثم علا مد الوحدة باتجاه ان يصبح الجيشان جيشا واحداً. ولكن الأمر كان اشمل من وحدة عسكرية ازاء التحدي المصيري لأن الارض واحدة والاقتصاد واحد والحياة واحدة ، واخذت عوامل الوحدة تفرض نفسها باتجاه الوحدة الشاملة على عكس الوحدات السابقة المتسرعة والمرتجلة التي كانت تفرض وحدة الشكل الدستوري دون توفر وحدة الارض والاقتصاد والحياة بكل مرافقها .

الفكر الوحدوي والوحدة السورية

لقد دعا الرئيس الاسد ، عن حق ، اللجنة الاعلامية المشتركة حين اجتمعت اليه في ١٩٧٨/١١/١١ الى أهمية تعميق الفكر الوحدوي وتثقيف جماهيرنا بهذه الافكار القومية

---

(1) « النهار » في ١٩٧٨/١١/٢١
(2) « اللواء » في ١٩٧٨/١٢/٧ .
(3) « اللواء » ١٩٧٩/١/٩ .
(4) السفير ١٩٧٩/١/١٩ .

الوحدوية(١) ، والواقع ان مواجهة الخطر المصيري ومد الوحدة المتعالي قد أشاع في الاشهر الأخيرة تعابير وتصريحات وأقوالا تعيد لوحدة الارض والحياة والمصير في الهلال الخصيب اعتبارها الذي طمسته ازمنة التجزئة والانتداب والاستعمار الاجنبي والفكر الرومانسي المشوه العاجز عن تخطي التجزئة بادراك البديل الوحدوي القومي السليم . وكان الرئيس الاسد في المؤتمر القومي في ١٩٧٥ قد قدم مداخلة اساسية حول موضوعة الوحدة بين فيها مركزية الوحدة السورية الطبيعية في مسار العمل الوحدوي العربي كما أن الرئيس البكر في رسائله الى جبهة الصمود والتصدي أكد على مطلب الجبهة الشرقية اساسا لاي صمود .

ففي ١٩ آب ١٩٧٨ في حفلة تخريج أشبال « فتح » في معسكر عدرا في الشام قال العماد مصطفى طلاس وزير الدفاع السوري : « اني اشبه العلاقة بين سوريا وفلسطين بالعلاقة بين فيتنام الشمالية وفيتنام الجنوبية . فسوريا قاعدة الانطلاق الصلبة والمتينة ومن أرض سوريا تنطلق جموع الفتح لكي تدخل القدس فاتحين محررين » وركز ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية والقائد العام لقوات الثورة الفلسطينية في كلمته على المعنى نفسه فقال : « يقول الاخ طلاس ان دمشق هي هانوي الثورة الفلسطينية ، وانا أقول نعم دمشق هانوي الثورة الفلسطينية وان سوريا هي شمال فلسطين وان فلسطين هي جنوب سوريا ومن هنا نفهم هذا التلاحم القدري »(٢) . وكان الرئيس الاسد ، كما مر سابقاً ، قد رد على غولدا مائير في ٨ آذار ١٩٧٤ بأن فلسطين هي سورية الجنوبية .

وفي ١٩٧٨/١١/٢ نشرت مجلة « فلسطين المحتلة » «حديثا» للعماد طلاس قال فيه : « بالنسبة للعلاقات السورية ــ الفلسطينية ، فنحن نعتبر فلسطين جنوب سوريا ونعتبر سوريا شمال فلسطين ، وننطلق من وحدة التراب ومن وحدة المصير . وأنا ذكرت في كلمتي في ١٧ نيسان وهذه الكلمة للورد ارنولد توينبي المؤرخ البريطاني المشهور والذي يعتبر من أكبر المؤرخين المعاصرين حتى الآن وحتى في العالم كله ، وهو مؤرخ أمين ، وعندما سألوه « لماذا الشعب السوري هو أكثر الشعوب العربية تحسسا من أجل الوحدة ؟ » ، أجابهم بقوله : « لأنه الشعب الذي يشعر أنه ممزق أكثر من غيره » .

ويتابع العماد طلاس « من هذا المنطلق نحن نشعر ان فلسطين والاردن ولبنان وسوريا هي بلاد الشام في الاساس كانت واحدة ... كانت اقليماً واحداً ... ولكن الاستعمار غذى هذه التجزئة واذا لاحظت بدراسة اجتماعية تجد ان القبائل التي تسكن في الاردن وجنوب سوريا وفي فلسطين ، تكاد تكون متشابهة في العادات ، والعائلات متقاربة ، وهناك عشائر وانساب وأقارب . لا زال الزي في ضيعتنا مثل الزي الفلسطيني تماما ... ونساء بلادنا يلبسن الزي المماثل للزي الفلسطيني ... »

ويدعو العماد طلاس الى قيام دولة فلسطينية مستقلة ومسلحة وكاملة السيادة الوطنية على أرضها ، « وانني مع ان تكون فلسطين كلها دولة واحدة وان تكون ضمن اطار الوحدة العربية يعني الدخول في اتحاد مع سوريا ومع الاردن ومع لبنان وكل الدول العربية » .

وفي خطاب افتتاح المجلس الوطني الفلسطيني في دمشق بعد بضعة أشهر في ١٩٧٩/١/١٥ يحي الرئيس الاسد انعقاد المجلس ويبدي اغتباط حزب البعث العربي

---

(١) « السفير » في ١٩٧٨/١١/١٢

(٢) « النهار » ١٩ آب ١٩٧٨ .

الاشتراكي « **بأن يتم هذا اللقاء على أرض سورية التي ما كانت وفلسطين على امتداد الزمن الا تاريخاً واحداً وجسداً واحداً ، قاوم ولا يزال يقاوم مؤامرة التجزئة الاستعمارية** »

وتابع الرئيس الاسد عن « **اللقاء التاريخي بين القطرين السوري والعراقي الذي انبثق عنه ميثاق العمل القومي المشترك** » « **فجاء انجازاً ضخماً في مضمار مجابهة المخططات المعادية خاصة ان هذا اللقاء كان خارج حسابات الاعداء وخارج توقعاتهم** » وبعد أن يؤكد الرئيس الاسد متابعة « الخطوات الجدية لترجمة هذا الميثاق الى عمل وحدوي » ، يقول « وبديهي **ان يعود بالخير أول ما يعود على القضية الأولى ، قضية فلسطين** » ، وكما ان بيان القيادة القومية في العراق أشار الى ان الهجمة الامبريالية الصهيونية الشرسة باتت تتناول الوجود العربي ، فالرئيس الاسد يقول : « **لقد حاولت الصهيونية ونجحت ردحاً طويلا ان توهم العالم ان هذا الصراع هو خلاف حدود ، يسوى كما تسوى خلافات الحدود في انحاء العالم ، ولكن المستنيرين في عالمنا كله ما لبثوا ان ادركوا انه صراع وجود ، وان الاستعمار الصهيوني يريد الارض ويريد الهيمنة والسيطرة وبانت الحركة الصهيونية على حقيقتها حركة استعمارية استيطانية عنصرية** ، شأنها شأن سائر الحركات العنصرية البشعة وتمتاز عليها جميعاً بسيطرتها على مراكز النفوذ في الانظمة الامبريالية »(١)

وهكذا فاذا كانت الشام وفلسطين جسداً واحداً ، وهو المعنى الذي كرره المسؤولون السوريون والفلسطينيون ، فان انقاذ هذا الجسد هو في ميثاق العمل القومي بين بغداد ودمشق ، حيث تلتحم الاجزاء الاخرى الحيوية من هذا الجسد القومي ، وكما يقول الرئيس الاسد فان الخير يعود من هذا اللقاء بين دمشق وبغداد « أول ما يعود على قضية فلسطين » . وهو لقاء لم يحسب له الاعداء حسابا ، جاء خارج حسابات الكومبيوتر الامبريالي والصهيوني ، الذي اعتبر ثابت القطيعة دائماً واعتبر التناقضات الثانوية اساسية واعتبر ان المصير القومي الواحد طمس او غاب . الا انه ما ان بدأت مسيرة الوحدة حتى أخذ مدها يتصاعد وعفويتها النابعة من الحقائق الموضوعية الثابتة تفرض نفسها .

وهذا الحافز على التحرك الوحدوي هو حافز صراع الوجود مع عدو يريد الهيمنة على الأرض والانسان ، فيتحرك الانسان ليوحد قدراته على الارض الواحدة ، ارض الوطن الواحد دفاعاً عن الوجود في حرب الوجود .

وكما يوجه الرئيس الاسد الى المجلس الوطني الفلسطيني المنعقد في دمشق كلامه الوحدوي هذا ، يتوجه ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية برسالة الى الحزب السوري القومي الاجتماعي في ذكرى تأسيسه الـ ٤٦ وقد انعقد مهرجان حزبي وشعبي عز نظيره في بيروت بهذه المناسبة ، ويقول الاخ أبو عمار في رسالته الى الحزب ، الى حزب الوحدة السورية :

« هناك لحظات يخير فيها الثوري بين الثورة والبقاء ، بين الحفاظ على الهدف والحفاظ على النفس ، الثورة الفلسطينية قررت الحفاظ على الثورة ولتذهب النفس الى الجحيم ، ولن

---

(١) البعث ١٦/١/١٩٧٩ .

نقبل بديلا عن تحقيق الهدف ، ونحن اليوم أمام ساعة الحقيقة التي يجب ان نحدد فيها اهدافنا الاستراتجية ولن نتنازل قيد أنملة عن أهدافنا ، فلا استسلام ولا خضوع بل ثورة حتى تحقيق النصر .

ان الهدف المرحلي المقبل يتركز على نقطتين .
اولا : الاستمرار في النضال المسلح لتفجير الكيان الصهيوني وسحقه . **ثانيا : العمل على خلق وحدة سوريا الكبرى في هذه المنطقة**»(١) .

ففي كل هذه الطروحات يرتبط التحرير بالوحدة والوحدة بالتحرير. وفي كل هذه الطروحات تستعيد وحدة الارض والاقتصاد والحياة اعتبارها . فهي « الساحة الواحدة » . « للجبهة الشمالية الشرقية » في بيان مجلس الثورة العراقي وهي « ان سوريا والعراق يشكل كل منهما عمقاً استراتجيا للآخر » (من الاعلان الاساسي بعد لقاء الاسد ـ صدام حسين في دمشق في ١٩٧٩/١/٣٠) . وهي « الجسد الواحد » في كلام الرئيس الاسد ، وهي « الاقليم الواحد » للشعب السوري الذي رغب في الوحدة لأنه عانى من التمزق في كلام العماد الطلاس وبالاستشهاد بارنولد توينبي ، وهي الطريق العملي للوحدات الاقليمية تحقيقاً للوحدة العربية في كلام جاك بيرك ، وهي فلسطين الشمالية وسورية الجنوبية في كلام ياسر عرفات في وصفه للعلاقة الحيوية التكاملية المصيرية بين الشام وفلسطين . وهي « سوريا الكبرى » التي يجب تحقيق وحدتها في رسالة ياسر عرفات الى الحزب السوري القومي الاجتماعي ، وهي عمقنا الاستراتجي في كلمة وليد جنبلاط رئيس الحزب التقدمي الاشتراكي في الذكرى الخامسة والأربعين لتأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي ، وهي الوحدة القتالية بين القطر السوري والقطر العراقي والمقاومة الفلسطينية في البيان الأول لمؤتمر الشعب العربي الصادر في ١٩٧٧ .

وفي كل هذه تبرز ملامح الارض الواحدة والشعب الواحد والحياة الواحدة من جديد **لكأنما الخطر على الوجود الواحد ابرز مجدداً وحدة هذا الوجود .**

وبدا التكامل الجغرافي ـ الاقتصادي ـ البشري بين العراق والشام على انه فضيلة وحدوية وأساس موضوعي لنجاح الوحدة وسقطت الرومانسية المعادية للعوامل المادية والاجتماعية للوحدة التي كانت تستخف بهذه العوامل ، وقامت المصالحة في زمن الخطر على سلامة الارض القومية من العدو بين المسعى الوحدوي وعامل وحدة الارض .

وفي الكلام عن هذه الوحدة استعادت الجغرافيا والتكامل الاقتصادي اعتبارهما على نقيض ما كان حاصلا في وحدة ١٩٥٨ حين أكد على أن وحدة اللغة والآمال والآلام هي التي تصنع وحدة المنطقة وغيبت أو استخف بوحدة الارض والاقتصاد .

ولقد نشطت التحليلات المقارنة بين الوحدتين من قوميين عروبيين في تفضيل الوحدة السورية العراقية لانطباقها على وحدة الجغرافية والتكامل الاقتصادي . بمعنى ان هذه المفاضلة التي نسوقها هنا ليست من زاوية الذين ناصروا وحدة الارض والاقتصاد على وحدة المشاعر واللغة ، بل من زاوية الذين كانوا ايجابيين مع وحدة ١٩٥٨ ولكنهم بعين التجربة والخطأ ، والتقييم الموضوعي فاضلوا بين الوحدتين ليجدوا ان وحدة دمشق وبغداد هي التي

---

(١) « النهار » ١٩٧٨/١١/٢٠ .

تتوفر لها الشروط الموضوعية التي لم تتوفر لوحدة القاهرة ودمشق قبل عشرين عاماً .

وقبل المقارنات المعاصرة فان ميثاق الاتحاد الاشتراكي في مصر الصادر في ١٩٦٣ أكد بالنص أن « الوحدة المتسرعة » تركت خلفها « فجوات اقتصادية واجتماعية» . وهي هذه الفجوات التي عانت منها الوحدة السورية المصرية تشكل اليوم معالم التكامل في الوحدة السورية العراقية ، وفي آب ١٩٥٨ كتبنا سلسلة مقالات في « البناء » قلنا فيها :

« في حلب وفي كل الشام انتعاش اقتصادي عمره اسبوعان وسببه عودة العلاقات الطبيعية بين دمشق وحلب وبغداد والموصل ، فالمعامل الكبرى والصناعات الانتاجية التي بقيت مقفلة وعاطلة عن أي انتاج طوال اشهر الوحدة بين مصر والشام والتي لم يستطع قرار مجلس النواب الشامي ولا قرار مجلس الامة المصـري .... ان تفتح معملاً واحد ولا ان تحرك انتاجاً ولا ان تدر خصباً ... فتحت معامل حلب وتحرك النشاط الاقتصادي في دمشق بعودة العلاقات الطبيعية بين قطبي الهلال الخصيب بغداد ودمشق ...

« ... لقد أعلن الرئيس عبد الناصر في خطابه في ٢٣ يوليو ان الاتحاد المصري الشامي لم يحقق الغاية المنشودة وتسبب بعجز مالي كبير فلماذا لا يحل سيادته هذا الاتحاد لينظم علاقة تحالف جديدة مع اتحاد شامي عراقي عتيد بعد أن زالت كل العوائق السياسية ولم تعد بغداد كما كانت قبل ثورة تموز ١٩٥٨ معادية « لحركة التحرر العربي » بل اصبحت احدى قلاعها ؟

« أن الوضع القائم اليوم هو عكس الواقع الطبيعي تماما ، فالجمهورية العربية المتحدة متحالفة مع الجمهورية العراقية ، نحن نرى ان تنقلب هذه العلاقة فيتم الاتحاد الطبيعي بين الشام والعراق ويعقد التحالف مع مصر ، هذا لمصلحة الشام والعراق وكذلك لمصلحة مصر ولمصلحة العروبة بالتالي في أن يوضع كل أمر في نصابه وان تتحقق القوة متوسلة السبيل الطبيعي، فالتحالف يكون بين متشركين في مصالح متبادلة ومشتركين في نهج سياسي ــ عسكري أما الاتحاد فيكون بين اجزاء وحدة اقتصادية ــ جغرافية ــ اجتماعية ذات دورة حياة كاملة .

«ان هذا التصنيف الاخير ينطبق كليا على العراق والشام بينما ينطبق التصنيف الاول على مصر . نحن اذن يا سيادة الرئيس بكل ايجابية ندعوك الى مباركة الاتحاد العراقي ــ الشامي وتشجيعه والى حل الاتحاد المصري ــ الشامي والى اقامة تحالف سياسي ــ عسكري مع دولة الاتحاد الجديدة » .

« عندها تنحل العقدة الاولى وتحصل النتائج الايجابية التالية

« **اولا :** تقوم دولة قوية في الهلال الخصيب متفاعلة اقتصاديا واجتماعيا ومتماسكة جغرافيا واستراتجيا فتكون الجبهة العربية كلها قد تقوت وتعززت .

« **ثانيا :** بدل كيان الجمهورية العربية المتحدة المتدهور اقتصاديا وسياسيا والمتباعد عسكريا يقوم تعاون جديد بين دولة الهلال الخصيب وبين مصر على أساس الجبهة العربية، وعلى أساس تحالف عسكري ــ سياسي وتنسيق اقتصادي مشترك ومتبادل . اننا ايجابيون في

تطلعنا الى التعاون مع مصر ولكننا نراعي المصلحة الحقيقية والواقع الطبيعي في تخطيط هذا التعاون المجدي .

« **ثالثاً** : تتدارس هذه الجبهة العربية الجديدة مشاكل العرب بحيث لا تطغى مشكلة على ما عداها ، فتصبح مسألة فلسطين في طليعة هذه المسائل القومية والعربية التي تطرحها جبهة العرب الجديدة على بساط البحث الدولي بقوة واخلاص وتماسك .. » (فقرات من سلسلة مقالات ظهرت في « البناء » في ٦ و ٧ و ٨ آب ١٩٥٨ في أعقاب ثورة ١٤ تموز العراقية كمبادرة طرحها عميد الاذاعة باسم قيادة الحزب السوري القومي الاجتماعي .)

وبانقضاء عشرين عاماً على هذا التوجه نرى كم كانت صوابيته وكم اثبتت الاحداث والتطورات مصداقيته .

فلقد كان واضحاً انه في أوج الخلاف السياسي استمر الحزب السوري القومي الاجتماعي متمسكاً بالجبهة العربية والعلاقة التحالفية المميزة مع مصر، وهو يطرح وحدة الهلال الخصيب وقد سقط المبرر السياسي بسقوط الحكم الهاشمي في بغداد فيقبض على الحدث الجديد الذي أزال الذريعة السياسية للتباعد بين دمشق وبغداد ، ويركز على مفهومه وتصوره للوحدة الطبيعية بين بغداد ودمشق والعلاقة الجبهوية الصادقة مع مصر في مبادرة لتصحيح العلاقات القائمة ايجابياً ، وهذا لو حصل في حينه لكان وفر نكسة الانفصال وسلبياتها كما كان أقام منذ ذلك الحين ، قبل عشرين عاماً المحور القومي القتالي ضد العدو الصهيوني والمتحالف مع مصر الناصرية .

قال الرئيس معمر القذافي ، وهو الأمين على الوحدة العربية . من بعد عبد الناصر :
« ان وحدة العراق وسوريا تتميز بعامل جغرافي مهم جداً لم يكن متوفراً لوحدة مصر وسوريا . وانا أعتقد ان هذا العامل الجغرافي الذي افتقدته وحدة ١٩٥٨ هو الذي أدى الى انهيارها وليست القوى الاقليمية والرجعية . لأن مثل هذه القوى كانت موجودة في مصر أثناء الثورة وما زالت ، وهي بالنتيجة أضعف من ان تنال من عمل قومي بمستوى الوحدة »(١) .

وهذا التفسير لتجربة وحدة ١٩٥٨ يرتدي طابع الموضوعية العلمية غير المنفعلة بأية ذاتية. فالعامل الجغرافي عامل موضوعي لا يمكن انكار تأثيره. ولقد جرى طمس لهذا العامل في تعليل أسباب فشل وحدة ١٩٥٨ ، والرئيس القذافي يظهر هنا ان العوامل الذاتية الرجعية والاقليمية موجودة في كل مكان ولكن لا تستطيع التحرك من تلقاء ذاتها لولا السبب الموضوعي . ولنقل أن توفر السبب الموضوعي أتاح لهذه القوى أن تفعل . ولولا توفر السبب الموضوعي لا تستطيع القوى الذاتية ان تتحرك . علماً ان بين الذين وافقوا على الانفصال كان بعض دعاة الوحدة قبل التجربة مما يدل على خطورة نتائج التجربة وطبعاً للعامل الجغرافي أهميته في تسهيل أو عرقلة الاتصال العمراني والاجتماعي والاقتصادي الذي يكون حياة المجتمع .

أما في المرحلة الراهنة ، فنعود الى أقلام من ناصروا وحدة ١٩٥٨ من موقع قومي عربي

---

(١) حديث الرئيس العقيد القذافي للكفاح العربي ١٩٧٩/٢/١١

ولكنهم في تجربة العشرين عاماً وجدوا ان نقائص تلك الوحدة يتوفر عكسها من ايجابيات الوحدة السورية العراقية جغرافياً واقتصادياً وسياسياً(١) .

ويقول بيان حركة الاشتراكيين العرب الصادر في ١٩٧٨/١٢/٢٠ وبعنوان « وحدة القطرين في ضوء التجارب الوحدوية السابقة » وحول تجربة الوحدة السورية المصرية في ١٩٥٨ :

« ١ ـ **ان فقدان الاتصال الجغرافي بين القطرين المصري والسوري تشكل فجوة واضحة كانت لها اثار سلبية في عدة مجالات اجتماعية واقتصادية وعسكرية : (أ)** اجتماعية بمعنى ضعف عملية التفاعل الاقتصادي بين القطرين قبل الوحدة . (ب) اقتصادية بمعنى أن التعامل الاقتصادي بين القطرين سواء قبل الوحدة أو بعدها ، كان يفتقد للمنافذ البرية المباشرة وبالتالي كان أسير المنفذين البحري والجوي بصعوباتهما وتكاليفهما ومحدوديتهما . (ج) عسكرية ، بمعنى ، ان الطريقين الجوي والبحري لم يكونا بمنجاة من سيطرة العدو الاستطلاعية وحتى من سيطرته التعرضية في بعض الاحيان .

«٢ـ ان اختلاف التجربة السياسية بين القطرين، قد ترك بصماته على شكل تفاوت في درجة الوعي القومي ، ففي حين كانت سوريا ساحة النهوض القومي الجماهيري كانت مصر لم تزل تعاني من رواسب الحرب الطويلة التي شنتها القوى الاستعمارية والصهيونية والرجعية لطمس عروبتها وتضييع هويتها القومية في متاهات الفكر الاقليمي والانعزالي..ولهذا السبب وجدت الجماهير ان لدور عبد الناصر في ايقاظ الشعور القومي لمصر أهمية كبيرة جدا .

« ٣ ـ ان حجم الامكانات المشتركة للقطرين لم يكن كافيا لحل مشكلاتهما الرئيسية ، وبالذات مشكلات مصر الاقتصادية والاجتماعية المستعصية . »(٢)

بينما يرى بيان الاشتراكيين العرب المعطيات الموضوعية الايجابية في التجربة الوحدوية الجديدة « والتي لم تكن متوفرة للوحدة المصرية السورية » هي المعطيات التالية :

« ١ ـ هناك اتصال جغرافي واسع بين القطرين وفر تجربة طويلة وغنية من التعايش الانساني الشامل على كافة الاصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية .

« ٢ ـ ان هذا التعايش خلق تشابها كبيراً في الخصائص الاقليمية لدى القطرين وبالذات على الصعيد الايديولوجي للقومية العربية بمضمونها الاجتماعي والاقتصادي والانساني . وهذا الأمر هو حصيلة تطور تاريخي في المشرق العربي لم يتوفر في مصر عند قيام وحدة ١٩٥٨ ليس على مستوى الشعب فحسب بل حتى على مستوى الادارة والقيادة .

« ٣ ـ ان الاتصال الجغرافي يؤمن عمقا استراتيجيا لجبهة المواجهة يتيح الفرصة العملية لأول مرة من اجل بناء جبهة مواجهة عربية عميقة تمتد مباشرة من البحر الابيض المتوسط الى الخليج العربي . »

« ٤ ـ لأن لهذه الجبهة من الامكانات المادية والبشرية ما يؤهلها للدور القومي المنتدبة

---

(١) عاصم قانصو ، « الراية » البعثية العدد ٩١ ـ كانون أول ١٩٧٨

(٢) ص ٥ و ٦ من البيان .

له .. فهي المرة الاولى التي تطل بها دولة نفطية رئيسية على فلسطين المحتلة عن طريق العمل الوحدوي .

« ٥ ـ ان امكانات القطرين ليست كبيرة فحسب ، بل هي متوازية ومتعددة الحقول ، ومؤهلة للتلاحم والتكامل سواء على الصعيد الاقتصادي أم البشري ، أم الفني . وهذه الأهلية للتكامل تجعل الحاصل المشترك لهذه الامكانات أكبر بكثير من الجمع البسيط لامكانات كل القطرين . فالتفاعل الوحدوي بينهما سوف يزيد المردود في كليهما » (١)

وبكلمة ، فان ما يعبر عنه بيان الاشتراكيين العرب ، هو ان التواصل في الارض والبيئة الطبيعية ، أهل دورة الحياة الاجتماعية الاقتصادية ان تمتد على مدى الهلال الخصيب محققة التكامل الاقتصادي الاجتماعي بين أطرافه بحيث ان ازالة حواجز التجزئة يحقق تكاملا نوعيا لا تراكما عدديا .

ويقول الاستاذ منح الصلح في مقال بعنوان « وحدة سوريا والعراق » في « النهار العربي والدولي »(٢) حول وحدة ١٩٥٨ أنها « كانت تشكو من استعجال قيامها والنقص من التحضير لها مما أفقدها القدرة على العيش » وان كان فيه « من سحر المثال أكثر مما فيه من طعم الواقع » « فرأينا الوحدة تنهار في مدة قصيرة تحت وطأة الاقليمية في البلدين ، الاقليمية المصرية التي أخذت الشكل التوسعي والاقليمية السورية التي أخذت الشكل الانفصالي » .

أما الوحدة السورية العراقية فيرى الاستاذ منح الصلح ان أمامها « هدفين كبيرين يكادان يتساويان في القيمة والوزن ، ويتمم الواحد منهما الآخر . الهدف الأول : اقامة دولة قادرة على مواجهة العدو الاسرائيلي في المشرق . والهدف الثاني جذب مصر مجددا الى العمل العربي . وتحقيق الهدف الاول هو الجزء الاكبر من الطريق الى الآخر . »

وبعد ان يتحدث الاستاذ الصلح عن تفاقم الخطر الاسرائيلي على وجودنا القومي يقول « فأمام الخطر الملح الماثل ، لا بديل عن وحدة سورية ـ عراقية تنشىء قوة مشرقية في وجه اسرائيل ، وتكون في الوقت نفسه بعض العلاج لمسألة ابتعاد مصر عن العمل العربي . »

فوحدة الهلال الخصيب هي ضرورة في وجه الخطر الصهيوني المتفاقم على وجودنا القومي . اذن هي ليست عملا معاديا ضد الوحدة العربية كما كان يصور في الماضي ، بل أكثر من ذلك هي الاطار والاداة لاستعادة مصر الى العمل العربي « خلافا للفكرة المشوهة التي سادت من ان هذه الوحدة اذا ما قامت تكون محورا ضد مصر . »

ويقول بهذا الصدد تحديدا الاستاذ منح الصلح« فمهمة المشروع العراقي ـ السوري لا تنحصر ، اذن ، في ادخال القطرين في وحدة ـ بل هي أحد أهم وسائل المعالجة لابتعاد مصر عن الساحة العربية ، خلافا للوهم السائد منذ عهد فاروق بأن أي تقارب سوري ـ عراقي هو بالضرورة محور ضد مصر ، وانه بالتالي سعي لابعادها » « ان بناء القوة في المشرق هو وحده القادر على ان يفعل فعل السحر ، لا مع العدو فقط ، بل مع الصديق والاخ أيضا ، لأن القوة في السياسة هي ، كالجاذبية في الطبيعيات ، أساس كل علاقة ... وعندما تتكلم سوريا

---

(١) ص ١٥ و ١٦ من البيان

(٢) النهار العربي والدولي العدد ٨٥ ـ ٢٥ كانون الاول ١٩٧٨ .

والعراق ، بالوحدة ، لغة المؤمن القومي ، فانهما ستشكلان نقطة جذب قادرة على التأثير في كل الاتجاهات . »

يمكن الاستخلاص من هذا الكلام بأن وحدة الهلال الخصيب تحقق إيجابيتين أساسيتين لوجودنا :

اولا : دفع الخطر الصهيوني والتصدي له . وهذا يتم ، وان لم يقل ذلك مباشرة الاستاذ الصلح ، لأن وحدة الشام والعراق ، هي في محيط فلسطين الطبيعي والجغرافي ، في موقع التصدي للخطر الصهيوني مباشرة .

وبالتالي فان هذه الوحدة التي تكتشف فضائلها اليوم بعد ثلاثين سنة على قيام الكيان الصهيوني ، كانت دوما ، تتمتع بهذه الميزة الاساسية للتصدي للخطر الصهيوني .

ثانيا : ان وحدة الهلال الخصيب متى قامت فهي « كالجاذبية في الطبيعيات » لها فعل السحر « لا مع العدو فقط ، بل مع الصديق والأخ أيضا » هي قوة لجذب مصر عن انحراف سياسة نظامها الى العروبة مجددا ، أي انها عامل ايجابي عربيا ، وبالتخصيص ، باتجاه مصر لاحتضانها وانتشالها من مهاوي الخيانة الساداتية .

تستوقفنا كثيراً هذه الخلاصة الصحيحة والموضوعية وهي تصدر عن قومي عربي لا غش في عروبته ولا تشكيك في ولائه للعروبة . ذلك ان وحدة الهلال الخصيب ، والحالة هذه ، لو قامت قبل انزلاق مصر اما كانت المحصن لها عن الانزلاق ؟ ولو قامت في زمن قيادة مصر الثورية والوطنية ، قيادة عبد الناصر ، أما كانت حملت عن مصر الكثير من الاعباء ؟

لماذا اذن حوربت وحدة الهلال الخصيب حتى في ظل الانظمة التقدمية الوطنية التي حكمت في دمشق وبغداد ، واعتبر قيامها ضد مصر ؟

ألم يكن ذلك ضرراً وطعنا لا بمصالح الهلال الخصيب القومية في التصدي للخطر الصهيوني بل بمصالح مصر نفسها التي افتقدت الى القوة القادرة في الجبهة الشمالية الشرقية ؟

صحافة الامبريالية والوحدة

ان جلاء هذه الحقيقة ضروري لا سيما عندما نرى بأن العدو كان دوما متربصا بوحدة الهلال الخصيب ، بوحدة دمشق وبغداد بالذات ويعتبرها خطرا مصيريا عليه وهو أدرى بمصلحته ، فاذا كانت وحدة بغداد ــ دمشق تشكل خطرا على العدو أفليست تحمل كل الخير لشعبنا في صراع الحفاظ على وجوده القومي ؟

ان أول ما يطالعنا هو مفاجأة العدو الامبريالي الصهيوني بالتوجه الوحدوي بين دمشق وبغداد ورهانه على أنه لن يؤدي ثماره .

فقد كتبت « الواشنطن بوست » بقلم توماس لبمان في ١٩٧٨/١٠/٢٢ حول زيارة الرئيس الاسد الى بغداد ما يلي : « غالبا ما تحصل مصالحات مفاجئة بين بلدين متخاصمين في العالم العربي أو تقوم خلافات فجائية بين حليفين . الا ان الخلاف بين سوريا والعراق هو من العمق بحيث يصعب تصور تجاوزه »

وكتب دون . أ . ستانشي في « لوس انجلوس تايمز » في ١٩٧٨/١٠/٣٠ وتحت عنوان « الوحدة السورية العراقية ، هل هي خطر محدق أم قد تؤدي هذه الوحدة في حال قيامها الى قلب ميزان القوى ولكن لا يتوقع لها الاستمرار »واعتبر الكاتب ان هذه الوحدة ستكون قصيرة الأجل كسابقاتها من التجارب الوحدوية العربية بل يمضي الى القول · «يشار بالمناسبة الى ان التجارب الوحدوية العربية السابقة كوحدة مصر وسوريا أو الاتحاد الثلاثي بين مصر وسوريا وليبيا لم تلبث ان انهارت سريعاً فكيف وان التنافس بين بغداد ودمشق بلغ حداً فاق كل الخلافات العربية السابقة ؟ »

ويكتب روجر ماثيوز من القاهرة للفانينشل تايمز في ٢٠ شباط ١٩٧٩ وبعنوان « المصالحة السورية العراقية المصالح الاقتصادية والمخاطر العسكرية مقالا يخلص فيه انه رغم المساعي الحثيثة لتحقيق أفضل العلاقات الا ان طريق التفاهم ليس سهلا . الا ان « التايم » في عددها الصادر في ١٢ شباط ١٩٧٩ تعتبر أنه رغم اعتقاد البعض ان هذه الوحدة لن تدوم غير ان المساعي لتحقيقها قطعت شوطا غير قليل وبدت بوادر تحسن العلاقات بين العاصمتين في الهلال الخصيب . وتحت عنوان « سوريا والعراق محور وحدوي جديد » تقول التايم أن « اعلان عزم سوريا والعراق على التوحيد قد فاجأ الجميع » .

ان هذا الرهان في الصحافة الغربية والدوائر الامبريالية على عدم امكان تحقق الوحدة في الهلال الخصيب له مصادر متعددة . أولها ثابت القطيعة الذي رسخه الاستعمار في الهلال الخصيب واعتبره لا يزول بل ان هذا الثابت هو أحد أهم مقومات السياسة الاستعمارية في المنطقة . ثانيها ، ان الفكر الوحدوي زاغ عن أهمية الوحدة الطبيعية الفاصلة في تقرير المصير القومي وحماية الوجود القومي بل انبرى لمحاربتها واتهامها « بالاقليمية » « والشعوبية » وغير ذلك مما أمن مناخا معاديا لمثل هذه الوحدة . والعقل الاستراتجي الاستعماري والصهيوني يدرس عقلنا واتجاهاته ويعرف مدى العداوة التي تميز بها النزوع الوحدوي عندنا لفكرة وحدة الارض والجغرافيا والاقتصاد . ثالثها ، اعتبار السياسة الاستعمارية وعملاؤها ان الخلاف بين دمشق وبغداد وقد بدا حادا في بعض المراحل يشكل ثابتاً لا يمكن أن يزول وعدم ادراكهم لفعالية مقولة الوعي القومي عند القادة الشاميين والعراقيين خاصة ازاء الخطر المصيري على الوجود القومي وتغليبهم هذا الوعي بالمسؤولية القومية على أي اعتبار آخر **بل لقد فات المشككين ادراك ان القرار بتجاوز الخلافات الحادة لم يكن ليصدر ويحصل لولا توفر دافع قومي أكبر من كل هذه الخلافات قادر على جبهها جميعاً. وهذا مبعث الجدية في وحدة بغداد ودمشق.** أخيراً، فلا بد من فهم بسيكولوجي عميق لصعوبة تصديق الغرب لقيام وحدة الهلال الخصيب ، وهو يعود الى جزعه من قيامها ونتائجها على مجمل المخطط الاستعماري الصهيوني بحيث أحل تمنياته بخيبتها محل الواقع المتجسد بقيامها ' وهذا تماماً ما أفصحت عنه الصحف المشار اليها جميعاً . فهي اذ شككت بالأمر تخوفت ، في حال تمامه ، من نتائجه، فقالت «الواشنطن بوست»في المصدر نفسه الذي سبق الاستشهاد به «ولكن أياً كانت رواسب الخلاف بين العاصمتين ، فان الاعلان الرسمي الصادر من دمشق عن زيارة الرئيس الاسد الى بغداد وعن عزم البلدين على المواجهة المشتركة لتحديات كامب دافيد سيكون له وقع صاعق على مصر التي راهن رئيسها على استمرار الخلاف السوري العراقي حين عقده اتفاق كامب دافيد . » أما « لوس انجلوس تايمز » التي سبق ان أشرنا الى توقعها ان لا تدوم الوحدة اذا ما قامت بين دمشق وبغداد ، فانها تمضي الى القول . « الا ان قيام هذه الوحدة

سيؤدي الى قلب ميزان القوى في الشرق الاوسط ويوجه تهديدا من الرافضين العرب الى اسرائيل وليس الى اسرائيل فحسب بل أيضا لسياسة مصر كذلك . »

وتمضي لوس انجلوس تايمز الى القول : « ان من نتائج هذه الوحدة اذا ما قامت ، تحقيق ما يلي :

(١) ملء الفراغ العسكري الذي يحدثه انسحاب مصر من المعركة ، فان قوة سورية عراقية موحدة تستطيع مواجهة اسرائيل حسب تقديرات مصادر المخابرات بـ ٩٠٠ طائرة و ٤٠٠٠ دبابة وست فرق ميكانيكية على الجبهة الشرقية »

(٢) الاطاحة بمكانة مصر في الجامعة العربية حتى بين « الدول المعتدلة » وامساك زمام القيادة العربية . »

أما « التايم » ، في العدد نفسه الذي تساءلت فيه عن امكانية استمرار الوحدة فتقول « بموجب خطة الوحدة تستطيع سوريا والعراق المشاركة في مواردهما المائية والنفطية وتوحيد مؤسساتهما العسكرية ومواجهة اسرائيل بـ ٤٤٠ الف جندي و ٤٥٠٠ دبابة وأكثر من ٧٣٠ طائرة . ثم ان العراق بلد نفطي بلغ دخله في العام المنصرم ٩,٦ بليون دولار ولا يمضي أسبوع دون انباء عن اكتشافات نفطية جديدة على أرضه . »

الجزع الصهيوني من الوحدة

غير ان هذه التعليقات بمجملها لا تبلغ عمق الاستهوال والجزع الذي يظهر في الصحافة الاسرائيلية من قيام وحدة الهلال الخصيب . فقد نشرت الجروزليم بوسطت في عددها الصادر في ٣/١١/١٩٧٨ حديثا لموش ماعوز الاستاذ المساعد لتاريخ الشرق الاوسط والمدير الاكاديمي لمعهد أبحاث ترومن في الجامعة العبرية وبعنوان « آخوي الدم » يبدي فيه جزعه من قيام وحدة الهلال الخصيب بقيادة دمشق وبغداد ويستهل المقال بالقول « ان الاعتقاد الذي ساد بأن العرب قد فقدوا الخيار العسكري بانسحاب مصر هو اعتقاد ساذج وفي غير موضعه . »

ويضع البروفسور الصهيوني يده على مفاصل الموضوع ، بعلم العارف بطبيعة الاشياء ، وبحاسة شم الخطر الذي ينبعث من اتحاد قوتنا القومية في بيئتها الطبيعية على المخطط الصهيوني المهدد لوجودنا وقدرة هذه القوة على احباط المخطط المعادي . فيقول ، مخالفا ، حالة التحشيش الفكري التي سادت الاوساط الاستعمارية الغربية لجهة الرهان على تعثر هذا المسعى الوحدوي « لا نستطيع على الاطلاق استعمال المعايير نفسها لقياس هذا الحدث التي استخدمت لقياس التجارب السابقة . » فماعوز يرى بأن التنافس بين بغداد ودمشق كان على السيادة على الهلال الخصيب الممتد من الخليج العربي الى البحر الابيض المتوسط وان اتحادهما الان يحقق قيام هذه الوحدة بالذات وان الحافز لكل هذا كان ان الصراع مع العدو الاسرائيلي هو المحرك لهذه الوحدة وهو حافز علا على كل خلافاتهما التي بدت جزئية في ضوئه

ثم ان السوريين والعراقيين في رأي ماعوز هم أشد عروبة وتحسسا بالروابط العربية من المصريين وان السوريين والعراقيين طالما نزعوا الى التعاون حتى في فترات الخلاف بدافع قومي كاحيائهم الجبهة الشرقية الشمالية في ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠ أو ارسال القوات العراقية الى الجبهة

السورية في ١٩٧٣ ، وهم الذين اذ استشعروا الخطر الداهم بانعقاد كامب دافيد بادروا الى تجاوز كل سوء تفاهم في سبيل اقامة جبهة موحدة .

ويقول ماعوز « لقد راهن عدد من الرسميين الاميركيين والاسرائيليين على انه بانسحاب مصر من الصراع ستجد سوريا نفسها معزولة عسكريا وسيتعذر على العرب اقامة جبهة عسكرية متماسكة في وجه اسرائيل مما يضطر سوريا في الاخير الى اتباع نهج السادات مرغمة . » ويمضي ماعوز قائلا " أتمنى لو كنت مخطئا ، ولكنني أخشى ان يكون الاعتقاد السائد الذي اعتبر زوال الخيار العسكري امام العرب بانسحاب مصر ، قد كان ساذجاً وفي غير موضعه . »

« في اعتقادي » يقول ماعوز « ان قبول الاسد للقرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ كان قبولا تكتيكيا ولكنه دوما كان مع الحل العسكري . والآن وقد انسحبت مصر من هذا الحل فقد بادر الاسد الى الالتحام مع أخوته بالدم ، بعثيي العراق ، لاقامة وحدة عسكرية في وجه « عدوان اسرائيل » و« خيانة السادات » . »

« كما ان العراق له مصلحة في تعزيز صمود سوريا حتى لا ينعزل فيما لو سقطت سوريا » ويمضي هنا ماعوز بتعداد القوات العسكرية للشام والعراق ، مما لا يختلف عن تقديرات الصحف الاميركية كثيرا . ولكنه يضيف ان يد العراق طليقة الآن بعد زوال الازعاجات الكردية والايرانية ، وان العراق بنى جيشاً كبيراً في السنوات الاخيرة يضاف الى الجيش السوري المعروف بقوته .

الا ان أخطر ما يلاحظه ماعوز « ان **الطاقة الجيو (الجغرافية) الاستراتيجية لحلف الهلال الخصيب للعمليات العسكرية في وجه اسرائيل لكبيرة جداً . فشبكة من الطرق وسكك الحديد تربط القطرين** . ولقد شهدنا في حرب الغفران (حرب تشرين) كيف استطاعت الدبابات العراقية ان تكون في الجولان خلال ٤٨ ساعة ، وبامكان القوات العراقية ان تتمركز في أي مكان بين العقبة وصور . » « وهكذا فباعتقادي اننا ــ نحن اسرائيل ومصر ومشاريع السلام ــ نواجه امكانية خطيرة من تبلور كتلة عربية قادرة بقيادة حزب البعث في الهلال الخصيب ، متحدة ضد اعدائه المشتركين . »

ان ما طرحه البروفسور الصهيوني ماعوز ليس هو كل الوجهة الصهيونية بل هو صوت الفكر الصهيوني. فكيف اذا تعزز هذا الطرح برأي سياسي مسؤول ورأي عسكري مسؤول، فلقد صرح ايغال يادين نائب رئيس الوزراء الاسرائيلي في ١٧/١/١٩٧٩ « ان الخطوات الوحدوية بين سوريا والعراق تشكل خطراً حقيقيا وهذه المسألة تسيطر على كل تفكيرنا ! »(١) **وكان الجنرال مردخاي غور** عند تقاعده من رئاسة الاركان في آخر تصريح له لصحيفتي معاريف ويديعوت أحرنوت الاسرائيليتين قد حذر من خطر قيام الجبهة الشرقية التي اذا قامت فان القوات التي تجتمع عليها تفوق بمقدار الضعفين القوة العسكرية المصرية ودعا الى الحفاظ على قدرة العمل السياسي . فهل يجمع العدو على التخوف من قيام وحدتنا ونشكك نحن فيها ، في الوقت نفسه ؟

---

(١) الصحف ووكالات الانباء في ١٧/١/١٩٧٩

هكذا تحسس العدو خطر وحدتنا على مشاريعه الاستسلامية والعدوانية . ذلك ان الغريب انه بينما يجزع العدو من وحدة الهلال الخصيب بقيام محورها في تلاقي دمشق وبغداد ، تنبعث في الوقت نفسه دعايات تصور وكأن هذه الوحدة تمت بايحا ءات اجنبية تماما كما حاولت ان تصور شائعات مسمومة ان ثورة الشعب الايراني تمت بالتراضي والتفاهم مع أميركا ؟! كأنما الاطاحة بنظام الشاه العميل لاميركا وسحب الرعايا الاميركيين من ايران هي مظاهر تثبت هذا الزعم !

هكذا العقل العاجز يصور كل التحركات حتى المعادية للاستعمار انه لا بد لها من أن تكون قد أخذت جواز مرور منه . ولقد تهكم سعادة على هذه الحالة الذهنية في مقال له شهير بعنوان « الحزب القومي الاجتماعي . حزب أجنبي » قال فيه ان الذين اعتادوا التعامل مع الاجنبي لا يستطيعون تصور حركة مستقلة عن الارادات الاجنبية معادية للاستعمار يمكن ان تولد وتنمو وتصارع وتحقق الانتصارات لذلك رموا كل نهضة بضرورة التحرك بناء على وحي أجنبي . وهذا تماما ينطبق على حركة الوحدة التي يجزع منها الاستعمار والدوائر الصهيونية ثم يجد البعض مجالا لوصمها وكأنها من ترتيب اميركي . ولكن لماذا لا نناقش هذه الافكار حتى نظهر بالدليل الحسي خطلها وبطلانها .

فهل أميركا تريد قيام وحدة تسقط كامب دافيد الذي شكل محور سياستها في المنطقة ؟

وهل أميركا تريد قيام وحدة تنتزع عربيا المبادرة من السعودية وتبطل دعوة التضامن العربي على أساس شمول مصر ، الى دعوة للتضامن العربي في قمة بغداد بدون السادات وعلى أساس دور ثانوي للسعودية ؟

هذا التوجه القومي تحرك على معطيات واضحة وسليمة وأفزع العدو وأربك الخصم فلماذا تلحق به شائعات السوء على غير طائل ؟

دولة الوحدة والساحة الفلسطينية :

وتبدو المسألة الفلسطينية في غياب العمق القومي الوحدوي وكأنها مصدر ازعاج واخلال بالامن لكل كيان ازاء الخطر الاسرائيلي الذي يمارس دور شرطي المنطقة أو أزعرها المسلح لا فرق والذي يفرض سلمه على الناس . بينما الكفاح الفلسطيني المسلح مفروض أن يكون طليعة حرب التحرير القومية والا ما معنى انه جوهر القضية والحقوق القومية الثابتة وكل ما يقال من شعارات ؟

المسألة الواحدة تنقلب رأسا على عقب بين المقياس الكياني والمقياس القومي . وما يشكل عبئا في الوضع الكياني يصبح منطلقا لخطة استراتيجية في الوضع الوحدوي السليم .

من الطبيعي اننا كوحدويين قوميين نؤمن أن كفاح الشعب الفلسطيني ان لم يستند الى دعم محيطه القومي فلن يحقق النتائج المرجوة .

ومن الطبيعي اننا نؤمن بالنتائج النوعية الكبرى لقيام الوحدة وانعكاساتها الايجابية التي لا تحد على حرب المصير القومي . فالوحدة تحقق العمق الاستراتيجي للمعركة مع العدو على

كل صعيد . والعدو كما مر معنا ، جزء من هذا التكامل الاستراتجي الذي تحققه الوحدة على كل صعيد . وأهم هذه الاصعدة ، التكامل الاقتصادي الذي يوجد القاعدة المادية للصمود الحربي ، والتكامل العسكري والجغرافي الضروري لآلة الحرب .

الا أن الحرب مع العدو تحتاج الى ضلع اساسي في معادلة الصراع القومي : هو عامل التعبئة الشعبية ودور الشعب في هذا الصراع المصيري . فما بحثناه حتى الآن هو قدرة الدولة العسكرية والاقتصادية وهذا شأن بالغ الاهمية . ولكنه ليس الشأن الوحيد .

فان تكون لنا أفضل القوات النظامية تجهيزاً وتسليحاً متطوراً وتدريباً وأهبة، شأن أساسي وحاسم . وان تكون لنا القاعدة الاقتصادية والعمق الجغرافي الاستراتجي لشؤون أساسية وضرورية . ولكن تبقى المعادلة ناقصة بدون دور جدي للجماهير الشعبية وقد انتظمت في قوة قادرة على رفد الجيوش المحاربة واداء دور فاصل في العراك المصيري وفق استراتجية قومية متكاملة .

ان الحديث عن المعطيات السياسية والعسكرية والاقتصادية للصمود لا يجوز اطلاقاً اغفال الجانب الجوهري الذي كررنا في كل صفحات هذا الكتاب ومنذ نكبة ١٩٦٧ ، تقديرنا على انه صلب معادلة المواجهة القومية لحرب التحرير الا وهو دور الشعب في هذا الصراع المصيري ، كيف يتحول المجتمع كله الى مجتمع كفاح مسلح :

ان الحرب ضد العدو الطامع بافراغ الارض من الشعب هي التي تستطيع تعبئة الشعب في سبيل الارض !

وفي الصراع خاصة ضد الاستيطان الاستعماري يلعب الشعب دوراً حاسماً ذلك لأن الاستيطان الاستعماري ليس مجرد احتلال عسكري لجيش محتل بل هو جماعات استيطانية تزحف كموجات الجراد لتقيم مستوطناتها الشاملة كل نشاطات حياتها فتكون وحدتها المغتصبة الاستيطانية هي النادي والمستوصف والتعاونية الزراعية المنتجة والثكنة العسكرية في آن واحد .

وفي الحروب المصيرية تركيب المعادلة هو الذي يحسم . فلا يجوز ان نواجه هذا المتحد الحربي المركب الا بمتحد حربي أدق تركيباً .

لا يجوز عزل الشعب عن عملية استئصال هذه المستوطنات ــ البثور عن وجه أرضه القومية . لا يجوز الا ان تكون حربنا التحريرية القومية حرب شعبنا كله طالما هي حرب تحرير أرضنا كلها .

ولا بد من ايضاح تفصيلي لتصورنا لدور الشعب في حرب التحرير القومية :

١ ــ لا يمكن ان نعني بدور أعظم للشعب في حرب التحرير أية عملية عسكرية تقول باحلال الميليشيات الشعبية محل الجيوش النظامية . فنحن نعتبر الجيش القومي هو القول الفصل في حرب التحرير . وهو ذراع الامة الضارب وسيفها في الملمات المصيرية . ونحن نعتز بجيوشنا في خط المواجهة والصدام ونقدر تاريخ بطولاتها وصمودها وكفاحها وشهدائها وتضحياتها ، ونعتبر طالما أن الجيش القومي هو العامل الحاسم في معركة التحرير فالواجب

القومي المقدس في تعزيزه وتصعيد قدرته وطاقته النارية وتدريبه وتسليحه وتأهيله العصري ولكن الواجب القومي الاقدس هو أن تحيط دولة الوحدة والمواجهة القومية نفسها بدرع شعبي منظم فيها وحولها ومعها ومد جماهيري واسع . ان حرب فيتنام ربحها شعب منظم معقلن أسهم كل فرد من أفراده بطريقة ما في مجهود حرب الصمود ثم حرب التحرير . لم يتفوق الفيتناميون بالسلاح ونوعيته على العدو الامبريالي . لكن بتنظيماتهم وحافزهم للحرب الايديولوجي والقومي والتعبوي ، وأكثر من ذلك بجعلها حرب الشعب ضد العدو سواء في حالة الدفاع حيث كان يتحمل الشعب كل ضغط آلة الحرب الامبريالية بصمود عز نظيره أو في حالة الهجوم والتحرير .

ب — من هنا أن المطلوب هو خلق المتحد الحربي — مجتمع الكفاح المسلح — بحيث يكون الجيش القومي هو العامل الحاسم ، على أن يكون جزءاً من مجتمع معبأ كله للحرب ويعمل كله في مجهود الحرب ، ومستعد كله أن يقاتل .

ان حرب المفاهيم وتركيب المعادلة القتالية شأن أساسي في ربح حروب تاريخية وخسارتها . فاذا كانت روما — الأمة — ثم روما — العالم في توسع جنسيتها قد ربحت الحرب على قرطاجة الدولة — المدينة ، فان ربح الحرب ضد متحد صهيوني استيطاني عنصري دفع بكل جماعاته لجهود الحرب وعلى أساس المستوطنات التي هي خلايا هذا المتحد ، تفترض تعبئة شعبية مماثلة .

هذا في دولة الوحدة حيث المفروض أوسع تعبئة شعبية واسهام شعبي في مجهود الصمود والقتال .

ج — كما ان المفروض استقطاب واسع لمد شعبي على مستوى العالم العربي يحقق للمحور القومي المقاتل الصامد الوزن العربي الذي ينتزع من الانظمة المستسلمة كل الزخم الكامن في الشعوب العربية ويجيره لهذا المحور . لهذا وجوب قيام أعلى درجات التحالف مع المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية كما في المجتمع القومي كله المحيط بدولة الوحدة بحيث يصبح هو المحرك الفعلي للعالم العربي ، ان صيغة « مؤتمر الشعب » مفروض تطويرها لتصبح جبهة عربية تقدمية شعبية ثورية تتخطى المؤتمرات والبيانات الى خطة تحرك ونهوض شعبي على مدى العالم العربي . واذا كانت جبهة الصمود والتصدي لا تستطيع اعلان الموقف الرافض الكلي للوجود الصهيوني في فلسطين فان « مؤتمر الشعب العربي » هو الاطار لتعبئة الشعوب العربية ضد هذا الوجود الاستيطاني الاستعماري وحليفه الامبريالي وتفجير المعركة الشعبية ضدهما . ومفروض ان تعتبر قمة الصمود انها ملتزمة بالاستراتيجية القومية التي يرسمها مؤتمر الشعب وانها تعمل بموجبها .

د — الا ان أهم دور للشعب المقاتل هو في فلسطين . وهنا تكتمل العلاقة بين دولة الوحدة ومنظمة التحرير الفلسطينية . فاذا كانت الوحدة هي الافق والعمق لحرب التحرير وبدونه ينسد كل أمل في مستقبل الثورة والتحرير ، فان الشعب المقاتل على أرضه هو الطليعة التي بدونها لا تكسب حرب التحرير في فلسطين وحدها ، ينوب الشعب المقاتل والى مرحلة طويلة عن دور كل الجيوش ويتبوأ عمل الشعب المنظم المسلح مركز الصدارة والاولوية .

وهذا هو الدور الذي يمكن ان يؤديه الشعب الفلسطيني بقيادة منظمة التحرير في استراتيجية حرب التحرير القومية . وهذه نقطة مركزية ودقيقة ومهمة . وهي التي على أساسها تصاغ العلاقة الصحية والمثمرة بين دولة الوحدة ومنظمة التحرير الفلسطينية . فاذا كانت

الوحدة ضرورة قومية وعمق استراتجي للتحرير ، فان دور منظمة التحرير الفلسطينية في قيادة الكفاح الشعبي للتحرير ضروري وأساسي ومفروض تكامل الدورين لا تناقضهما .

لقد استطاعت الاضاليل الصهيونية ، انطلاقا من الغاء دور الشعب الفلسطيني في حرب ١٩٤٨ والحروب التي تلت ان تصور للعالم وكأنما الحرب هي بين « اسرائيل » وجيرانها العرب : حرب حدود . ولن تنقل الحرب ضد العدو الى حرب وجود في وجدان العالم الا اذا اتخذت طابع ثورة الشعب الفلسطيني المسلحة على أرضه ضد الاغتصاب الاستعماري الصهيوني . وهنا ، من المهم جدا صياغة العلاقة التكاملية بين كفاح شعبنا الفلسطيني على أرضه ، كثورة شعبية مسلحة ضد اغتصاب استيطاني غريب ودخيل ، وبين الدعم القومي الواجب لهذا الكفاح .

(١) ان ما حصل في فلسطين منذ ١٩٦٥ ــ ١٩٧٩ أشار الى بدايات تكون هذه الانتفاضة الشعبية المصاحبة بأعمال عنيفة وفدائية ومفروض تصعيد هذه الصورة وتصعيد دعمها المادي والمعنوي حتى تصبح حركة عارمة للشعب الفلسطيني لها طابع الثورة الشاملة .

(٢) بناء القوة القومية في العمق القومي القادرة على ردع أي عدوان صهيوني جديد على جبهة المواجهة . فليس المطلوب من دولة الوحدة الى مرحلة ربما تطول ، أن تخوض حرب التحرير ، بل حرب الصمود والردع ، كما خاضت فيتنام الشمالية هذه الحرب ، في الوقت الدي كانت قوات الفيتكونغ تقاتل في الجنوب . ان خسارة العدو أي حرب عدوانية هو نصر لنا في هذه المرحلة، شرط ان يستمر تفجير كيانه من الداخل ، وان تدعم ثورة شعبنا في الداخل ورفدها المادي والبشري . وأن تصان المقاومة الفلسطينية ويدعم كفاح شعبنا .

(٣) رفد المقاومة الفلسطينية في مرحلة تالية بمتطوعين من كل الهلال الخصيب للقتال الشعبي في فلسطين ، كما كان يجري في ثورات الثلاثينات وعلى نطاق أوسع .

(٤) في المرحلة التي تصبح فيها القوة القومية قادرة على الحسم يجري ذلك تحت شعار نصرة ثورة الشعب الفلسطيني ــ الموجود والقائم والمقاتل ، والذي هو محور القضية ازاء العالم .

هذه هي ملامح استراتجية قومية متكاملة لمراحل حرب التحرير ويحتل فيها الشعب الفلسطيني بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية دورا طليعيا من ضمن الالتزام بقومية المعركة كما يكون لدولة الوحدة دورها الاساسي في الاعداد لحرب التحرير بدءا من موقع الصمود حتى ساعة الحسم .

في غياب وحدة عمقنا القومي وغياب التنسيق والتأطير بين الفعاليات انتفت الاستراتجية القومية وساد الى حين وهم أنه إما ضربة قاضية يجري فيها التحرير والحسم أو لا شيء . وكانت النتيجة الهزائم ولا شيء . مفروض ان نمرحل النضال الطويل وتتوزع الادوار فيه بين الكفاح الشعبي المسلح ودور عمقنا القومي وان تكون حلقات هذا النضال متصلة فننقل من مرحلة الى أخرى وقد بانت في آخر كل مرحلة ملامح المرحلة التالية بتماسك مضطرد يتجنب حرق المراحل وكذلك فصلها وعزلها الواحدة عن الأخرى .

في فيتنام قاتل شعب ربع قرن حتى استقل وتوحد ، وحرب فلسطين قد تأخذ مدة أطول ولكن لا نؤجل اندلاعها بل نمرحل نضالها . فلا تراكم السنوات يأتي بالتحرير ولا مرور الزمن

بل هو الانسان المناضل من ضمن الزمن المتحكم بلحظاته ومواقيته .

ومفصل أساسي في استراتجية حرب التحرير قيام هذا التكامل بين ثورة الشعب الفلسطيني وعمقه القومي الذي تسقط في قيامه كل الحساسيات والتناقضات الثانوية . ولا بد لجهة الهدف السياسي من تحديد ذلك التصور المستقبلي للكفاح كما لخصه العماد طلاس « من هنا فتصور اننا أولا يجب ان نحرر فلسطين وتقام الدولة الديمقراطية في فلسطين التي تستوعب كل المواطنين .. أنا مع دولة في الضفة والقطاع اذا كانت دولة مستقلة ومسلحة وكاملة السيادة الوطنية على أرضها ... **وبالنسبة لصورة المستقبل فانني مع أن تكون فلسطين كلها دولة واحدة** وان تكون ضمن اطار الوحدة العربية .. يعني الدخول في اتحاد مع سوريا ومع الاردن ومع لبنان وكل الدول العربية . » (« فلسطين المحتلة » ٢ تشرين الثاني ١٩٧٨) . فقيام الدولة الفلسطينية بعد التحرير لا يلغي نزوعها الى الوحدة مع محيطها القومي بارادة شعبها الحرة .

ان تثبيت الهوية الوطنية الفلسطينية كنقيض للمشروع الصهيوني مهمة مركزية مرحليا على ان يرتبط النضال الفلسطيني بعمقه القومي وان يكون ذا أفق وحدوي في الاخير . فبارادة الشعب الفلسطيني تندمج الدولة الفلسطينية بدولة الوحدة الواحدة على مدى وطننا القومي الطبيعي الكبير .

وهذه العلاقة التفاعلية تفرض اعطاء دور للمقاومة الفلسطينية طليعي في هذه المرحلة النضالية كما تفرض بالمقابل ، وبالمستوى نفسه وعي المقاومة الفلسطينية لمعنى العمق القومي الوحدوي الذي يؤمنه قيام وحدة بغداد ـ دمشق . ولقد نصت توصيات المجلس الوطني الفلسطيني الثالث عشر على الالتزام بدعم ميثاق العمل القومي وتأكيده .

دولة الوحدة والساحة اللبنانية :

ثمة أوهام مفروض ان تسقط . أولاها ان لبنان قادر ان يستمر في جوار الكيان الصهيوني بالاحتيال : تارة : « قوة لبنان في ضعفه » وطورا « بالضمانات الدولية » ومرة بالتفكير بضرب الوجود الفلسطيني لأنه سبب العلة والمشكل . كل هذه السياسة الانتحارية أدت الى خراب لبنان وتوسع اسرائيل ليس على شريطه الحدودي فحسب بل بتفجير المجتمع من الداخل واقامة أخطر نموذج لسلخ جزء من شعبه وربطه بمخططاتها في المنطقة وتهديم كل مقومات الوجود اللبناني السياسية والاقتصادية والمعنوية .

صراع الوجود في لبنان ، هو جزء من صراع الوجود في المواجهة بيننا وبين الصهيونية ومشروعها الاستيطاني الاستعماري في كل مكان من أرضنا القومية .

ومعركة لبنان، مثل معركة فلسطين، احيانا تخاض فيها مفاصل من حرب الوجود ، حرب المصير القومي كله . فكما أنه في معركة فلسطين تخاض الحرب ضد الاستيطان الاستعماري تخاض في لبنان بالاضافة الى ذلك الحرب ضد مشروع الصهينة .

وفي حرب لبنان يندمج المشروعان : التوسع الاقليمي الصهيوني بالصهينة للمجتمع عن طريق تفجيره من الداخل .

ولا يستطيع أحد المكابرة بأن مطامع اسرائيل في لبنان تعود الى السنوات الاخيرة أو انها تقتصر على نصرة جماعة بمعزل عن مطامعها الاقليمية . ان الأمر أكثر تركيبا وتداخلا .

ان مطامع العدو الصهيوني بأرضنا مرتبطة بمخططه لتفجير مجتمعنا وهذه هي المعادلة المركبة بين الصهيونية والصهينة !

وكما أن على رأس المهمات القومية صيانة الارض وتحريرها ، فعلى رأس هذه المهمات كذلك صيانة وحدة المجتمع من التمزيق الخارجي والاصابع الدولية العابثة بالفتن المحلية .

ان مخطط العدو بالنسبة للجنوب متعدد الوجوه والاهداف . واذا كان يحرص هو على اظهار ما يحصل وكأنه مجرد «رد على المخربين»، فان ادعاءاته في مياه الليطاني ومطامعه الاقليمية ثابتة ببيانات منه منذ مذكرة المنظمة الصهيونية الى مؤتمر السلام في باريس في ١٩١٩ الى تصريحات أبا إيبان في ١٩٥١ وليفي أشكول وموشي دايان في ١٩٦٧ حول « تصحيح الحدود » مع لبنان باتجاه الليطاني وعلى الضن بأن تذهب مياه الليطاني هدراً الى البحر دون الافادة منها . ولم يكن هذا الكلام دون أصول وجذور . ذلك ان مشروع جونتسون في ١٩٥٤ عرض استغلال مشترك للمياه بين اسرائيل ولبنان والشام ورفض .

وان ورقة سعد حداد وسامي الشدياق تلعب اليوم في الجنوب لا لمجرد ايجاد « حزام أمني » ضد « المخربين » بل باتجاه اعلان دويلة طائفية عميلة للمشروع الصهيوني يستطيع ان ينظم بواسطتها مشاريع « التعاون الاقليمي المشترك » التي لم توافق عليها الحكومات الرسمية في ١٩٥٤ لاستغلال مياه الليطاني ولابقاء جدار العار مفتوحاً .

وهكذا فالكانتون الانعزالي الطائفي المطروح يقصد منه تحقيق المطامع الاقليمية للعدو الصهيوني في المياه والارض اللبنانية تحت ستار « التعاون » مع دويلة لبنانية حليفة كما يقصد منه تفجير لبنان بالتناقضات الطائفية واتخاذ من هذا الكانتون رافعة المشروع الانعزالي الطائفي لصهينة لبنان وتقسيمه الى كانتونات .

وهذا كله في الخطة الصهيونية لا يقتصر على لبنان فحسب بل يستهدف المنطقة كلها ، والقضية القومية في الصميم .

من هنا ان مسؤولية النهوض بلبنان يشاركنا فيها عمقنا القومي وهي من الهموم التي لا بد ان تتحمل فيها قسطها الكبير دولة الوحدة . وليفهم اللبنانيون وليعوا جيداً ، انه طالما الخطر الاسرائيلي ماثل على حدودهم ووجودهم واستقلالهم الوطني فدولة الوحدة هي حصنهم الحصين ضد هذا العدوان وبغياب وزنها عن ساحتهم يسيطر النفوذ الصهيوني وعملاؤه، وكل تخوف مريض من قيام الوحدة الى جوار لبنان يعني قبولا بالنفوذ الصهيوني فيه . من هنا أن دور دولة الوحدة ايجابي على الساحة اللبنانية ومشروع قوميا ولبنانيا وغير منتقص من السيادة بل معزز لها .

وكما طرحنا تصورنا لفعل العمق القومي على الساحة الفلسطينية نحاول ان نطرح هنا تصورنا لهذه العلاقة التكاملية بين عمقنا القومي والساحة اللبنانية :

١ ــ ان السلامة القومية تقضي باغلاق بوابة العار الاسرائيلية في الجنوب . وهذا أمر لا يستطيع لبنان أن يتساهل فيه لأنه يعرض المنطقة كلها للخطر . فهو لا يخضع لاجتهاد خاص لأنه يتناول المصير القومي العام .

ومسألة سعد حداد ومجموعته ليست مسألة توازنات لبنانية محلية سخيفة . انها مسألة

تهدد المصير القومي . ولذلك فتطبيق مقررات بيت الدين هو مسؤولية دولة الوحدة . وان حمل السلطة اللبنانية على القيام بواجبها في هذا الصدد مسؤولية قومية لا يمكن التفريط بها . هذه البوابة مفروض اغلاقها وانهاء مشاريع الكانتونات . ولا ينفع التعلل بأية علة للتهرب من هذه المسؤولية . فلقد قيل في الماضي أن التدخل الاسرائيلي ربما جرى اذا ما انتصر اليسار في لبنان ، ولكن بعد ان لجم اليسار ، تفاقم هذا التدخل في الجنوب وتوثقت عرى تحالفه مع عملائه من المليشيات . وقيل بأن التدخل الاسرائيلي هو ضد المقاومة الفلسطينية ولكنه جرى في وقت كانت المقاومة منشغلة فيه في حرب الجبل . وقيل بأن التدخل الاسرائيلي يستهدف منع « المخربين » من اختراق الحدود فاذا ما حلت القوات الدولية كعازل انتهى دوره ولكنه عند حلول القوات الدولية رفض تسليمها بعض مناطق احتلاله فسلمها لعملائه من المليشيات بل أنه مضى الى أبعد من ذلك فدفع بهؤلاء العملاء لاختراق مناطق تواجد القوات الدولية لطردها منها كما جرت المحاولات ، وحلول المليشيات مكانها . وحين توجهت قوة من الجيش اللبناني الى كوكبا أمطرها بوابل من ناره ثم ذهب وزير دفاع العدو الى الحدود في أواخر شباط ١٩٧٩ ليؤكد استمرار دعم المليشيات في وجه القرار ٤٤٤ الصادر عن الامم المتحدة والقاضي باستعادة السلطة اللبنانية لسيادتها على الشريط الحدودي .(١)

ان كل هذه المؤشرات تؤكد ان العدو غير راغب في الجلاء وان مطامعه قديمة وثابتة في الارض اللبنانية بأهداف استراتيجية توسعية .

وانطلاقا من هذا كله كان لا بد ان يراعى في تشكيل الجيش اللبناني مدى خدمة هذا التشكيل للسلامة القومية والاستراتيجية القومية . بمعنى انه لم يعد ممكنا تشكيل جيش لبناني على الاساس القديم وعلى أساس الانقطاع عن هموم الحاضر ، هم الاحتلال الاسرائيلي والمواجهة القومية وقيام ميثاق العمل القومي بين بغداد ودمشق .

وهذا أمر يمت الى السيادة الوطنية ولكن بما له مساس بالمصير القومي العام . اي أن التذرع بالسيادة اللبنانية لرفض الحوار حول هذا الموضوع غير جائز ولا مقبول .

فطالما ان جبهة شمالية شرقية قامت لا بد أن تدرس الدولة اللبنانية دور قواتها على هذه الجبهة ، على الاقل ، ان لا تترك ثغرات مفتوحة للعدو على مؤخرة جيش دولة الوحدة في المواجهة القومية معه .

وهنا مفروض ان ترسم السياسة الدفاعية للدولة اللبنانية من متطلبات الجبهة الشمالية الشرقية وليس بمعزل عنها أو بالتناقض معها .

وقد قلنا في ١٥ أذار ١٩٧٦ (عدد«صباح الخير») حين نشبت أزمة الجيش اللبناني في مؤتمر صحفي عقدناه بالمناسبة «وحدة الجيش تتحقق بوعي الارتباط بالمصير القومي العام» وقلنا يومها « المطلوب كما أكدنا في رسالة الى قادة الاحزاب الوطنية والتقدمية في ١٩ حزيران الماضي (١٩٧٥) سياسة دفاعية جديدة للبنان تؤكد ارتباطه بمعركة المصير القومي وتطلق النهج الانعزالي القائم على سياسة قوة لبنان في ضعفه ازاء العدو الاسرائيلي وتلغي قاعدة الطائفية فيبنى على أساس مهماته الدفاعية القومية جيشا وطنيا » .

---

١) تكرر هذا الوضع على نحو أوسع وأكثر تفجرا عند ارسال كتيبة الجيش الى الجنوب في نيسان ١٩٧٩ فأعلن سعد حداد دويلته وقصف العدو الصهيوني كتيبة الجيش وأعلن حداد الاستنفار ضدها .

انه لا يمكن اطلاقاً بعد كل التطورات التي حصلت في لبنان وفي المنطقة ان يبقى التمسك بسياسة انعزالية هامشية لا تؤدي الا الى الانتحار . ان ارتباط لبنان المصيري بمحيطه القومي وتطوير علاقاته ايجابيا بهذا المحيط على اساس ان سلامة لبنان جزء لا يتجزأ من السلامة القومية والمصير القومي العام مع ما يستتبع ذلك من اجراءات عملية تكاملية وتنسيقية مع محيطنا القومي باتت ضرورة ملحة .

٢ ــ مع الحفاظ على عدم توريط دولة الوحدة في حرب الجنوب والتنبه لخطط العدو الخبيث في هذا الاتجاه الا ان تعزيز قدرات القوى الشعبية المقاتلة : المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية لتحقيق الصمود جزء لا يتجزأ من الاستراتيجية القومية . وفي تقديرنا ان هذا الصمود مفروض أن يتوجه لهزم الميليشيات العميلة ومنع استخدامها من العدو كواجهة لاحتلاله المقنع ، وفي حال تقدم العدو السافر بجيشه لعرقلة تقدمه وانزال أفدح الخسائر به على غرار ما جرى في حرب الجنوب انما على نطاق أوسع .

ان هزم الميليشيات يعري العدو من ورقة التين ويجعله في مأزق التدخل السافر . وان استنزافه على أرض الجنوب من قبل قوات شعبية مسلحة تحول نوعي في الحرب ضده . ان وقف حرب الجنوب هو مطلبنا في هذه المرحلة ولكن اذا شاء العدو قضم الارض فلترتفع في وجهه نار المقاومة الضارية .

٣ ــ المسعى الدولي لتحريك قوات الطوارىء الدولية باتجاه الشريط الحدودي تطبيقا للقرار ٤٢٥ .

٤ ــ الضغط باتجاه حل لبناني للازمة اللبنانية يخرج بجامع مشترك لجميع اللبنانيين وعلى أساس الحفاظ على هوية لبنان القومية وعروبته ووحدته وسلامة أراضيه وقطع أية علاقة من احد أطرافه مع العدو والحفاظ على منحى تطوره الديمقراطي .

وفي هذا المجال لا بد من دعم الحركة الوطنية اللبنانية بكل قواها التقدمية والقومية والوطنية لتكون ذا وزن أكبر في معادلة الحل اللبناني . ذلك لأن علاقة تفاعلية متكاملة تقوم بين سلامة عمقنا القومي وتصاعد وزن الحركة الوطنية اللبنانية . فكما ان عمقنا القومي وفعله هو حصن استقلالنا الوطني ضد العدو الصهيوني ودرع وحدة لبنان ضد مشاريع تقسيمه ، فان نمو قوة الحركة الوطنية اللبنانية ، وهي المقاتلة في الخندق القومي ، دفاعا عن وحدة لبنان وهويته القومية وعروبته ، يشكل صمام الامام ودرع السلامة داخليا لمحيطنا القومي ، وكما أن دعم المقاومة الفلسطينية لقيادة الشعب الفلسطيني ضد المشروع الصهيوني الاستيطاني في فلسطين ، يشكل في الاستراتجية القومية ، توظيفا سليما للطاقة القومية في الحفاظ على السلامة القومية ، فان دعم الحركة الوطنية اللبنانية ضد مشروع صهينة لبنان يشكل في الاستراتجية القومية الوزن نفسه والغاية نفسها .

حين نعي وحدة الوجود القومي ووحدة المصير القومي ، ندرك أن حرب الوجود تشمل لبنان كله كما تشمل فلسطين ، واننا حين نتصدى للخطر الصهيوني فلأنه يشمل لبنان كما تأكد بألوف الادلة ، كما يشمل فلسطين ، فوجودنا واحد في لبنان وكل محيطه القومي ، والخطر المصيري علينا واحد في أي من هذه الكيانات .

ان السوريين القوميين الاجتماعيين في نضالهم وتصديهم للخطر الصهيوني يصدرون عن مفهوم واضح حدده سعادة حين قال : « ولا ينحصر خطر اليهود في فلسطين ، بل هو يتناول

لبنان والشام ، انه خطر على الشعب السوري كله ، لأن اليهود لن يكتفوا بالاستيلاء على فلسطين ، ففلسطين لا تكفي لاسكان ملايين اليهود الذين أثاروا عليهم الأمم النازلين في أوطانها بقدر ما عملوا لقضية قومية خاصة بهم . وهم منذ اليوم يقولون : الحمد لله اننا اصبحنا قادرين ان نمارس الرياضة الشتوية في أرض اسرائيل » . يعني التزحلق على الثلج في لبنان ! ايدرك اللبنانيون المغرقون في لبنانيتهم ما هي الاخطار التي تهدد الشعب اللبناني » . سعادة أول آذار ١٩٣٨ (« مراحل المسألة الفلسطينية ص ١٥٩ ») .

على أساس هذا الوعي كان التحامنا بالمقاومة الفلسطينية كطليعة تقاتل في فلسطين دفاعاً عن لبنان وكل الامة ، وكان قتالنا في لبنان ضد الخطر الصهيوني دفاعاً عن فلسطين وكل الامة في وحدة القضية والمصير . فحين نقول بحرب الوجود لا نعني دفاعاً عن المسألة الفلسطينية مجردة عن القضية القومية التي من ضمنها لبنان كما من ضمنها فلسطين .

ولسنا نقاتل كملحق للمسألة الفلسطينية أو كغرباء عنها ، أو حتى كأشقاء أو حلفاء ، بل هي جزء منا ، كما نحن جزء منها في وحدة القضية القومية . وعلى هذا الاساس قلنا وعلى الأساس نفسه دعونا المجلس الوطني الفلسطيني الى ان تكون له هوية نضالية وطنية لبنانية . بمعنى أن الدفاع عن الوجود القومي لا يستلزم أن يكون أحدنا مولوداً في هذا الكيان أو ذاك بل هو حصيلة تنامي الوعي القومي الذي يجعل واحدنا حيثما كان يدافع عن القضية القومية الواحدة وهو منخرط وجدانيا بالصراع وكأنه يدافع فعلا عن بيته بالذات .

وكم هو مثير للغثيان أن تقذف في وجه خطر مصيري على وجودنا كله مفاهيم التجزئة والكيانية ، كأنما بامكان أي كان ان يتقي خطر المصير والوجود الا بما قام به النفر الانعزالي المتصهين ، بأن ينحاز للخطر فيصبح جزءاً منه معادياً لوجودنا القومي كله ، يخسر نفسه ولا يربح العالم !

في معركة فلسطين خاض العدو معركة الاستيلاء على الأرض والاستيطان الاستعماري وفي لبنان يخوض معركة تفجير المجتمع والصهينة . والمعركتان معركة الارض ومعركة الانسان وجهان متكاملان من حرب الوجود الواحدة . وليس خطر الصهينة مقتصراً على لبنان كما أن خطر الاستيطان الصهيوني لم يكن مقتصراً على فلسطين ، بل حرب الوجود القومي كله .

فهنا ، على أرض لبنان ، دفعت ولم تزل جماهير وكوادر الحركة الوطنية اللبنانية ، بأحزابها القومية والتقدمية والوطنية ، ضريبة المصير القومي كله .

٥ ــ ضرورة توقف دولة الوحدة أمام عبر المسألة اللبنانية من حيث هي محاولة العدو اللعب بنار التناقضات الطائفية ومشكلة الاقليات . وهذه هي النقطة الجوهرية في المشكلة اللبنانية والتي يمكن ان تجسد هما قوميا عاما على صعيد البيئة القومية كلها .

ان حل هذه المشكلة لا يكون باعطاء امتيازات للانعزاليين لكسبهم عن طريق اعتبارهم انهم يمثلون المسيحيين في لبنان . هذا توجه خاطىء لا يجر الا الويل . ان الاكثرية المسيحية ، حتى من أطراف اليمين ، أكدت رفضها للصهينة . وهذا مؤشر ايجابي قوميا . ولكن المشكلة أعمق من هذه الحدود انها مع عبر المشكلة الكردية في الماضي ، تطرح كيفية تحصين المجتمع ضد النزعات الانسلاخية الطائفية او العنصرية واستغلال القوى الدولية المعادية لهذه النزعات لتمزيق وحدة مجتمعنا .

ان صلب المشكلة انما يكمن في كيفية صياغة علاقة المواطن بالوطن خارج حدود وعوازل وفواصل التجزئة الاجتماعية ، الطائفية أو القبلية ، أو العنصرية ، وبالتالي كيفية انتصار المضمون العلماني للهوية القومية والانتماء القومي ، المفهوم المجتمعي الموحد .

ان مسألة تعزيز الوحدة الاجتماعية لبناء الوحدة القومية سلاح أمضى وأثمن من الميغ ٢٥ والميغ ٢٧ ومن كل أساطيل الجو والبحر ودبابات البر . ذلك ان مجتمع الهلال الخصيب ، هو في الأخير ، مجموعة أقليات طائفية نسبيا ، تبرز أكثرية هذه الأقلية في هذا الكيان وأكثرية تلك في ذاك الكيان .

وحل مشكلة المجتمع بانهاء مفهوم الاكثرية والاقلية الطائفية والعنصرية لمصلحة وحدة المجتمع وتماسكه وعملية الانصهار القومية الاجتماعية هو السلاح الاوحد لدحر المؤامرة على وحدتنا القومية وسلامة مجتمعنا وسيادتنا على أرضنا . وهو الانسان الموحد اجتماعيا القادر على الحفاظ على وحدة الارض . وان اسقاط مفاعيل سيكس ــ بيكو بالوحدة القومية هو الخطوة الاساسية لاسقاط كل محاولات ايجاد سيكس ــ بيكو جديدة وأخطر وأخبث على أساس التجزئة الاجتماعية والاوطان الطائفية والعنصرية المصطنعة .

ففي وجه مشروع الصهينة المستهدف سلخ هذه الاقلية أو تلك ، واقامة هذا الوطن الطائفي أو ذاك ينهض برنامج التحولات القومية الاجتماعية لبناء المواطن المتحرر من الطائفية والعنصرية والقبلية ، كأمضى سلاح مواجهة .

الوحدة وباقي الكيانات السورية

باقي كيانات الهلال الخصيب التي لا تضمها دولة الوحدة مفروض ان تنسجم مع الاستراتيجية القومية العامة التي تلتزم بها دولة الوحدة . وهذا يعني على صعيد الاردن الالتزام بخط الصمود القومي والالتحاق بالجبهة الشمالية الشرقية والتنسيق مع المقاومة الفلسطينية من ضمن هذا الاعتبار وتوجهاته . ويعني هذا ان لا يطمح الاردن في ظل تبدل موازين القوى ضد كامب دافيد ، ان يستغل هذا الوضع الجديد ، للامساك بمشروع منقح للتسوية يعرضه هو ، لمصلحة دور جديد في المنطقة هو عراب تسوية جديدة . كما يعني هذا ان لا يحاول ، بالتالي ، الأردن الاستفادة من مصالحة منظمة التحرير الفلسطينية ، في حدود وزن مصداقية تمثيله للفلسطينيين في تسوية مقبلة . بل يعني انسجام الاردن مع مخطط المواجهة القومي الشامل الذي تمثله دولة الوحدة .

ولقد خطا الأردن منذ اتفاقية كامب دافيد خطوات ذكية ومفيدة في اتجاه الانسجام مع محيطه القومي .

كما يعني هذا على صعيد الكويت التوصل الى اتفاق تنسيقي بينها وبين دولة الوحدة . ولقد سجلت الكويت موقفين ايجابيين في المرحلة الاخيرة : رفض كامب دافيد لا لتحسين شروطه . بل من الأساس مع التنبيه الى المزالق الاقتصادية لمشروع الصلح التعاقدي لجهة فك القطيعة عن قدرات العدو وشركاته الاحتكارية . ثم رفض مشروع وزير الدفاع الاميركي براون لاقامة حلف رجعي عميل لاميركا في المنطقة بعد حوادث بيروت .

ان وضع لبنان الرسمي والكويت والاردن ازاء دولة الوحدة مفروض ان يستوعب النقاط التالية :

١ ــ ان دولة الوحدة تتحمل الأعباء الاساسية للمواجهة القومية ولذلك فعلى كل هذه الكيانات ان تسهم ايجابيا من الموقع الذي تحتله لاعطاء اقصى ما تستطيع لجهود الصمود

أ ــ فالاردن يمثل أطول جبهة مواجهة مع العدو متداخلة مع الارض الفلسطينية . ولبنان يمثل جبهة مع العدو ملتهبة ، والكويت تمثل طاقة نفطية ، وهذه في المعادلة القومية تعني عدم تفرد أحد بمشاورات التفاوض مع العدو أو مع وزارة الخارجية الاميركية أو أي طرف معني

ب ــ وتعني بالنسبة للاردن الانضمام للجبهة الشمالية الشرقية وتعني بالنسبة للبنان بناء سياسته الدفاعية وجيشه على أساس هذا المعطى .

ج ــ وتعني بالنسبة للكويت تحويل جزء من وارداتها لهذا المجهود

د ــ وتعني بالنتيجة لجميع هذه الكيانات أفق مفتوح على الوحدة ولكن بحرية هذه الكيانات وارادة شعوبها ، التي تجسدت في الارادة الحرة لدى العراق والشام على انجاز وحدتهما .

هـ أما وقد ضاعت قبرص عن المصير الواحد وعن الاستراتجية القومية وعندما أكد سعادة انها من ضمن مصيرنا القومي في ١٩٤٨ استهجن البعض واعتبر هذا القول خارج منطق العمل القومي بالمفهوم الرومانسي ولكن الفلسطينيين ــ اليسوا أصلا من رجال البحر في تاريخنا ؟ استعادوا قبرص في السبعينات حين ادركوا بمقاومتهم البطلة اهمية الجزيرة في مواجهة العدو الصهيوني ، وتجاوب معهم ومعنا قبارصة شرفاء شكلوا أكثرية الجزيرة التي وعت وحدة المصير بين قبرص والشاطىء السوري العربي الممتد من الاسكندرون حتى فلسطين

وفي لقاء مالطة لاشتراكيي المتوسط توثقت العلاقات بيننا وبين هؤلاء الاحرار من القبارصة الشرفاء . وفي ١٩٧٩/٢/١٠ نشرت « صباح الخير » حديثا للرفيق ف . ليسارّيدس زعيم الحزب الاشتراكي القبرصي ، حليف مكاريوس الاول وصديقه وأحد أعلام النضال القبرصي الوطني قال فيه

« ان كفاح القبارصة واللبنانيين والفلسطينيين واحد بسبب وحدة هوية غايتنا . وان قبرص هي خندق متقدم للكفاح العربي المعادي للصهيونية واذا ما سقطت قبرص فان ذلك سيعني نكبة كبرى للقوى العربية التي تناضل للتحرر الوطني وفي سبيل حقها في السيادة على مصيرها » وقال « وانا لا أشير الى هذا الدعم على قاعدة التضامن ولكن على قاعدة الضرورة لحماية نضالكم بدعم الذين يقفون في الخندق الامامي في المعركة المشتركة » .

فهل ان استعادة قبرص ، بوعي ابنائها لوحدة المصير ، للاستراتجيا القومية ، هو عمل مناف للعروبة أم معزز لها ونصر لخافرها الامامية ؟ وهل النزاع في اريتريا او اعتبار جبوتي عربية يفوق في الحفاظ على سلامة ارضنا وشواطئنا اهمية قبرص الحيوية لنا ؟ وهل الدين أم العرق يباعد بيننا وبين قبرص ؟ وهل القبارصة أبعد في العرق أم أقرب من الأكراد والاكراد من شعبنا لا جدال في الامر ؟

ان وحدة الحياة القومية ، هي شراكة الحياة والتكامل الاقتصادي والمصير المشترك على

الارض الواحدة وليست في الاصول الدموية او الانتماءات المذهبية .

وهل نسينا أن انطلاق غزو قناة السويس في ١٩٥٦ كان من قبرص ؟ وان الانزال في ١٩٧٠ لمعركة الاردن كان سيكون في قبرص ؟ وانه لولا قبرص لما صمدت المقاومة في ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ ؟ وان الحصار الاقتصادي العربي على العدو كان يفك من قبرص في زمن الاحتلال البريطاني ؟

بينما قبرص التي تعي وحدة مصيرها ونضالها معنا ، هي كما وصفها ليساريدس مخفر أمامي للدفاع عن برنا وسلامة الوطن كله ؟

لقد قامت حجة الاتراك على أن قبرص أقرب ما تكون الى البر التركي وهم بذلك يشيرون الى لواء الاسكندرون المغتصب ؟

على برنا السوري ان يعي هذه الحقائق ويمد قبرص بدوره بكل وشائج الحياة والحماية. أليس مذهلا ان تكون قبرص تعاني من أزمة مياه وهي بحاجة الى ٢٠ مليون دولار لتحلية مياه البحر ولا تندفع معونة لها لهذا الغرض ؟

أليس مذهلا أن تكون قبرص مفتقرة الى جامعة فيذهب شبابها وشاباتها لاكمال علومهم في اليونان وتكون هذه المشكلة غائبة عن وعينا ؟

هل فكرنا بتقديم جامعة لقبرص تدرس العربية في جملة موادها ؟

دولة الوحدة والتضامن الجبهوي العربي

ان نظرة تأملية الى تاريخ العرب تظهر ان لا عروبة بدون دمشق وبغداد . فيوم تركزت العروبة فيهما امتدت الى الاندلس غربا وحتى بحر الصين شرقا . ولقد كان تناحرهما سبب سقوط العروبة في الماضي وكان ائتلافهما سبب نشرها وانتصارها .

فوحدة بغداد ودمشق هي اهلال جديد لعصر العروبة وانتصار لها . وحقا قال العقيد معمر القذافي في برقيته التي هنأ فيها العاصمتين بميثاق العمل القومي ودعا فيها الى إكمال مسيرتهما الوحدوية : « ولتبق بغداد قبلة المجد ولتبق دمشق قلب العروبة النابض »(١)

ثم ان هذه الوحدة تحقق الثقل العربي الاوثق ارتباطا مصيريا وجغرافيا واستراتيجيا بفلسطين . وهنا يكتسب هذا الثقل معناه السياسي الابرز . فخلال السنوات الثلاثين الماضية كان الثقل العربي له اهتمامات اخرى غير فلسطين ، تارة تقدم عليها وتارة ترتبط بها وطوراً تنفك عنها . ولأول مرة ينهض ثقل عربي مرتبط ارتباطا مصيريا بفلسطين . وبعد الحقبة السعودية والحقبة الرجعية الايرانية في المنطقة تنهض حقبة وحدة الهلال الخصيب . ولقد رأينا قبل إكتمال الوحدة ، وبمجرد قيام تفاهم دمشق وبغداد ، كيف انعقدت قمة بغداد العربية ونجحت في الوصول الى اجماع عربي لم يكن متوقعا ، حول رفض كامب دافيد ، رغم كل

---

(١) برقية العقيد القذافي في ٢٥/١٠/١٩٧٨ (الصحف في ٢٦/١٠/١٩٧٨).

محاولات الرجعية العربية تعطيل هذا الموقف الا انها اضطرت الى مجاراته حين أمسكت بغداد ودمشق بزمام الموقف العربي .

وهذا الموقف نفسه تكرر بصورة أكثر دراميتية في مؤتمر بغداد لوزراء الخارجية والاقتصاد العرب الذي فرض مقاطعة السادات بعد المعاهدة المصرية الاسرائيلية . وبرز تحالف دمشق ـ بغداد ـ المقاومة الفلسطينية كمؤشر لعصر جديد في العلاقات العربية وجرت الرجعية العربية جرا الى موقف الحد الادنى بضغط محور الهلال الخصيب .

ثم ان النفط الذي كاد في بعض الاحيان يطغى على فلسطين في معايير المصلحة الذاتية والثراء الذي بلغته بعض الدول العربية نتيجة ارتفاع أسعار النفط بعد حرب تشرين ، فحاولت فصله عن فلسطين والاستفادة من نتائج الحروب العربية ـ الاسرائيلية مجانا دون ربطه بها كأداة ضغط على الامبريالية في موقفها المنحاز والمتحالف مع الصهيونية ، النفط لأول مرة يرتبط خلال دولة الوحدة ، بفلسطين . فالعراق الدولة النفطية الغنية هي طرف أساسي في دولة الوحدة القومية على خط المواجهة مع العدو .

وهكذا يمكن تحويل الاستراتيجية النفطية لتتمحور مسألة فلسطين بكون دولة الوحدة والمجابهة القومية هي نفسها دولة نفطية ومن أركان أوبيك . وعندها فان ما فات بلادنا تحقيقه منذ ١٩٤٩ ، ازاء الاستثمارات النفطية من ربط بينها وبين مسألة فلسطين ، وما دعا سعادة الى التنديد بالمفاوض الذي عقد اتفاقية التابلاين دون وعي هذا الارتباط : « وتوجب الاشارة الى ان هذا الموقف الحازم الذي انتظرناه من المفاوض السوري كان يجب ان يدعمه موقف موحد الغاية والوسيلة في جميع الدول السورية وان يكون وراءه بالتالي تعاون بين سوريا كلها من جهة ، والدول العربية ، وثيق ، يسد في وجه الديبلوماسية الاجنبية منافذ الضغط والتهويل والمساومة »(١) ، ان هذا الموقف يمكن ان يتحقق الآن بقيام دولة الوحدة القومية ، فتكون المبادرة في يدها فترسم السياسة النفطية العربية التي تسد « في وجه الديبلوماسية الاجنبية منافذ الضغط والتهويل والمساومة » .

ولأول مرة في تاريخ العرب الحديث تقوم دولة تطل على المتوسط وفلسطين وعلى الخليج العربي في الوقت نفسه . وتصبح هي المسؤولة فعليا ، عن أمن المنطقة المشرقية كلها .

ان دور دولة وحدة الهلال الخصيب السوري العربي ، دور متشعب ومهم وخطير وان كان موضوع فلسطين هو موضوع الاستقطاب الاساسي . واذا كان ثقلها يفرض على الدول الرجعية الامتثال لموقفها نظراً لثقلها ، والحد من حرية تحرك هذه الدول المرتبطة بالمخططات الدولية ، لا سيما الاميركية ، فان ثقلها يشكل في الوقت نفسه سنداً متبادلا لدول الصمود والتصدي التقدمية العربية . فبين دولة الوحدة والثورات الليبية والجزائرية واليمنية مفروض ان يقوم التحالف الاستراتيجي الداعم للتحولات العربية الكبرى .

وحين ينهض هذا الحلف البترولي التقدمي بين دولة الهلال الخصيب والجزائر وليبيا يفرض على العالم العربي خطا تقدميا متصاعداً معاديا للاستعمار والصهيونية .

ومفروض ان تكون استراتيجية دعم وحدة المغرب العربي بقيادة قواه الثورية والتقدمية

---

(١) سعادة ـ مراحل المسألة الفلسطينية ـ « البترول سلاح انترنسيوني لم يستخدم بعد » ص ١٢٩ .

ودعم ثورة اليمن الديمقراطية في توحيد شطري اليمن ، بنفس الروح الايجابية التي حددتها برقية الاخ العقيد معمر القذافي لعاصمتي وحدتنا في الهلال الخصيب : « اننا لا نكتفي بلقاء قيادة سوريا والعراق فحسب بل ان المطلب القومي والرد التاريخي على الانتصار الذي أحرزته الصهيونية على القومية العربية بسقوط مصر واخراجها من المعركة القومية هو وحدة سوريا والعراق سياسيا وعسكريا » .

« ... ان الوحدويين في الجماهيرية يهمهم وحدة أي شعبين أو أكثر من شعوب الأمة العربية حتى لو لم يكن شعب الجماهيرية من بينها .. »

تبقى مهمة استعادة مصر الى الجبهة العربية والتي لا يحققها الا قيام ثقلنا القومي في الهلال الخصيب وسقوط كامب دافيد وممثليه في مصر .

دولة الوحدة والعلاقات الدولية

ان وحدة الهلال الخصيب على أساس الخط القومي المتصدي الثوري تشكل خللا كبيرا في حسابات الامبريالية والصهيونية وتقويضا للكثير من خططهما . فهذه الوحدة تتصدى لكامب دافيد وتسقط عمليا اتفاقاته . وهي تتصدى لوكلاء أميركا في المنطقة بثقل عربي جديد على غرار قمة بغداد لنزع المبادرة السياسية من وكلاء الولايات المتحدة . وهي في نظر الاستراتيجيين الاسرائيليين تشكل خطرا على المشروع الصهيوني في المنطقة . وهي عمق المقاومة الفلسطينية واللبنانية في وجه العدو . وهي ثقل نفطي مرتبط بفلسطين .

ان دولة الوحدة لها دور مميز في العلاقات الدولية . فهي جغرافيا تمتد من منابع النفط الى البحار المتنازع عليها استراتيجيا بين القوتين الاعظم . وهي ، على نقيض أكثر الدول النفطية ، غنية بالنفط ولكن أرضها خصبة للزراعة ، متنوعة مصادر الثروة وانسانها متقدم في الكوادر ونسبة التعليم على معظم الدول النفطية . تملك الموارد وتملك الانسان ، تحتل الموقع الاستراتيجي وبدأت تملك السلاح والقوة لصيانته . وقد بدأت في التصنيع وخطط الانماء .

ودولة الوحدة تمثل تبدلا نوعيا انطلاقا من القاعدة التي كررنا طرحها ، من ان تبديل المعادلة دوليا يحتاج اولا وقبل كل شيء الى تبديل المعادلة قوميا . فدولة الوحدة في العلاقات الدولية هي غير أوضاع التجزئة السائدة من قبل . وعلى أساس هذه الوحدة وقيامها يمكن النضال لاسقاط القرار ٢٤٢ عمليا « لأن تعديل ميزان القوى قوميا وحده يعدل ميزان القوى دوليا » .. فكيف وان دولة الوحدة قد قامت في أعقاب متغيرات أساسية في المنطقة تناولت سقوط صيغ لحلول واستنباط صيغ أخرى من قبل العدو الصهيوني الامبريالي .

ولقد مر في فصل سابق عن سقوط جنيف بانعقاد كامب دافيد . وبسقوط جنيف يسقط القرار ٢٤٢ الذي كان سيعقد في ظله . وينتفي البحث في بديل عن كامب دافيد بعد ان فسر الطرف الآخر ، الامبريالي الصهيوني ، القرار ٢٤٢ على أنه يقود الى كامب دافيد . وهكذا فالمنافذ الى القرار ٢٤٢ مسدودة من كل الجهات . سقوط جنيف وقيام كامب دافيد على السواء .

الا ان النقطة الجوهرية في الموضوع هي المتغيرات التي طرأت منذ ١٩٦٧ ، من جهة صدر القرار ٢٤٢ والعرب مهزومون والتجزئة تسود محيط فلسطين القومي والفلسطينون ما زالوا لاجئين ، وفي أعقاب فقدان الأمل بالذات بعد هزيمة منكرة مؤلمة مفجعة وكل هذا تبدل . فدولة الوحدة قامت في محيط فلسطين بعد ثورات تصحيحية ، والمعادلات الامبريالية سقطت في المنطقة، الواحدة بعد الأخرى. أين السنوسي ؟ أين الشاه؟ أين هيلا سلاسي ؟ أين عدن قاعدة الاسطول البريطاني من عدن الثورية الاشتراكية ؟ أين هزيمة ١٩٦٧ بعد حرب تشرين ولو اجهضت نتائجها سياسيا ؟ وأين اللاجئون وقد أصبحوا فدائيين ؟ أين حلفاء أميركا في المنطقة ؟

أين حلفاء اسرائيل ؟ وأكثر أين اسرائيل واميركا من ازمة الطاقة ؟

كل هذه المتغيرات وسواها تقوض كل ما استند اليه الحل الامبريالي الصهيوني من حيثيات .

هذا بالنسبة للظروف الموضوعية المتغيرة أما بالنسبة للجانب الذاتي من الموضوع فثمة اعتباران فاصلان .

أولهما ان الطرف الاميركي والاسرائيلي نفسه قد أجهز على جنيف بسلوكه مسلك المفاوضات المباشرة فلماذا لا يسقط القرار الدولي الذي كانت ستنعقد على أساسه ، خاصة ، ان جنيف كانت تمثل ــ والقرار ٢٤٢ ــ أقصى التنازلات العربية ، فهل نناضل في سبيل استعادتها أم يكون نكوص العدو عنها ايذانا لنا ، وفي ضوء المتغيرات في ميزان القوى القومية والدولية في المنطقة ، بالخلاص من أسار هذه التنازلات التي فرضتها ١٩٦٧ ؟

وثانيهما ان التصلب الاسرائيلي الملازم لطبيعة الكيان الصهيوني والمدعوم امبرياليا أكد بما لا يقبل الجدل ان اسرائيل كدولة استيطانية استعمارية عنصرية توسعية لا يمكن ان تقبل التصرف كدولة عادية في المنطقة وهي في هذا المفصل تحاول بدعم امبريالي تصفية قضية الشعب الفلسطيني كليا .

فاذا كان القرار ٢٤٢ انطلق من « حقوق » دولة الاغتصاب و« أمنها » ، بابتزاز العرب لاستعادة بعض أرضهم المحتلة مقابل تثبيت الاغتصاب ، فان المطلوب الان ، تأكيد سقوط القرار ٢٤٢ بكل ظروفه ومعطياته ، والانطلاق لا من مبدأ تثبيت الاغتصاب ، بل من مبدأ تثبيت حق شعبنا الفلسطيني في تقرير المصير على أرضه واستعادة شخصيته وكيانه الوطنيين، ومن حق الدول العربية باستعادة اراضيها انطلاقا من مقدمة القرار ٢٤٢ المتناقضة مع متونه ونصوصه والداعية الى عدم جواز الاستيلاء على أراضي الغير بالقوة سندا الى ميثاق الامم المتحدة بالذات والذي تناقض معه القرار ٢٤٢ وسندا الى قرارات الجمعية العامة اللاحقة التي أدانت الصهيونية كنزعة عنصرية ودعت الى تأكيد حق الشعب الفلسطيني في أرضه .

لقد طالب نائب الرئيس الرفيق صدام حسين في إحدى مؤتمرات القمة بالعودة الى مجلس الامن . وقد حصل التوافق السوري الفلسطيني على هذاالطلب في أكثر من تصريح رسمي .

فبعد كامب دافيد آن الاوان لاعادة النظر في أساس الموضوع . يبقى ان الحليف الدولي في هذا المجال هو الاتحاد السوفياتي . والاتحاد السوفياتي لا يمكن ان يأخذ المبادرة وغير

مطلوب منه ذلك ، لخرق القرارات الدولية ، ولكن ـ وهذه هي فلسفة الاعتماد على الذات التي تعود بالخير علينا وعلى الحليف ـ اذا ما استطاعت قوتنا خرق القرار ٢٤٢ فلن يتوانى الاتحاد السوفياتي عن مساندتنا ،. ولطالما اعطينا مثل بنغلادش على هذا السلوك السوفياتي في دعم الحلفاء .

لقد عقد كوسيغين الوفاق الهندي ـ الباكستاني في طشقند . ولكن عندما تنامت القوة الهندية وتحالفت مع السوفيات وانطلقت بقيادة انديرا غاندي الى بنغلادش وقف الاتحاد السوفياتي مع الهند ودعمها بالسلاح والغطاء السياسي ، وهي تسقط اتفاقية عقدت في ظل وساطته . فكيف اذا كنا نسقط قراراً دولياً انتهكته الامبريالية والصهيونية انتهاكاً مفضوحاً كما انه من الاساس من وضع سياسي بريطاني عجوز برع هو ومدرسته الديبلوماسية في صياغة قرارات تثبيت الاغتصاب المروتشة بالعناوين المهذبة ؟!

ان الاتحاد السوفياتي ، اذا ما عزم محورنا القومي في بغداد ودمشق مدعوماً من جبهة الصمود والتصدي على التقدم بقرار جديد يسقط القرار ٢٤٢ ، فسيكون أول الداعمين خاصة اذا اسند القرار الجديد الى حيثيات تندد بالمؤامرة الامبريالية الصهيونية المسؤولة عن الاسقاط العملي لذاك القرار .

واذا كان الفيتو الاميركي سيمنع مرور مشروع القرار الجديد فعلى الاقل سيصبح مشروع القرار الجديد ، حتى لو لم يمر في مجلس الامن ، وهو مؤهل ان يمر في الجمعية العامة ، العنوان السياسي الدولي الذي نستطيع ان نستظله في صراعنا القومي المحق .

ومن الطبيعي حين نتحدث عن ثقل استراتجي يتعاطى مع الاتحاد السوفياتي ان نركز من ضمن جبهة الصمود والتصدي على محور دمشق ـ بغداد . ان قيام وحدة بغداد ـ دمشق بحد ذاته قفزة نوعية في التوازن الاستراتجي يترجم عملياً بقرارات سياسية .

أما المسألة الثانية في علاقاتنا الدولية فهي في تحديد مفهوم الانحياز وعدم الانحياز .

ان دولة الوحدة تستطيع ان تحيي نهج عدم الانحياز في المنطقة خاصة بعد حصول التطورات الاخيرة في ايران . وعدم الانحياز لا يعني التساهل مع الامبريالية ، فالامبريالية الاميركية المعادية للشعوب وحقوقها ، والمعادية بصورة خاصة لشعبنا والمتحالفة مع الصهيونية ، والمرسلة وزير دفاعها للبحث مع اسرائيل في أمن المنطقة والمشترطة على الرجعية العربية ان تحالف اسرائيل حتى تدرأ عنها أخطار أعصار المتغيرات ، ان الامبريالية الناهبة مواردنا والمتحالفة مع عدونا القومي ، هي عدونا الذي لا يمكن الا ان نكون متحازين ضده ، والامبريالية الاميركية هي هنا المؤسسة السياسية العسكرية الاقتصادية لا الشعب الاميركي الذي يبقى توجهنا اليه ونضالنا لكسبه .

كما ان الاتحاد السوفياتي والمنظومة الاشتراكية التي وقفت دوماً الى جانب جبهتنا وأمدتها بالسلاح والدعم لا يمكن أن تعامل كما تعامل دول أخرى وقفت تتفرج على صراعنا أو اشتبكت معنا وناصرت عدونا . ان الفرز على الساحة الدولية ضروري : والحليف هو من ناصر حقنا وساند قضيتنا وأمدنا في ساعة الخطر بالدعم . والمنظومة الاشتراكية بقيادة الاتحاد السوفياتي هي حليفنا . ولكن ليست هي حليفنا الوحيد . وهنا يبدأ مفهوم عدم الانحياز . فكل حركات التحرر وكل الدول الوطنية في العالم الثالث ، وخاصة في دنيا الاغتراب حيث لجالياتنا فعالية وتأثير ممكن ان تكون صديقتنا . ودول عدم الانحياز من الهند الى أميركا اللاتينية

وبخاصة أفريقيا ، يمكن ان تقام معها أطيب العلاقات . وتبقى الدول الاوروبية الغربية لا بد من تعزيز الروابط مع دول المتوسط ، فهو بحرنا وحوضه مسرى حضارتنا منذ القديم .

وتشكل اليونان وايطاليا وفرنسا وأسبانيا ، كما تشكل يوغسلافيا دولا يهمنا كسب صداقتها أو الاحتفاظ بها سواء في المستوى الحكومي أو في مستوى الاحراب التقدمية فعدم الانحياز يعني التعاطي مع كل هذه المجموعة من الاصدقاء ولا يعني مساواة العدو والصديق ، أو التمييز بين صديق وصديق . وعلى أساس هذه القاعدة فنحن منحازون ضد الامبريالية الاميركية واذنابها ، وضد صنيعتها وربيبتها الصهيونية في منطقتنا . ونحن منحازون في صداقتنا للسوفيات لأنهم عبروا عن هذه الصداقة في مواقف عملية ولأن الوعي الانترسيوني بالاستراتجيات الدولية يأتي بمعيار المصلحة القومية وارتباطها بحركة التحرر القومي .

وعلى هذا الاساس موقفنا من الصين . ليس لأنها على خلاف مع الاتحاد السوفياتي وهو صديق ، بل لأنها وسعت خلافها الى حد التناقض مع ظاهرة حركة التحرر القومي بتحالفها مع الامبريالية والرجعية في العالم ودفاعها عن شاه ايران والسادات والرجعية العربية وموبوتو وتأييدها لكامب دافيد ضد مصلحتنا القومية .

تبقى نقطتان في استراتجية دولة الوحدة الدولية . أولاها العلاقة مع ايران . وفي رأينا ان الثقل الاستراتجي الذي انزاح من جانب أميركا واسرائيل الى جانبنا يصبح مضاعفاً اذا قامت أوثق العلاقات بين ايران ودولة الهلال الخصيب ، ويضيع ويهدر جزء كبير منه اذا زرع الاستعمار التناقض بينهما. ومنظمة التحرير الفلسطينية مدعوة للعب دور ايجابي في تقريب ايران من محور الهلال الخصيب من ضمن استراتجية قومية متكاملة تكون فيها منظمة التحرير الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية على اعلى درجات التنسيق والتحالف مع محور بغداد دمشق

اما النقطة الثانية ، فهذه القوة الخفية لعلاقات دولية مع معظم أقطار العالم ، يؤمنها تنظيم المغتربين من محيطنا القومي وبخاصة ابناء لبنان والشام وفلسطين ، وهم بضعة ملايين في أصقاع العالم من أقصاه الى أقصاه . ولقد كان ترفاً للحرب السوري القومي الاجتماعي ان يولي هذا الشأن منذ تأسيسه عناية خاصة فتمتد فروعه على مدى القارات وسط كل جاليات الاغتراب ، نواة للعمل القومي المهجري .

الا ان المغتربين ، وهم يرون نفوذ الصهيونية والامبريالية ، بحاجة الى تفاعل مع دولة قومية قوية يمدونها بجسور الصداقات الدولية وتعطيهم الحماية والهوية .

ختاماً ولأن الوحدة تنقض المؤامرة ، فهذه في سبق معها . هكذا على مر السنوات . رهاننا أن تسبق الوحدة المؤامرة التي تستهدف ، تحت أي ذريعة ، تثبيت التجزئة .

وندائنا إلى دمشق وبغداد ان تتجاوزا كل ما يعرقل الوحدة ، وهو حتماً طارئ ، بينما الوحدة هي القاعدة الثابتة للصمود القومي والتحرير .

الفهرست

الاهداء ٥
مدخل ٩
الجزء الأول: من هزيمة حزيران ١٩٦٧ إلى تلاشي جنيف في ١٩٧٧ ١٥

البـــاب الأول
عبر ودروس هزيمة حزيران ١٩٦٧

مدخل الباب الأول ١٩

الفصل الأول
هزيمة حزيران وقواعد العمل العربي

قواعد العمل العربي :

١ ــ الجبهة العربية ولدت في المعركة ، فلتبن على أسس ثابتة ٢٣
٢ ــ تجسيد الجبهة العربية في كيان سياسي ــ عسكري ــ إقتصادي ٢٤
٣ ــ الجبهة الشمالية . وحدة جيوش الأردن والعراق والشام
طريق الانتصار في الجولة المقبلة ٢٥
٤ ــ وحدة البيئة وتحالفها العسكري ــ السياسي مع مصر ٢٧
٥ ــ وحدة السودان ومصر قوة للجبهة الجنوبية ٢٨
٦ ــ لبنان المستقل مرتبط مصيريا ببيئته وعالمه العربي ٢٩

إستراتيجية الصراع القومي عالميا :

أ ــ تصليل العدو الاعلامي يرد عليه بالتحقيق قبل الكلام ٣٠
ب ــ أبعاد المعركة دوليا ٣١

١ ـ تصفية اثار العدوان ٣١
٢ ـ اساليب العدو لتشويه حقيقة المسألة الفلسطينية ٣٢
٣ ـ الفصل بين المسألة اليهودية العالمية وبين الحق القومي في فلسطين ... ٣٢
٤ ـ فلناخذ المبادرة الاعلامية في عرض حقيقة العقدة اليهودية من العالم .. ٣٢
٥ ـ الليبرالية الغربية في محنة كبرى سببها الاخطبوط الصهيوني ـ الامبريالي ٣٣
٦ ـ حل جذري إنساني للمسألة اليهودية ٣٣
٧ ـ جولة صعبة في العالم الثالث قوامها التخطيط والتنظيم ٣٥
٨ ـ لننقل المعركة الدبلوماسية إلى قلب الغرب ولنعمل على ربح قلاعه الروحية ٣٦
٩ ـ في سبيل حوار مع الفاتيكان ٣٧
١٠ ـ دور البطريركيات الانطاكية ٣٧
١١ ـ الاماكن المقدسة والعالم الاسلامي ٣٨
١٢ ـ جزء من تراثنا ٣٨
١٣ ـ الصداقة السوفياتية ثمينة جداً لكن مظلتنا الحقيقية في قوتنا الذاتية ٣٨

ـ لا يغلب النظام إلا نظام افضل :

لا ثورة بدون جيل جديد ٣٩
مجابهة الصهيونية بفلسفة شاملة ٤٠
التعبئة الكاملة ٤١

الفصل الثاني

فلسطين أبعد من الحل السياسي والحل العسكري

الحل السياسي في المستوى الدولي ٤٣
رصيد المعركة والحل السياسي ٤٤
المسؤولية على عشرين سنة ٤٥
الثورة المصرية أمام تحديات النكبة ٤٧
الحلقة المفقودة في الثورة المصرية ٤٨
معضلة الفكر الثوري ٥٠
ظاهرة ٩ حزيران والحزب الثوري ٥٢
... والحل العسكري يفتقر إلى الحل الجذري ٥٤
ما لم يحدث إنقلاب جذري في الحياة العربية ٥٦
في سبيل الحل الجذري محاولة الدكتور زريق ٥٧
كيف يتحقق الحل الجذري ٥٩
بين تغيير الأوضاع وتغيير الانسان ٦٠
أساس الثورة الشاملة ٦٣
الروح النضالي والعقلية الاخلاقية ٦٦
الحزب الثوري . جبهة مناقبية جديدة ٦٧

القاعدة العقدية للكفاح القومي ٦٨
إرتباط الكفاح القومي بالأرض ٦٩
الثورة الاجتماعية مرتكزة على القضية القومية ٧١
معرفة العدو بعد معرفة الذات ٧٣
نقص وجهات النظر السائدة ٧٦
كفاح العدو المزيف ٧٨
البناء المتين الذي لا يفهمه المستعجلون ٧٩
بيان ٢٠ مارس ٨٠

الفصل الثالث
في ذكرى النكبتين ١٥ أيار و ٥ حزيران

صوت من التاريخ ٨١
معركة الحق القومي في فلسطين أبعد من إزالة آثار العدوان الأخيرة ٨٢
نتلاقى مع الثوريين المخلصين في رفض التسويات ٨٣
ما لم تقم حركة قومية منظمة ٨٤
الصهيونية تجد جذورها في اليهودية ٨٥
تصادم روحنا الحضاري المنفتح مع الروح اليهودي المتقنفذ ٨٦
المسألة اليهودية . ظاهرة شذوذ عنصرية ثيوقراطية عصيت على كل المجتمعات ٨٦
الحل الانساني العادل للمسألة اليهودية الشاذة في العالم ٨٨
حل المسألة الفلسطينية هو في دفع الهجرة اليهودية وتحرير فلسطين ٨٩
معركتنا ضد إسرائيل معركة قومية مصيرية لها أبعادها الاجتماعية ٩٠

الباب الثاني

المقاومة ومؤامرات التسوية ١٩٦٧ ـ ١٩٧٧

مدخل ٩٣

الفصل الرابع

المقاومة والنظام الأردني ١٩٧٠ ـ ١٩٧١

حتى لا تتكرر مأساة الأردن ست حقائق دامية من عمان
القسم الأول الحل السلمي والتناقص الكبير ٩٥
الحقيقة الأولى . رفض الحل السلمي ٩٦

القسم الثاني : الكيانية المناقضة لحرب التحرير ....

الحقيقة الثانية . دور الجيوش والمقاومة في حرب التحرير ٩٨
الحقيقة الثالثة : كيانية ضمن الكيان الأردني ١٠٠
الكيانية على صعيد البيئة المحيطة بفلسطين ١٠٢

القسم الثالث : حول مضمون حرب التحرير.. .. ..

الحقيقة الرابعة . المقاومة بين كفاح العدو والاصطدام بالأنظمة . من المسؤول؟ . ١٠٣

القسم الرابع : في إستراتيجية حرب التحرير ....

الحقيقة الخامسة : في مواجهة الاستراتيجيات الدولية المتآمرة ١٠٥
الحقيقة السادسة : الجبهة الثورية على مدى البيئة الطبيعية ١٠٧
ملحق . الأحداث الأخيرة في منظور هذه الدراسة ١٠٨

الفصل الخامس

حقوق الشعب الفلسطيني فخ ديبلوماسي أم حق ثوري ؟

مدخل ١١١

ـ « حقوق الشعب الفلسطيني » فخ ديبلوماسي أم حق ثوري؟ ١١٤
بين ٤٨ و ٧٦ ... . ١١٤
كيان مقلوع الجذور ١١٦
حرج المقاومة ١١٦
حقائق أساسية ١١٧
الخميرة القومية الثورية ١٢٠

ـ مع الثورة في الأمم المتحدة:[مظلة لكفاحها لا وصولا الى جنيف] ١٢٢
ـ تحطيم ميزان القوى الراهن .
حتى ننهض من مطبات التسوية إلى إستراتيجية التحرير ١٢٦

ـ القرار ٢٤٢ و« العقدة الفلسطينية » ١٢٩

الباب الثالث

حرب وجود لا حرب حدود

مدخل . الأبعاد والمضامين (مجموعة دراسات) ١٣٣

الفصل السادس

أيلول ١٩٧٤ : الرد على أطروحات الدكتور مالك حول الاندماج باميركا واسرائيل

أولا : الدكتور مالك في مناخ الطلاسم والأسرار يرفع ووترغيت من الوحلة الى الهالة ولكنه يسقط في التناقض الذاتي ١٣٥

لماذا الامكان الرابع ؟ ١٣٦
أسرار وطلاسم أم مشكلة نظام ؟ ١٣٧
هل نيكسون شهيد ؟ ١٣٨

ثانيا : هل أزمة النظام الامريكي هي صراع « ايديولوجي » بين الجمهوريتين والديمقراطيين أم أزمة الاجتهادات والتناقضات الاجتماعية وتخلف الصورة الليبرالية عن تحديات العصر الحديث ١٣٨

أروع تناقض روحي نفسي ١٣٩
الفردوس المنشود ١٤٠

ثالثا : أميركا المعروضة في التحليل المالكي هي حضارة وقيم وتقدم ورعاية أبوية للشعوب والامبريالية الاميركية تعبير ومفهوم محرمان عند الدكتور مالك :

أميركا والعالم العربي ١٤١
ثروات العرب و« القيم » الأميركية ١٤٣
التفاعل الحضاري في ظل مظلة الامبريالية ١٤٤
غرباء عن العالم ١٤٥
كيف نؤثر على الكونغرس ١٤٥
أتراها جاهلة ؟ ١٤٧
قطاع محصور ١٤٧
وثنيات السبت ضد الانسان ١٤٨
أميركا والعالم الثالث ١٥٠
أميركا والاتحاد السوفياتي والصين ١٥٢
التناقضات الاوروبية ــ الاميركية أبعد من « سوء تفاهم مع كيسنجر » ١٥٣
ضد الامبريالية وليس ضد الشعب الأميركي ١٥٤
الدعوة إلى الاندماج باسرائيل ١٥٤
حروب التحرير القومية ١٦٠

الفصل السابع
المسألة الفلسطينية على المفترق الخطير

أولا : مفهوم الحرب والسلم من زاوية نظر الامبريالية ١٦٣
ثانيا : تراوح الامبريالية والصهيونية ١٦٥
ثالثا : التعايش السلمي والاتحاد السوفياتي ١٦٦
رابعا : اليسار الاوروبي المتصهين ١٦٧
خامسا : العالم الثالث ١٦٨
سادسا : حربنا التحريرية القومية والمنعطف الخطير ١٦٩

ـ لكل سؤال جواب :

ما هو رأيكم وموقفكم من السلطة الوطنية ؟ ١٧٥

الفصل الثامن
حرب وجود لا حرب حدود ١٧٧

الفصل التاسع
جنيف ومواقف الأطراف والطريق المسدود

الانطلاق من القرار ٢٤٢ .... ١٨٩
حرب تشرين وملاشاة نتائجها ١٩٠
أ ـ المواقف العربية وجنيف
١ ـ موقف الرهان الكلي على أميركا . مصر والسعودية ١٩٣
٢ ـ الموقف المتوازن دوليا والساعي لجمع قوة قومية . دمشق ١٩٤
٣ ـ موقف المقاومة الفلسطينية : منظمة التحرير ١٩٥

ب ـ موقف العدو الاسرائيلي .
أولا : مفهوم الصلح التعاقدي والحدود المفتوحة والآمنة ١٩٧
ثانيا : مفهوم الهجرة الاستيطانية القائمة على الأرض دون سكان ١٩٧
ثالثا . مفهوم النموذج الوبائي للمنطقة ١٩٨

ج ـ المفهوم الأميركي الامبريالي ١٩٨
د ـ الموقف السوفياتي ٢٠٠

الجزء الثاني : الاستسلام والرد على الاستسلام ٢٠٣

الباب الرابع
الاستسلام من خطب الكنيست إلى وثائق كامب دافيد

الفصل العاشر
من نظرية بن غوريون ١٩٤٨ إلى زيارة السادات ١٩٧٧

١ ـ إسقاط مقولة الصراع ضد الاغتصاب الصهيوني الاستيطاني والتعامل معه كدولة مجاورة في المنطقة ٢٠٩
٢ ـ الرهان على الامبريالية يقود إلى السقوط في قبضة الصهيونية ٢١٤
٣ ـ المباراة في الكنيست الاسرائيلي ٢١٨

المقولات الساداتية الساقطة ٢١٨
الحاجر النفسي والمشكلة النفسية ٢١٨
الدولة اليهودية المحدودة ٢٢٠
المقولات الصهيونية ٢٢٤
خطاب مناحيم بيغن الصافع ٢٢٤
كلمة « المعارضة » الاسرائيلية ٢٣٢

الفصل الحادي عشر
الساداتية

ــ عودة إلى نهج الدولة المصرية قبل عبد الناصر .

سيناء والنفط لا فلسطين والقدس ٢٤١
الاقتصاد المصري مقطوراً الى الانفتاح والرساميل العالمية ٢٤٤
سيناء والمشاريع المشتركة ٢٤٨

الفصل الثاني عشر
الطريق المسدود والتعويم الامبريالي

الأوهام الذاتية الساداتية ٢٥٢
إجماع صهيوني على الاستيطان الاستعماري ٢٥٤
تبريرات ساداتية لمطامع صهيونية ٢٥٧
الاعتراف مشروط بالتسليم بطبيعة الكيان الصهيوني ٢٦٠

ــ التعويم الامبريالي للساداتية .

جذور خطوة السادات ونهجه الاستسلامي ٢٦١
التحركات الأخيرة للأمبريالية الأميركية ٢٦٤
ماذا يعني عدم المس بأرض الغير ؟ سيناء لا فلسطين ! ٢٦٥
« إعلان المبادىء » هو الاطار للحلول المنفردة والصلح المفتوح الحدود ٢٦٧

الفصل الثالث عشر

مصالح الأمن الامبريالي : النفط العربي والأرصدة العربية
مناقشة وثائق السياسة الاميركية « إزاء الشرق الأوسط »

*** ساندروز ــ أثرتون ــ كواندت ــ بريجنسكي ***

الوثائق الأميركية : محوران لموضوع الثروات العربية ٢٧٣

الفصل الحادي والعشرون

حرب الجنوب نكسة للجيش الاسرائيلي ٣٩١

الفصل الثاني والعشرون

ثورة شعب فلسطين : إسقاط الحكم الذاتي وانبعاث الشخصية الوطنية في أراضي ١٩٤٨

١ ـ إسقاط مشروع الحكم الذاتي ٤٠٨
٢ ـ الانبعاث الوطني في أراضي ١٩٤٨ .... ٤١٤
٣ ـ خطط الاستيطان ٤١٦

الباب السادس

الرد على الاستسلام ١٩٧٧ ـ ١٩٧٩

الفصل الثالث والعشرون

مقولات سعادة : علم الوجود للحفاظ على الوجود في زمن حرب الوجود

I ـ الوجود الأرض والانسان ٤٢٥
II ـ الاستيطان الصهيوني خطر على الوجود ٤٢٨

في القسم الأول سعادة وحدوي ضد التجزئة ولكنه في الوحدوية ثوري ٤٢٩
برغماسية سعادة مشدودة إلى مبدئيته ٤٣٠

القسم الثاني إرتباط مقولة الوحدة السورية بالتحرير في مواجهة
خطر الاستيطان الاستعماري المهدد الوجود القومي من الأساس ٤٣١
وجودنا نحن معرض لخطر المحق ٤٣١
الخطة القومية التوحيدية الدقيقة المعاكسة للمشروع
الصهيوني في تفتيت مجتمعنا القومي ٤٤٠

الفصل الرابع والعشرون

منذ سيكس ـ بيكو لعنة التجزئة في الهلال الخصيب

صيحة الوحدة بعد ١٩٤٨ وثابت القطيعة والانفصال ٤٤٧
كلام دو وزن تاريخي ينتظر صيغة التحقيق العملي ٤٥١
الموقف الامبريالي الصهيوني المعادي للوحدة ٤٥٢
السياسة السعودية المناوئة للوحدة ٤٥٣
عبد الناصر والوحدة ٤٥٤
بعد غياب عبد الناصر الاتحاد الثلاثي وبداية حكم السادات ٤٦١
أسئلة امام دول الاتحاد ٤٦٢

الفصل الخامس والعشرون

لقاء الحركة القومية العربية والحركة السورية القومية الاجتماعية حول وحدة الهلال الخصيب والجبهة العربية المعادية للاستعمار ٤٦٧

الفصل السادس والعشرون

جبهة الصمود والتصدي : وثائق طرابلس والجزائر ودمشق

١ ـ ثورة الفاتح وتحركها الوحدوي الاستراتجي والالتزامات ٤٨٤
٢ ـ مع ثورة المليون شهيد وثوار البوليساريو . مبادرات جزائرية دعماً لوحدة بغداد ودمشق ٤٩٠
٣ ـ ثورة اليمن الديمقراطي ٤٩٣
٤ ـ هذه الثورات الثلاث واسترجاع مصر للعروبة ٤٩٤
٥ ـ وثائق طرابلس الثلاث تؤكد هذا المنحى ٤٩٧
المأزق الفلسطيني والتسوية ٤٩٩
دمشق وحدود التسوية : لا إعتراف ولا صلح ٥٠٧
قمة الجزائر خطوة على طريق الخط السياسي ٥١٠
١ ـ الاستراتجية المعادية للامبريالية في جبهة هجومية ٥١١
٢ ـ رسم الخط الأحمر قومياً ٥١٢
« السلام العادل » وموت جنيف ٥١٣
قمة دمشق ٥١٨
١ ـ تعميق الفرز دولياً والعداء لأميركا ٥١٨
٢ ـ أهمية دور الشام الفاصل في إحباط التسوية التصفوية ٥١٨

الفصل السابع والعشرون

ميثاق العمل القومي بين بغداد ودمشق

إيذان فجر جديد من التكامل القومي ونتائجه محلياً وعربياً ودولياً

ـ دورة الحياة ووحدتها الاجتماعية الاقتصادية ٥٢٤
ـ الفكر الوحدوي والوحدة السورية ٥٢٦
صحافة الامبريالية والوحدة ٥٣٤
الجزء الصهيوني من الوحدة ٥٣٦
دولة الوحدة والساحة الفلسطينية ٥٣٨
دولة الوحدة والساحة اللبنانية ٥٤٢
الوحدة وباقي الكيانات السورية ٥٤٧
دولة الوحدة والتضامن الجبهوي العربي ٥٤٩
دولة الوحدة والعلاقات الدولية ٥٥١

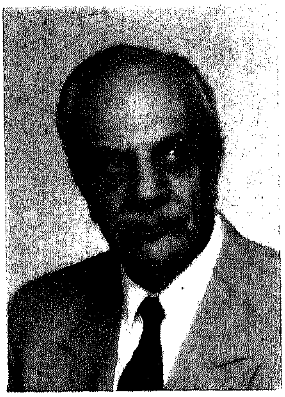

إنعام رعد في سطور

- ولد في عين زحلتا – قضاء الشوف في 8 شباط 1929.
- والده توفيق رعد الصيدلي المتخرج من الجامعة الأميركية في بيروت في العام 1901 والمهاجر لبضع سنوات إلى أوستراليا والعائد إلى لبنان عاملاً في السياسة والصحافة، والدته أسما، تزوج من ليلى داغر ولهما ثلاثة أولاد: عصام، آمال وإلهام.
- إنتمى إلى الحزب السوري القومي الإجتماعي عام 1944 وتحمل عدة مسؤوليات حزبية بقيادة الزعيم المؤسس أنطون سعادة وصولاً إلى ترؤسه الحزب أربع دورات.
- حائز على بكالوريوس في العلوم السياسية والإقتصادية من الجامعة الأميركية في بيروت العام 1949.
- قدّم إمتحانه وهو في السجن، إثر الثورة القومية الأولى العام 1949.
- عضو نقابة الصحافة اللبنانية.
- عضو نقابة المحررين.
- عضو إتحاد الكتاب اللبنانيين.
- تحمل مسؤوليات مركزية عديدة منها: عميد للإذاعة والإعلام وعميد للخارجية وذلك منذ العام 1957 وانتخب عضواً في المجلس الأعلى منذ 1954 حتى وفاته.
- إنتخب رئيساً للحزب في العام 1975، ثم أعيد انتخابه في العام 1980 وأعيد انتخابه للمرة الثالثة في العام 1992، ثم للمرة الرابعة في العام 1995.
- منح وسام سعادة في العام 1977 وهو أعلى وسام شرف في الحزب تقديراً لحسن قيادته.
- من مؤسسي المجلس السياسي للحركة الوطنية اللبنانية في العام 1975.
- إنتخب نائباً لرئيس الحركة الوطنية 1975 – 1982.
- مثل الحزب في جبهة الخلاص الوطني (1983 – 1984) وفي عضوية الجبهة الوطنية الديمقراطية (1984 – 1985).
- شارك في وضع البرنامج المرحلي للمجلس السياسي المركزي (1975)، كما شارك في وضع برنامج الجبهة الوطنية الديمقراطية (1984) وجبهة الإتحاد الوطني (1986).
- شارك في تأسيس منظمة الأحزاب التقدمية والإشتراكية في حوض البحر الأبيض المتوسط في العام 1976.
- أحد مؤسسي وقياديي اللجنة العربية لمكافحة الصهيونية والعنصرية وترأسها.
- مثل الحزب في العديد من المؤتمرات السياسية العربية والدولية.
- على أثر المحاولة الإنقلابية التي قام بها الحزب عام 1961 إعتقل مع عدد كبير من رفقائه، فحكم عليه بالإعدام ثم خفض إلى المؤبد إلى أن أصدر رئيس الجمهورية شارل حلو عفواً عن المسجونين القوميين في أوائل العام 1969.
- زار المغترب القومي بين العام 1959 و1995 في جولات متعددة حيث ألقى محاضرات في جامعات هارفرد، جورج تاون، وفي لندن، منها محاضرة في مجلس العموم بدعوة من مجالس الشرق الأوسط في الأحزاب البريطانية الثلاثة في العام 1981. كما حاضر في العام الماضي في جامعة ملبورن وحاضر في العديد من النوادي الفكرية ونوادي الجاليات السورية والعربية.
- من مؤلفاته: حرب التحرير القومية (1970)، المنطلقات الفكرية الإستراتيجية الثورية (1976)، حرب وجود لا حرب حدود (1979)، أنطون سعادة والإنعزاليون (1980)، كامب ديفيد وملاحقه الأوروبية الأمريكية (1980)، المواجهة القومية على الساحة اللبنانية (1982)، المؤامرة في طورها الأخير (1989) والصهيونية الشرق أوسطية (1997).
- وافته المنية في 27 شباط 1998 حيث كان يعالج في الولايات المتحدة الأمريكية إثر إصابته بمرض عضال.